

آل بودنبروك

تأليف

توماس مان

ترجمة
محمود ابراهيم الدسوقي

راجعه
الدكتور عبد الرحمن بدوي

ملتزم الطبع والنشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع كامل صدقي بالفجالة - القاهرة ت ٤١٤٥٥

هذه ترجمة الجزء الأول من كتاب

Buddenbrooks

تأليف : Thomas Mann

آل بودنبروك

باشراف
ادارة الثقافة العامة
وزارة التربية والتعليم
(الاقليم الجنوبي)

تصدر هذه السلسلة بمعاونة

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية



آل بودنبروك

تأليف

توماس مان

ترجمة

محمود ابراهيم الدسوقي

راجعه

الدكتور عبد الرحمن بدوي

ملتزم الطبع والنشر

المؤسسة العربية الحديثة

للطبع والنشر والتوزيع

١١ شارع كامل صدقي بالفجالة - القاهرة ت ٤١٤٥٥

هذه ترجمة الجزء الأول من كتاب

Buddenbrooks

تأليف : Thomas Mann

تقـــديم

فى العقد الذى يضم ما بين سنتى ١٨٧٥ و ١٨٨٥ أنجب القرن التاسع عشر نخبة من الموهوبين الألمان لم يكد يسلمهم إلى القرن العشرين حتى ظهرت آثارهم ، فأحرز أحدهم جائزة نوبل فى الأدب فى سنة ١٩٢٩ على ما ابتدعه فى سنة ١٩٠١ . وحاز ثان نفس الجائزة فى سنة ١٩٤٦ . فأما الأول فتوماس مان . وكان وكده فى القصة وكد بقية هؤلاء الموهوبين . أن ينشىء وسائل الواقعية والانطباعية أمام عالم كان الإحساس باهتزازه فى الظاهر والباطن يزداد على مر الأيام ، ويشتد إلحافه فى مطالبة الإنسان بالتنبه لكيانه ومآله على الدوام .

والقصة منذ كتب بلزاك كوميدياه الإنسانية تعكس مشاكل المجتمع الحضرى وتطوره ، وترسم كيف يتحرر الإنسان من كل الأوهام ، وكيف يتبين الخطر السياسى والاجتماعى مهدداً أساس حياته ، وكيف يساوره التشكك فى وجود الخالق ، ثم كيف هو مع ذلك يعنى أكبر عناية بالقيم الإنسانية والدينية على السواء .

وقصة آل بودنبروك معرض للفن . وتمر فى معرض الفن بمختلف الصور فتمر ببعضها عبورا ، وتقف ببعضها طويلا مبدوها . وقد تستبشع فيما تشهد جميلا أو تستحلى بشعاً لما فى الجميل والبشع من معان تمت إلى الخير والشر . وهذه الانطباعات ينفعل بها الخبير الملم . وهى ترجع فى الغالب إلى مبلغ ما فى الصورة من صدق الأداء وأمانة الرسام ودقته وصرامته وانفعاله الأصـيل بما صور أو ما تصور . وقد يكون ثمة قبيح لكنه حقيقى ، أو جميل لكنه كاذب . وقد تعكس الصورة منظر جريمة فيكون فى صدق الأداء جمال لا يشوهه قبح الجريمة ومن هنا التفريق بين الواقع ورسم الواقع ، بين بشاعة الواقع وجمال الأداء تمثيلا ورسما . فالفن جميل حقا مهما أوحت صوره ، والمستحدث من الرسم الهزلى والمحاكاة الهزلية فعلى قدر ما يصحبه من عناصر الصدق

يكون جماله . والتسميع والتشهير والتشنيع إذا دخل الفن كف عن أن يكون فناً ، لأنه يكف عن أن يكون حقيقة ، ومن ثم عن أن يكون فنا جميلا ؛ وليكن الرسام فى هذا موهوبا ، وليكن الكاتب عبقرياً ، وليكن الأسلوب أخاذا ، فإن ماتعرضه الصورة يكون قبيحاً ، ولا يستسيغ القبيح الا مريض .

وقصة آل بودنبروك تعالج موضوعات خالطت حياة توماس مان وتصف تداعى الطبقة الوسطى ، ورهافة حس فنانها الذى أقعده هذا الحس المرهف عن مجابهة الحياة لما تبينه من تنافر الحياة والفكر وما اتسما به من انقسام . وتوماس مان حين يحكى يصدق ، وحين يكتب يلطف ويسهب فى يسر ، ويتهكم تهكما لذيذا ينساب فى كتابته ويمتع قارئه ، فهو يجتمع فى « آل بودنبروك » بأكمله متفتح لفن اللغة يغمرها بألمعيته فى التحليل النفسى ويشيع فيها رصانته ويميزها بأمانته ودقته فى نقل الايقاع وعرض السلوك .

وأسلوب توماس مان وتأليفه فى رأى الأدب العالمى والأدب الألمانى ، فى رأى إروين لاتس Erwin Latths مؤلف « تاريخ الأدب العالمى » لناشره كناور Knauer وفى رأى ف . جرابرت W. Grabert و ا . مولو A. Mulot مؤلفى « تاريخ الأدب الألمانى » قد بلغا ذروة الكمال الفنى فى قصة « آل بودنبروك » إذ جاوزت القصة محيطها الألمانى إلى المحيط الأوربى ، وعادت فى وقت مبكر وزهرة عمر لايتجاوز السادسة والعشرين بجائزة نوبل . وهو فى هذه القصة يكاد يلتزم فى تشكيل شخصياته وبيئاتهم نماذج بعينها كل الالتزام وهو تشكيل لم يتكرر فى غير هذه القصة بهذه القتامة وهذه الزخرفة فى الحياة . ومعظم الكتاب يلتزمون مادة واحدة يقصرون عليها رسالتهم بوصفهم القديرين وحدهم على أدائها ، لكن توماس مان قد تعددت مواده وتعددت جوانبه ، ولا بست أعماله انطباعات ذهنية مقررة ترجع إلى جوته وفاجنر وشوبنهاور ونيتشه .

***

ولد توماس مان فى سنة ١٨٧٥ فى أسرة من أسر الخاصة بمدينة لوبيك ، وعاش كاتبا حراً فى ميونيخ . فلما تولى النازيون حكم ألمانيا فى سنة ١٩٣٣ هجر بلاده إلى سويسره ، ثم عن له أن يهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى سنة ١٩٣٩ فأقام فيها إلى سنة ١٩٥٢ بولاية كاليفورنيا ، ثم عاد إلى سويسره وبقى فيها إلى أن وافاه الأجل فى سنة ١٩٥٥ . وقد حصل فوق جائزة نوبل على جائزة جوته فى سنة ١٩٤٩ .

ولتوماس مان قصص كبرى وصغرى ، ومن قصصه الكبرى القصة التى نقدم لها الآن . والسنة التى هاجر فيها من ألمانيا وهى سنة ١٩٣٣ تقسم أعماله إلى قسمين ، وتجعل منها مرحلتين . الأولى تضم « آل بودنبروك » و « صاحب السمو الملكى » و « طونيو كروجر » « والموت فى البندقية » ثم « جبل السحر » . أما بعد سنة ١٩٣٣ فجاءت « قصص يوسف » « ولوته فى ڤايمر » و « الدكتور فاوستوس » و «المختار» و«فيلكس كرول» . وفى «آل بودنبروك» التى نشرها توماس مان فى سنة ١٩٠١ يصف مان تداعى أسرة من أسر التجار فى لوبيك ضمت أربعة أجيال، أولها متأصل فى القرن الثامن عشر ، يعيش فى جو روكوكى[1] مستنير ، حر الفكر ، والثانى جيل من الأماجد يتحلى بالتقوى وباستعداد للتجارة ؛ والثالث جيل السناتور توماس بودنبروك المتأثر بشوبنهور وبرأيه القائل بأن الحياة ألم ، وإلى جانب السناتور أخوه كريستيان البوهيمى النزعة والسلوك . وفى النهاية جيل الفتى هانو بن توماس ، ذلك الغلام الرقيق الذى فارق الدنيا مبكراً ، وانقلبت عنده إرادة الحياة عجزاً مضنيا عن الدفاع عن النفس فى وقت كان فيه ذهنه يلطف ويسمو بالموسيقى والفن .

ويلى « آل بودنبروك » فى جلال الشأن قصة « جبل السحر » التى أحرز بها شهرة

---

(١) الروكوكو طراز معمارى نشأ فى القرن الثامن عشر وتميز بطغيان الزخرفة على الفكرة المعمارية والإسراف فى المنحنيات وافتعال الأطر من حول النوافذ والأبواب .

عالية ، وأحس فيها عصره مريضاً ، والحضارة منحلة فى حياة صورية طيفية ، والناس يفقدون ما ننعته نحن بالقيمة الإنسانية ، فأراد أن يسجل بقصته وثيقة بحالة أوربا النفسية ومشاكلها الفكرية فى الثلث الأول من القرن العشرين .

وفى قصتى « طونيو كروجر » و « الموت فى البندقية » — وقد كتبهما قبيل الحرب العالمية — يبدو التوتر بين الفنان والحضرى رجل الطبقة الوسطى ، بين الفكر والحياة. ومن أمارات العبقرى أن تهفو نفسه إلى دفء الدم فى الوجود البسيط فى الوحدة والتخلى عن الاشتراك المباشر فى الحياة ، يواتى بهما موهبته الفنانة ، الملاحظة ، الحساسة ، فهو يقول فى « طونيو كروجر » إن العادى والقويم والخفى هو ما تنشده النفس فى الحياة وتهفو إليه ، فهذه هى الحياة فى رخصها المغرى ، وإنه ليس بفنان من لايعرف الشوق إلى ما هو مأمون الجانب ، عديم الأذى ، بسيط ، حى ، ومن لا ينشد القليل من الصداقة ، والتفانى ، والعلاقة الحميمة ، والهناء الإنسانى : لكن الأمر لا يصل مع توماس مان إلى تسوية ، لأن هذا الشوق يصاحبه فى نفس الوقت ازدراء خفى لهناءات الشىء العادى ، المقدرة الرخيصة على الحياة. وهكذا يشعر الفنان برسالته مزيجا من العظمة واللعنة فيبقى حضرياً ضالا .

ويتابع توماس مان فى شيخوخته ما بدأه فى غيرها من مراحل عمره ويحوره، لكن تحليله لتداعى الطبقة الحضرية، الطبقة الوسطى ، ونقده للحضاره ، وسيكولوجية الوجود الفنى يصبح فى ذلك الحين صورة سامقة فى إطار كبير وليس معنى ذلك فحسب أن تزخر أعمال توماس مان التالية بمعرفة عامة ، بل أن يتساءل أيضاً عن القوى الأساسية والأحوال الأصلية للأخلاق والدين . وقد جعلت أوهامه تتبدد ، وانقشع ارتيابه فى أن أساس العالم من عمل الشيطان . وقد كان ما تكشف له فى الصميم هو أن الحياة غامضة ، والحى متناقض . أمر أبدى فيه توماس مان فراهة لغوية عديمة المثال فيما كتب الألمان فى الوقت الحاضر .

وساقته قصة « يوسف وإخوته » إلى حيث تتجلى أصول الأحداث فى حياة

الإنسان من حب وبغض ، وبركة ولعنة ، وشقاق بين الإخوة ، وعذاب الأب ، وغطرسة وكفارة ، وهبوط وصعود . فهو يفسر تاريخ العقيدة الحضارى بالتاريخ الطبيعى للانسان ، ويفسر الأساطير بعقررات السيكولوجية الحديثة ، وهو يهبط بنا من سحاب الأسطورة إلى الحقيقى المعقول فى الحياة .

وهكذا يعالج توماس مان فى كل سفر من أسفاره مادة وموضوعاً ، وتتعدد بهذه المعالجات جوانبه حتى يصل إلى جوته العظيم فلا يبديه لنا فى تجليه السنى ، وكماله الإنسانى ، بل يحوطه بريب يسلط عليها أضواء تهكمه لتبدو أكثر مواتاة للحقيقة منها لما بلغ جوته من سمو.

ولعله من المفيد أن نورد موقف توماس مان فى علم الأخلاق وعلم الجمال . فهو يمثل الخلاف بين البورجوازى والفنان . وقد لبث دائما معلقا بين الاثنين توازنه إرادته لمزاولة الفن بوصفه الصورة المثلى لمزاولة الحياة . وقد وسع شقة هذا الخلاف شغفه بتحرى الصلات بين المرض والعبقرية فأسرف فى هذا التقصى ثم لم يلبث أن اطرحه . وقد اتخذ هـذا الخلاف بين الحضرى والفنان صورة الخجل الذى تمليه الأخلاق ، وعدم الخجل الذى يجيزه الجمال . ولكى يسوى توماس مان هذا الخلاف لجأ إلى المحاكاة الهزلية التى تكون فى الحالات الناجحة فكاهة لكنها تكون أحيانا تجديفا .

***

وبعد فهذه لمحة عن توماس مان قبسناها من مصادرها ، ورجعنا فيها إلى رأى مواطنيه ومؤرخيه أكثر مما رجعنا إلى رأينا الشخصى . ولا نحب أن نزيد عليها الا كلمة واحدة ، فقد يعنى القارىء أن يعلم أن أسلوب توماس مان على جماله ، عزيز على الترجمة عزة منيعة ، وأن هذه الترجمة التى نضعها بين يدى القارىء اقتضت الكثير

مما نشير إليه ولانذكره . فتوماس مان وصافة دقيق ، ورسام رشيق . فلعل نقله إلى العربية فى هذا الكتاب لا يكون فحسب جهد المقل ، بل غاية الجهد ، فإذا قصر مع ذلك فللناقل مما ذكرنا العذر ، وما التوفيق إلا بالله .

محمود ابراهيم الدسوقى

القاهرة فى العشرين من يونيه ١٩٦١

الجزء الأول

الفصل الأول

« ماهذا ـ ما ـ هذا ••• »
« أجل هذه هى المعضلة ، هذا هو السؤال ، يا آنستى العزيزة جدا ! » •

وألقت زوجة القنصل بودنبروك نظرة على زوجها ، وكان جالسا فى حضرتها على كرسى ساند ، وكانت هى جالسة الى جانب حماتها على الأريكة المستقيمة ، المدهونة باللاكيه الأبيض ، المزدانة برأس أسد منهب والمكسوة بقماش أصفر فاقع ، فبادرت الى نجدة ابنتها الصغيرة التى كان الجد يجلسها على ركبته بجانب النافذة •

قالت : « تونى ! أومن بأن الله ••• »

وكانت الصغيرة أنتونيا وهى فى الثامنة من عمرها ، رقيقة التكوين ، ترتدى ثوبا من الحرير الهفهاف المتلون ، قد حولت رأسها الأشقر المليح عن وجه جدها شيئا ما وحدقت بعينيها الزرقاوين الشهباوين فى داخل الحجرة جاهدة تفكر دون أن ترى شيئا بعينه ، فأعادت مرة أخرى قولها : « ماهذا » ثم قالت على الأثر متمهلة : « أومن بأن الله ••• » ثم أردفتها فى عجلة وقد تهلل وجهها بقولها : « خلقنى والمخلوقات جميعا » وكأنها انطلقت فجأة فوق أرض زلقة ، فكرت المقال كله مغتبطة لا تلوى على شىء ، أمينة على ماجاء فى كتاب متن التعاليم المسيحية Katechi-mus (١) بطبيعته المنشورة من أمدوجيز فى عام ١٩٣٥ ، منقحة ومصدقا عليها من مجلس شيوخ سام حكيم • وفكرت فى أن المرء وهو منطلق يخيل اليه أنه فى الشتاء منزلق فوق زحافة يدوية صغيرة مع اخوته من فوق « جبل أورشليم » تجرى أفكاره من دون أن يملك لها كبحا ولو أراد •

فقالت : « وحبانا بالثياب والأحذية ، وبالأكل والشرب ، وبالبيت والفناء ، وبالزوجة والولد ، وبالحقل والماشية ، فانفجر الشيخ م • يوهان بودنبروك عند هذه الكلمات مقهقها ، ضاحكا ضحكته المحتبسة الرائقة التى

---

(١) كتاب يتألف من أسئلة وأجوبة تتعلق بتعاليم الديانة المسيحية ويبدأ به عادة تعاليم الدين

كان يستعد لها خفية • كان يضحك مسرورا بأنه استطاع السخرية من كتاب أصول الدين • وكان يجرى هـــذا الامتحان الصغير لهـــذا الغرض وحـــده ، فاستفسر تونى عن حقلهـــا وماشيتها ، وســـألها كم تأخذ فى عدل القمـــح ، وعرض عليها أن يتجر معها • وكان وجهه المســـتدير الذى كأنما نفـــخ الورد فيه والذى ينم عن حسن قصـــد ، ولم يقـــو أن يكسـبه تعبـيرا ما خبيثـــا ولو شاء ــ كان هذا الوجه يحف به شعر مرشوش أبيض ناصع ، يتدلى منه شيء كالضفيرة ولا ضفيرة ، على بنيقة سترته الفيرانية العريضة ، وكان بسنيه السبعين حفيظا على الشـهرة فى عهد صـباه ، لم ينزل الا عن الزركشة التى كانت تزين ما بين الأزرار وجيـوبه الكبـيرة ، لكنه لم يرتد قط فى حيـاته سراويـل طويلة ، وكان ذقنه مستقرا فوق حلية الدنتيلا البيضـاء التى تزين صدره ، عريضا مزدوجا يعبر عن الرضى •

وقد صاحبه الجميع فى ضحكة على سبيل التبجيل فى الغالب لرب الأسرة الأكبر • وكانت مدام انطوانيت بودنبروك المولودة باسم دوشان ، تضحك تلك الضحكة الخفية على نحو ما كان يضحك زوجها • وكانت سيدة بدينـة تغطى أذنيها خصل غزيرة بيضاء ، وعليها ثوب أسود مخطط برمادى فاتح ، عاطل من الزينـة ، ينم عن البسـاطة والتواضـع ، ما تزال يداها جميلـتين بيضاوين تحتويان فى حجرها كيسا شبكيا صغيرا من المخمل ، وقـد باتت ملامح وجهها على مر الأيام شـبيهة من عجب بملامح زوجهـا ، فليس سوى خرطة عينيهـا وسوادهما ما يتحدث قليلا عن أصلهـا نصف الرومانى ، فهى تنحدر من ناحية جدها من أسرة فرنسـية سويسرية ، ومولدها فى هامبورغ

وكانت كنتها زوجة القنصل ، اليصـابات بودنبروك من أسرة كروجر ، تضحك الضحـكة الكروجـرية التى كانت تبدأ بصوت مرتفع من الشفتين ، تضغط فيه الذقن على الصـدر • كانت كالكافة من آل كروجـر ظاهرة جسد أنيقة ، فاذا لم تكن الى ذلك من ربات الجمـال فقد كانت تزود النـاس جميعـا بشعور من الصفاء والثقة ، بصوتها الرائق الرصين وحركاتها الهادئة الأكيدة الوادعة • وكان يوائم شـعرها الضـارب الى الحمرة المـلوى على رأسها تاجا صغيرا ، والمعقوص فوق أذنيها خصلا عريضة مصطنعة ، بشرة بيضاء فيها رقة وعليها نمشات صغيرة • والمميز فى وجهها ذى الأنف الزائد بعض الشيء فى الطول ، والفم الصغير ، انه لم يكن بين شفتها السفلى وذقنها تجويفة اطلاقا • وصدريتها القصـيرة ، بكميها المنتفخين ، التى تتصل بهـا تنورة ضـيقة من الحرير العبق الزاهى بأزهاره تكشف عن جيد كامل الحسن يزينه طوق من الأطلس تتلألأ فيه تصفيفة من الماس الكبير •

وانحنى القنصل فى كرسيه الى الأمام بحركة عصبية بعض الشيء ، وكان

يرتدى سترة بلون القرفة ذات قلابات عريضة وأكمام كالهراوة لا تصل الى ما تحت المرفق حتى تأخذ فى الانطباق حول اليد · وكانت سراويل الركبة المرفقة تتألف من قماش أبيض مما يغسل ، مزودة من الجانبين الخارجيين بشرائط سوداء ، ومن حول بنيقة القميص العالية المنشاة التى تلتصق بها ذقنه كانت تلتف ربطة رقبته الحريرية وتملأ فتحة صدريته الملونة كلها منتفخة عريضة ·

وكانت له عينا أبيه الغائرتان الزرقاوان اليقظتان ، ولعل تعبيرهما كان أيضا أكثر امعانا فى الأحلام · بيد أن سيماءه كانت أكثر جدا وحدة ، وكان أنفه مقوسا بارزا بروزا قويا ، وخداه اللذان يجرى الى وسطهما خطان شقراوان خصلان أقل امتلاء من خدى الشيخ ·

والتفتت مدام بودنبروك الى كنتها ، وضغطت ذراعها باحدى يديها ، وخفضت بصرها وهى تضحك خفية وقالت :

« دائما هو ، لا يتغير هذا الشيخ يا بتسى »

فهددتها القنصلة بيدها الرقيقة فى صمت حتى رن سوارها الذهبى رنينا خافتا ثم أتت بحركة من يدها هى من لازماتها ، تبدأ عند زاوية فمها وتمتد الى أعلى عند تسريحتها كأنما ترد شعرة زلت وضلت الطريق الى هناك ·

بيد أن القنصل قال وفى صوته وقع المتغاضى المبتسم ، ورنة اللائم :
« لكن يا أبى ، انك تعود الى التندر بأقدس شىء ! ··· »

كانوا يجلسون فى « حجرة المناظر الطبيعية » فى الطبقة الأولى من منزل قديم فسيح واقع فى شارع منج كان بيت يوهان بودنبروك التجارى قد اشتراه من زمن ما ولم تكن الأسرة قد سكنته طويلا بعد · وكانت حيطانه مفروشة بفرش متينة لينة يفصلها عنها فراغ ؛ وتبدى مناظر طبيعية كثيرة رقيقة الألوان كالطنفسة الرفيعة التى تغطى أرض الحجرة ، وكأنها تعبر عن أغان مما يتغنى به الرعاة ، تنم عن ذوق القرن الثامن عشر ويتبدى فوقها زراع الكرم الفرحون والفلاحون الجادون ، والراعيات اللواتى تحلى ثيابهن الشرائط البديعة ويحتوين الخراف النظيفة فى حجورهن على حافة الماء العاكس ، أو يتبادلن القبل مع رعاة رقاق ··· وكان يغلب على هذه الصور غروب ذهبى تنسجم معه الكسوة الصفراء التى يكتسى بها الأثاث المدهون بالأبيض وستائر الحرير الأصفر المسدلة على النافذتين ·

ولم تكن قطع الأثاث عديدة بالنسبة لحجم الحجرة ، ولم تكن المائدة المستديرة ذات الأرجل الدقيقة المستقيمة المموهة بالذهب تمويها خفيفا قائمة أمام الاريكة بل الى الحائط المقابل تجاه معزفة الهارمونيوم الصغيرة الموضوع على غطائها صندوق ناى • وهناك عدا المقاعد السائدة الجامدة الموزعة بانتظام على الجدران كانت منضدة صغيرة للخياطة مسندة الى النافذة ، وقبالة الأريكة مكتب فاخر متداع مغطى بالتحف •

وكان الناظر يرى من خلال باب زجاجى مقابل للنافذتين بهو أعمدة يشتمله ضوء خاب • بينما كان عن شمال الداخل باب أبيض عال ذو مصراعين يؤدى الى قاعة الأكل • لكنه في الجدار الآخر كان الموقد يطقطق خلف سياج من الحديد المطروق اللامع ، مفرغ تفريغا حافلا بالفن فى حنية نصف دائرية • ذلك أن الجو كان قد برد قبل الأوان • فكان ورق شجر الزيزفون المحيط بفناء كنيسة مريم فى الجانب الآخر من الشارع مصفرا من الآن من منتصف أكتوبر • ومن حول الأركان والزوايا القوطية القوية كانت الريح تصفر والمطر يتساقط رذاذا فأوصدوا النوافذ المزدوجة مراعاة لمدام بودنبروك الكبرى •

وكان اليوم يوم خميس اعتادت الأسرة أن تجتمع فيه مرة كل أسبوعين • لكنهم اليوم كانوا قد دعوا الى تناول طعام الغداء بضعة من أصدقاء الأسرة الحميمين مع أعضائها المقيمين فى المدينة ، فكانوا يجلسون حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر فى الشفق الهابط ينتظرون الضيوف •

وكانت أنطونيا الصغيرة مسترسلة لا تدع الجد يعتاقها فى انزلاقها ، وكل ما هنالك أنها مدت شفتها العليا فوق السفلى الى أبعد من مألوفها وكانت دائما تمدها بعض الشىء ، وانها كانت تقطب وجهها • فالآن قد وصلت الى سفح « جبل أورشليم » لكنها وقد عجزت عن ضبط نفسها بغتة تجاوزت فى انطلاقها الهدف هونا ما •

قالت : « آمين ! انى يا جدى أعرف شيئا • »

فصاح الشيخ : « انظروا انها تعرف شيئا ! » وتظاهر بأنه يتحرق شوقا وتطلعا الى هذا الشىء • ثم استطرد : « أسمعت يا ماما ؟ انها تعرف شيئا • أفيستطيع أحد اذن أن يقوله لى ••• »

فتكلمت تونى وهى تهز رأسها مع كل كلمة : « اذا أرعدت السماء ارعادا دافئا خطف البرق واذا أرعدت ارعادا باردا قصف الرعد • »

وشبكت ذراعيهـا على الأثر ، ونظرت فى الوجوه الضاحكة شأن المطمئن الى نجاحه . ولكن السيد بودنبروك غضب من هذا القول وأصر على أن يعرف من ذا الذى علم الطفلة هـذه الجهالة . ولمـا اتضح أن ايدا يونجمان ، الآنسة التى استخدمت حديثا لرعاية الصغار والقادمة من مارينفردر هى التى فعلت ذلك اضطر القنصل الى حماية ايدا .

قال : « انك أشد قسوة مما ينبغى يا أبى . لم لا يجوز للمرء فى هـذه السن أن يكون له تصوراته العجيبة لمثل هذه الأشياء ... »

فقال الشيخ : « عفوا يا عزيزى !، ... لكنها جهـالة ! فأنت تعلم ان مثل هذا الاظلام لأذهان الصغار يسيئنى . ماذا ؟ يقصف الرعد ؟ وما يمنع الرعد من أن يقصف ! فلتغرب عنى هذه البروسية ... »

وجلية الأمر أن الشيخ لم يعتد أن يذكر ايدا يونجمان بخـير . ولم يكن هذا منه ضيق ذهن ، فقد شاهد جزءا من العـالم ، وسافر فى سـنة ١٨١٣ الى جنوب ألمـانيا فى مركبة تجرها أربعة جياد ليتسوق غـلالا لبروسـيا بوصـفه موردا للجيش ، وزار أمستردام وباريس . ولم يعتد فى الحـق ، وهو الرجل المستنير ، أن ينتقد كل مايشاهده خارج مدينة آبائه ذات الأسطح الهرميـة . لكنه اذا غضضنا الطرف عن المعاملات التجارية كان من الناحيـة الاجتماعية أميل من ابنه القنصل الى رسم الحدود الدقيقة والصـدوف عن الأجانب . فلما أتى أولاده يوما بهذه الفتاة الشابة ـ وهى الآن فى العشرين من عمرها ـ لما أتوا بها الى البيت كما لو كانت المسيح الطفل فى عودتهم من رحلة الى غرب بروسـيا ، يتيمة وابنة صاحب نزل مات قبيـل وصـول آل بودنبروك الى مارينفردر كان للقنصل من جراء هذا الصنع الدال على التقوى والصلاح مشهد مع أبيه كان الشيخ يتكلم فى أثنائه بالفرنسية والألمانية العامية وحدهما ... وفيما خلا ذلك أثبتت ايدا يونجمان حذقهـا فى ادارة البيت ومعاملتها للأطفال وصلاحيتها التامة لمركزها بما كانت تبديه من ولاء وفهـم للتقاليد البروسية فى مراعاة المقامات . فقد كانت ذات مبادىء ارستقراطية تفرق بين طبقات الدرجة الأولى والثانية ، بين طبقة وسطى وأخرى أقل منها . وكانت فخـورا بوصفها خادما بأن تنتمى الى الطبقة الأولى ، ولم ترض عـلى سبيل المثال أن تصـادق تونى فى المدرسـة رفيقة تنتمى فى رأى الآنسـة يونجمان الى الطبقة الوسطى ولو كانت راقية ...

فى هذه اللحظة ظهرت نفس هذه البروسية فى بهو الأعمدة ودخلت من الباب الزجاجى ، فاذا هى فتاة فارعة تقريبا ، متينة البنية فى ثوب أسـود

وشعر مرجل ولها محيا ينم عن الاستقامة • وكانت تقود الصغيرة كلوتيلده من يدها ، وهي طفلة هزيلة شديدة الهـزال ، ترتدي فستانا قطنيا محلى بالازهار ذات شـعر رمادي لا لمعـان فيه ، ووجه يشـبه وجوه العوانس • وكانت الطفلة تنتمي الى فرع للأسرة رقيق الحال ، أبوها ابن أخ لبودنبروك الكبير يعمل في رستوك مفتش ضيعة ، وكانت تربى في البيت لأنها من لدات أنتونيا ومخلوقة مطيعة •

قالت الآنسة يونجمان : « كل شيء معد » واختنق حرف بعينه في حلقهـا لأنها لم تكن من الأصل تستطيع نطقه • ثم استطردت تقول : « وقد عاونت كلوتيلده في المطبـخ بنشاط فلم تكن « ترينا » بحاجة تقريبا الى أن تعمـل شيئا • »

فتهلل وجه السـيد بودنبروك في يابوطه ساخرا من نطق ايدا الغـريب لكن القنصل ربت على خد ابنة ابن عمه الصغيرة وقال «لقد أحسنت ياتيلده • يقولون صلي واعملي ، فيجب أن تقتـدي طفلتنا بك فهي تسرف في الكسل والكبر ••• »

فأطرقت توني برأسها ، ورفعت بصرها الى جدها ، ذلك أنها تعلم جيدا أنه سيدافع عنها كالعادة •

فقال : « كلا ، كلا • ارفعي رأسك ياتوني ! تشجعي ! ان الشيء الواحد لا يصلح لكل شيء • وكل لما خلق له • وتيلده صالحة ، لكننا أيضا لانزدري ، فهل أتكلم كلاما معقولا يا بتسي ؟ »

والتفت الى كنته التي اعتادت أن تجاريه ، بينما كانت مدام أنطـوانيت تناصر القنصل غالبا عن حكمة أكثر ما تفعل عن اقتناع • وهكذا يمد الجيلان أيديهما أحدهما الى الآخر في رقصة المتابعة والتعامد •

فقالت زوجة القنصل : « انك طيب جـدا يا أبي • ان توني ستعنى بأن تصبح سيدة عاقلة حاذقة • » وسألت ايدا : «هل أتى الأطفال من المدرسة ؟»

بيد أن توني التي كانت تستطلع من مجلسها على ركبة جدها من خـلال النافذة ، صاحت تقريبا في نفس الوقت :

« تـوم وكريستيان قادمان من شـارع يوهانيسشتراسه •• والسـيد

هوفشتيده وعمى الدكتور ٠٠٠ »

وكان ناقوس كنيسة السيدة مريم يدق : بانج ! بنج ٠٠ بنج ٠٠ بونج ! دقا عديم المعنى تقريبا حتى لكان يتعذر ادراك ما هنالك ٠ لكن دق الناقوس كان فى الحقيقة رهيبا ٠ وبينما كان الجرس الصغير والناقوس الكبير يقصان فى بهجة ووقار انها الساعة الرابعة رن أيضا جرس باب الصفة صارا نافذا من الرحبة الكبرى يعلن حقا مقدم توم وكريستيان مع أول ضيفين وهما جان جاك هوفشتيده الشاعر والدكتور جرابو طبيب الأسرة ٠

الفصل الثانى

لم يكن السيد جان جاك هوفشتيده شاعر المدينة الذى لابد أن كان فى جيبه بضعة أبيات أيضا ـ أصغر كثيرا من يوهان بودنبروك الأكبر • واذا صرفنا النظر عن لون سترته الأخضر فقد كان لباسه يبدى نفس ذوق صديقه القديم ، لكنه كان أنحف منه وأكثر حركة ، ولم تكن له عيناه الصغيرتان الخضراوان اليقظتان ولا أنفه الحاد الطويل •

وهز أيدى الرجال وقدم للسيدات ـ وخاصة لزوجة القنصل التى كان يبجلها تبجيلا ملحوظا ـ بضعا من خير تحياته التى لم تعد مما يؤديه الجيل الجديد بحال • وكانت مصحوبة بابتسام هادىء لطيف ناطق بالامتنان ، ثم قال : « شكرا جزيلا على تلطفكم بدعوتى سيداتى وسادتى • ان هذين الفتيين وأشار الى توم وكريستيان اللذين كانا واقفين بجانبه فى سترتيهما الزرقاوين متمنطقين بحزام من الجلد « قد قابلناهما الدكتور وأنا فى كونجز شتراسه ، اذ كانا آتيين من المدرسة • انهما فتيان رائعان يا سيدتى ! ان توماس رأس جاد رصين فلابد أن يصبح تاجرا ، مافى ذلك شك ، على حين يبدو كريستيان قطعة من الشيطان أليس كذلك ، يبدو مغرضا مدهشا بعض الشىء ••• غير أنى لا أخفى محاباتى اياه ، فسيدرس فيما أرى ، انه فكه وذكى •• »

وقبس السيد بودنبروك من حق سعوطه الذهبى قائلا : « انه لقرد ! ألا ينتظر آن يصبح من توه شاعرا يا هوفشتيده ؟ »

وضمت الآنسة يونجمان ستائر النوافذ فسرعان ما احتوى الحجرة ضوء الشموع من ثريا البلور والشمعدانات القائمة على المكتب ، ذلك الضوء القلق شيئا ما ، الكتوم المواتى مع ذلك •

وقالت زوجة القنصل التى كان شعرها يلمع ذهبه : « والآن ياكريستيان ! ماذا تعلمت بعد ظهر اليوم ؟ » فظهر أنه تلقى كتابة وحسابا وغناء •

وكان غلاما فى السابعة من عمره يشبه من الآن أباه شبها يكاد يكون مضحكا • فله نفس العينين الصغيرتين تقريبا ، المستديرتين ، الغائرتين ،

ونفس الأنف الشديد البروز المقوس بين فيه . وتحت عظمتى الخدين تدل بضعة خطوط على أن تكوين الوجه لن يحتفظ دائما بذلك الامتلاء الذى يلازم الأطفال فى سنه .

وجعل يثرثر : « لقد ضحكنا كثيرا » بينما كانت عيناه تجولان فى الحجرة من الواحد الى الآخر « انتبهوا الى ما قاله السيد شتنجل لسيجموند كوسترمان » وانكب الى الأمام وأخذ يهز رأسه ويقذف الهواء بألفاظه : « ظاهرا يا ولدى الطيب ، ظاهرا أنت أملس ، نظيف . أجل ، لكن باطنا يا ولدى الطيب أنت أسود .. » قال هذا وهو يغفل من « أسود » حرفا ، وينطقها على هذا الاغفال . قالها وهو يبدى وجها يرتسم فيه السخط على هذه الملاسة والنظافة « الظاهرية » ، مصحوبا بهزل بلغ من اقناعه أن كل من هنالك أغرب فى الضحك .

وكرر الشيخ بودنبروك قوله : « انه لقرد » ضاحكا ضحكته الخفية . لكن السيد هوفشتيده استخفته الغبطة فصاح : « بديع ! لا يبارى ! يجب أن يكون المرء عارفا بمرسيلوس شتنجل ! فهو هذا بالضبط ! بل ان هذا أمتع ! »

أما توماس الذى كانت تنقصه مثل هذه الموهبة فكان واقفا بجانب أخيه الأصغر يضحك من القلب ولا يداخله حسد .. ولم تكن أسنانه جميلة بشكل ملحوظ ، بل كانت صغيرة مصفرة . غير أنه كان بديع التكون يلفت النظر ، وكان يشبه بعينيه ومحياه جده شبها كبيرا .

لقد اتخذ البعض مجالسهم فوق المقاعد والأريكة يتحدثون الى الأطفال وعن البرد المبكر وعن البيت ... وأعجب السيد هوفشتيده على المكتب محبرة فاخرة من بورسيلين سيفر على صورة كلب صيد منقط بالأسود . بيد أن الدكتور جرابو ، وهو رجل فى عمر القنصل كان يبتسم وبين لحيته العارضية وجه مستطيل ، طيب ، وادع ، ويتأمل الفطائر وخبز كورينث وملاحات مليئة مختلفة قد وضعت للعرض على المائدة . وكان هذا وذاك هو « الملح والخبز » الذى أرسله الى الأسرة الأقارب والأصدقاء بمناسبة تغيير المسكن . واذ كان المراد أن ترى الأسرة أن الهدية لم تأت من بيوت رقيقة الحال كان الخبز مكونا من فطائر حلوة ، متوبلة ثقيلة ، وكان الملح فى أوعية من الذهب الثقيل .

وقال الدكتور وهو يشير الى الحلوى وينهى عنها الأطفال : « سيكون على ما أؤديه . » ثم رفع وعاء متينا فيه ملح وفلفل وخردل .

فقال السيد بودنبروك وهو يبتسم : « من لبرشت كروجر ، دائما جواد. هذا السيد العزيز قريبى . انى لم أهد اليه مثيله لما ابتنى بيتا له أمام «باب القصر » . لكنه هكذا دائما .. نبيل جيد ! فارس حسن الهندام .. »

وكان الجرس قد جلجل فى البيت كله عدة مرات ، اذ وصل القسيس تونderليش . وكان سيدا مسنا قصير القامة ، بدينا ، يرتدى سترة طويلة سوداء ، مبدر الشعر ؛ أبيض الوجه ؛ فكها ؛ رصينا ؛ تبرق عيناه الرماديتان مبتهجتين . كان أرملا من عدة سنين ، يعتد نفسه من أعازب الزمن البائد مثل السمسار الطويل القامة السيد جريتينز الذى جاء معه وكان يحتفظ على الدوام باحدى يديه النحيلتين أمام عينيه كأنها تلسكوب وكأنه يفحص لوحة . وقد كان خبيرا بالفن معترفا به من الجميع .

وجاء كذلك السناتور الدكتور لانجهالز وزوجه وكانا صديقين للبيت من قديم . ولا ننس تاجر النبيذ كوبن بوجهه الضخم المحتقن الذى يستقر بين كتفى كمين مرتفعين ، ولا زوجته البدينة جدا .

وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الخامسة بالفعل لما قدمت أخيرا أسرة كروجر الكبار منهم والصغار :القنصل كروجر وزوجه وولداهما يعقوب ويورجن ، وكانا فى سن توم وكريستيان . وجاء أيضا فى نفس الوقت مع هؤلاء والدا زوجة القنصل كروجر وتاجر الخشب الكبير أوفردريك وزوجه وكانا زوجين مسنين رقيقين ، اعتادا أن يتناديا على مسمع من كل الآذان كما يتنادى عروسان ويتلاطفان بأحب الأسماء .

وقال القنصل بودنبروك : « الوجهاء يأتون آخرا » وقبل يد حماته .

وحرك يوهان بودنبروك ذراعه حركة بعيدة فوق رءوس أقاربه ليهز يد كروجر الكبير قائلا : وأيضا بنفس الهمة . »

وليبرشت كروجر الفارس الحسن الهندام ظاهرة فذة ممتازة لايزال يرش شعره بالقليل من المسحوق ، لكنه يلبس على الطراز الحديث . وكان فى صدريته المخملية صفان من الأزرار مرصعة بالحجارة الكريمة . وكان ابنه يوستوس بلحيته العارضية الخفيفة وشاربه المفتول يشبه فى شكله ومسلكه أباه شبها قويا ، كذلك كان يملك تحريك يديه تحريكا رشيقا .

ولم تجلس الجماعة فى مبدأ الأمر ، بل كانت تقف انتظارا للشىء المهم تتحادث أحاديثها العابرة من دون احتفال . وكان يوهان بودنبروك الأكبر قد قدم ذراعه لمدام كوبن قائلا بصوت مسموع :

« والآن سيداتى وسادتى ، اذا كنا جميعا مفتوحى الشهية ... »

وكانت الآنسة يونجمان والفتاة التابعة قد فتحتا الباب الأبيض المؤدى الى قاعة الأكل على مصراعيه ، فتحركت الجماعة الى هناك متمهلة مستأنية مطمئنة . ففى مكنة المرء أن ينتظر عند آل بودنبروك أكلة مريئة .

الفصـــل الثالث

لما أخذ الضيف يتجهون نحو قاعة الأكل كان ســيد البيت الأصغر يضع يده على الجانب الأيسر من صــدره حيث خشخشت ورقة ، وكانت ابتســامة التحية قد اختفت بغتة من وجهه ليحل محلها تعبير المكروب المهموم ، وتقلصت على سالفيه بضع عضلات كأنما يقرض أســنانه • وتظاهر بأنه يخطو الى قاعة الأكل خطوات لكنه ارتد بعدئذ يفتش بعينيه عن أمه التى كانت كالبقية تريد اجتياز العتبة الى جانب القسيس فوندرلش •

« معذرة ياسيدى القسيس العزيز ••• كلمة يا أماه ! »

وبينما كان راعى الكنيســة يومىء اليه بالموافقــة مسرورا أعاد القنصــل بودنبروك السيدة العجوز الى حجرة « المناظر الطبيعية » بقرب النافذة •

قال لهــا فى عجلة وبصوت خافت : « ان رســالة ، ولأوجز ، وصلت من جوتهــولد » ونظر فى عينيهــا السوداوين المتسائلتين وأخرج الورقة المطوية المختومة من جيبه • ثم استطرد يقول : « انها بخط يده •• وانها للثالثة • وليس سوى الأولى ما رد عليه أبى ••• فما العمل ؟ لقد وصلت فى الساعة الثانية ، وكان يجب أن أسلمها الى أبى من أمد • ولكن أكان ينبغى أن أفسد عليه اليوم نفسيته ! فماذا تقولين ؟ لا يزال ثم دائما وقت لاستدعائه • »

قالت مدام بودنبروك : « كلا ، انك على حق ياجان • انتظر !! » وقبضت على ذراع ابنهابحركة سريعة جريا على عادتها ، وأضافت قلقة قولها : « ماذا يمكن أن يكون فيها ؟ ان هذا الصغير لا يتزحزح • انه يصر على مبلغ التعويض عن نصيبه فى البيت ••• لا ، ياجان ، ليس بعد ••• ربما فى مساء اليوم قبل التوجه الى النوم • »

وأعاد القنصل قوله وهو يهز رأسه : « ما العمل؟ لقد أردت أنا نفسى مرارا وتكرارا أن أرجو أبى التساهل • فليس يصح أن يبدو كما لو كنت أنا الأخ غير الشقيق قد تسلطت على والدى ودسست لجوتهــولد •• كذلك يجب على حيال أبى أن أتحاشى الظهور بهذا المظهر • لكننى اذا توخيت الانصاف فانى فى آخر الأمر شريك • ثم انى وبتسى ندفــع فى الوقت الراهن ايجارا عاديا جدا للطبقة الثانية ••• أما ما يتعلق بأختى فى فرانكفورت ، فان الأمر قد سوى • فزوجها يتلقى الآن بالفعل فى حياة أبى مبلغا على ســبيل التعويض هو الربع فقط من مبلغ شراء البيت • وهى صفقة مجزية أجراها أبى مجــرى طيبا ميسرا • وهذا من وجهة نظر بيتنا التجارى سار جدا • فاذا سلك أبى

مع جوتهولد مسلك الرفض هذا ـ وهو مسلك شديد ـ فان ٠٠٠ »
فقاطعته الأم قائلة : « كلا ياجان ، هذا سخيف ٠ فان موقفك من المسألة واضح جدا ٠ لكن جوتهولد يعتقد أني وأنا امرأة أبيه ، لا أهتم الا بأولادي منه ، وأني أغير قلب والده من نحوه عمدا ٠ وهذا هو المحزن ٠٠ »

فصاح القنصل بصوت مرتفع بعض الشيء : « لكن الذنب ذنبه » ثم خفض صوته وهو ينظر الى قاعة الأكل وقال : « ان هذه الحالة المحزنة من صنعه ٠ احكموا بأنفسكم ! **لماذا لم يسلك مسلك العقل** ؟ لماذا اضطر الى الزواج من هذه الآنسة شتيونج و ٠٠٠ الدكان ٠٠ » وضحك القنصل مغيظا مرتبكا عند نطقه بهذه الكلمة « انها نقطة ضعف من أبي أن يناهض فكرة الدكان ؛ لكنه كان خليقا بجوتهولد أن يحترم في أبيه هذا الغرور البسيط ٠٠٠ »

فقالت الأم : « آه ياجان ، ان أحسن شيء هو أن يتساهل أبوك ! »

فهمس القنصل في حركة عصبية من يده الى جبينه : « هل أستطيع أن أشير عليه بذلك ؟ ان لي شخصيا مصلحة خليقة أن تجعلني أقول له : ادفع يا أبي ، لكنني أيضا شريك ٠ وعلي أن أمثل مصلحة الشركة ٠٠ واذا كان أبي لا يعتقد أنه مكلف حيال ابن عاق ، يشق عصا الطاعة عليه ، أن يسحب المبلغ من رأس مال العمل ٠٠ فان الأمر يتعلق بأكثر من أحد عشر ألف ريال ٠ وهذا مال كثير ٠٠٠ لا ، لا اني لا أستطيع أن أنصح له بذلك ٠٠٠ ولا أيضا أن أنهاه عنه ، اني لا أريد أن يكون لي بهذا دخل ٠ فمجرد الشجار مع أبي يؤلمني ٠٠٠ »

قالت الأم : « في وقت متأخر من المساء يا جان ٠ تعال الآن ! فهم ينتظرون ٠ »
وأخفى القنصل الورقة في جيب الصدرية ، وقدم ذراعه لوالدته واجتاز بها العتبة الى قاعة الأكل التي كان يغمرها الضوء ، حيث كانت الجماعة قد فرغت ولما تكد من اتخاذ مجالسها حول المائدة الطويلة ٠
وكانت صور بيضاء لآلهة بين عمودين دقيقين تبرز كأنها نحت نحات من كسوة الحيطان في مؤخرة تبدو في مثل زرقة السماء ٠ وكانت ستائر النوافذ الثقيلة الحمراء مسدلة ، وفي كل ركن من أركان الغرفة تشتعل ثماني شمعات في شمعدان عال مذهب بخلاف تلك التي كانت قائمة في شمعدانات فضية موضوعة على المائدة ٠ وكان فوق البوفيه الضخم المقابل « لحجرة المناظر الطبيعية » صورة كبيرة معلقة تمثل خليجا ايطاليا كان لونه الأزرق الداكن ذا تأثير ملحوظ مع هذه الاضاءة ٠ وكانت الأرائك الضخمة الجامدة المساند تستند الى الحيطان في كسوة من الحرير الأحمر ٠
وكان كل أثر للهم والقلق قد اختفى من وجه مدام بودنبروك لما أن اتخذت

مجلسها بين كروجر الكبير الذى كان يرأس المائدة فى الجانب المحاذى للنافذة: وبين القس فوندرليش ·

وقالت وهى تومىء برأسها ايماءتها السريعة القلبية الوجيزة : « شهية طيبة طيبة » ملقية نظرة عجلى على المائدة بأسرها حتى حيث يجلس الأطفال ···

الفصل الرابع

وطغى صوت السيد كوبن الممتلىء على الحديث العام وهو يقول : « ما أعظم وما أفخم كما قلت يا بودنبروك ! » حينما قدم حساء الخضر الساخن والخبز الملدن ، تحمله الفتاة التابعة ذات الذراعين العاريتين الحمراوين والثوب السميك المخطط ، وعلى مؤخرة رأسها طاقية بيضاء صغيرة ، تعاونها الآنسة يونجمان وفتاة زوجة القنصل فى الطبقة العليا ، ثم جعل الحضور يحتسون متمهلين .

وعاد السيد كوبن يقول : « ما أعظم ! هذه السعة وهذا النبل .. لابد أن أقول ان هنا يعيش الانسان . أجل يجب أن أقول ... » ولم يكن السيد كوبن اختلط بالملاك السابقين ، فهو حديث الثراء ، لا ينتمى الى الطبقة الراقية ، ولم يستطع بعد التخلص من نقط ضعف فى نطقه باللغة الدارجة للأسف كتكراره عبارة **« يجب أن أقول » هذا الى أنه كان يقول** « أظم » بدلا من « أعظم » .

ولاحظ السيد جريتينز فى جفاء وهو يراعى من جوف يده منظر الخليج مستأنيا : « ان هذه الصورة لم تتكلف شيئا » ذلك أنه لابد ان كان عليما .

وكانوا يؤلفون على قدر الامكان صفا منوعا . يتخلل أصدقاء البيت سلسلة الأقرباء . ولم يكن فى تنفيذ ذلك تشدد ، فالزوجان أوفرديك المسنان كانا كالعادة يجلس أحدهما على حجر الآخر تقريبا ، ويومىء اليه فى تفان . أما كروجر الكبير فكان يتربع عاليا وبالذات بين زوجة السناتور لانجهالز ومدام أنطوانيت ، يوزع حركات يديه ، وفكاهاته المتحفظة على كلتا السيدتين .

وسأل السيد هوفشتيده الشيخ بودنبروك : « متى بنى البيت ؟ » سأله ذلك عبر المائدة مائلا اليه وكان يحادث مدام كوبن فى لهجة مرحة يتخللها شىء من السخر .

فأجابه : « سنة ... انتظر ... حوالى سنة ١٦٨٠ اذا لم تخنى الذاكرة . ان ابنى فوق ذلك يعرف هذه التواريخ خيرا منى ... »

فأكد القنصل منحنيا : « اثنتين وثمانين » وكان جالسا بجانب السناتور لانجهالز بعيدا لا تجالسه سيدة . قال : « لقد انتهى من بنائه فى شتاء سنة ١٦٨٢ . وقد بدأت اذذاك رفعة راتنكامب وكومب على أبهر صورة ...

مؤسف هذا التدهور الذى عانته الشركة فى العشرين السنة الأخيرة ٠٠٠ »

وسكن الحديث بصورة عامة ، ودامت هذه الحالة نصف دقيقة ، فكان كل ينظر فى طبقه ، ويتذكر تلك الأسرة وعزها الدائل وقد بنت البيت وسكنته ثم غادرته فقيرة رقيقة الحال ٠

وقال السمسار جريتينز : « مؤسف حقا ٠ لو فكر المرء أى جنون جلب الدمار ٠٠٠ لو أن ديتريش راتنكامب لم يتخذ هذا الرجل جيلماك شريكا ! لقد أطبقت يدى على رأسى ، علم الله ، لما بدأ هذا يدير الشركة ٠ انى أعلم هذا من خير المصادر أيتها السيدات وأيها السادة ٠ أعلم كيف ضارب هذا الرجل من وراء ظهر راتنكامب بشكل مخيف ، وكيف قدم هنا سفتجة وصكا هناك باسم الشركة ٠٠٠ وأخيرا أفلست ٠٠٠ هنا استرابت البنوك ، هنا نقصت التغطية ٠٠٠ ليست عندكم فكرة ٠٠٠ ثم من الذى لاحظ المتجر ؟ لعله جيلماك ؟ لقد سكنوه كالفئران « من سنة لسنة ، وراتنكامب لا يحفل بشىء ٠٠٠ »

قال القنصل : « لقد كان كمن أصابه فالج ٠ » واتخذ وجهه تعبيرا جهما مغلقا ٠ كان يحرك ملعقته فى حسائه منكبا ، ويرسل من عينيه الصغيرتين المستديرتين الغائرتين بين الحين والحين نظرة عابرة الى رأس المائدة ٠ ثم استطرد يقول : « كان يسير كما لو كان واقعا تحت ضغط ٠ وأظن أن فى مكنتنا فهم هذا الضغط ، فما الذى كان يضطره الى الارتباط بجيلماك الذى جلب معه رأس مال ضئيلا ولم يكن أحد يذكره بخير ؟ لابد أنه كان يشعر بالحاجة الى القاء جانب من التبعة المخيفة على أحد ما ، لأنه كان يحس الأمر يشارف النهاية بلا توقف ٠ كانت هذه الشركة قد تدهورت ، وهذه الأسرة قد انتهت ٠ ووليم جيلماك لم يفعل بالتأكيد سوى أن دفعها الدفعة الأخيرة الى الخراب ٠٠ »

فقال القسيس فوندرليش فى ابتسامة تنطوى على التحرز بينما يصب للسيدة التى الى جواره النبيذ الأحمر فى قدحها : « اذن من رأيك يا سيدى القنصل العزيز أنه أيضا من دون انضمام جيلماك وسلوكه الأخرق كان كل شىء سيقع كما وقع ؟ »

قال القنصل تستغرقه الأفكار ومن دون أن يلتفت الى أحد : « هذا ما لا أعنيه ، لكننى أعتقد أنه لم يكن مناص من أن يرتبط راتنكامب ديتريش بجيلماك لكى يقع المقدور ٠ فلابد أنه تصرف تحت حكم ضرورة لا ترحم ٠٠٠ بل انى مقتنع بأنه كان يدرى ما يفعل شريكه بقدر ما ، وانه لم يكن أيضا يجهل ما يجرى فى متجره كل الجهل ٠ لكنه كان كالمفلوج ٠٠٠ »

فقال بودنبروك الكبير : « كفى ياجان ! » ووضع الملعقة من يده « هــذه فكرة من بنات أفكارك ... »

فرفع القنصل قدحه نحو والده وعلى وجهه ابتسامة تائهة . لكن ليبرشت كروجر تكلم :

« لنبق بالله فى حاضرنا المرح ! »

وأمسك فى ذلك برقبــة زجاجة نبيذه الأبيض محاذرا رشــيقا ، وكان على سدادتها تمثال وعل صغير من الفضة ، وأمالها قليــلا على جانبهــا ، وفحص بطاقتها باهتمام ، فقرأ : « ١٠ف٠ كوبن » وأومأ الى تاجر النبيذ وهو يقول : « قل لى ، ماذا كنا خليقين من دونك أن نكون ؟ »

وبذلت أطباق مايسن (١) ذات الحافة المذهبة ، وكانت مدام أنطوانيت تلاحظ حركات الفتيات خلال تبديلها بانتباه والآنسة يونجمان تصدر تعليماتها فى قمع النفير الذى كان يربط قاعة الأكل بالمطبخ . وأدير السمك . وبينما كان القس فوندرليش يتناول منه محاذرا قال : « ان هــذا الحاضر المرح ليس على كل حال أمرا بدهيا كل البداهة ، فالشبان الذين يطربون الآن هنا معنا نحن المسنين لا يخطر ببالهم أن الأمور كان يمكن أن تكون يوما غير ما هى الآن ... ويصح أن أقول انه لم يندر أن كان لى نصيب من الاهتمام الشخصى بمقدرات أصحابنا آل بودنبروك ... وكلما ألمت هذه الأشياء بخاطرى » والتفت الى مدام أنطوانيت وهو يتناول من المائدة ملعقة من تلك الملاعق الفضية الثقيلة — « لا أتمالك نفسى من التفــكير : أليست هــذه من القطع التى كان صــديقنا الفيلسوف لينوار ، جاويش حضرة صاحب الجلالة الامبراطورنابليون ، يمسك بها فى بداية سنة ١٨٠٦ فأتذكر لقاءنا فى شارع الفشتراسه ياسيدتى .. »

فخفضت مدام بودنبروك من بصرها فى أبتسامة تجمع بين الارتباك ووقــع الذكرى . وكان توم وتونى جالسين فى ذيل المائدة لايحبــان تناول الســمك ويتابعان حديث الكبار بانتباه ، فصاحا بصــوت واحد تقريبــا : « أجــل ياجدتنا ، احكى ! » لكن القسيس الذى كان يعلم أنهــا لا تحب أن تتنــاول بالحديث هذا الحادث الاليم لها بعض الشىء ، بدأ بدلا منها يقص الحكاية القديمة الصغيرة التى كان الصغار خليقين أن يصغوا اليها للمرة المتممة للمائة والتى لعلها لا يعرفها هذا أو ذاك بعد ..

---

(١) مدينة مشهورة بخزفها فى دائرة درسدن من مدن سكسونيا .

قال : « تمثلوا بايجاز : فى عصر يوم من أيام نوفمبر وكان باردا مطـيرا ، يرحمنا الله ، وأنا آت من أحد أعمالى صاعدا شارع ألف أفكر فى الأيام السوداء وكان الأمير بلوشر (١) • قد رحل ، والفرنسيون فى المدينة ، لكن أحدا لم يكن يلحظ الهياج السائد ، فالشوارع هادئة ، والناس فى بيوتهم معتصمون • وكان القصاب برال واقفا أمام بابه ، واضعا يديه فى جيبى سراويله يقـول بصـوته المرعد : « ان هذا لشر مستطير • أليس هو — » وهنا صرعته رصاصة أصابته فى رأسه ببساطة ، ففكرت : فلتذهب الى آل بودنبروك فلعل كلمـة معهم تلقى ترحيبا • فالزوج فى فراشه مريض بالحمرة ، والزوجة ستكون مشغولة بالايواء •

« فى هذه اللحظة ، من أراه قادما على ؟ سـيدتنا المحترمة مدام بودنبروك • وفى أية حالة ؟ مسرعة بلا قبعة ، فى المطر ، يكاد لايستر كتفها شال ، تنطلق أكثر مما تسير ، وقد انتفشت تسريحتها تماما ••• لا ، هـذا صـحيح • هى المدام • وليس الأمر هنا أمر تسريحة • »

قلت : « أية مفاجأة سارة ! وسمحت لنفسى بأن أجذبها من كمها ولم تكن رأتنى • ذلك أنى توجست شرا ••• قلت : الى أين ياعزيزتى بهذه السرعة ؟ فلحظتنى ونظرت الى وصاحت : أهذا أنت ؟ وداعا لقد انتهى كل شيء • انى سأغرق نفسى فى نهر ترافه ؟ »

قلت : « معاذ الله » وشعرت كيف غاض الدم من وجهى • « ان هذا المكان ليس لك ياعزيزتى • لكن ما الذى حدث ؟ وأمسكت بها بقوة لم يكن الاحترام يجيزها • فصاحت : ماذا حدث ؟ وارتعدت • لقد انقضـوا على الفضـيات يافوندرليش • هذا ماحدث • وجان راقد بالحمرة لا يستطيع أن ينجـدنى • وما كان ليستطيع نجـدتى لو أنه كان على قدميـه • انهم يسرقون ملاعقى ، ملاعقى الفضـية ، هذا ماحدث يافوندرليش • وأنا سـأغرق نفسى فى نهـر ترافه • »

« وتشبثت بصديقتى وقلت مايقوله النـاس فى مثـل هـذه الأحوال : « تشجعى » و « يا أحب النـاس » و « سنصلح كل شيء » و « سنـتكلم مع الناس » ، « فهدئى روعك ، انى أستحلفك ولنذهب ! » وصعدت بها الشارع الى منزلها • وفى قاعة الطعام فوق وجدنا الجند كما تركتهم المـدام • يبلغون العشرين رجلا ، مشتغلين بالصندوق الكبير الذى يحتوى الفضيات • »

---

(١) قائد قوات بروسيا ضد نابليون (١٧٤٢ — ١٨١٩)

وسألتهم بأدب : « مع من منكم أستطيع الكلام يا سادتي ؟ وهنا بدأوا يضحكون ويصيحون : معنا كلنا يا أبانا • ثم تقدم أحدهم ، وكان رجلا فارع الطول كالشجرة ذا شارب أسود مرجل ، ويدين حمراوين كبيرتين تطلان من القلابات المكرنشة ، وقدم نفسه قائلا : لينوار • وحيا بيده اليسرى لأن اليمنى كانت تمسك بحزمة مؤلفة من خمس أو ست ملاعق فضية • الجاويش لينوار فماذا يريد السيد ؟

قلت : « ياسيدى الضابط ـ وأنا أهدف الى تكريمه ـ هل يتفق الاشتغال بهذه الأشياء ومهمتكم السامية ؟ ان المدينة لم توصد بابها فى وجه الامبراطور• » فأجاب بقوله : « وماذا تريد ؟ الحرب هى الحرب ! والقوم محتاجون الى مثل هذه الفضيات ••• »

فقاطعته قائلا وقد خطر ببالى خاطر : « كان ينبغى أن تراعوا • ان هذه السيدة ـ وما الذى لا يقال فى مثل هذا الموقف ـ وهى سيدة البيت ، ليست كما تظنون ألمانية بل مواطنة لكم تقريبا ، فهى فرنسية ، فردد قولى : كيف فرنسية ؟ وماذا تظنون هذا السيف الطويل البتار أضاف الى ذلك ـ مهاجرة اذن ؟ واذن تكون عدوة للفلسفة ! »

انى قسيس ولكنى تمالكت نفسى من الضحك وقلت : « انك رجل مستنير كما أرى • وانى أعيد عليك أنه لا يليق فى نظرى بكم أن تشغلوا بمثل هذه الأشياء ! » •• فصمت لحظة ، ثم احمر وجهه بغتة ، ورمى بالملاعق الست فى الصندوق وصاح : « ولكن من قال لك انى أنتوى بهذه الأشياء غير تأملها ؟ انها لأشياء جميلة ، فاذا كان هذا أو ذاك من الرجال يريد لنفسه قطعة على سبيل التذكار ••• »

وأخذوا معهم كفاءهم من التذكارات على كل حال ، اذ لم ينفع معهم تذكيرهم بالعدالة البشرية أو الآلهية ••• فلم يكونوا يعرفون الها غير ذلك الانسان القصير القامة المخيف ••• »

الفصل الخامس

« هل رأيته يا حضرة القسيس ؟ »

وبدلت الأطباق من جديد • وظهر فخذ خنزير هائل أحمر كالآجر ، محمر في الدقيق ، ومدخن ، ومغلي ، ومعه صلصة بنية مزة وكميات ضخمة من الخضر حتى أصبح الجميع خليقين بأن يشبعوا من صحفة واحدة • فتولى ليبرشت كروجر التقطيع ، ورفع مرفقيه بخفة ، ومد سبابتيه الطويلتين الى ظهر السكين والشوكة وكشط القطع المدهنـــة في تأن الى أســـفل • كذلك قدمت تحفـــة القنصلة بودنبروك وهي « القدر الروسي » وكانت مزيجا نمـلا كحولي المذاق من الثمار المحفوظة •

لا ، لقد أعرب القسيس فوندرليش عن أســـفه لأنه لم ير وجه بونابرت قط • لكن بودنبروك الكبير وجان جاك هوفشتيده رأياه وجهـا لوجه ، الأول في باريس قبل الحملة الروسية مباشرة في عرض جرى في فنـاء قصر التويلري والآخر في دانتسيج •••

قال هذا : « يا الهي ، كلا انه لم يكن يبدو عليـه الارتياح » ودفع الى فمـه وهو يرفع حاجبيه لقمة جمع فيها في شوكته بين قطعة من الخنزير وأخرى من الكرمب والبطاطس • واستطرد : « ويقال عدا ذلك أنه سلك في دانتسيج مسلكا كان فيه مبتهجا • فقد حكيت عنه اذ ذاك فكاهة •• فقد كان يجـازف في الدقيق ، ومدخن ، ومغلي، ومعه صلصة بنية مزة وكميات ضخمة من الخضر الورق مع قواده ، قال : « أليس كذلك يا راب ؟ » وحفن من المائدة حفنة من الذهب وهو يقول : « ان الألمان يحبـــون كثيرا هذه النابليونات الصغيرة ؟ » فأجاب راب : « أجل يا مولاي أكثر من الكبير ••• »

وفي ضجة الضحك الذي ارتفع من الجميع ـ ذلك أن هوفشتيده كان يروي القصة بصورة شائقة ويقلد فيها وجه الامبراطور ـ قال بودنبروك الـــكبير : « لا مزاح ، بل كل الاحترام لعظمته الشخصية ••• فيالها من طبيعة طبيعته ! »

فهز القنصل رأسه في جد •

قال : « لا ، لا • اننا نحن الصغار لم نعد نفهم جدارة رجل بالتبجيل قتل الدوق دانجان غيلة وذبح في مصر ثمانمائة أسير ••• »

فقال القس فوندرليش : « قد يكون هذا كله مغالى فيه مزورا . ولعل الدوق كان سيدا طائشا متمردا ـ أما الأسرى فقد كان اعدامهم فى الراجح بقرار مدروس اقتضته الضرورة وأصدرته محكمة عسكرية قانونية ... وحكى عن كتاب ظهر من بضع سنوات مضت وقرأه وكان من تأليف سكرتير للامبراطور ، وفى رأيه أنه يستحق الالتفات التام ...

فأصر القنصل قائلا : « على حد سواء » وأصلح الشمعة التى كانت مندلعة أمامه فى الشمعدان واستأنف الكلام : « انى لا أفهم ذلك . انى لا أفهم الاعجاب بهذا الوحش . فأنا بوصفى مسيحيا وانسانا ذا شعور دينى لا أجد فى قلبى مكانا لمثل هذا الاحساس . »

واتخذ وجهه تعبيرا هادئا حالما ، بل انه كان يميل برأسه الى جانب ، بينما كان يبدو حقا كما لو كان أبوه والقسيس فوندرليش يبتسم أحدهما للآخر ابتساما واهنا جدا .

وتهلل وجه يوهان بودنبروك وهو يقول : «أجل ، أجل ، لكن النابليونات الصغيرة لم تكن رديئة ، أليس كذلك ؟» ثم أضاف الى ذلك قوله : « ان ابنى معجب أكثر بلويس فيليب . »

فرد جان جاك هوفشتيده فى شىء من السخر : « معجب ؟ هذا جمع غريب بين فيليب ايجاليتيه والاعجاب ... »

وتكلم القنصل فى جد وحمية : « ليخيل الى والله ان لدينا من ملكية يوليه كثيرا نتعلمه . ان موقف النظام الدستورى الفرنسى الودود المسعف حيال المثل العليا العملية الجديدة ومصالح العصر ... شىء يستحق كل الشكر ... »

فقال بودنبروك الكبير : «مثل عليا عملية ... حسنا .» وجعل خلال فترة من الصمت أتاحها فكاه يقلب علبته الذهبية « مثل عليا عملية ... لا . لست من هذا الرى . » ولجأ فى تضايقه الى العامية : « هنا تنبت المعاهد الصناعية والمعاهد الفنية ومدارس التجارة من الأرض ويصبح الجيمنازيوم والتعليم الكلاسيكى بغتة تفاهات . ولا تفكر الدنيا كلها ، لا تفكر فى شىء سوى المناجم .. والصناعة .. وكسب المال .. عظيم هذا كله ، عظيم جدا ! لكنه من الجهة الأخرى ينطوى على شىء من الغباء . هكذا على الدوام ، كيف ؟ انى لا أعرف لماذا هذا فى نظرى سبة ... لم أقل شيئا يا جان ... ان ملكية يوليه شىء طيب ... »

ووقف السناتور لانجهالز وجريتينز وكوبن بالمثل الى جانب القنصل ...

بل ان المرء ليجب أن يكن فى الحق أعظم احترام للحكومة الفرنسية والجهود المماثلة فى ألمانيا .

وقال الهر كوبن ثانية : «أعظم» . وكان قد أمسى فى أثناء الأكل أشد احمرارا، وكان مبهور الأنفاس يصوت مسموع ؛ أما فوندرليش فبقى وجهه أبيض ، ظريفا ، مفيقا وان لم يكف عن الشراب ، وكان يتناول القدح تلو الآخر فى غاية الاطمئنان .

وكانت الشموع تحترق على مهل ، يهب منها بين الحين والحين رائحة الشمع اللطيفة على المائدة كلما مال لهيبها واندلع فى تيار الهواء .
وكانوا يجلسون على مقاعد ثقيلة عالية السناد ، يطعمون فى صحاف ثقيلة من الفضة أشياء طيبة ثقيلة ويشربون اليهـا خمرا طيبة وثقيلة ويعربون عن آرائهم . وسرعان ماتناولوا الكلام عن الأعمال ، ولجئوا عفوا فى أدائه الى العامية ، الى هذا التعبير المستأنى المريح الذى كان يلوح أنه يتوخى ايجاز التجار واسترخاء الأثرياء والذى كان يغلو هنا وهناك فى التهكم الرضى على النفس . فكانوا لا يقولون كذا على صحته بل كذا على إيجازه ، ويتحيفون على هذا الحرف أو ذاك بنطقه مدغما ، ويظهر الرضا على وجوههم وهم ينطقون .
وكانت السيدات قد كففن من أمد عن متابعة النقاش ، وكانت مدام كروجر تدير لهن الحديث فتشرح لهن على نحو شهى أحسن طريقة لطهو سمك النهر بالنبيذ ... فتقول : « اذا قطع قطعا أصـولية ياعزيزتى فضعيه بعدئذ فى الكسرولة مع البصل والفلفل والقراقيش واحمليه الى النار مع قليل من السكر وملعقة من الزبد ... لكن لا تغسليه يا عزيزتى بل دعيه بربك بدمه كله .. »

وقال كروجر الكبير أطيب الفكاهات . أما ابنه القنصل يوستوس الذى كان جالسا بعيدا بجانب الدكتور جرابو فى ذيل المائدة على مقربة من الأطفال فكان يصل مع الآنسة يونجمان حديث دعابة ، وهى تزر عينيها العسليتين وتمسك على عادتها بالسكين والشوكة قائمتين تحركهما طردا وعكسا حركة خفيفة . بل أن أسرة أوفرديك قد ارتفعت أصواتها ونشطت حيويتها فى صـورة كاملة فابتكرت العجوز زوجة القنصل كلمة تحبب كانت تناديه بها وتهز قلنسيتها من الغبطة .
وتركز الحديث لمـا أن أداره جان جاك هوفشتيده على موضوعه الحبيب، على رحلته الايطالية التى قام بها من خمس عشرة سنة مضت مع قريب له ثرى من هامبـورج . فحكى عن البندقية وزومه وفيزوف ، وقص عن قيـلا بورجيزة حيث يقال أن الراحل جوته كتب فيها جزءا من فاوست ، وتغــزل بنافورات عصر النهضة التى تبرد الأوار ، وعن الطرق الحسنة التخطيط التى يروق فيها

التجوال على هوى المرء • وذكر أحد الحاضرين الحديقة الكبيرة الشعثاء التى كان آل بودنبروك يملكونها خلف « باب القصر » مباشرة •

فقال الشيخ : « أجل بشرفى ! انى ما يزال يغيظنى أنى لم أستطع اذا ذاك أن أقر الرأى على تنظيمها بما يكسبها بعض المظهر الانسانى • لقد جلت فيها أخيرا ، فهى سبة ، هذه الغابة العتيقة ! ما كان ألطفها من ملك لو كان عنى بكلئها ، وشذب شجرها تشذيبا جميلا مخروطيا ومربعا •• »

فاحتج القنصل فى حرارة •

قال : « بربك يا أبى - ! انى لأحب صيفا أن أتوجه الى هناك بين الأدغال • لكن كل شىء خليق أن يتلف اذا شذبت فيه الطبيعة الجميلة الطلقة هذا التشذيب الأسيف •• »

« لكنه اذا كانت الطبيعة الطلقة هذه ملكى ألا يكون من حقى ، بحق الشيطان أن أنظمها على هواى ؟ »

« آه يا أبى • انى حين أستلقى هناك بين الكلأ النامى تحت الدغل الرابى يخيل الى على العكس انى ملك الطبيعة وأنه ليس لى أدنى حق عليها ••• »

هنا صاح بودنبروك الكبير فجأة : « كريستيان ، لاتسرف فى سؤال تيلده ! ان هذا لايضيرها شيئا •• فاهجما كما يفعل سبعة دارسين ، الا أنها لفتاة ! »

وحقا لقد كان يبعث على الدهشة كيف كانت لهذه الطفلة النحيلة الهادئة ذات الوجه المستطيل المسن هذه المقدرة على الأكل ، فانها لما سئلت للمرة الثانية هل تريد حساء ، أجابت تتمطى فى تواضع : نعم ، من فضلك ! » وقد تناولت من السمك كما تناولت من لحم الخنزير مرتين ، فى كل مرة قطعتين من أكبر القطع ، واليها كومة كبيرة من الملحقات • تناولته باهتمام وهى منكبة لضعف بصرها على الطبق ، وازدردت كل شىء هادئة مستأنية فى لقم كبيرة • فلما وجه اليها رب البيت الشيخ كلامه مطت وجهها متلطفة ، متعجبة وأجابت فى بلاهة : « رباه - عمى ؟ » ولم تتأثر من كلامه • كانت تأكل سواء دعيت أو لم تدع ، وسواء سخر منها أحد أو لم يسخر ، فى شهية المستغل بغريزته من الأقرباء الفقراء على مائدة حافلة حرة ، وتبتسم فى غير حساسية ، وتملأ طبقها بالأشياء الشهية متمهلة ، مثابرة ، جائعة ، عجفاء •

الفصـل السادس

وجاء البودنج في صحفتين كبيرتين من البلور مزيجا ، طبقات بعضها فوق بعض من المكرونة والتوت والبسكويت والقشدة • لكنه في ذيل المائدة كان الأطفال يضجون لأنهم تلقوا تحليتهم المحبوبة ، بودنج البرقوق الملتهب •

وتكلم يوهان بودنبروك : « توماس يابنى تكرم! » وأخرج من جيبسرواله حزمة مفاتيح كبيرة « أحضر من القبو الثانى عن اليمين من الدرج الثانى خلف نبيذ بوردو الأحمر ، زجاجتين ! » فجرى توماس الذى كان يحذق تأدية مثل هذه المهام ، ثم عاد بالزجاجتين المغبرتين اللتين تحيط بهما شبكتان • وما كاد نبيذ المالفازييه الذهبى المعتــق الذى يحكى فى حلاوته العنب يجرى من هــذا الدثار الخفى الى أقداح النبيذ التى يحتسيها الضيف بعد الأكل ، حتى حلت اللحظة التى نهض فيها القس فوندرليش حاملا القدح فى يده ، فى هجعة الحديث ، وجعل يشرب الأنخاب بعبارات شائقة • كان يتكلم ورأسه مائل جانبا بعض الميل ، وعلى وجهه الأبيض ابتسامة رقيقة تشع منها الفكاهة محركا يده اللطيفة حركات صغيرة منمقة ، ومتخذا لهجة السمر المريحة التى كان يحب أن يستعملها من فوق المنبر : « تكرموا اذن يا أصدقائى الشجعــان باحتساء كأس من هذه الخمر اللطيفة فى صحة مضيفينا المحترمين فى بيتهم الجديد الفخم ، ــ فى رفاهية أسرة بودنبروك الحاضرين من أعضائها والغائبين ــ فى صحتهم ! »

وفكر القنصل : « والغائبين » بينما انحنى أمام الكئوس التى ارتفعت بها الأيدى • واستطرد فى تفكيره : أيقصــد بهؤلاء من يوجد منهم بفرانكفورت ، وربما أسرة دوشان فى هامبورج • أم أن للشيخ فوندرليش ما يقصده •• ؟ ونهض ليقارع أباه كأسه ، ناظرا فى عينيه نظرة حنان •

لكن السمسار جريتنز نهض عندئذ عن كرسيه نهضة اقتضته فترة من الوقت • بيد أنه لما أتم نهضته خص شركة يوهان بودنبروك بكأس وتمنى لها بصوته الصرار النمو والازدهار والرفعة اكراما للمدينة •

ورد يوهان بودنبروك شاكرا للجميع كلماتهم الرقيقة ، بوصفه أولا رب الأسرة وثانيا باعتباره أقدم رئيس للبيت التجارى ــ وأرسل توماس يحضر زجاجة ثانية من المالفازييه لأن حسابه طاش حين ظن أن زجاجتين تكفيان •

كذلك تكلم لبرشت كروجر • وقد سمح لنفسه بأن يبقى جالسا اذ كان

هذا أوقع فى النفس ، واذ كان يشير برأسه ويديه فى ألطف مشــهد وهو يشرب نخب سيدتى البيت مدام أنطوانيت وزوجة الفنصل ·

لكنه لما انتهى ، ولما أوشك البودنج أن ينفذ والمالفازييه أن يهبط الى القاع نهض السيد جان جاك هوفشتيده متئدا يتنحنح ويتنفس آهة عامة ·· فصفق الأطفال الجالسون فى ذيل المائدة توا من الغبطة ·

قال وهو يمس أنفه الحاد : « معذرة ، فانى لا أملك أن أتخلف · »وأخرج من جيب سترته ورقة ··· فساد السكون فى القاعة ·

وكانت الورقة التى يمسك بها فى يديه زاهية بالألوان ، بيضية الشكل ، مزخرفة ، مزدانة الظاهر بالأزهار الحمراء ، والنقوش الذهبية · فتلا :

« بمناسبة الاشتراك مع أسرة بودنبروك فى احياء حفلة افتتاح البيت المقتنى حديثا ، تلك الحفلة التى حفت بها أكرم مظاهر الضيافة ــ أكتوبر ١٨٣٥ · »

ثم قلب الورقة ، وابتدأ بصوت كان يتهدج قليلا :

أيها الأماثل ! ــ لا يفوتن أغنيتى المتواضعة
أن تدنو منكم ، فى مكان حبتكم به السماوات ·
هى لك يا صديقى ذا الشعر الفضى ·
ولزوجك الجليلة مهداة ·
ولزوجين هما طفلاكما ،
من الغبطة مزجاة ·
فالبراعة والحسن المهذب هنا
يجتمعان أمام نواظرنا فى زهرة أناديومين
ويد فولكانى الصــــناع ·
وقى الله حياتكم ما يكدر
وأدام لها البهجة مستقبلا
وحباكم كل يوم بجديد
بالهناءة المتجددة على الدوام ·
فليس للغبطة التى استشعرها
لهناءتكم فى المستقبل حد ·
ونظرتى الآن بخليقة أن تنبئكم
بأنى لن تنقطع لى تمنيات ·
فهنيئا حياتكم فى الدار الفخمة
وليكن نصيب من دبج هذه السطور
وأهداها اليوم فى ايجاز
أن يحظى منكم بالمحبة ·
ويلقى منكم الاعزاز ·

وانحنى ، فانطلقت أكف الجميع بالتصفيق وتملكتهم الحماسة ٠

وصاح بودنبروك الشيخ : « رائع ! هوفشتيده فى صحتك ! حقا ان هذا لبديع ! »

لكنه لما شاربت زوجة القنصل الشاعر اكتسى لونها الرقيق بحمرة بديعة ذلك أنها أدركت ما أبداه نحوها من تبجيل حين شبهها بزهرة أناديومين ٠٠

الفصل السابع

وابتهج الجميع وأحس السيد كوبن بالحاجة الملحة الى فك بضعة أزرار من صدريته ، لكن هذا لم يكن بالعمل اللائق للأسف ، لأنه حتى السادة المسنون ما كانوا ليسمحوا لأنفسهم بمثله ، وكان ليبرشبت كروجر ما يزال يجلس منتصبا فى مكانه كما كان عند بدء الوليمة ، وظل القس فوندرليش على براءته ومراعاته للأصول • وحقا لقد كان بودنبروك الكبير مستلقيا بعض الشيء لكنه كان يراعى الأدب اللائق ، وكان يوستوس كروجر هو الذى يبدو ثملا قليلا •

أين الدكتور جرابو ؟ لقد نهضت القنصلة من دون أن تلفت النظر بحال ، وخرجت من القاعة لأن أماكن الآنسة يونجمان والدكتور جرابو وكريستيان فى ذيل المائدة كانت خالية ، وكان صوت ينم تقريبا عن الألم المكبوت يتناهى من بهو الأعمدة ، فأسرعت بمغادرة القاعة خلف الفتاة التابعة ، وكانت تقدم الزبد والجبن والفاكهة ـ وحقا لقد كان كريستيان الصغير جالسا أو راقدا أو قابعا على المقعد المستدير المنجد القائم فى شبه ظلمة من حول العمود الأوسط يتأوه فى خفوت ويقطع نياط القلب •

وقالت ايدا التى كانت بجانبه مع الطبيب : «آه يا سيدتى • ان كريستيان الصغير قد غثت نفسه •• »

وأعول كريستيان قائلا : « لقد غثت نفسى يا أماه ، غثت بصورة لعينة » • بينما جعلت عيناه المستديرتان الغائرتان تروحان وتغدوان قلقتين فوق أنفه البالغ الكبر • وقد نطق بكلمة « لعينة » من فرط يأسه ، لكن القنصلة قالت : « اذا نحن استعملنا مثل هذه الكلمة زاد الله فى مقسنا ! »

وجس الدكتور جرابو النبض • وبدا وجه الطبيب وقد أمسى أطول مما هو وأرأف ، وقال مطمئنا : « هــذه تخمة بسيطة •• غير ذات بال يا سيدتى القنصلة » • ثم استطرد بلهجة أهل المهنة المتأنية المتحذلقة يقول : « ان خير ما يعمل هو أن يحمل الى فراشه ••• اعطوه شيئا قليلا من مسحوق الأطفال، وربما قدحا صغيرا من شاى البابونج ليعرق •• وليلتزم الحمية بشدة. ياسيدتى القنصلة • حمية شديدة كما قلت ••• قطعة من الحمام •• وقطعة من خبز فرانتس ... »

وصاح كريستيان غاضبا : « لا أريد حماما •• لاأريد أن آكل ثانية شيئا أبدا ! ان نفسى تمقس ، تمقس بصورة لعينة ! » وكأنما بدا له أن هذه الكلمة

الشديدة تخفف عنه فجعل يلفظها بحرقة زائدة ٠

وابتسم الدكتـور ابتسامة تغاض تكاد تكون عليها مسحة من الكآبة - سيأكل ثانية هذا الفتى وسيعيش ككل الناس ٠٠٠ سيزدرد كآبائه وأقربائه ومعارفه أشياء ثقيلة طيبة مختارة أربع مرات وهو جالس في كل يوم يقضيه ٠ والآن في حفظ الله !. انه ، فريدريك جرابو ، ليس بالرجل الذى يحب أن يقلب عادات المعيشة لدى أسر التجار هذه ، الطيبة ، الثرية ، الناعمة ٠ انه سيأتى كلما نودى ، وسينصح بالحمية الصارمة يوما أو يومين ٠ ـ قطعة من الحمام وشريحة من خبز فرانتس ٠٠ أجل ـ ثم يؤكد مرتاح الضمير أن الأمر هـذه المرة غير ذى بال ٠ انه ، على صغر سنه ، طالما أمسك بيده يد مواطن شجاع أتى على آخر « موزة » من اللحم المدخن وآخر ديك رومى محشو ، فرقد فجأة على كرسى مكتبه ، أو ، عقب الألم ، على سريره القديم المتين مستسلما الى الله ٠٠ فى حالته اذذاك وهى الفالج ، شلل يعقبه موت فجائى لم يتوقع ٠٠ أجل ٠ وهو ، فريدريك جرابو ، كان يمكنه أن يتوقعه له فى كل مرة لم يكن فيها الأمر ذا بال ٠ فى كل مرة لم يستدع فيها ، أو أصيب فيها صاحب الشأن بعد تناول الطعـام ، وبعد أن عاد الى مكتبـه ، بدوار غريب ٠٠٠ والآن فى حفظ الله ! انه ، فريدريك جرابـو ، لم يكن بالشخص الذى يزدرى الديكة الرومية المحشوة ٠ وهذه الفخذ المحمرة من لحم الخنزير ومعها صلصة شارلوت كانت لذيذة ، عليها اللعنة ! ثم لما ضاقت الأنفـاس جاء البودنـج بطبقات المكرونة والتوت الشوكى والقشدة ، أجل ، أجل ٠٠٠ « حمية شـديدة كما قلت يا سيدتى القنصلة ؟ قطعة من الحمام وشريحة من خبز فرانتس ٠٠٠ »

الفصل الثامن

وسادت قاعة الأكل حركة النهوض عن المائدة ٠

« هنيئا مريئا ، سيداتى سادتى ، ووجبة مباركة ! هنــا ينتظر الهــواة سيجار ، وتنتظرنا جميعــا جرعة من القهــوة ، فاذا جادت المــدام ، شراب أيضا ٠٠٠ والبليار فى الخلف تحت تصرف الجميع كما هو مفهوم ٠ حان تولى القيادة الى البيت الخلفى ٠٠٠ مدام كوبن ــ أولينى الشرف ٠ »

وتوجهوا عائدين الى حجرة المناظر الطبيعية من الباب الــكبير ذى المصراعين يتحدثون راضين ، ويتبادلون التمنيات بمناسبة الوجبة المباركة وهم على أتم انشراح ٠ لكن القنصل لم يقصد أولا الى هذه الحجرة بل جمع فى الحال هواة البليار من حوله ٠

قال : « ألا تريد المغامرة بدور يا أبى ؟ »

ــ « لا »

وقد بقى لبرشت كروجر مع الســيدات ٠ لــكن يوستوس اســتطاع أن ينسحب ٠٠٠ كذلك السناتور لانجهالز وكوبن وجريتينز والدكتــور جرابو بقوا مع القنصل ، على حين أراد جان جاك هوفشتيده أن يلحق بهم لكنه قال : « فيما بعد ! ان يوهان بودنبروك يريد أن يعزف على الناى فلابد من الانتظار ٠٠ فالى اللقاء ياسادة ٠٠٠ »

وسمع السادة الستة وهم يخترقون بهو الأعمدة أنغام الناى الاولى فى حجرة المناظر الطبيعية يصاحبها عزف القنصلة البــارع على الهارمونيوم للحن قصير رائق بديع كان يتناهى الى الحجرة البعيدة ٠ وكان القنصل ينصت كلما سمع شيئا ، ولود لو تخلف فى حجرة المناظر الطبيعية ليسترسل على مقعد ساند فى أحلامه وتستغرق مشاعره ٠ لكن واجب الضيافة ٠٠٠

وقال للفتاة التابعة : « أحضرى بضعة فناجيل من القهوة وسيجارا الى قاعة البليار » فاجتازت الردهة ٠

وأعاد الهر كوبن بصوت كان يخرج من معدة ممتلئة : « أجل ياليبنا ، قهوة! أسمعت ؟ قهوة ! » وحاول أن يخمش الفتاة فى ذراعهــا الوردية ٠ وكان ينطق القاف من سقف الحلق ، كأنه يبتلع ويستطعم فعلا ٠

فلاحظ القنصل كروجر عليه : « انى متأكد من أن مدام كوبن قد رأتك من خلال الزجاج ٠ »

وسأل السناتور لنجهالز : « اذن أنت تسكن هنـاك فوق يابودنبروك ؟ » وكان الدرج يؤدى عن اليمين الى الطبقة الثانية حيث تقع مخادع نوم القنصل وأسرته ، لـكنه فى الجهـة اليسرى من الردهة كان يوجد أيضا صف من الحجرات • وهبط السادة الدرج العريض ذا التفاريج المدهونة باللاكيه الأبيض وهم يدخنون • ووقف القنصل فى أسفل الدرج وجعل يشرح : « هذه طبقة مسروقة » يبلغ مداها ثلاث حجرات : حجرة الافطار وحجرة نوم والدى ومكانا يطل على الحديقة ينتفع به قليلا • وهناك دهليز ضيق يمتد على اتجاه الطبقة ••• لكن الى الأمام ! انظروا ! هذه الرحبة تعبرها مركبات النقل فهى تحتوى قطعة الأرض كلها حتى تصل الى حجر الخبازين »

وكانت الرحبة الفسيحة الرنانة مبلطة ببلاطات كبيرة مربعة • وعلى مقربة من باب الصفة وفى الطرف الآخر كذلك أماكن تستعمل مكاتب• على حين كان المطبخ الذى كان مايزال تنبعث منه رائحة حمضية هى رائحة صلصة شارلوت يقع الى يسار الدرج مع الطريق المفضية الى الاقبية ، بينمـا يقابل المطبخ فى ارتفاع كبير غرف خشبية بارزة من الجدار ، غريبة الشـكل ، لـكنها مدهونة دهانا نظيفا باللاكيه ، هى غرف للخادمات يرقين اليها من الرحبـة بنوع من السلالم المنتصبة المفتوحة والى جانبها زوج من الخزائن العتيقـة وصندوق محفور •

وخرجوا من باب زجاجى عال عبر درجات منبسطة تماما يمكن المرور فوقها الى الفناء الذى يقع فى جهته اليسرى المغسل الصغير • ومن هنا تأملوا الحديقة المنسقة التى كان جو الخريف القاتم يطويهـا والرطوبة تنتشر فيهـا • وقد صينت أحواضها بحصر القش من الصقيع ، وقطعتها هناك من الخلف واجهة الخص المنشأة على طراز الروكوكو • بيد أن السادة سلكوا من الفناء الطريق التى تقع عن الشمال مؤدية بين جدارين الى البناء الخلفى عبر فناء ثان •

وهناك تؤدى درجات زلقه الى قبو أرضه من الطين يستعمل مخزنا ، يتدلى من أعلى علية فيه حبل لرفع أعدال الحبوب • لكن السادة صعدوا عن اليمين الدرج النظيف المؤدى الى قاعة البليار •

وارتمى الهر كوبن منهوك القوى على أحد الكراسى الجامدة القائمة الى حيطان المكان الفسيح العاطل الذى يدل منظره على الصرامة •

وصاح : « فلأكن أول من يتفرج • » ونفض قطرات المطر الخفيفة عن سترته ثم استطرد : « يا للشيطان ! أية رحلة هذه عبر بيتكم يابودنبروك ! »
وهنا كما فى حجرة المناظر الطبيعية كان الموقد يضطرم خلف سـياج من

النحاس فجعلوا ينظرون خلال النوافذ الثلاث العالية الضيقة عبر أسطح رطبة محمرة ويرون أفنية غائمة وجمالونات ٠

وسأل القنصل السيد السناتور وهو يسحب المضارب من مواضعها : « الك فى كرامبولاج ؟ » ثم دار وسد ثقوب البلياردين وقال : « من يريد أن ينضم الينا ؟ جريتينز ؟ الدكتور ؟ حسنا ٠ جريتينز ويوستوس ٠ اذن خذا البليار الآخر ٠٠٠ كوبن يجب أن تلعب معنا ٠ »

ووقف تاجر النبيذ وأصغى ، ودخان السيجار يملأ فمه ، الى هبوب قوى لريح تصفر بين البيوت وتدفع المطر الى النوافذ فتنمل به ، ثم تعوى فى مدخنة الموقد ٠

فقال : « عليها اللعنة ! » ونفخ الدخان من فمه ٠ واستطرد : « أتظن السفينة موليفيفر تستطيع الدخول فى الميناء يا بودنبروك ؟ ألا انه لجو لعين ٠٠٠ »

نعم ، ان الأنباء الواردة من ترافيمنده ليست على مايرام ٠ وقد أكد هذا أيضا القنصل كروجر الذى ملس جلدة عصاه بالطباشير ٠ فالعواصف تهب على كل الشواطىء ولم تكن الحالة ، علم الله فى سنة ١٨٢٤ أردأ كثيرا مما هى الآن ، لما كان فى سان بطرسبورغ ذلك السبيل العظيم ٠٠٠ هاهى ذى القهوة أتت ٠ »

وتناولوا أقداحها وارتشف كل رشفة وبدءوا اللعب ٠ لكنهم لم يلبثوا أن تناولوا بالكلام الاتحاد الجمركى ٠ وكان القنصل بودنبروك متحمسا للاتحاد الجمركى ، فقد صاح ، بعد أن دفع دفعته والتفت فى حمية الى البليار الآخر حيث صدرت أول كلمة : « ياله من عمل بديع ! انه ينبغى أن ننضم اليه فى أول فرصة ٠٠٠ »

بيد أن السيد كوبن لم يكن من هذا الرأى ، كلا ٠ فقد انبهرت أنفاسه من فرط المعارضة وتساءل وكأنه أهين ، متوكئا على عصاه ، متخذا سمت المحارب: « واستقلالنا ؟ وعدم تبعيتنا ؟ كيف يكونان ؟ هل يروق هامبورج أن تعمل بهذا الابتكار البروسى ؟ أليس معنى ذلك أن نندمج فى بروسيا يابودنبروك ؟ حاشا وكلا ، انى أريد أن أعرف ماذا نعمل بالاتحاد الجمركى ! أليس كل شىء يسير على مايرام ؟٠٠٠ »

« بنبيذك الأحمر ، وربما بعد ذلك بالمنتجات الروسية ، ولا أقول شيئا ٠ لكنه بعدئذ لن يستورد شىء ! أما ما يتعلق بالصادر فسنرسل بطبيعة

الحال قليلا من الحبوب الى هولنده وانجلتره بالتأكيد ! كلا ، كلا • ليس كل شيء للأسف على مايرام • لقد كانت حقا تؤدى من قبل أعمالا أخرى ••• لكنه بالاتحاد الجمركى ستفتح لنا ميكلنبورج وشلزفيج ـ هولشتين ••• وليس من الميسور أن نحسب كيف يكون مجرى العمل الأصلى ••• »

وأخذ جريتينز يتكلم وقد انحنى على البليار بجسمه كله يحرك العصا فوق يده المعروقة هنا وهناك مسددا فى تؤده « أرجوك يابودنبروك ••• هـذا الاتحاد الجمركى ••• يعييني فهمه • ان نظامنا بسيط بالتأكيد وعملى أليس كذلك ؟ ان الاعتماد على يمين المواطن ••• »

فقال القنصل مسلما بهذا : « هذه سنة قديمة جميلة • »

فقال السناتور لانجهالز غاضبا بعض الشيء : « كلا فى الحق ياسيدى القنصل ـ اذا كنت تجد فيه شيئا جميلا ! انى لست تاجرا •• لكننى اذا شئت أن أكون شريفا ـ كلا ، ان هذا الذى يتعلق بيمين المواطن شر ، هذا ما يجب أن أقوله تدريجا ! لقد أصبحت هذه اليمين رسما من الرسميات يمكن تخطيه ••• ومجلس الشيوخ متغاض ••• انهم يتحدثون عن أشياء هى فى الواقع سيئة • انى مقتنع بأن الدخول فى الاتحاد الجمركى من جانب مجلس الشيوخ ••• »

فدق السيد كوبن الأرض بعصاه غاضبا قائلا : « ان النزاع لينشب عندئذ • » ونطق كلمة « النزاع » على غير ما تنطق به ثم ركز انتباهه لينطق النطق الصحيح وقال : « النزاع ، انى ملم بهذه الأمور • ومع الاحترام الجدير بك ياحضرة السناتور ، لن تجد من يناصرك • حاشا » وتكلم بحرارة عن لجان الفصل ومصلحة الدولة ويمين المواطن والدولة الحرة •••

والحمد لله أن وصل جان جاك هوفشتيده متأبطا ذراع القس فوندليش • وكانا رجلين مسنين جريئين مبتهجين من عصر كان أقل من هذا العصر هما • وأنشأ يقول : « الآن يا أصدقائى الشجعان • عندى لكم نادرة ، شيء مضحك ، شعر بالفرنسية ••• فانتبهوا ؟ »

وتبحبح فوق مقعد تجاه اللاعبين الذين كانوا يستندون الى مائدتى البليار متكئين على عصيهم ، وأخرج ورقة صغيرة من جيبه ، ووضع سبابته الطويلة وفيها الخاتم على أنفه الحاد ، وتلا فى نبرة مرحة ساذجة كأنه يلقى ملحمة :

كان مارشال سكس ذات مرة
يسوق عربته المذهبة
ومعه مدام بومبادور ذات الخيلاء
كانا يتنزهان مبتهجين
فرأى فريلون هذا الزوج
فصاح فى عجب : انظروا ! انظروا !
ذا سيف الملك وذا غمده

وارتبك السيد كوبن لحظة وترك النزاع ومصلحة الدولة يذهبان الى حيث ...

وضحك مع بقية الضاحكين حتى تجاوبت القاعة بقهقهتهم . وكان القس فوندرليش قد انتحى ناحية احدى النوافذ يضحك هناك فى هدوء ضحكا مكتوما يدل عليه اهتزاز بين كتفيه .

وبقى الجميع فترة طويلة معا ، هنا فى قاعة البليار ، ذلك أن هوفشتيده كان يتحفهم بنكات أخرى من هذا القبيل . وكان السيد كوبن قد فك أزرار صدرته كلها وقد انشرح صدره ، اذ ألفى نفسه أحسن حالا مما كان على المائدة فى قاعة الطعام . فكان ينطق بعبارات مضحكة باللغة العامية مع كل دفعة من عصاه ويلقى بين الحين والحين :

كان مارشال سكس ...

وقد كان هذا الشعر يتبين تبينا عجيبا فى صوته الجهير الخشن .

الفصل التاسع

كان الوقت متأخرا تقريبا والساعة تناهز الحادية عشرة لما أن أخذت الجماعة تستعد للانصراف في وقت يكاد يكون واحدا بعد أن اجتمعت مرة أخرى فى حجرة الناظر الطبيعية ، فصعدت القنصلة الى غرفتها بعد أنقبل الجميع يدها ، لتطمئن على كريستيان ، المريض ، وتركت للآنسة يونجمـــان الاشراف على الفنيات فى نقل الفضيات ، وانسحبت مدام انطوانيت الى الطبقة «المسروقة» . لكن القنصل هبط بالضيوف الدرج وصحبهم عبر الرحبة الى باب البيت حتى الشارع .

وكانت ريح حادة تهب فتطير المطر منحرفا فتسلل الزوجان كروجر المسنان فى فرائهما الوثير الى مركبتهما الفاخرة مسرعين ، وكانت تنتظر طويلا . وكان الضوء الأصفر المنبعث من مصابيح الزيت المشتعلة أمام البيت على عمد أو مندلية من سلاسل سميكة تقطع الشارع ، مندلعا يضطرب ، وهنـا وهنـاك تبرز البيوت بمبانيها الأمامية الى الشارع المنحدر الى نهـر تريفه . وكان بعض هذه البيوت مزودا بملحقـات أو دكك ، والكلأ الرطب نابتـا بين البلاط الردىء وكنيسة مريم قائمة هنـاك غائمة تكتنفها الظلمة ويبللها المطر .

وقال ليبرشت كروجر : « شكرا » وضغط على يد القنصل الذى كان واقفا الى جانب المركبة : « شكرا يا جان فقد كان اجتماعنا أشـهى ما يكون ! » واصطفق باب المركبة ودرجت مبتعدة . كذلك سلك فوندرليش والسمسار جريتينز سبيلهما شاكرين وقال كوبن فى معطفه ولفاعته المخمسة الثنـايا وقبعته العالية الرمادية المترامية فوق رأسه ، والى ذراع زوجته البدينـة ـ قال بصوته الجهير فى أشد انخفاض :
« عم مساء يابودنبروك ! والآن ادخل حتى لاتبرد . شكرا جزيلا ـ اسمع ؟ لقد أكلت كما لم آكل من أمد طويل وشربت أربعة من نبيذى الأحمر . . . طاب ليلك مرة أخرى . . . »

وانحدر الزوجان مع القنصل كروجر وأسرته نحو النهر بينما اتخـذ السناتور لانجهالز والدكتور جرابو وجان جاك هوفشتيده الطريق العكسى . .

كان القنصل بودنبروك يقف ويداه مدسوستان فى جيبى سراويله الرائقة ، مرتديا سترته الجوخية على بعد خطوات من باب البيت يرتعش قليلا وينصت الى وقع الخطى فى الشوارع المقفرة البليلة الضعيفة الاضاءة ثم استدار وتطلع

الى واجهة البيت الجمالونيه فتريثت عيناه عند الكلمة المنقوشة فوق المدخل باحرف قديمه (١) Dominus providebit ودخل البيت مطاطىء الرأس قليلا واقفل الباب الثقيل الصرار بعناية ثم خطا متئدا عبر الرحبـــة الرنانه . وكانت الطاهية تهبط الدرج تحمل صينية شاى مليئه بالأقداح المقعقعه فسألها : « أين السيد يا ترينا ؟ »

قالت : « في قاعة الطعام يا ســـيدى القنصل . » واحمر وجهها احمرار ذراعيها ، ذلك أنها كانت من الريف ترتبك بسرعة .

وصعد الدرج وأتت يده وهو مايزال فى بهو الأعمدة المظلم بحركة صوت جيب صدريته حيث طقطقت الورقة . ثم دخل القاعة حيث كان مايزال فى ركن من أركانها بقايا شموع تحترق فوق شمعدان وتضىء المائدة الخالية . وكانت رائحة صلصة شارلوت تنقل الهواء بحمضها .

وكان يوهان بودنبروك يغـــدو ويروح بقرب النوافذ متمهلا ويداه وراء ظهـــره .

الفصل العاشر

ووقف ومد يده البيضاء القصـــيرة بعض الشىء لكنهـا يد بديعـة التكوين كأيدى آل بودنبروك ــ مد هذه اليد الى ابنه قائلا : « والآن يا ابنى يوهان أين تسير هناك ؟ » وكان شخصه المتين الذى لا يتبين فيه سوى بياض عارية شعره المرشوشة بالمسحوق وحلية الدنتيللا يتميز بمظهره البـاهت القلق من حمرة ستائر النوافذ الداكنة . قال : « ألم تتعب بعد ؟ انى أسير هنا وأنصت للريح ... انه لجو لعين ! ان القبطان كلوت فى طريق عودته من ريجا .. »

« ان كل شىء سيصلح يا أبى بمعونة الله ! »

« هل أعتمد على هذا ؟ فلنسلم بأن ما بينك وبين الله عامر ... »

فازداد ارتياح القنصل لهذه النفسية الطيبة ...

وانشأ يقول : « لكى ندخل فى الموضــوع لا أجتزىء بأن أتمنى لك يا أبى ليلة طيبـــة بل ... ولكن لا تغضب ، أليس كذلك ؟ اننى لم أرد الى الآن ازعاجك فى هذا المساء البهيج بهذه الرسالة التى وصلت بعد ظهر اليوم ... »

« السيد جوتهولد ــ انه هو ! » واصطنع الشيخ الهـدوء حيـال الورقة المختومة الماثلة الى الزرقة التى تناولها . « الى الســـــيد يوهان بودنبروك الأكبر ... شخصى ... انه رجل يحافظ على اللياقة ، أخوك هذا غير الشقيق ياجان . هل رددت على رسالته الثانية أخيرا بحـــال من الأحوال ؟ ومع ذلك

---

(١) الله يكفلنا

يكتب رسالة ثالثة ... ، وبينما كان وجهه الوردى يتجهم شيئافشيئا فض ختم الرساله باحدى أصابعه ، وفتح الورقة فى سرعة ، ومال نحو الشمعدان ليضىء الورقه ، وضربها بظاهر يده ضربة قويه . وكان الانفعال والعصبيان يبدوان حتى فى هذا الخط ، ذلك انه بينما الاسطر التى يخطها آل بودنبروك تجرى على الورق دقيقة مائلة كانت هذه الأحرف قائمة منتصبة تنم عن ضغط مباعت . وقد كانت هذه كلمات كثيرة مخطوطا تحتها بحركة سريعة مقوسة من القلم .

وكان القنصل قد انتحى جانبا شيئا ما الى الحائط الذى تستند اليه المقاعد . لكنه لم يجلس اذ كان أبوه واقفا . بل كان فحسب يقبض بحركة عصبية على أحد المساند العالية يراقب الشيخ الذى كان يقرأ مائلا برأسه ، مقطب الحاجبين ، تتحرك شفتاه بسرعة .

« أبى !

انى لآمل ، لما لحقنى على التحقيق من اساءة ، أن يكون روح الحق يحدوكم بحيث يقدر الغضب الذى أحسسته لما أن بقى خطابى الثانى ، العاجل كما كان الخاص بالمسألة المعروفة ، بلا رد ، بعد أن تلقيت على الأول ردا (لا أذكر بأى أسلوب كتب !) . ويجب أن أقول لكم ان الاسلوب الذى توسعون به بعنادكم الهوة القائمة بيننا ، والشكوى لله ، خطيئة ستسألون عنها يوما أمام عرش الديان ، وتحاسبون عليها حسابا عسيرا . وانه لمن المحزن أنكم منسنين وأيام لما أصغيت ضد ارادتكم أيضا ، لداعى القلب ، وتزوجت من تلك التى باتت زوجتى من ذلك الحين ، وجرحت ، بتولى حانوت تجارى ، كبرياءك التى لاتعرف حدا ــ تحولتم عنى بكل قسوة تحولا تاما . بيد أن الصور التى تقطعوننى بها الآن تصرخ نحو السماء ، فاذا كنتم تعنون أنى سأقنع بصمتكم وألزم الهدوء ، فانكم تخطئون خطأ جسيما . ان ثمن شراء البيت الذى اقتنيتموه فى شارع منج بلغ ١٠٠٠٠٠ مارك ، وقد علمت الى ذلك ان ابنكم من زواج ثان وشريككم يوهان ، يقيم عندكم بالاجرة ، وانه بعد موتكم سيئول اليه البيت مع المتجر بوصفه المالك الوحيد . وقد عقدتم مع اختى غير الشقيقة المقيمة فى فرانكفورت وزوجها اتفاقات ليس لى أن أتدخل فيها . لكنكم فيما يعنينى أنا ابنكم الأكبر يدفعكم غضبكم الذى لايقره الدين المسيحى الى حد أن ترفضوا رفضا باتا أن يكون لى أى مبلغ على سبيل التعويض عن نصيبى فى البيت ! وقد اجتزت المحنة فى صمت لما أن دفعتم لى فى زواجى ولاستقرارى ١٠٠٠٠٠ مارك وأوصيتم لى بنصيب اجمالى فى الميراث قدره ١٠٠٠٠٠ مارك وكنت اذ ذاك لا أدرى على الاطلاق مقدار ما تملكون من ثروة دراية كافية . أما الآن فانى أرى أجلى مما كنت أرى من قبل . ولما كنت فى غير حاجة الى أن أعد نفسى ، من حيث المبدأ محروما من الميراث ، فانى أطالب فى هذه الحالة

الخاصة بتعويض قدره ٣٣٣٣٥ ماركا أى بثلث ثمن الشراء • ولست أريد الاسترسال فى تخمينات عن المؤثرات اللعينة التى يرجع اليها سبب معاملة اضطررت الى تحملها حتى الآن ، لكننى احتج عليها بكامل روح الحق الذى يحدو المسيحى ورجل الأعمال ، وأوكد لكم للمرة الاخيرة أننى ، اذا لم يصح عزمكم على اجابة مطالبى العادلة ، سأكف عن احترامكم بوصفكم مسيحيا ووالدا ورجل أعمال •

جوتهولد بودنبروك

قال الشيخ : لا تؤاخذنى اذا لم يسرنى أن أتلو عليك هـذه الابتهالات مرة أخرى • — فهاكها ! ورمى يوهان بودنبروك بالخطاب الى ابنه •

فالتقطه القنصل حينما هبط الى علو ركبتيه ، وتابع خطى ابيه بعينين مضطربتين حزينتين • وتناول الشيخ مطفأة الشموع الطويلة ، وكانت مركونة بقرب النافذة ، وسار بها منتصبا ، غاضبا ؛ على امتداد المائدة نحـو الركن المقابل الى الشمعدان الكبير •

قال : « كفى ! لن نتكلم بعد الآن • انتهينا ! الى الفراش ! والى الامام ! » واختفت شعلة بعد أخرى تحت القمع المعدنى الصغير المثبت فى أعلى المطفأة من دون أن تقوم لها قائمة • وكانت شمعتان ما تزالان تحترقان لما التفت الشيخ ثانية الى ابنه الذى كاد ألا يتبينه هناك الى الخلف •

« حسنا ، لم تقف ، ماذا تقول ؟ لابد أن تقول شيئا ! »

« ماذا أقول يا أبى ؟ — انى لفى حيرة • »

فرماه يوهان بودنبروك فى توكيد قوى : « ما أسهل ماتحار ! » مع أنه كان يعلم أن هذه الملاحظة لا تنطوى على كثير من الصدق وان ابنه وشريكه أحيانا ما فاقه فى حزم الرأى وانتهاز المنفعة •

ومضى القنصل يقول : « مؤثرات سيئة ولعينة ••• هذا أول سطر أفك رموزه . انك يا أبى لا تتصور كم يعذبنى هذا ؟ ثم هو يرمينا بالمروق من المسيحية ! »

واقترب يوهان بودنبروك غاضبا يقول : « أتدع هذا الكتاب الاسيف يؤثر فيك ؟ » وكان يجر المطفأة • « مروق من المسيحية ! ها ! يجب أن أقول ان هذا كلام ينم عن الذوق • — هذا الجشع المشبع بالتقوى ! أى نوع من الرفاق أنتم أيها الشبان ؟ — هيه • رأس محشو بترهات عن المسيحية الخيالية ••• وال ••• مثالية ! أما نحن الكبار فالساخرون القساة ••• والى جانب ذلك ملكية بوليه والمثل العليا العملية ••• وايثار رمى الاب المسن بأقذع الشتائم

تبعث اليه فى بيته ، عن التنازل عن بضعة آلاف ريال : وتكرمه باحتقارى يوصفنى رجل أعمال ! والآن ، انى أعرف كرجل أعمال ما هى النفقات العرضية ــ النفقات العرضية » . مكررا الراء بغرغرة فرنسية مغيظة . « أبى لا أجعل هذا الابن العاق المتعالى أطوع لى اذا أنا أذللت نفسى وتساهلت ... »

« يا أبى العزيز بم ينبغى ان أجيب . انى لا أريد أن يكون على حق فى كلامه عن المؤثرات . ان لى مصلحه كشريك ، ولهذا بالذات لا يجوز ان أشير عليك بالاصرار على هذه النقطة . ومع ذلك فانى لأقل مسيحية طيبة عن جوتهولد ، مع ذلك ... »

« مع ذلك ! انك محق يشرفنى فى قولك » مع ذلك يا جان . فكيف تبدو الامور فى الحق ؟ اذ ذاك حين ألهبته آنسته شتيونيج ، وحين أثار معى مشهدا اثر مشهد ، وخلافا اثر خلاف ، تم عقد فى النهاية هذه الزيجة تحديا لحظرى الصارم . اذ ذاك كتبت اليه : يا بنى العزيز جدا . انك تتزوج حانوتك . انتهينا . انى لن أحرمك من الميراث . ولن أثير فضيحة . لكن الصداقة بيننا قد انتهت . هاك مهرا مائة ألف ، وسأوصى لك بمائة ألف أخرى ، وبهذا ننتهى . بهذا سوى حسابك ، فليس لك عندى شلن أكثر . ــ وقد سكت على ذلك . فهل من شأنه اننا عقدنا صفقات ؟ وانك وأختك اصبتما نصيبا طيبا فوق ما أصاب ؟ وانه اشترى بيت من ميراث هو ميراثكم ؟ ... »

« لو أدركت يا أبى فى أى مأزق أنا ! اننى ليجب على حرصا على سلام الاسرة أن أنصح ... لكن » وتنهد القنصل تنهدا خافتا ، وهو مستند الى كرسيه . وتلمس يوهان بودنبروك وهو متكىء على المطفأة مايمكن أن يكون على وجه ابنه من تعبير فى هذا الضوء القلق الخابى . وانتهت الشمعة قبل الاخيرة من الاحتراق ، وانطفأت من نفسها ، فلم يبق سوى واحدة لايزال لهيبها مندلعا هناك الى الخلف . فكانت بين الحين والحين تظهر من كسوة الحيطان صورة عالية بيضاء تبتسم ابتسامة هادئة ثم تختفى ثانية .

وقال القنصل بصوت خافت : « أبى ــ ان هذه الحالة القائمة بيننا وبين جوتهولد تمضنى ! »

« سخف يا جان ، فلتطرح العاطفية ! فما الذى يمضك ؟ »

« أبى ... لقد كنا اليوم مجتمعين هنا ترنق علينا البهجة . لقد احتفلنا بيوم جميل ، وكنا فخورين سعداء فى وعينا أننا أدينا شيئا يذكر .. واننا بلغنا شيئا يذكر ... وأننا رفعنا من شأن شركتنا ومن شأن أسرتنا . حيث بات لها أكبر قسط من التقدير والاعتبار ..لكن يا أبى ، هذه القطيعة السيئة لاخى وابنك الاكبر ... انه لا ينبغى أن يسرى فى الصرح الذى شيدناه بمعونة الله صدع خفى ... ان الاسرة يجب ان تكون متحدة ، يجب أن تكون متراصة يا أبى والا طرق الشر الباب ... »

« ترمات يا جان : مساخر ! ولد عنيد ... »
وساد الصمت برهة . وهبط اللهيب الأخير ثم جعل يزداد هبوطا ..
وسأل يوهان بودنبروك : « ماذا تعمل يا جان ؟ انى لم أعد أراك .. »
فقال القنصل في برود : « انى أحسب . » واندلعت الشمعة فرأى أبوه كيف كان يحدق في اللهيب الراقص بقامة منتصبة وعينين باردتين يقظتين كما لم تكونا أثناء الاصيل بطوله .

« من جهة : يعطى جوتهولد ٣٣٣٣٥ والتى فى فرانكفورت ١٥٠٠٠ ، ومن جهة أخرى : تعطى التى فى فرانكفورت ٢٥٠٠٠ فيعنى هذا للشركة ربحا قدره ٢٣٣٣٥ . غير أن هذا ليس كل شيء . فاذا فرضنا انك دفعته الى جوتهولد تعويضا عن نصيبه في البيت خرق المبدأ وكأن لم تسو حالته عندئذ ، فيصبح فى وسعه بعد موتك أن يطالب بنصيب متساو من الميراث مثلى ومثل أختى ، ويضحى الامر بالنسبة للشركة خسارة مئات ألوف لا تستطيع الشركة ان تتوقعها ولا أستطيع أنا بوصفى صاحبها الوحيد فى المستقبل أن أتوقعها ... كلا يا أبى » وكان تصميم صاحبته حركة نشطة ، وامتدت قامته أطول مما كانت . ثم استطرد يقول : « انى يجب ألا أشير عليك بالتساهل . »
« اذن انتهينا ! فلا نتكلم فى هذا بعد الآن ؟ الى الامام . الى الفراش . »

وانطفأ آخر لهيب تحت القمع المعدنى . ومشى الاثنان فى ظلام دامس مخترقين بهو الاعمدة ، وفى الخارج ، عند الصعود الى الطبقة الثانية هز كل منهما يد الآخر .
« طاب ليلك يا جان ... تشجع ! فهذا نكد لابد منه ... الى اللقاء فى الصباح عند الافطار ! »
وصعد القنصل الدرج الى مسكنه ، وتحسس الشيخ طريقه على الدرابزين الى الطبقة « المسروقة » ثم طوى الظلام البيت الفسيح القديم مغلقا وشمله السكون وقرت الكبرياء والآمال والمخاوف بينما كان المطر يتساقط رزازا فى الشوارع الساكنة ، وريح الخريف تصفر من حول الجمالون والاركان .

الجزء الثاني

الفصـــــــل الأول

بعـد سنتين ونصف سنة حوالى منتصف ابريل ، جاء الربيع مبكرا عن المعتاد ، ووقع فى نفس الوقت حادث جعل يوهان بودنبروك الكبير يغنى من الغبطة ، وفرح له ابنه اكبر الفرح .

كان القنصل جالسا فى الساعة التاسعة من صـــباح يوم أحد فى حجرة الافطار أمام المكتب الكبير البنى القـائم الى النـافذة والذى كان غطاؤه المقبـو مفتوحا بفعل تركيب آلى أريب . وكانت أمامه حافظة سميكة من الجلد مليئة بالورق ، لكنه استخرج كراسة مذهبة ذات غـلاف مضغوط ، وجعل يكتب وهو مكب عليها بخطه الرفيع السريع الدقيق ، يكتب بنشاط ومن دون توقف الا ان يغمس ريشة الاوزة فى الدواة المعدنية الثقيلة ...

وكانت كلتا النافذتين مفتوحة ، وفى الحديقة حيث الشمس الرفيقـــة تلقى أشعتها على البراعم الأولى ، وحيث تتجاوب بضعة من أصوات الطيـور الصغيرة وتبادل الردود الجريئـــة ، كان هواء الربيع يهب مفعما برائحـــة التابل الصابح اللطيف ، ويحرك الفينة بعد الفينـة الستائر هونا ما فى خفـة وبلا صوت . وكانت الشمس تستقر هناك زاغلة فوق مائدة الافطار ساطعة على مفرش التيل المنتشر هنا وهناك بالفتات ، وتلعب فى التفافات وقفـزات صغيرة خاطفة بتذهيب الفناجين الشبيهة بالاجران ...

وكان الباب المؤدى الى حجرة النوم مفتوحا على مصراعيه ومن هناك ينتهى صوت يوهان بودنبروك وهو ينغم فى خفوت شديد نغمة قديمة مضحكة :

رجل طيب ، رجل ظريف
رجل هاش رقيق
يطهو الحساء ويهز الطفل
ومنه يفوح خمير البرتقال

وكان جالسا بجانب المهد الصغير ذى الستائر الحريرية الخضراء القائم عند سرير القنصلة العالى يهزه بيده هزات وتيره . وقد رتبت القنصـــلة وزوجها هـنا تحت مقـاما لهما لبعض الوقت تسهيـلا للخدمة بينما أبوهما ومـــدام أنطوانيت التى كانت جالســـــة الى الخلف على المائدة مشغولة بالفانيـــلا والكتان ترتدى مئزرا فوق ثوبها المخطط ، وعلى خصلها البيضـــاء الرابية قلنسية بالدنتيلا ـ يستعملان الحجرة الثالثة من الطبقة « المسروقة » للنوم .

وكان القنصل بودنبروك يكاد لا يشمل الغرفة المجاورة بنظـرة ، اذ كان مشغولا الى هذا الحد بعمله · وكان على وجهه سيماء الجد يكاد يعـــانى من فرط تدينه ، قد افتر ثغره بعض الافترار ، وتدلت ذقنـــه بعض الشيء وتغيم عيناه بين الحين والحين · كان يكتب :

« اليوم فى الرابع عشر من ابريل ١٨٣٨ فى الساعة السادسة صـــباحا وضعت زوجتى العزيزة اليصابات ابنة كروجر بعون الله ولطفه بنتا فى أسعد حال · وقد سميت كلارا فى التعميد المقدس · وكانت ولادتها فضـــلا من الله أعانها القدير عليها ، وان جاءت على قول الدكتور جرابو قبل أوانها بقليل فلم يجر كل شيء على خير مايرام ، وعانت بتسى الشـــديد من الآلام · آه ، أين الاله الذى يعدلك أنت الذى تمد يد العون فى كل المحن وكل الاخطار وتعلمنا أن نتبين ارادتك لنخشاك ونخضع لارادتك ونتبع وصاياك ! آه ، يا الله ، قدنا وسدد خطانا نحن جميعا مادمنا على الأرض نبغى الحيـــاة ··· » وجرى القلم سلسا ، سريعا ، يرسم هنا وههنا خطا للزينة كما يفعل التجار ، ويتحـــدث سطرا سطرا الى الله · وقد جاء بعد صفحتين :

« لقد قررت لابنتى الصغرى مرتبا قدره ١٥٠ ريالا فاللهم أهدها الصراط المستقيم وهبها من لدنك قلبا طاهرا تدخل به ذات يوم منازل السلام الأبدى ، ذلك أننا نعلم حق العلم كيف يصعب الآيمان كل الايمان بأن المسيح الحبيب الوديع لى بأكمله ، لأن قلبنا الارضى الصغير الضعيف ··· »

وبعد ثلاث صفحات ختم القنصل بآمين · بيد ان القلم واصل جريانه ، وتابع صريره فوق صفحات أخـــرى ، يكتب عن المورد العذب الذى ينقع غلـــة الجائب المجهد ، وعن جراح مسعد البشر المقدسة التى تقطر دما ، وعن الطريق الضيق والطريق العريض ، وعن جلال الله · ولا ننكر ان القنصل كان بعـــد هذه الجملة أو تلك يجنح الى الاكتفاء ، واقرار القلم ، والتوجه الى زوجته أو الى المكتب · ولكن كيف ؟ هل أسرع اليه التعب من مناجاة خالقه وحافظه ؟ وأى جحود لمولاه ان يكف الآن عن الكتابة ··· كلا ، كلا ، فهو لكى يكبح رغبته الجامحة جعل يستشهد بآيات طويلة من الكتاب المقدس ويصلى لوالديه وزوجه وأطفاله ونفسه · وقد صلى لاخيه جوتهولد أيضا ، ـ وأخيرا بعد آية أخيرة من الانجيل و « آمين » أخيرة كررت ثلاث مرات ، رش رملا أصفر على ما كتب ، واســـتند الى الوراء متنفسا الصعداء ، ووضع ساقا على ساق ، وجعل يكر ورق الكراسة متصفحا اياه فى تؤده ، ليقرأ هنا وههنا فقرة من التاريخ والتأملات التى جرى بها قلمه فيها ، وليستشعر مرة أخـــرى السرور حين يتبين كيف باركه الله دائما وحماه من كل خطر ، وقد نزل به الجدرى شديد الوطأة حتى يئس الجميع من حياته ، لكنه نجا ·· ومرة ـ وكان مايزال غلاما ـ شهد الاستعدادات لعرس من الاعراس فخمرت البيرة بكثرة (اذ كانت العادة القديمة ان تخمر البيرة فى

البيوت) وأقيم لهذه الغاية برميل أمام البيت ، فسقط البرميل ، وأصاب فاء« الغلام في طرقعة وعنف بلغ منهما ان بادر الجيران اليه وبذل ستة منهم جهدا كبيرا في رفع البرميل واقامته من جديد . وقد رض رأس الغلام وسـال دمه غزيرا فوق جسمه ، وحمل الى حانوت ، واذ كان ذماء من حيـاة مايزال فيه حمل الى طبيب والى الجراح . وصبر الناس أباه وطلبوا اليـه الاستسلام الى الله فما يرجى للغلام حياة . ثم ، واسمع ! لقد بارك الله القدير العلاج ورد اليه العافية وأسبغ عليه الشفاء ! ـ فلما استحضر القنصل هذا المصاب في ذهنه من جديد أمسك بالقلم ثانية وكتب بعد آمين الاخيرة : أي رباه ، سأظل أسبح بحمدك على الدوام ! »

وفي مرة أخرى لما جاء الى برجن وهو مايزال فتى انجاه الله من خطر عظيم .. وهذا ما كتب : « واذ كان علينا في زمن المد حين تصل مراكب خط الملاحة الشمالي ، أن نعمل جادين لنمر من القوارب ونصل الى جسرنا ، حدث لي خلال ذلك أن كنت واقفا على حافة المركب أطأ بقدمي حلقات المجذاف أسـند ظهري الى القارب الشراعي محاولا الاقتراب بالمركب . ولسوء الحظ انكسرت حلقات اللوط التي كنت أضع قدمي عليها فانقلبت في الماء . فلما طفوت على السطح أول مرة لم يكن أحد قريبا مني الى حد أن يستطيع الامساك بي . وطفـوت لثاني مرة فاذا بالقارب يتجه الى ما فوق رأسي . وكان هناك الكفاء ممن يريدون انفاذي لكنه كان عليهم أن يدفعوا حتى لا يستقر القارب الشراعي والمركب فوق رأسي . وما كان كل دفعهم ليجدي لو لم يفلت في هذه اللحظة حبل من قارب شراعي تابع لخط الملاحة الشمالي فاندفع عرضا ، وبهذا انفرجت أمامي فسحة واسعة من الماء الطليق فأخلت الاقدار لي بهذا مكانا . ومع اني لم أطف مرة ثالثة الا بقدر ما ظهر شعر رأسي للعيان فقد حدث ان أحد من كانوا هنا أو هناك في المركب منكبين فوق الماء ، وكان رأسه مطلا منها منكفئا الى الامام ، أمسك بي من ناصيتي فتعلقت بذراعه . لكنه لما لم يستطع هو نفسه تماسكا صاح وزعق بحيث سمعه الآخرون فبادروا اليه يقبضون عليه من وسـطه ويحتجزونه بقوة حتى استطاع الصمود . كذلك أنا لم أرخ قبضتي وان كان الرجل قد عضني في ذراعي ، وكان بذلك ان اسـتطاع معونتي ... » وتلا هذا صلاة شكر مستفيضة ، تلاها القنصل بعينين ثرتين .

وجاء في موضع آخر : « كنت خليقا أن أروي الكثير لو أني عنيت باكتشاف نزواتي ، لكن ... » وتجاوز القنصل هذا الكلام وجعل يقرأ هنا وههنا بضعة أسطر من عهد زواجه وشعوره بالابوة لاول مرة . وهذه الرابطة ، اذا كان لابد أن يكون صادقا ، لم تكن بالذات ما يسميه الناس زواجا عن حب . فقد ربت على كتفه يوما ووجه التفاتة الى ابنة كروجر الثري الذي قدم الى الشركة

بائنة طائلة ، فوافق من قلبه على الزواج منها وجعل منذلك الحين يحترم زوجته كرفيقة جعلها الله في كنفه وعهد بها اليه ...

على هذا المنوال سار أبوه في زواجه الثاني

رجل طيب ، رجل ظريف

رجل هاش رقيق

بهذا كان يتغنى بصوت خافت في حجرة النوم . ومن أسف أنه لم يكن يقدر كل هذه المذكرات والاوراق القديمة كثيرا . فقد كان واقفا في الحاضر على كلتا ساقيه لا يشتغل كثيرا بماضي الاسرة ، وان كان فيما مضى قد زاد على الكراسة الذهبية السميكة بضع ملاحظات بخطه الذى لا يخلو من التنميق وفيما يتصل بزواجه الأول على الاخص .

وفتح القنصل الصفحات الاولى التى كانت أقوى وأخشن من الورق الذى ضمه بنفسه اليها والتى بدأت تصفر ... أجل ، ان يوهان بودنبروك لابد أن كان يحب هذه الزوجة الاولى ، ابنة تاجر من بريمن ، حبا جما . والسنة الواحدة القصيرة التى سمحت له الاقدار بأن يعيشها الى جانبها قد كانت أجمل سنيه . وقد جاء في الكراسة عنها « السنة التى هى أسعد سنة فى حياتى . » وقد خط تحت هذه العبارة خطا متموجا فكانت هناك معرضة لخطر اطلاع مدام أنطوانيت عليها ...

ثم ولد جوتهولد فكان سببا لهلاك جوزفين ... ودونت ملاحظات فوق القرطاس الخشن تتصل بذلك . ويلوح انيوهان بودنبروك أبغضهذا الكائن الجديد بغضا حقيقيا مريرا من تلك اللحظة التى سببت فيها تحركاته الاولى الجريئة لامه آلاما شنيعة حتى جاء الى هذه الدنيا صحيحا نشيطا ، بينما قضت جوزفين وهى تتلوى فوق الوسائد برأسها الذى هرب الدم منه ، ولم يغفر هو أبدا لهذا الدخيل الذى لم يبال ، والذى نما قويا خلى البال . انه قتل أمه ... وهذا شيء لم يفهمه القنصل . فقد ماتت فى رأيه وهى تؤدى واجب المرأة السامى ، ولكان خليقا ان يحول الى المولود حبه لامه التى حبته بالحياة وخلفته له راحلة هى ، ويخصه بالحنان ... لكنه أى الأب ، لم ير فى ابنه الاكبر غير الشقى الذى هدم سعادته . ثم تأهل بعد ذلك بأنطوانيت دوشان سليلة الاسرة الهامبورجية الغنية المبجلة فعاش الاثنان معا فى رعاية واحترام .

وقلب القنصل فى الكراسة هنا وههنا فقرأ فى المؤخرة حكايات صغيرة عن أولاده هو ، متى شفى توم من الحصبة ، وتونى من اليرقان ، وكريستيان من الجدرى . وقرأ عن الرحلات المختلفة التى قام بها مع زوجه الى باريس

وسويسره ومارينباد ، ثم رجع يقلب حتى بلغ الصفحات التى شاعت فيها النقط الصفراء ، وألم بها التمزق فحاكت الرقوق ، والتى خطهـا الشيخ يوهان بودنبروك الجد بمداد رمادى باهت بحروف منمقة واسعة • وقد بدأت هـذه المذكرات بشجرة مـديدة للنسب تتبع الخط الأصلى • وفيها كيف أن واحدا يدعى بودنبروك وهو الاكبر المعروف ، عاش فى بارتشيم ، وأصبح وابنه فى نهاية القرن السادس عشر عضوين فى بلدية جراباو ، وكيف ان بودنبروك آخر وهو خياط أردية ماهر تزوج فى رشتوك و « عاش عيشة راضية جدا » ـ وقد خط تحت هذا خط ـ وأنه أنجب عددا ضخما من الأولاد أمواتا وأحياء ، كيفما اتفق ••• وكيف أن واحدا آخر كان يسمى يوهان أيضـا أقام تاجرا فى روشنوك ، وكيف أن جد القنصل جاء فى النهاية وبعد سنوات الى هنا وأسس شركة الحبوب • وكانت كل البيانات الخاصة بهذا الجد معروفة : متى أصيب بالحصبة ومتى بالجدرى الحقيقى • كان هذا مدونا بأمانة ، ومتى سـقط من الطبقة الثالثة على الآتون ، وبقى حيا على الرغم من أن عددا كبيرا من العوارض الخشبية كان فى طريق سقوطه ، ومتى وقع فريسة حمى عاتية لازمها الهياج كل هـذا كان مدونا تدوينـا نظيفـا • وقد كان يضيف الى مدوناته بعض الارشادات الطيبة لذريته ، وفى جملتها تبرز الجملة الآتية مرسومة بعناية بخط قوطى عال محوطة باطار : « كن ياولدى صزيحا فى أعمالك ولاتفعـل الا مايجعلنا ننام بالليل ملء جفوننا • » ثم جاء فى هذه المدونات مايثبت تفصيـلا أن الانجيل القديم المطبوع فى فيتنبرج يخصـه وأنه يئول الى ابنه البكر ومن بعده الى أكبر ابنائه ••

وجذب القنصل بودنبروك الحافظة الجلدية اليه ليستخرج هـذه أو تلك من الاوراق الاخرى ويقرأها • وكانت تحتـوى رسائل عتيقـة مصفره ممزقه كانت كتبتها أمهـات مهمومات الى أبنائهن العاملين فى الغربة وعلق عليهـا منلفوها بهذه الملاحظة : « وصلت سالمة وكرم فحواها » وكان فيها رسائل من مراطنين تعلوها رنوك مدينة هانزا الحرة وخاتمها ، وبوالص وقصائد تهنئـة وخطابات تعميد • وكان فيها رسائل مؤثرة تتنـاول الأعمـال ، وكان الابن كتبها من استوكهلم أو أمستردام الى الأب الشريك تجمع بين تطمينه على القمح المضمون تقريبا وتحميله السلام الى الزوجة والاولاد ••• وكان فيها يوميـات خاصة للقنصل عن رحلته فى انجلتره وبرابنت • وهى كراسـة على جلدتهـا نحاسة تمثل قصر ادنبره وسوق الدريس• وكان فيها كوثائق محزنة رسائل جوتهولد السيئة الى أبيه ، أخيرا كخاتمة سارة قصيدة الحفلة الاخـيرة التى نظمها جان جاك هوفشتيده •

ودق الجرس دقا رقيقا سريعا • وكان برج الكنيسة فى تلك اللوحة الكامدة

اللون المعلقة فوق المكتب ، والممثلة لميدان سوق من قديم الزمان ، يحتـــوى ساعة خفيفية دقت عشرا على أسلوبها • فأطبق القنصل حافظة الاسرة وأودعها فى عناية درجا خلفيا من أدراج المكتب ثم توجه الى حجرة النوم •

وهنا كانت الجدران مكسوة بقماش داكن تحليـــه أزهار كبيرة من نفس القماش المصنوعة منه الستائر العالية المركبة على سرير النفساء • وكان جـو المخدع يشع الاستجمام والســلام بعد المخــاوف والآلام • وكان الموقد مايزال يدفىء الحجرة دفئا خفيفا ، ورائحــة يمتزج فيها ماء الكولونيــا وفوح الأدوية تنسبح فى المكان • وكانت الستائر المسدلة ينفذ منها الضوء خابيا •

كان كلا العجوزين ينحنى فوق المهد جنبا الى جنب يتأملان المولودة النائمة لكن القنصــلة وكانت ترتدى ســـترة أنيقة من الدنتيلا ، وشعرها المائل الى الحمرة مسرح أجمل تسريحة ، مدت الى زوجها ، والشحوب باد عليها لم يزيلها بعد ، وان كانت مشرقة الوجه بابتسامة سعيدة ، يدها الجميلة التى كان يصل على معصمها ســوار ذهبى ويرن رنينــا خفيفا • وقد أدارت فى ذلك باطن اليد على قدر الامكان جريا على عادتها ، فبدا هذا كأنما يرفع فى تأثير المحبة البــادية فى هذه الحركة ••

« والآن كيف حالك يابتسى ؟ »

« بديع ، بديع يا جان يا حبيبى »

وأدنى وجهه من الطفلة قبالة ابويه ويده فى يد زوجه وكانت الطفلة تتنفس بصوت مسموع فاستنشق أبوها خلال دقيقة عبيرا دافئا طيبا مؤثرا كان ينتشر منها وقال بصـــوت خافت : « فليباركك الله ! » وقبل جبــين الكائن الصغير وكانت أصيبعاته الصفراء المجعدة تشبه براثن الدجاج شبها غريبا !

ولاحظت مدام انطوانيت : لقد رضعت رضـــاعا عظيما • انظروا لقد زادت زيادة مدهشة ••• »

وكان وجـــه يوهان بودنبروك متهللا اليـــوم من الغبطة والفخر • قال : « أتصدقون انها تشبه انطوانيت • ان لها عينين سوداوين تبرقان ، ماشاء الله ! »

فعارضت السيدة العجوز فى تواضع : « كيف يمكن الـــكلام من الآن عن الشبه ••• أتريد الذهاب الى الكنيسة ياجان ؟ »

قال : « أجل ، انها العاشرة • لقد حان الوقت ، وانى أنتظر الأطفال ••• »

وسمعت أصـــوات الأطفـــال بالفعل • وكانوا يضجون فوق الدرج على غير ما ينبغى ، بينما كان صوت كلوتيلده يقع كالفحيح يدعوهم الى الهدوء • لكنهم دخلوا بعدئذ وهم فى معاطف الفراء ، اذ كان الجو مايزال باردا بطبيعة الحـــال

فى كنيسة مريم ، ومشوا مخافتين حذرين ، مراعاة أولا للأخت الصـــغيرة ولأنه كان ثانيا من الضرورى أن يجتمعوا قبل الصـــلاة ٠ وكانت وجوههم متوردة من الانفعال فياله من عيد اليوم ! فلابد أن اللقلق ، وهو لقلق ذو عضلات قوية ، قد جلب مع الأخت الصغيرة كل فاخر وغال : حافظة كتب جـديدة ، وجا. كتب بحر لتوماس ، ودمية كبيرة بشعر حقيقى ، وهذا هو الشىء الفريد لانتونيا ، وكتاب مصور زاه بالألوان لكلوتيده المطيعة التى كانت تستأثر من دونهم بأقماع السكر فى هدوء وامتنان ، وقد جاء بها اللقلق أيضـــا ، كما جاء لكريستيان بمسرح كامل للعرائس وفيه السلطان والموت والشيطان ٠

وقبلت الأولاد أمهم ، وسمح لهم بأن يلقوا مرة أخرى من خلف الســتارة الحريرية الخضراء نظرة سريعة فى احتياط وحذر ، ثم خرجوا فى صمت وسكون الى الكنيسة فى صحبة الوالد الذى ألقى على كتفيه معطفا ذا قلابة عريضـــة ، وتناول بيده كتاب المزامير ، يتبعهم صياح عضـــو الأسرة الجـــديد يخرق الأسماع بعد اذ استيقظ بغتة ٠٠٠

الفصل الثـــــانى

كانت تونى بودنبروك تخرج دائمـا فى الصيف وربما فى مايو أو يونيه ، الى جديها تجاه « باب القصر » مبتهجة مسرورة .

ذلك ان الحياة هناك فى الخلاء كانت طيبة ، الحيـــاة فى الفيلا المجهـــزة بالآثاث الفاخر ، المزودة بالابنية الملحقة المترامية ، والمساكن المخصصة للخدم ومحط المركبات ، والحديقة الهائلة المزروعة بالفواكه والخضر والأزهار المنحدرة فى انحراف الى نهر ترافيه . وكان آل كروجر يعيشـــون فى بذخ . ومع أن هناك فارقا بين هذا الثراء الباهر البراق ، والنعمة المكينة الرصـــينة بعض الشىء فى بيت أبوى تونى ، فانه كان من البين ان كل شيء عند هذين الجدين كان أفخم درجات مما هو فى بيتها . وقد كان لهذا وقعه فى نفس الآنســة بودنبروك الصغيرة .

فليس هنا تفكير قط فى عمل يؤدى فى البيت أو فى المطبخ ، بينما فى شارع منج كان الأب والجده يحثانها على ازالةالغبار والاقتداء بابنة عمها تيلده المجدة التقية المخلصة ، على حين كان الجد والأم لا يعلقان أهمية على ذلك . وكانت نزعات الاقطاع فى اسرة الأم تداخل الآنسة الصغيرة اذا ما أصدرت أمرا ما من كرسيها الهزاز الى الوصيفة أو الخادم ... وكانت هناك فتاتان وحوذى غير هذين يتبعان خدم الزوجين العجوزين .

ويمكن القول بأنه من الاشياء المؤاتية حين يستيقظ المرء فى الصبـــاح فى مخدع النوم الكبير المكسوة حيطانه بالورق الزاهى أن يكون اللحاف الاطلس الوثير هو ما تصادفه أول حركة من اليد . والجدير بالذكر أنه حين يتنـــاول أول طعام للافطار فى الحجرة ذات الشرفة الواقعة الى الأمام ونسيم الصـــباح يداعب الباب الزجاجى من الحديقة ، يقدم قدح من الشكولاته بدل القهوة أو الشاى ، أجل شكولاته مما يقدم فى أعياد الميلاد تقدم كل يوم ومعها قطعـة سميكة من الفطير الطازج .

ولاريب أن هذا الافطار كانت تونى تتناوله وحدها بغض الطرف عن أيام الآحاد ، اذ كان من عادة الجدين ألا ينزلا تحت الا بعد موعد بدء الدراسة بوقت طويل . فاذا ما أكلت فطيرتها بالشكولاته تناولت حافظة كتبها وهبطت من الشرفة تدبدب ، وسارت تخترق الحديقة الأمامية المنسقة .

لقد كانت الصغيرة تونى مخلوقة ظريفة غاية الظرف . كان شعرها الغزير

تبرز خصله من تحت قبعه القش ، وندكن شقرته مع الأيام • وكانت شفتها العليا المفترة الى أعلى بعض الشيء ، تكسب محياها الصغير النضر بعينيها الضاحكتين ، المشربة زرقتهما بالغبرة ، تعبيرا يدل على الجرأة يعود فيظهر في فمها الصغيرة الظريفة • وكانت تضع ساقيها الدقيقتين في جوربين ناصعي البياض في ثبات فيه رفق وفيه مرونه • وكان الكثيرون يعرفون ابنه القنصل بودنبروك الصغيرة ويحيونها حين تخرج من باب الحديقه الى الطريق المغروس بشجر الكستناء ، ربما مرت بها بائعة خضر تضع على رأسها قبعة كبيرة من القش ، مزدانة بأشرطه خضراء زاهية الخضرة ، وتسوق عربتها الصغيرة الى داخل الحديقة آتية من القرية فتلقى اليها ودودة بتحيه الصباح • وحمال الحبوب ماتهيزن الطويل القامة فى ردائه الاسود وسراويله المنتفخة وجوربيه الأبيضين وحذائه ذى الابزيم — ماتهيزن هذا يرفع لها حين يمر بها قبعته العالية الخشنة احتراما •

كانت تونى تظل لحظة واقفة تنتظر جارتها جوليا هاجنشتروم التى اعتادت أن ترافقها فى الطريق الى المدرسة وكانت طفلة مرتفعة الكتفين قليلا ذات عينين واسعتين سوداوين براقتين ، تسكن الفيلا المجاورة التى تحوطها الكروم من كل ناحية • وقد تزوج أبوها هاجنشتروم وكان فى الناحية منعهد قريب ، من شابة فرانكفورتيه ذات شعر أسود غزير بصورة غير عادية ، تحلى أذنيها بأضخم ماسات المدينة وتنتسب الى آل سيملنجر ، وكان شريكا فى شركة تصدير تسمى شترونك وهاجنشتروم ، يبدى فى شئون المدينة كثيرا من الهمة والطموح ، أثار مع ذلك بزواجه بعض النفور عند أناس ذوى تقاليد صارمة مثل آل مولندورف ولانجهالز وبودنبروك • ولم يكن ، بغض النظر عن هذا ، محبوبا كثيرا على الرغم من نشاطه بوصفه عضوا فى لجان ومجالس ادارة وماشاكلها كان يبدو أنه قد صمم على مخاصمة أبناء الأسر المستوطنة من قديم فى كل مناسبة ، وتسفيه آرائهم فى صلف ، وانفاذ آرائه هو والتظاهر بأنه أمهر منهم وأحدق ، وأنهم يستغنى عنهم ولا يستغنى عنه • وقد قال القنصل بودنبروك عنه : « ان هنيريش هاجنشتروم يثقل على بمضايقاته ••• ويظهر أنه يتعمدنى بها شخصيا ، فحيثما استطاع اعترض طريقى ••• لقد وقعت اليوم مشادة فى جلسة اللجنة المركزية للفقراء ، ومن بضعة أيام مضت فى الادارة المالية ••• » فأضاف يوهان بودنبروك : « هذا فضول مزعج !» وفى مرة أخرى جاء الأب والابن غاضبين مهمومين ••• ماذا حدث ؟ لا شيء ••• لقد خسروا شحنة كبيرة من الحنطة السوداء كانت سترسل الى هولنده فاختطفها شترونك وهاجنشتروم منهم أمام أعينهم • انه لثعلب هينريش هاجنشتروم هذا •

كانت تونى تسمع مثل هذه العبارات كثيرا فلا تؤثر فى عواطفها نحو جوليا هاجنشتروم فتيلا فكانتا تسيران معا لأنهما كانتا جارتين • لكنهما كثيرا

ما تغضب احداهما الأخرى ٠

كانت جوليا تقول : « انّ أبى يملك ألف ريال » وهى تعتقد انها تكـذب كذبا شنيعا ثم تستطرد : « لعل أباك ؟ ٠٠٠ »

فتصمت تونى من الحسد والمذلة ثم تقول عرضا فى هدوء تام :

« ان النسكولاته التى تناولتها من هنيهة لذيذة الطعم ٠ فماذا تشربين حقـا يا جوليا فى أثناء الافطار ؟ »

فتجيب جوليا : « قبل أن أنسى ٠ أتريدين تفاحة من تفاحى ؟ – لكننى لن أعطيك شيئا ٠ » وتزم فى هذا شفتيها ، وتنثر عيناها السوداوان من الغبطة ٠

وكان هرمان أخو جوليا الذى يكبرها ببضع سنوات يذهب أحيانا فى نفس الوقت الى المدرسة ٠ ولجوليا أخ ثان اسمه موريتس ، لكن هذا كان متوعكا وكان يعلم فى البيت ٠ وكان هرمان أشقر الشعر لكن انفه كان أفطس قليلا يطغى على شفته العليا ٠ كذلك كان يسأسىء دواما بشفتيه لأنه كان يتنفس من فمه فقط ٠٠

قال : « سخف !! ان أبى يملك اكثر من ألف ريال بكثير ٠ » بيد أن الذى كان يثير اهتمام الغير ، هو انه لم يكن يحمل معه خبزا الى المدرسة لافطـــاره الثانى بل خبيز الليمون ، وهو نوع طرىء بيضـــاوى معجون باللبن محشو بالزبيب يوضع عليه للتزيد مقانق اللسان أو صـــدر الاوز ٠٠ هـكذا كان ذوقه ٠٠

كانت تونى بودنبروك تجد فى هذا شيئا جديدا ٠ خبيز الليمون مع صدر الاوز ٠ لابد أن يكون طيب المذاق ! وعندما يدعها تنظر فى علبـة الصفيح تنم نظرتها عن اشتهائها تجربة قطعة منه ٠ وذات صباح قال هرمان : « لاأستطيع أن أستغنى عن شىء منه يا تونى ٠ لكننى سأحضر غـدا قطعة زيادة ٠ وهـذه ستكون لك اذا شئت ان تعطينى فى مقابلها شيئا » ٠

وخرجت تونى فى صباح اليوم التالى الى الطريق وانتظرت خمس دقائق من دون أن تأتى جوليا ٠ وانتظرت دقيقة أخرى فجاء هرمان وحده يطوح بعلبة افطاره من سيرها ، ويسأسىء بصوت خافت ٠

قال : « هاهى ذى خبيزة الليمون بصدر الاوزة ، ليس فيها دهن اطلاقا بل كلها لحم ٠٠ فماذا تعطيننى فى مقـابلها ؟ »

فسألته تونى : « ربما شلنا ؟ » وكانا واقفين فى الطريق ٠

فردد هرمان : « شلنا ؟ ٠٠٠ » وابتلع ريقه وقال : « لا ، انى أريد شـيئا آخـر ٠ »

فسألت تونى : « وما هو ؟ » وكانت مستعدة لتقـديم كل شيء ممكن فى مقابل هذه اللقمة الشهية ...

فصاح هرمان هاجشتروم : « قبلة ! » وطوق تونى بذراعيه وجعل يقبلها خبط عشواء من دون أن يظفر بوجهها لانها أطرحت رأسها الى الوراء فى مرونة بالغة ونبتت يدها اليسرى على صدره تدفعه بحافظة الكتب ، وكالت له باليمنى ثلاث ضربات او أربعا على وجهه بكل قواها ... فترنح متراجعا ؟ لكنـه فى نفس اللحظة هبت اخته جوليا من خلف شجرة كالشيطان الأسود وارتمت على تونى وهى تفح من الحنق ، وانتزعت قبعتها من رأسها ، وجعلت تخدش خديها بكل قسوة ... وكان هذا الحادث ختام هذه المرافقة .

لم يكن اباء تونى اعطاء القبلة للصغير هاجنشتروم حياء منها بالتأكيد ، فقد كانت مخلوقة جريئة تقريبـا سببت بتهورها بعض الهموم لوالديها وعلى الأخص أبيها . ومع أنها كانت ذكية وحصلت فى المدرسـة فى سرعة ما كان غيرها لايزال يشتهيه ، فان مسلكها كان الى درجة بعيدة معيبا حتى ان ناظرة المدرسة ، وكان اسمها الآنسة أجاتا فرميرين ، توجهت الى منزل الأسرة فى شـارع منج مبللة بالعرق قليلا من فرط الارتباك وطلبت الى القنصلة تعنيف ابنتها الصغيرة ، ذلك أنها على الرغم من انذارها اياها مرارا فى لطف ارتكبت فى الشارع من جديد خرقا علنيا .

ولم يكن عيبا أن تونى كانت تعرف الناس جميعا فى المدينة رائحة غادية ، ولا أنها كانت تتحدث مع كل الناس . فالقنصل خاصة كان راضيا عن ذلك ؟ ان هذا المسلك لا ينم فيها عن تكبر وغطرسة ، بل عن مشاطرة وحب للناس. وكانت تتسلق هى وتوماس المخازن الواقعة على نهر تريفه بين أكوام القرطمان والقمح ، وكانت تثرثر مع العمال والكتبة الذين كانوا يقتعدون الأرض فى المكاتب الصغيرة المظلمة ، بل انها كانت تساعد فى الخارج فى ربط الاعدال . كانت تعرف القصابين الذين كانوا يجوبون شارع برايتن بمآزرهم البيضاء وقصاعهم . وكانت تعرف بائعـات اللبن اللواتى كن يفـدن من الريف بصفائحهن وقد ركبت معهن مرة قطعة من الطريق . كانت تعـرف الاسطوات ذوى اللحى البيضاء فى الدكاكين الخشبية الصغيرة ، دكاكين الصياغ المبنية فى بوائك السوق وبائعات السمك والفاكهة والخضر ، كما تعرف الخـدم الذين كانوا يقفون فى زوايا الشوارع يمضغون التبغ ... كل هذا حسن وجميل !

لكن انسانا شاحب اللون حليقا لا تعرف سنه اعتاد أن يذرع شارع برايتن متجولا على هواه فى الصباح وعلى فمه ابتسامة حزينة ، لا يملك الا ان يرتاع

كلما سمع صوتا مفاجئا يند عن انسان مثل « ها » أو « هو » فيرقص عندئذ على ساق واحدة ، فكانت تونى مع ذلك ترقص كلما لقيته . كذلك ليس جميلا أن تكدر تونى سيدة قصيرة القامة بالغة الضآلة تحمل رأسا كبيرا من عادتها اذا ساء الجو أن تنشر فوق رأسها مظلة مثقبة ، أن تكدرها دائما بنداءات مثل : « مدام مظلة » و « عش الغراب » . وانه ليستحق اللوم ان تظهر مع اثنتين أو ثلاث من صويحباتها اللاتى كن على شاكلتها أمام بيت بائعة الدمى العجوز التى تتجر بالعرائس الصوفية فى عطفة ضيقة متفرعة من شارع يوهان ، قد ركب فى وجهها عينان حمراوان غريبتا الحمرة على التحقيق ، فتدق جرس البيت بكل قواها ، فاذا ما خرجت العجوز سألتها وهى تصطنع اللطف هل يسكن هنا السيد والسيدة « مبزق » ثم تهرب مع صويحباتها فى صخب شديد ... كل هذا يلوح ان تونى بودنبروك كانت تفعله ، بضمير مرتاح كل الارتياح . فاذا هددها أحد ممن تعذبهم وجب ان يرى هذا الواحد كيف تتراجع خطوة وتطرح رأسها الجميل الى الوراء بشفته العليا المفترة وتطلق من فمها « يا » ينم نصفها عن الغضب والنصف الآخر عن السخر كأنما تريد أن تقول : « ارنى اذا كنت تستطيع ان تمسنى بسوء !! انى ابنة القنصل بودنبروك اذا كنت لم تعرف . »

لقد كانت تجوب المدينة كأنها ملكة صغيرة تحتفظ لنفسها بحق التودد أو القسوة كيفما يشاء ذوقها وهواها .

الفصل الثالث

كان جان جاك هوفشتيدهقد أصدر حكما صائبا بالتأكيد فيما يتعلق بابنى القنصل بودنبروك كليهما • كان توماس الذى أعد منذ ولادته ليكون تاجرا ومالكا للشركة فى المستقبل والذى كان ينتمى الى القسم العلمى فى المدرسة القديمة ذات الاقبية القوطية ، انسانا عاقلا نشطا فطنا • وكان الى ذلك يغنبط أشد اغتباط حين يعمد أخوه كريستيان الملتحق بالقسم الادبى والذى لا يقل عنه موهبة لكنه يقل عنه جدا الى تقليد مدرسيه بمهارة فائقة ، وخاصة السيد الحاذق مارسيلاس شتنجل الذىكان يدرس الغناء والرسم وماشاكلهما من المواد الخفيفة •

وكان الهر شتنجل الذى كانت تطل من جيوب صدريته على الدوام نصف دستة من الأقلام الرصاص المبرية المدببة تدبيبا عجيبا يرتدى عارية شعر كفروة رأس الثعلب وسترة مفتوحة لونها بنى فاتح تصل الى عقبه تقريبا وبنيقة عالية تصل الى سالفتيه • كان رجل دعابة يحب التمييز الفلسفى بين كلمة وكلمة فيقول : « ينبغى ان ترسم خطا يا بنى فماذا تفعل ؟ انك تخط شرطة ! » أو يخاطب بليدا فيقول : « انك لا تتخلف فى السنة الرابعة سنوات بل سنين ! » وأحب ما يدرسه هو ان يمرن التلاميذ فى حصة الغناء على الاغنية الجميلة « الغابة الخضراء » وهو ما يجب أثناءه ان يخرج بعض التلاميذ الى الطرقة ليرددوا ، حين تغنى المجموعة : « نحن نجوب الحقل والغاب مرحين » الكلمة الاخيرة كصدى مخافتين متئدين • فاذا كلف بهذا كريستيان بودنبروك أو ابن خاله يورجن كروجر أو صديقه أندرياس جيزيكه ابن مدير المطافىء ، ألقوا بدلا من ترديد الصدى الخفيف بصندوق الفحم يتدحرج فوق الدرج ، وعوقبوا بالتخلف فى الساعة الرابعة بمنزل الهرشتنجل • وهنا كانت الامور تجرى مجرى حسنا تقريبا ، اذ يكون السيد شتنجل قد نسى كل شىء ، وأمر مديرة البيت بتقديم فنجال من القهوة الى كل من التلاميذ بودنبروك وكروجر وجيزيكه ثم يصرف الفتيان •

وفى الواقع ان العلماء الاوائل الذين يؤدون وظائفهم فى أقبية المدرسة القديمة ، وكانت من قبل تابعة لدير تحت امرة مدير مسن انسان يتنشق الصعوط ، كانوا أناسا عديمى الاذى طيبى القلب متفقين على الرأى القائل بأن العلم والمرح لا يتعارضان ، حريصين على أن يؤدوا أعمالهم فى عطف واغتباط • وكان فى الفصول الوسطى واعظ سابق يدرس اللاتينية اسمه الراعى هيرته(*) ، سيد طويل القامة ذو لحية عارضية كستنائية وعينين

---

* Hirte بالالمانية معناها الراعى •

مبتهجتين يرى السعادة فى حياته من مطابقة اسمه للقبه · وأحب عبارة اليه هى « ضيق الذهن ضيقا لا حد له » · ولم يتبين قط هل هذه فكاهة مقصودة· لكنه اذا أراد أن يربك تلاميذه تماما حدث عن فن اطبـاق الشفتين على الفم ثم اطلاقهما بسرعة بحيث يند عنهما صوت كفرقعة سدادة الشمبانيـا الطائرة · وكان يحب ان يجول فى حجرة الفصل بخطى واسعة ويحدث هذا أو ذاك من التلاميذ فى حرارة زائدة عن حياته المستقبلة بأكملها يبغى ان ينشـط خياله قليلا · ثم ينصرف الى العمل جادا أى يستمع الى الابيـات التى نظمها عن « قواعـــد الشعر » وعن تركيبات صعبة منوعة بمهارة حقة ، أبيات كان الراعى هيرته يتلوها فى نبرة الظافر الذى يؤكد الايقاع والقافية بما لا سبيل الى تقليده ···

وصبا توم وكريستيان ··· ليس فيه ما يستحق الذكر · ففى تلك الايام كانت الشمس تسطع فى بيت بودنبروك حيث كانت الاعمال تؤدى فى المكاتب على خير وجه · وأحيانا كانت تهب عاصفة ويقع مصاب صغير كهذا :

« السيد شتوت خياط فى شارع جلوكنجيسر ، كانت له زوجة تشـترى الملابس القديمة وتختلط فى طلبها بالاوساط الراقية والسيد شتوت الذى كان يكسو بطنه قميص صوفى ويضـغط هـذا البطن على سراويله فى استدارة مدهشة ··· السيد شتوت هـذا فصـل للفتيين بودنبروك بذتين تكلفتا معا سبعين ماركا ، لكنه عملا برغبة الاثنين أبدى استعداده لان يضيف الى الحسـاب ثمانين ماركا أخرى بكل بسـاطة يسلمهما اياها نقدا يدا بيد · وكانت هذه صفقة صغيرة ··· حقا انها لم تكن نظيفة كل النظافة ، لكنهـا ليست مما يخرج عن المألوف · بيد ان المصاب كان فى ان الامر انكشف بفعل القدر المتجهم حتى ان السيد شتوت اضطر الى الحضور الى مكتب القنصـل الخاص وفوق قميصه الصوفى سترة سوداء ليجرى فى حضرته تحقيق صارم مع توم وكريستيان · وكان السيد شتوت يقف الى جانب الكرسى السـاند الذى يجلس عليه القنصل منفرج الساقين لكنه يميل برأسـه جانبـا ويسلك مسلكا يدل على الاحترام الشديد ، فألقى خطبة ملطفة فحواها ان هـذه المسألة مسألة أى مسألة ! وانه ليكونن من بواعث اغتباطه ان يأخذ السـبعين ماركا ثانية مادام الأمر قد حبط · وكان القنصل قد استشاط غضبا من هذه الفعلة لكنه بعد انعام النظر من جانبـه انتهى الى ان رفع مصروف جيب ولديه ، ذلك ان الآية تقول : « لا تقدنا الى التجربة !

والظاهر أنه كان يعلق على توماس بودنبروك آمالا أكبر من التى كان يعلقها على اخيـــه · فقد كان مسلكه يتسم بالاتزان والمرح المعقول ، على حين كان

كريستيان يبدو هوائيا ، يميل الى هزل يزجيه الحمق من جانب ويشيع من جانب آخر ذعرا غريب الصورة فى الاسرة بأكملها ..

وتجلس الاسرة الى المائدة ، وتصل الى الفاكهة ، وتأكل فى حديث سار وبغتة يرد كريستيان الى الطبق خوخة عضها وهو ممتقع اللون جاحظ العينين المستديرتين الغائرتين من فوق أنفه البالغ الضخامة .

ويقول : « لن آكل خوخا مرة ثانية »

« لم لا يا كريستيان ... ما هذا الخرف ... ما خطبك ؟ »

« فكروا لو أنى ابتلعت هذه النواة الكبيرة خطأ ووقفت فى حلقى ... فانقطع نفسى ... وهببت مختنقا فى صورة شنيعة ... وهببتم انتم جميعا » وبغتة يتبع كلامه هذا بأنة وجيزة مليئة بالرعب ، ويعتلى كرسيه ، ويتحول كمن يريد الهرب .

فتثب القنصلة والآنسة يونجمان فعلا .

« برب السماء يا كريستيان ، انك لم تبتلع النواة فعلا » ذلك أنه كان يبدو تماما كما لو كان ابتلعها بالفعل .

فيقول كريستيان : « كلا ، كلا » ويهدأ شيئا فشيئا ثم يقول : « لكنى لو كنت بلعتها !! »

ويأخذ القنصل الذى امتقع لونه أيضا من الفزع فى تأنيبه وكذلك الجد فانه يدق المائدة غاضبا ، ويستهجن مساخر المجانين هذه ... أما كريستيان فيظل يمتنع أمدا طويلا عن أكل الخوخ .

الفصـــــــل الرابـع

لم تكن الشيخوخة وحدها هي التي القت في يوم بارد من يناير نهائيا بمدام انطوانيت بودنبروك العجوز فوق سريرها العالي بمخدع نوم الطابق المتوسط بعد ست سنوات من انتقال الأسرة الى شارع منج • فقد كانت السيدة المسنة قوية البنية الى آخر لحظة تحمل خصلها الجانبية البيضــــاء الغزيرة وقورة منتصبة القامة • كانت تغشى المآدب الرئيسية التي تقام في المدينــــة مع زوجها وأولادها • وفي المجتمعات التي يعقدها بودنبروك نفســه لم تكن دون كنتها الانيقة تضييفا وترحيبا • لكنها في ذات يوم احست على حين بغتـة بألم لم تعرف كنهه تقريبا : تقيح خفيف فقط في المصران في مبدأ الأمر أمر الدكتور جرابو لعلاجـــه بقطعة حمام وشريحة من خبز فرانتس ، مغص مصحوب بقيء أدى بسرعة غير مفهومة الى خور في القوى وحالة من الوهن والضعف كانت تثير القلق •

فلما تحدث بعدئذ الدكتور جرابو مع القنصل على الدرج في الخارج حديثا وجيزا جديا ، ولما استدعى طبيب آخر وكان رجلا قصير القـــامة بدينا ، كث اللحية ، مظلم النظرة ، وجعل يدخل ويخرج مع جرابو تغير مظهر البيت أو كاد فكان أهل البيت يسيرون فيه على أطراف أصابعهم ويتهامسون في خطورة • ومنعت المركبات من الدروج عبر الرحبة ، وبدا كأن شيئا جديدا غريبا غيرعادي قد حل بالبيت ، سر كان الواحد يتبينه في عين الآخر ، وتسربت فكرة الموت الى الاذهان ، وسادت جو الحجرة الفسيحة في سكون •

لم يكن يجوز الاحتفال بأحد في مثل هذا الظرف ، ذلك أن زائرا حل ، وقد دام المرض أربعة عشر أو خمسة عشر يوما ثم جاء بعد أسبوع السناتور دوشان الشيخ شقيق المحتضرة ومعه ابنته التي تسكن هامبــورج ، بينما حضرت بعد ذلك ببضعة أيام شقيقة القنصل وزوجها المصرفي الذي يقيم في فرانكفورت • وقد نزل السادة بالبيت ، وانهمكت ايدا يونجمان في العمــل ، تدبر للضيف حجرات النوم وأطعمة الافطار مع الكابوريا ونبيذ البــورتو ، بينما كان المطبخ يعد الخمير والخبيز •

كان يوهان بودنبروك يجلس عند سرير المريضـــــة ويشرد بصره أمامه ويد انطوانيت العجوز الواهنة في يده ، وحاجباه مرتفعــان ، وشفته السفــلى متدلية قليلا • وكانت ساعة الحائط تتك بصوت مكتوم وعلى فترات طويلة ،

لكن المريضة كانت تتنفس على فترات أوجز تنفسا مقتضبا سطحيا ٠٠ وكانت ممرضة فى ثياب سود تشتغل على المائدة بنوع من الشاى يجرب تقديمه الى المريضة ، وبين الحين والحين يدخل عضو من الاسرة ثم يختفى ثانية من دون صوت ٠

ولعل الشيخ بودنبروك تذكر كيف كان يجلس من ست وأربعين سنة مضت لأول مرة الى سرير موت زوجة أخرى ٠ ولعله كان يقارن بين اليأس الطاغى الذى كان مستوليا عليه اذ ذاك ، وبين الاسى الهادىء الذى كان ينظر فى غمرته ، الآن وهو فى مثل هذه الشيخوخة ، الى وجه المريضة الحائل الخالى من التعبير ، الذى كان ينم فى صورة مرعبة عن عدم الاكتراث ، الى تلك السيدة العجوز التى لم تحبه قط الحب الذى يشعر بالسعادة العظيمة ، ولم تسبب له قط ألما كبيرا ، لكنها صمدت الى جانبه سنين طويلة كثيرة فى استقامة يزينها العقل ، فالآن ترحل بالمثل فى اتزان ٠

لم يكن يفكر كثيرا بل كان وهو يهز رأسه هزا خفيفا يستعرض هنا حياته هو ، والحياة بوجه عام بعد اذ تراءت له ، على حين بغتة ، بعيدة هذا البعد عجيبة هذا العجب ؛ هذه الضجة الصاخبة التىوقف وسطها ، ثم انحسرت عنه غير ملحوظة ، ثم عادت تنهى الى أذنه الصاغية المتعجبة أصواتها من بعيد ٠٠٠ وقد كان أحيانا يخاطب نفسه بصوت خافت قائلا : « عجيب ! عجيب ! »

فلما لفظت بعدئذ مدام بودنبروك نفسها الاخير البالغالقصر الموفور الهدوء ولما رفع الحمالون النعش المغطى بالأزهار فى قاعة الاكل التى تليت فيها الصلاة ليخرجوه فى خطو وئيد ــ لم تتغير نفسيته ، ولم يبك ولا مرة واحدة ، بل بقى يهز رأسه تلك الهزة البادية الاستغراب ، وظل يلفظ كلمته الاخيرة الباسمة : « عجيب » ٠٠٠ لاشك أن خاتمة يوهان بودنبروك قد دنت أيضا ٠

فقد جعل يجلس فى محيط الأسرة صامتا ، شارد الفكر ٠ فاذا أخذ مرة كلارا الصغيرة على ركبته ، ربما ليغنى لها احدى أغنياته القديمة المضحكة مثل :

« الحافلة تسير تخترق المدينه ٠٠٠ »

أو

« انظر ايها الساخط الجالس الى الحائط ٠٠ »

فقد يلوذ بالصمت فجأة ليضع الحفيدة على الارض ، ويخرج كذلك عن مجرى أفكاره الطويل الذى لا يزجيه وعى كامل ، هازا رأسه ، قائلا : « عجيب » ، ثم يتحول ٠٠٠ وفى ذات يوم قال :

« جان ، ــ كفاية ! »

من ذلك الحين بدأت المنشورات الجيدة الطبع ، والمزودة بتوقيعين ، توزع وفيها يعلن يوهان بودنبروك الكبير أن سنه المتقدمة تحمله على التخلي عما كان له الى تلك اللحظة من نشاط تجارى ، وأنه من جراء ذلك ينقــل من اليــوم فصاعدا الى ولده وشريكه الى هـذه اللحظة يوهان بودنبروك مؤسسة يوهان بودنبروك التى أسسها سنة ١٧٦٨ المرحـوم والده بكل مالها وما عليها تحت نفس الاسم مالكا وحيدا راجيا أن يظل لابنه الائتمان الذى كان من نصيبه هو في نواح كثيرة ، مع فائق الاحترام ، ــ يوهان بودنبروك الكبير الذى سيكف عن التوقيع .

بيد أنه لما أعلن هذا المنشور وامتنع الشيخ من ذلك الحين عن غشيان مكاتب الشركة استفحل شروده الفكرى ، فكفى بعد بضعة أشهر فقط من وفاة زوجته زكام بسيط مما يقع فى الربيع ، حــدث له فى منتصف مارس ، أن يلزمه الفراش ، ــ وفى احدى الليالى حلت الساعة التى أحاطت الأسرة فيها بسريره أيضا والتى قال فيها للقنصل :

« أتمنى لك حظا سعيدا يا جان ! وكن شجاعا على الدوام ! »

ولتوماس :

« أعن أباك ! »

ولكريستيان :

« كن شيئا صالحا ! »

ثم صمت ونظر الى الجميع واستدار الى الحائط وهو يقول : « عجيب ! » .

لم يذكر جوتهولد بكلمة حتى قضى ، فلما كتب اليــه القنصــل يدعوه الى الشخوص الى أبيه المحتضر لم يجب الابن الاكبر بغير الصمت ، لكنه فى الصباح التالى وفى ساعة مبكرة ، والنعى لم يرسل بعد ، والقنصــل يخرج الى الدرج لينهى فى مكاتب الشركة أهم الضروريات ، فى هذه اللحظة حدث الغريب ، اذ جاء جوتهولد بودنبروك صاحب متجر ســيجموند شتيونج وشركائه لبيع الكتان الكائن بشارع برايتن يعبر الرحبة بخطى سريعة . وكان فى السادسة والاربعين من عمره ، قصير القامة ، بدينــا ، ذا رأس قوى رمادى الشعر تتخلله شعرات بيضاء . وكان قصير الساقين يرتدى سراويل واسعة كالشوال من قماش خشن ذى تربيعات . وصعد الدرج الى القنصل رافعا حاجبيه تحت حافة قبعته الرمادية ، ثم مقطبا اياهما ثانية .

قال من دون ان يمد يده الى أخيه بصوت مرتفع ودود « يوهان كيف الحال ؟»

فقال القنصل متأثرا ممسكا بيد أخيه التى كانت تحمل مظلة : « لقد قضى هذه الليلة خير أب ! »

وخفض جوتهولد حاجبيه حتى انطبقت جفـونه ثم قال بعد صمت مفـكرا : « ألم يتغير شيء الى اللحظة الاخيرة يا يوهان ؟ »

فترك القنصـــل يده من فوره ، بل انه تراجع خطوة الى الوراء · وبينما تصفو عيناه المستديرتان الغائرتان قال :

« لا شيء »

فارتفع حاجبا جوتهولد تحت حافة القبعة من جـــديد وتركزت عيناه على أخيه فى جهد ·

وقال بصوت منخفض : « وماذا أنتظر من عدالتك ؟ »

فغض القنصل بصره من جانبه ، لكنه ، من دون أن يرفعه ثانيــة حرك يده من فوق الى تحت تلك الحركة الفاصلة واجاب جوابا ثابتا :

« لقد مددت اليك يدى فى هذه اللحظة العصيبة الخطرة كأخ · أما ما يتصل بشئون العمل فانى لا يسعنى الا ان اقف منك موقف رئيس الشركة المحترمة التى بت اليوم صاحبها الوحيد · فلن يسعك أن تنتظر شـــيئا يتعارض مع التعهدات التى تفرضها على هذه الصفة · أما عواطفى الأخرى فيجب الا يرتفع لها حس · »

وانصرف جوتهولد · ومع ذلك فانه ، لما ملأت الغـرف والدرج والدهاليز جمهرة الاقارب والمعارف والاصدقاء والوفود وحمالى الغلال والكتبة وعمـــال المخازن ، واصطفت جميع مركبات الأجرة فى المدينة على امتداد شارع منج ، جاء لتشييع الجنازة وهو ما اغتبط له القنصل مخلصا من جديد ، بل انه أحضر معه زوجه ابنة شتيونج وبناته الثـــلاث الكبار ، فريدريكه وهنرييت وكانت كلتاهما فارعتى الطول ، شديدتى النحول ، وفيفى الصغرى التى تبلغ الثامنة عشرة وكانت تبدو قصيرة جدا وبدينة ·

ولما اثنى القس كولنج راعى كنيسة القديسة مريم عند القبر ، فى مدفن أسرة بودنبروك ، هناك امام بوابة القصر ، على حافة ادغال المقبرة ، لمـا اثنى القس ، وكان رجلا قوى البنية عنيدا ، جاف القول ، على حياة الراحل المتسمة بالاعتدال ومخافة الله ، على نقيض حياة « المتلذذ النهم المسرف فى الشراب » ــ وكان هـــذا تعبيره ، وان كان بعض النـــاس ممن يذكرون زكانة الشـــيخ فوندرليش الذى مات حديثا ، هزوا رءوسهم عنـد هـذا القول ، لما أن فعل القس هذا ، وختمت الاحتفالات والرسميات ، وأخذت السبعون أو الثمانون مركبة من مركبات الاجرة ترتد الى المدينة ··· عرض جوتهولد بودنبروك على القنصل أن يصحبه ، لانه يريد أن يكلمه من دون ثالث بينهما · وانظر ! هنا

الى جانب الاخ غير الشقيق ، على المقعد الخلفى فى مركبة عالية واسعة ضخمة ، فى هذا المكان بدا جوتهولد ، وهو يضع ساقا من ساقيه القصيرتين على الاخرى ، مسالما دمثا ٠

قال : انه يتبين شيئا فشيئا ان القنصل يجب ان يسلك المسلك الذى يسلكه ، وأن ذكرى أبيه ينبغى ألا تكون فى نظره سيئة ٠ فهو يتخلى عن مطالبه ، ومن باب أولى لأنه يفكر فى الانسحاب من كل الاعمال والاخلاد الى الراحة بميراثه وما يتبقى له غيره ، ذلك ان تجارة الكتان لا تسره كثيرا ، وأنها تجرى مجرى بطيئا لا يشجعه على أن ينفق عليها أكثر مما انفق ٠٠٠

وقال القنصل فى نفسه : « ان تحديه لأبيه لم يجلب له بركة » وكان فى هذا التفكير يحدوه التدين ٠ ولعل جوتهولد كان يفكر تفكيره ٠

لكنه فى شارع منج رافق أخاه الى حجرة الافطار حيث تناول كلا السيدين كأسا من الكونياك المعتق بعد تلك الوقفة الطويلة فى هواء الربيع يرتعشان فى دراكهما من البرد ٠ وبعد أن تبادل جوتهولد مع زوج أخيه بضع كلمات تنطوى على المجاملة والجد ومس رءوس الاطفال خرج ليحضر بعد ذلك « يوم الاطفال » عند آل كروجر فى الخص هناك ٠٠٠ فلقد أخذ يصفى فعلا ٠

الفصل الخامس

كان شيء يؤلم القنصل : ان أباه لم يدرك دخول حفيده الاكبر المتجر وهو ما تم حوالى عيد الفصح من نفس السنة ٠

كان توماس فى السادسة عشرة من عمره لما غادر المدرسة ٠ كان منذ تثبيته(١) الذى أوصاه فيه القس كولنج بالاعتدال بعبارات قوية ناميا قويا ، يلبس فى العهد الآخر ملابس الرجال التى أبدته أكبر مما هو سنا ، وتتدلى من حول رقبته سلسلة الساعة الذهبية التى خصه الجد بها والتى كانت ميدانية تحمل رنك الاسرة معلقة بها ٠ وكان رنكا بادى الكآبة يمثل مساحة مظللة تظليلا غير منتظم وأرضا غامرة منبسطة تحتوى مرعى وحيدا عاريا على الضفة ٠ وأقدم من الرنك الخاتم ذو الحجر الاخضر الذى يرجح انه كان يحمله خياط الاردية ساكن روستوك الميسور الحال ٠ وقد انتقل هذا الخاتم الى القنصل ومعه الانجيل الكبير ٠

وكان شبه توماس بجده قويا كشبه كريستيان بأبيه ، وخاصة ذقنه المستديرة المتينة وانفه المستقيم البديع التكوين ، فقد كان كلاهما للشيخ ٠ وكان شعره المفروق من الجانب مرسلا الى الخلف فى تجويفتين عند سالفيه الضيقين المعروقين بشكل ملحوظ ٠ وكان أشقر داكن الشقرة على خلاف أهدابه الطويلة وحاجبيه اللذين كان يجب ان يرفع أحدهما قليلا ، فقد كانا على غير المألوف رائقين عديمى اللون ٠ وكانت حركاته ولغته كضحكه الذى كان يكشف عن أسنان أقرب الى أن تكون معيبة ، هادئة معقولة ٠ فهو يتطلع الى مهنته فى جد وهمة ٠

كان يوما يتسم بالجد البالغ حين انحدر به القنصل الى مكاتب المتجر بعد الافطار الأول ليقدمه الى السيد ماركوس الوكيل والسيد هافرمان الصراف وكذلك الى بقية الموظفين الذين كان من أمد صديقا لهم ، ويوم جلس لاول مرة الى مكتبه على كرسيه الدوار منهمكا فى الاختام والترتيب والنسخ ، ويوم قاده ابوه بعد الظهر أيضا نحو نهر ترافه الى مخازن « الزيزفون » و « السنديانة » و « الأسد » و « الحوت » حيث كان توماس فى الحقيقة فى بيته من أمد طويل ، عليما بها كل العلم ، لكنه الآن يقدم اليها كمعاون فى العمل ٠

---

(١) أى تثبيته على الايمان ، وهو مرسم مسيحى يكتب به ايمان الصبى ٠

وقد كان فيه متفانيا يقتدى بأبيه في اجتهاده المتسم بالهدوء والمثـابرة ٠ وكان أبوه يعمل في صمت ، ويدعو الله في يومياته ان يأخذ بيده ، ذلك انه كان عليه أن يسترد المال الكثير الذى فقده « المتجر » ذلك المعنى المقـــدس ، بوفاة الشيخ ٠٠٠ وفى ذات مساء وفي ساعة متأخرة جدا ، استرسل فى حجرة المناظر الطبيعية في حديث مسهب تقريبا مع زوجته عن الأحوال ٠

كانت الساعة منتصف الثانية عشرة ، والأطفال والآنسة يونجمان كذلك نائمين خارجا فى الحجرة الواقعة على الطرقة ، ذلك ان الطبقة الثـــانية كانت شاغرة لا تستعمل الا بين الحين والحين للغرباء ٠ وكانت القنصلة جالســـة فوق الاريكة الصفراء بجانب زوجها الذى كان يمر ببصره والسيجار فى فمه، بأحمار البورصة فىصحيفة اعلانات المدينة ٠ وكانت القنصلة منكبة على حريرها تطرزه ، وتحرك شفتيها حركة خفيفة وهى تحصى بالابرة عـددا من الغرز ، وكان بجانبها على منضدة الخياطة المنمقة المحلاة بالذهب شمعدان فيه ست شمعات ، لان الثريا المدلاة لم تكن مستعملة ٠

وقد بدا على يوهان بودنبروك الكبر فى السنوات الاخيرة وكان ينـــاهز الخامسة والاربعين رويدا رويدا ٠ وكانت عيناه الصغيرتان المستديرتان تبدوان وكأنما قد بعدتا غورا ، وأنفه الكبير المقوس بارزا كعظمتى خديه فى وضوح أكبر ، وعلى سالفيه هدابتان بيضاوان تلامسان فيما يبدو بضعـــة مواضع من شعره الاشقر الرمادى المفروق بعناية ٠ وكانت القنصلة تناهز الاربعين لكنها محتفظة على خير وجه بمظهرها الذى لا يميزه جمال لكنه مع ذلك رائع ٠ وكان لون بشرتها أبيض غير لامع ، لكن ما انتثر فوق وجهها هنا وههنا من نمش لم يشب رقة بشرته ٠ وكان شعرها المائل الى الاحمرار والذى تطابق تسريحته الفن يتخلله ضوء الشموع ٠ وقـــد حولت عينيها الصافيتى الزرقة نوعا ما الى جانبها وقالت :

« لقد أردت يا عزيزى جان أن أشير عليك بشىء تنعم فيه النظر : أليس من الخير ان نتخذ خادما لنا من الذكور ٠٠٠ لقد انتهيت الى الاقتناع بهذا ٠ واذا أنا فكرت فى والدى ٠٠٠ »

فأسقط القنصل الصحيفة من يده على ركبته وبدا الاهتمام على عينيه بينما كان يخرج السيجار من فمه ، ذلك ان الأمر يتعلق بانفاق مال ٠

وانشأ يقول : « أجل يا عزيزتى بتسى المحترمة ٠ » وجعل يمط فى الكـلام سعيا منه الى ترتيب حججه قال : « خادما ؟ لقد استبقينا بالبيت جميع الفتيات

الثلاث منذ وفاة الوالدين المرحومين فضـــلا عن الآنسة يونجمان ، ويخيل الى ... »

قالت : « ان البيت من الاتساع ياجان بحيث يجعل الامر جديا . انى أقول : ليناايا ابنتى ، ان البيت الخلفى لم ينظف منذ أمد طويل جدا ! لكنى لا أحب أن أجهد هاته الفتيات لأنهن خليقات ان يلهثن اذا كان لابد ان يكون كل شيء نظيفا لطيفا ... والخادم نافع فى « المشاوير » وماشاكلها . ويمكننا ان نجلب من الريف رجلا صالحا قليل المطالب ... ولكن قبـل أن أنسى يا جان : ان لويزه مولندورف تريد الاستغناء عن خادمها انطون . وقد شـهدته يخدم فى دراية ... »

فقال القنصل : « لابد أن أعترف » وجعل يتحرك غاديا رائحا يحدوه شيء من عدم الارتياح « لابد ان أعترف ان هـذه فكرة لا أستسيغها فنحن لا نزور اليوم مجتمعات ولا ندعو اليها ... »

قالت : « لا ، لا . فالناس يزورونا كثيرا على الرغم من ذلك بما فيه كفاء . وليس هذا ذنبى يا عزيزى جان ، وان كنت تعـرف أنى أسر من قلبى بهـذه الزيارات . فمرة يقدم صديق من الخارج من أصدقاء العمل فتدعوه الى تناول الطعام ولا يكون احتجز لنفسه حجرة فى فندق ، فيقضى ليلة عندنا . ثم يأتى أحد المبشرين فيمكث عندنا ثمانية ايام ... وفى الاسبوع بعد التـالى تنتظر منزل القس ماتياس من كانشتات ... ولأوجز فأقول ان المرتبات من القلة . »

« لكنها تتراكم يا بتسى ! اننا ندفع مرتبات لأربعة فى البيت وانت تنسين الرجال الكثيرين الذين نستخدمهم فى الشركة ! »

فسألته القنصلة وهى تبتسم وترعى زوجها برأس يميل جانبا : « أحقا اننا لا نستطيع أن نقتنى خادما ، اننى حين أفكر فى خدم والدى ... »

« والديك يا بتسى العزيزة !! لا ، والآن لابد ان أسألك : هل انت حقـا على بينة من أحوالنا ؟ »

« كلا ، هذا حقيقى يا جان ، ليست عندى فكرة كافية ... »

قال القنصل : « انه لمن السهل وصفها . » واعتدل فى جلسته على الاريكة ووضع ساقا على ساق ، وجذب نفسا من سيجاره ، وأخذ يعد أرقامه بطلاقة غير عادية وقد أغمض عينيه قليلا ... قال :

« فلأوجز : ان المرحوم أبى كان يملك قبل زواج أختى ٩٠٠٫٠٠٠ مارك كاملة بغض النظر ، كما هو مفهوم ، عن الاطيان وعن قيمة المتجر . وقد أخذ منها ٨٠٫٠٠٠ بائنة أرسلت الى فرانكفورت و ١٠٠٫٠٠٠ أعطيت الى جوتهولد تمكينا له من الاستقرار ! فيكون الباقى ٧٢٠٫٠٠٠ ثم جاء شراء هـذا البيت

فتكلف على الرغم مما حصل نمنا للبيت الصغير فى شارع الف ومع ما أجرى فيه من التحسينات والتجديدات ١٠٠ر٠٠٠. فيكون الباقى ٥٩٥ر٠٠٠ ، وكانت الامور خليقة أن تبقى هكذا عند وفاة أبى لو لم تصحح الاوضـــاع على مر السنين بربح قدره ٢٠٠ر٠٠٠ مارك ، واذن فقد بلغت جملة الثروة ٧٩٥ر٠٠٠ ثم ارسلت الى جوتهولد ١٠٠ر٠٠٠ فوق ما أخذ ، كما ارسل ٢٦٧ر٠٠٠ الى فرانكفورت فاذا خصم بضعة آلاف مارك هى جملة مبالغ صغيرة أوصى بها أبى لمستشفى روح القدس وصنـــدوق أرامل التجـــار ألخ ، بقى مبلغ ٤٢٠ر٠٠٠ يضاف اليها بائنتك وقدرها ١٠٠ر٠٠٠ • هذه هى الحالة بالتقريب ممثلة فى أرقام دائرة بغض الطرف عن تقلبات ضئيلة مختلفة فى الثروة • فنحن لسنا أغنياء بصورة غير عاديه يا عزيزتى بتسى ، وفى هذا كله يجب أن يفكر المرء وفى أن المتجر قد بات أصغر مما كان ، وان نفقات العمل لم تقل مع ذلك لان تكوين المتجر لا يسمح بخفض النفقات ••• فهل أمكنك متابعتى ؟ »

فأومأت القنصلة برأسها مترددة بعض الشىء ، وفى حجرها أعمال تطريزها وقالت : « أجل يا عزيزى جان » وان كانت لم تفقه كل ما قاله ولم تدرك على الاطلاق لماذا يجوز ان تحول كل هذه المبالغ الكبيرة دون استخدام خادم •

وعاد القنصل الى سيجاره فوهجه ، ونفخ الدخان ورأسه منطرح الى الوراء ، ثم استطرد عندئذ يقول :

« انك تفكرين فى أننا ، متى دعا الله والديك الحبيبين الى جواره يوما ما ، ننتظر شيئا جسيما • وهذا صحيح • لكن ••• يجمل بنا ألا نحسب من دون احتياط مطلقا • فانى لأعلم ان اباك تكبد خسائر أليمة تقريبا • وذلك كما هو معلوم ، على يد يوستوس • ويوستوس انسان لطيف جـــدا ، لكنـــه من ثم ليس برجل الأعمال القوى ، وقد ساء حظه من دون ذنب جناه ، وتكبد من العملاء العديدين خسائر فادحة ، وكانت عاقبة قلة رأس المال انه استدان مالا غاليا بالتعاقد مع المصرفيين ، وكثيرا ما اضطر ابوك الى نجدته بمبالغ كبيرة حتى لا يقع مصاب • وهذا شىء يمكن ان يتكرر ، وسيتكرر فيما اخشى ، ذلك ــ وأرجو المعذرة يا بتسى اذا تكلمت بصراحة ــ ذلك ان حياة الاستهانة والمرح التى لا تفيد أباك المتعطل عن العمل ، لا تناسب أخاك كرجل أعمال ••• انك تفهميننى ، فهو لا يبـــــدى كثيرا من التبصر ، أليس كذلك ؟ متسرع بعض الشىء ، محلق • هذا الى ان والديك لا يدعان شيئا ينقصهما ، وهذا ما يسرنى صراحة ، فهما يعيشان عيشة ناعمة تتفق وأحوالهما ••• »

فابتسمت القنصلة ابتسامة تنطوى على التسامح ، فقد كانت تعرف تحامل زوجها على نزعات الاناقة فى اسرتها •

واستطرد الزوج قائلا : « حسنا » واضـــعا عقب سيجاره فى المنفضة •

« انى من جانبى أعتمد غالبا على المولى فى ان يحفظ على قدرتى على العمل كيما أعيد الى ثروة المتجر مستواها السابق بعونه ... وآمل أن تكون قد بت الآن أكثر الماما يا عزيزتى بتسى ... ! »

وبادرت القنصلة الى اجابته قائلة : « تماما يا جان ، تماما . » ذلك انها تخلت هـذا المساء عن فكرة الخادم . ثم أبدت : « لكن لنتوجه الى النوم فما رأيك ؟ فقد تأخرنا جدا ... »

٤

على أنه بعد بضعة أيام ، وقد جاء القنصل من المكتب لتناول الطعام منشرح الصدر ، تقرر مع ذلك استخدام انطون خادم اسرة مولندورف .

الفصل السادس

قال القنصل بودنبروك فى تأكيد بالغ لم يتزحزح عنه : « سندخل تونى مدرسة الآنسه فيشبروت الداخلية ».

فقد كان الارتيــاح الى تونى وكريستيان أقل ، كما ابدى ، منه الى توماس الذى اندمج فى الاعمال مظهرا موهبة ، والى كلارا التى كانت تنمــو مرحة ، والى كلوتيلده المسكينة التى كانت تبهج كل انسان بشهيتها المفتوحة . فأما كريستيان فقد كان الارتياح اليه اقل ، اذ كان مضطرا عصر كل يوم ان يتناول القهوة مع السيد شتنجل - وان كانت القنصلة التى كانت ترى فى هــذا تجاوزا للحد قد بعثت الى السيد المدرس ذات يوم ببطاقة منمقة تدعوه الى مقابلتها بالبيت فى شارع منج . فظهر السيد شتنجل يحمل عارية الشـعر التى كان يلبسها أيام الآحاد ، لابسا أعلى بنيقة عنده ، تطل من صدريته أقلام الرصاص مدببة كأنها الحراب ، وجلس مع القنصلة فى حجرة المناظر الطبيعية بينما كان كريستيان يسترق السمع خفية فى قاعة الأكل . وقد كان المربى الفاضل يبدى آراءه بفصاحة وفى شىء من الارتباك ايضا فتكلم عن الفـارق الهام بين « الخط » و «الشرطة» وتحــدث عن الغـابة الجميلة الخضراء وعن صندوق الفحم كذلك . واستعمل الخ ذلك أثناء الزيارة كلمة « من اجل هذا » اعتقادا منه بأنها خير ما يلائمه فى هذا المحيط الراقى . وبعد ربع ساعة جاء القنصل فطرد كريستيان من مخبئه ، وأبدى أسفه الشديد للسيد شتنجل ان كان ابنه سببا لعدم ارتياحه ...

فرد المدرس : « حاشا لله ياسيدى القنصل ، أرجوك ! انه دماغ يقظ ونموذج فياض هذا التلميذ بودنبروك . ومن أجل هذا .. هو متعال فقط بعض الشىء اذا جاز لى أن أقول ذلك ، هو .. من أجل هذا .. » وطاف القنصــل به فى البيت تأدبا منه معه ، فلما انتهى من الطواف اسـتأذنه السيد شتنجــل فى الانصراف ... لكن هذا كله لم يكن أسوء ما هنالك .

فقد كان السيىء ان عرف ما يلى :

لقد ذهب التلميذ كريستيان بودنبروك ذات مساء الى مسرح المدينـــة مع صـــديق حميم له حيث كانت تمثل رواية « فلهلم تل » للشاعر شـــيلر، لكن دور فالتر بن تل كانت تمثله شابة صغيرة هى الآنسـة ماير دى لاجرانج وكان يلازم الدور حالة خاصة ، اذ كان من عادة الممثلة ، سواء ألاءم هذا الدور

ام لم يلائمه أن تحمل على المسرح رصيعة ماسيه حقيقيه . وكانت هذه الرصيعه كما يعلم الجميع . هديه من القنصل الشاب بيتر دولمان بن دولمان . أحد كبار تجار الخشب المقيم فى شارع فال لاول أمام بوابة هولشتين .

وكان القنصل بيتر من اوسط الساده الذين كانوا يسمون فى المدينه « الفجار » مثل يوسنوس كروجر ايضا . أى ان حياته كانت مفككه بعض الشيء . وقد كان متزوجا بل انه كانت له ابنه صغيرة ، لكن الشقاق كان يدب من أمد طويل بينه وبين زوجه فكان يعيش عيشه الاعازب . وكانت الثروة التى خلفها له أبوه طائلة فلم تعد كذلك ، وكان يتابع تجارة أبيه لكن الناس كانوا يقولون انه يأكل من رأس المال ، وكان يلازم « النادى » فى الغالب او يغشى قبو البلدية ليتناول فيه طعام الافطار ، يرى كل صباح فى الرابعة فى مكان ما فى الشارع ، ويقوم كثيرا بأسفار الى هامبورج تتصل بالعمل . على أنه كان قبل كل شيء من المولعين بارتياد المسارح لاتفوته مسرحية ويبدى اهتماما شخصيا بهيئة التمثيل . وكانت الآنسة ماير دى لاجرانج أخرى الفنانات الفتيات اللواتى زينهن بالماسات .

ولندخل فى الموضوع . كانت الشابة فى دور فالترتل ـ وكانت فى هذا الدور تحمل أيضا الرصيعة الماسية ـ أحب ما يقر العين ، وكان تمثيلها ذا تأثير بالغ الى حد أن التلميذ بودنبروك اخضلت عيناه بالدموع من فرط التأثر بل انه تورط اثر ذلك فى مسلك لايصدر الا عن مشاعر شديدة الاسى ، اذ اشترى فى فترة الاستراحة من دكان مقابل للمسرح يبيع الازهار باقة كلفته ماركا وثمانية شلنات ونصف ذهب بها هذا القزم البالغ من العمر الرابعة عشرة ذو الانف الضخم والعينين الصغيرتين الغائرتين الى خلف المسرح ، واقتحم بها أمام خزائن الثياب باب الآنسة ماير دى لاجرانج لما لم يعترضه أحد . وكانت الآنسة اذ ذاك فى حديث مع القنصل بيتر دولمان . فلما رأى « القنصل » كريستيان يدخل بالباقة كاد من الضحك يرتطم بالحائط . لكن « الفاجر » الجديد قدم بكل جد أحسن تحياته لفالترتل مُصحوبة بالازهار ، ثم هز رأسه فى تؤدة وقال بلهجة كانت من فرط الاخلاص ذات وقع حزين :

« آنستى ، ما أجمل ما مثلت ! »

فصاح القنصل دولمان بمنطقة العريض : « أنظرى هذا الكريستيان بودنبروك ! » بيد أن الآنسة ماير دى لاجرانج رفعت حاجبيها وسألته : « ابن القنصل بودنبروك ؟ » وربتت على خد هذا المعجب الجديد فى خلوص طوية .

هذه كانت الوقائع التى قصها بيتر دولمان فى نفس المساء فى المنتدى متندرا بها فسرعان ماعرفتها المدينة وانتهت كذلك الى سمع مدير المدرسة الذى جعل

منها موضوع حديث بينه وبين القنصل بودنبروك • فكيف فهم القنصل الامر ؟ لم يكن غاضبا بقدر ما كان مأخوذا مغلوبا على أمره ••• ولما ابلغ القنصله الخبر فى حجرة المناظر الطبيعية كان مضعضعا •

قال : « هذا هو ابننا ، وهكذا تنشأ •• »

فقالت القنصله : « جان ، بربك ، ان اباك كان خليقا أن يضحك مما وقع •• قصه يوم الخميس على والدى تكن قصته أكبر تسلية لأبى ••• »

وهنا اغتاظ القنصل وقال : « ها ! أجل ! أجل! انى أعتقد أنه سيتسلى بهذايابتسى سيسر بأن دمه الخفيف ، ونزعاته غير التفيه لم تنتقل الى يوستوس الفاجر فحسب بل انتقلت ايضا فى صورة بينه الى أحد حفدته •• يالشيطان ! انك تجبرينني على هذا التعبير : انه يذهب الى هذه المخلوقة ! انه يقدم مصروفه الى هذه الغانية — : انه لا يعرف ماذا فعل • كلا ، كلا • لكن النزعة تتبدى! النزعة تتبدى ! »

أجل ، كان هذا حادثا سيئا • وقد زاد فى فزع القنصل ان تونى أيضا كما أسلفنا ، لم يكن سلوكها على مايرام • حقا لقد تخلت مع الايام عن ترقيص الرجل الشاحب اللون ، وعن زيارة بائعة العرائس• لكنها كانت تبدى أسلوبا يزداد جرأة على الدوام فى اطراح رأسها الى الخلف وتظهر حين تقضى الصيف عند جديها خارجا على الاخص ، تشبثا سيئا بالكبر والغرور •

وفى ذات يوم داهمها القنصل وهى تقرأ « ميميلى » لكلوران مع الآنسة يونجمان فتقززت نفسه ، وقلب فى الكتب صفحات ، وأقفل الكتاب الى الأبد• ووضح أثر ذلك فى أن تونى — انتونيا بودنبروك — ذهبت وحدها مع طالب ثانوى وصديق لأخويها تتنزه الى « بوابة القصر » فرأتهما مدام شتوت ، نفس السيده التى تعامل الاوساط الراقية ، فتحدثت وهى عند أسرة مولندورف تشترى بعض الملابس القديمة بأن الآنسة بودنبروك أيضا ادركت حقا سن البلوغ حيث •• فروته زوجة السناتور مولندورف للقنصل مبتهجة فحظر هذه النزهات • لكنه ثبت بعدئذ أن الآنسة تونى كانت تتلقى من تلك الاشجار العتيقة الجوفاء القائمة خلف بوابة القصر والتى كانت تسد بكتل الملاط فتتخلف فيها ثغرات — تتلقى رسائل صغيرة من نفس الطالب الثانوى أو تدعها له فيها • فلما افتضح هذا بات من الضرورى أن يعهد بتونى البالغة الخمسة عشر ربيعا الى رقابة أصرم فأدخلت مدرسة الآنسة فيشبروت الداخلية الكائنة بشارع مولنبرنك رقم ٧ •

الفصـــــل الســابع

كانت تيريزه فيشبروت حدباء ، وكانت في حدبها لا يصـــل ارتفاعهــــا الى مســـــتوى منضده ٠ وكانت فى الحــــادية والاربعــين من عمـــــــرها ٠ لكنها لما لم تكن تعلق أهمية على المظهر أو تقيم وزنا لاعجـاب النــاس ، كانت تسير في ثياب صاحبة الستين او السبعين ٠ وكانت تستقر فوق خصل أذنيها الغزيرة الشيباء قلنسيـــة بشرائط خضراء تتدلى فوق كتفين ضيقين كأكتاف الاطفال ٠ ولم يرقط على ثوبها الاسود الرخيص اية حليــة ٠٠ اللهم الا ذلك البروش البيضاوى الكبير الذى كانت تلمع منه صورة لأمها مرســــومه على البورسيلين ٠

وكان للآنسة فيشبروت الضئيلة عينان عسليتان عاقلتــان جادتان وأنف منقوس بعض الشيء ، وشفتان رقيقتان كانت تستطيعاطباقهما فى أشد تصميم ٠٠٠ وعلى الجملة كان فى شخصها الضئيل وفى كافة حركاتها توكيد كان فى الحق مضحكا لكنه يبعث كل البعث على الاحترام ، ويساعد منطقهــا فى ذلك الى حد كبير ، فقد كانت تتكلم بطلاقة وفى حركة متــدفعه من فكها الاسـفل وهزة رأس سريعة ملحة ، دقيقة لا تلجأ الى العامية ، واضحة ، جليه ؛ تؤكد بعناية كل حرف ساكن ٠ أما أحرف العلة فكانت تغلو فى نطقها فتغير وتبدل وتنــادى كلبها المصر على أن يبقى فاغرا فاه : « ببى » بدلا من « بوبى » فاذا قالت لتلميذة : « لا تكونى هكذا » وصاحبت هذا القـــــول بدقتين متلاحقتين على المنضدة بسبابتها المعوجة فثق أن هذا لن يعوزه التأثير ٠ واذا تنـــاولت الآنسة بوبنييه الفرنسية لقهوتها اكثر مما ينبغى من قطع الســـكر تكون للآنسة فيشبروت طريقتها في تأمل سقف الحجرة وعزف البيان على مفرش المائدة بيد واحدة والقول : « ألا تتناولين السكرية كلها ؟ » فتخجل الآنســة بوبنييه ويحمر وجهها احمرارا شديدا ٠٠٠

كانت تيريزه فيشبروت تنادى وهى طفلة ــ يا ألله لابد أنها كانت وهى طفلة جدا « صغيرة » ــ تنادى بـ « زيزيمى » ٠ وقد استبقت هــذا التغيير فى اسمها الأول فكانت تسمح لخير تلميذاتها وأمهرهن ، الداخليات منهن والخارجيات بأن يناديـنها « زيزيمى » ٠ وقد قالت هذا لتونى بودنبروك من أول يوم ، وهى تطبع على جبينها قبلة مقتضبة مطرقعة بعض الشيء ٠٠٠ فهى تحب سماع هذا النداء ٠ أما اختها الكبرى مدام كيتلزن فكانت تسمى نيللى ٠

ومدام كيتلزن التي كانت تبلغ من العمر قرابه ثمانيه واربعين عاما ، خلفها زوجها المتوفى في الحياة معدمة ، فكانت تسكن مع اختهـا في الطبقه العليـا حجرة صغيرة وتشاطرها طعامها على المائدة العـامة . وكانت تلبس مثـــل « زيزيمي » لكنها كانت على نقيضها طويلة القامه بصورة غير عاديه ، تحمـل فوق معصميها المعروقين صوفتين لتدفئة النبض . لم تكن مدرسـة ولم تعرف شيئا عن الصرامة وكان كيانها مزاجا من عدم الأذى والبهجة الهادئة .

فاذا اتت تلميذة للآنسة فيشبروت فعلة ندت عنها ضحكة رضية تكاد من رقتها تنقلب الى ندب ، حتى تدق زيزيمي على المائدة وتصيح في الحـــاح « نيللى » تنطقها نللى فتخرس مرهبة .

كانت مدام كيتلزن تطيع أختها الصغرى ، تتحمل تانيبها كمـــا يؤنب الطفل . والمسأله ان زيزيمي كانت تحتقرها من كل قلبها . فقـــد كانت تيريزه فيشبروت فتاة مطلعة ، بل تكاد تكون عالمة . وكان عليها ان تصـــون ايمان الاطفال فيها وورعها الايجابى ، ونقتها بأن تعوض هناك مرة عن حياتها الشاقة الباهتة ، تصون ذلك وتحافظ عليه في معارك جدية صغيرة . أما مدام كيتلزن فكانت على النقيض من ذلك جاهلة بريئة ســــاذجة الروح . كانت زيزيمي تقول : « نيللى الطيبة هذه ! يا آلهى ، انها طفلة ، انها لا تصطدم قط بشك ولا يصادفها كفاح تخرج منه منتصرة ، انها سعيدة ... » وفي مثـل هذه الكلمات استهانة بقدر ما فيه من حسد . وهــذه نقطـة ضعف في خلق زيزيمي وان كانت مما يغتفر .

كانت أماكن الدراسة وقاعة الاكل تشغل الطبقة الارضية من بيت صغير من بيوت الضواحي في حمرة القرميد ، محوط بحديقة منسقة ، بينما حجـر النوم تشغل الطبقتين العليـا والسفلى ولم تكن ربيبـات الآنسة فيشبروت عديدات . ذلك ان المثوى لم يكن يقبل سوى الكبريات من البنات . ولم يكن للتلميذات الخارجيات أيضا سوى فصول المدرسة الثلاثة؛ كذلك كانت زيزيمي تراعي بشدة أن لا يلتحق ببيتها سوى بنات الاسر الكبيرة حقا ... وقد اسـتقبلت توني بودنبروك كما اشرنا في حنان . لقد أعـدت تيريزه شراب « الاسقف » لطعام العشاء وهو شراب أحمر حلو المذاق يحتسى باردا كانت تجيد اعـداده ... وتسأل وهي تهز رأسها متوددة : « هل من مزيد من « الاسقف » » فيقع هذا وقعا مشهيا لا يقاوم .

كانت الآنسة فيشبروت تجلس في رأس المائدة على وسادتين من وسـائد الاريكة وتشرف على الاكل بهمة وانتباه ، تقيم جسيمها العاجز في اســتقامة

وتدق يقظة على المائدة وتصيح « نللى » و « ببى » وتذل الآنسة بوبنبيه بنظرة اذا أوشكت هذه أن تغير على كل الهلام من اللحم العجالى المحمر البارد . وقد كان مجلس تونى بين اثنتين من نزيلات المثوى الاخريات ، بين أرمجـــارد شيلنج ، وهى فتاة شقراء ذات بسطة فى الجسم ، وكريمة أحد ملاك مكلينبورج وجيردا أرنولدسن التى يقطن أهلها فى أمستردام . وهى ظاهرة أنيقة غريبة ذات شعر ثقيل أحمر داكن ، وعينين عسليتين متقاربتين ، ووجه أبيض جميـــل متغطرس قليلا . وكانت فرنسية ثرثارة تجلس قبالتها وتبـــدو كالزنجية وتحمـــل فى أذنيها قرطين ذهبيين ضخمين . وفى ذيل المائدة مس براون الانجليزية النحيلة تبتسم ابتسامة مرة . وهى بالمثل من نزيلات البيت .

وقد توطدت الصـــــداقة بينهن بفضـــل اسقف زيزيمى ، وقصت عليهن الآنســة بوبنبيــه ان الكابوس عاودها فى الليلة الفائتــه فقالت : أى رعب استولى على .

كانت حينئذ تصرخ : جان ، جان ! اللصوص ، اللصوص ! فهب جميعهن من الأسرة مذعورات ، وظهر غير ذلك أن جيردا أرنولدسن لم تكن تعزف على البيـــان بل على الكمان ، وأن أباها ــ فامها متوفاه ــ وعدها بكمان أصيلة من صنع ستراديفارى . ولم تكن تونى على استعداد موسيقى شــأن معظم آل بودنبروك وجميع آل كروجر . ولم تســتطع مرة أن تتبين الأناشيد التى كانت تنشـــد فى كنيسة مريم ... وأرغن الكنيسة الجديدة فى أمستردام ! ان له صـوتا آدميا ، صـوتا يرن فى جزالة ! . وجعلت أرمجـــارد فون شيلنج تحكى عن البقر فى بلادها .

وكان لأرمجارد هذه من اللحظة الاولى وقع فى نفس تونى ، وذلك بوصفها أول فتاة من النبلاء اتصلت بها تونى . وانها لسعادة أن تسمى فون شيلنج . حقا ان لأبويها أجمـــل بيت قديم فى المدينة ، وجداها من الوجهاء ، لكنهما يسميان ببساطة بودنبروك وكروجر . وكان هذا داعيا الى الأسف الشديد . ان حفيدة ليبرشت كروجر الكريم كانت تضطرم اعجابا بنبالة أرمجارد ، وكانت تفكر أحيانا فى أن هـــذا اللفظ الفخم « فون » كان أليق كثيرا بها ، ذلك ان أرمجارد ، يا آلهى ، لم تكن تعرف قيمة سعادتها ، فهى تسير هنـا وهنـــاك بضـفيرتها السميكة وعينيها الزرقاوين الهائئتين ومنطقها الميكلنبورجى العريض دون أن تفكر فى هذا ، وهى لم تـكن وجيهة بحال من الأحوال ، ولم يكن لها أدنى حق فى أن تكون هكذا ، لأنها لم تكن تفهم معنى الوجاهة . وهذه الكلمة « وجيه » كانت مكينة فى رأس تونى ، وقد طبقتها على جيردا أرنولدسن فأكدتها وقدرتها .

فقد كانت جيردا على شيء من غرابة الأطوار ، وكان فيها مما فى الاجانب أشياء ، كانت تحب ان تجعل لشعرها الاحمر الفخم تسريحة تلفت الانظار على الرغم من معارضـــة زيزيمى ، وكانت الكثيرات منهن ترين عزفها على الكمان حماقة مع ملاحظة ان كلمه « حماقة » تعبير قاس جدا فى الحكم على الاشياء . لكن الرقيقات مع ذلك كن متفقات مع تونى على أن جيردا أرنولدسن كانت فتاة وجيهة . فمظهرها الكامل الذى لم يكن يناسب سنها وعاداتها ، والأشياء التى كانت تملكها ، كل هـذا كان وجيها : كأدوات الزينة المصنوعة من العـــاج والواردة من باريس على سبيل المثال . فقد كانت تونى تقـــدرها على الأخص حق قدرها ، اذ كانت الاشياء من كل نوع موجودة عندها فى بيتها ، جلبهـا والداها أوجداها معهم من باريس وكانوا يعتزون بها .

وسرعان ما عقدت الفتيات الصغيرات الثلاث أواصر الصداقة بينهن ، فقد كن فى فصل دراسى واحد ، وكن يسـكن أكبر مخدع من مخادع النوم فى الطبقة العليا . وما أمتعها من ساعات هنيئـة تلك التى كن يقضينها عندما يتوجهن فى العاشرة الى النوم ، ويتجاذبن عند خلع ملابسهن أطراف الحديث . فى صـــوت خافت بطبيعة الحـال ، لأن الآنسة بوبنبيه تكون قد بدأت تحلم عن اللصوص ... فقد كانت تنـــام مع الصغيرة ريفا ايفرز ، وهى هامبورجيه انتقل أبوها الى ميونيخ وكان من محبى الفنون وجامعى التحف .

كانت الستائر المقلمة باللون البنى مسدلة ، والمصـــباح المنخفض المغطى بالأحمر يضيىء فوق المائدة ، والحجرة تعبق برائحـــة البنفسج الخفيفـــة والغســـيل الأبيض وتسودها نفسية راضية مكتومة هى مزاج من التعب وخلو البال والأحلام .

وقالت أرمجـــارد وكانت قد خلعت ملابسها نصف خلع ، وجلست على حافة سريرها : « كم يتكلم الدكتور نويمان بطلاقة ! انه يدخل الفصل ويجلس على المنضدة ويتكلم عن راسين ... » فلاحظت جيردا : ان له جبينـــا جميـــلا عاليا وكانت واقفــــة أمام المرآة بين النافذتين تمشط شعرها على ضـــــوء شمعتين ..

فقالت أرمجارد على عجل : «أجل» !

« وقد بدأت مجرد بداية بالكلام عنه لتتلقى ما يقال فيه يا أرمجارد . انك تديمين النظر اليه بعينيك الزرقاوين ، كما لو كنت ... »

فسألت تونى : « أتحبينــه ؟ ان رباط حذائى معقود . أرجـوك يا جيردا ... هكذا ! والآن !! أتحبينه ياأرمجارد ؟ تزوجى منـــه ! انه زوج موافق جدا . وسيصبح أستاذا فى الجيمنازيوم . »

« يا آلهى ، انكن بغيضات • انى لا احبه البتة • انى لن أتزوج قطعا من مدرس بل من أهل الريف ••• »

وأفلتت تونى جوربها وكانت تمسك به فى يدها ثم نظرت فى وجه أرمجارد وهى غارقة فى الفكر وقالت : « من نبيل ! »

« لا أعلم بعد ؟ لكنه يجب أن يكون من كبار الملاك ••• آه ، كم أترقب هذا مغتبطة يا بنات ! عندئذ أنهض من نومى فى الخامسة وأدير البيت ••• » وسحبت غطاءها عليها وتطلعت حالمة الى السقف •

وتكلمت جيردا : « انك تتمثلين الآن خمسمائة بقرة » وتأملت صديقتها فى المرآة •

ولم تكن تونى انتهت بعد لكنها أنفت رأسها فوق الوسادة سلفا وشبكت يديها تحت جيدها وجعلت تتأمل من جانبها أيضا سقف الحجرة وتفكر •

قالت : « سأتزوج من تاجر بطبيعة الحال ، ويجب أن يكون عنده مال كثير لنرتب أمورنا ترتيبا وجيها » ثم أضافت الى ذلك : « فانى مدينة بهذا لأسرتنا ومتجرنا • أجل وسوف ترين أنى سأبلغ ذلك • »

وكانت جيردا قد فرغت من تسريحة النوم ، ونظفت أسنانها العريضة البيضاء ، مستخدمة فى هذا مرآتها اليدوية العاجية •

وقالت جاهدة بعض الشىء لان مسحوق النعناع كان يعوقها : « الراجح أنى لن أتزوج أبدا • ولست أرى لماذا ؟ انى لا أميل الى الزواج • انى سأذهب الى أمستردام وأعزف مع أبى عزفا ثنائيا ، ثم أتوجه بعد ذلك الى أختى المتزوجة وعيش معها ••• »

فصاحت تونى فى نشاط : « واأسفاه ! كلا يا جيردا ، فهذا ما يؤسف له ! ينبغى أن تتزوجى هنا وتبقى هنا على الدوام ••• اسمعى ! تتزوجين مثلا أحد أخوى ••• »

فسألتها جيردا : «هذا الكبير الأنف؟» وتثاءبت فى تنهيدة موجزة منمقة متراخية أمسكت خلالها بالمرآة تجاه فمها •

« أو الآخر فهذا لايهم ••• يا الله ، كيف يكون عندئذ جهازكما • لابد أن يقوم به جاكوب ، الوراق جاكوب المقيم فى شارع السمك فان له ذوقا رفيعا ، وسوف أزوركما فى كل يوم ••• »

بيد أنه عندئذ سمع صوت الآنسة بربنييه : « ما هذا ايتها السيدات ! الى النوم من فضلكن ! انكن لن تتزوجن الليلة ! »

على أن تونى قضت العطلة فى شارع منج أو خارجا عند جديها • وأى حظ عندما يكون الجو فى أحد الفصح مؤاتيا فيمكن المرء أن يطلب البيض

والأرنب المصنوع باللوز والسكر في حديقة كروجر الفسيحة :
واية عطلة صيفية تقضى على البحر عندما يقيم المرء فى مصحة فيأكل على مائدة المضيف ويستحم ويركب الحمار! كذلك كانت تونى تقوم برحلات واسعه النطاق عندما يكون القنصل قد عقد صفقات ، ثم قبل كل شيء أي عيد ميلاد ذلك المصحوب بهدايا ثلاث : من البيت والجدين وعند زيزيمى حيث يجرى فى ذلك المساء بالذات شراب « الأسقف » انهارا . لكن أبهج عيد ميلاد مع ذلك هو الذى يحتفل به فى المنزل ، ذلك أن القنصل كان حريصا على ان يتم هذا الاحتفال بهيا مقدسا يشرح القلب . فعندما يجتمعون فى حجرة المناظر الطبيعية فى خشوع بالغ وبينما الخدم وأنماط منوعة من المسنين والفقراء يزحمون بهو الاعمدة ويضغط القنصل على أيديهم الحمراء المزرقة ، يتصاعد هناك فى الخارج غناء من أربعة اصوات يؤديه الغلمان المنشدون فى كنيسة مريم ، فتدق القلوب من الرهبة ثم انه بينما كان عبق الصنوبر يتضوع وينفذ من ثنايا الباب الابيض العالى ذى المصراعين كانت القنصلة تتلو فصل الميلاد من انجيل الأسرة القديم بحروفه الهائلة مستأنية ، فاذا كان فى الخارج نشيد مايزال يرن من بعيد بدأوا لحن « أيا شجرة الصنوبر » . وبينما يتوجهون الى القاعة مخترقين بهو الاعمدة فى احتفال ــ الى القاعة الفسيحة التى يبدى توريقها التماثيل وتضيء فيها الشجرة المزدانة بالزئبق الابيض ، متألقة ، متضوعه ، متطاولة الى السقف وحيث يصل خوان الهدايا من النوافذ الى الباب . أما فى الخارج فكان العازفون الايطاليون على الارغن يديرونه فوق ثلج الشوارع المتجمد ، وضوضاء ليلة عيد الميلاد تتناهى من ميدان السوق . وقد ساهم ، فيما خلا كلارا الصغيرة ، الاطفال ايضا فى طعام العشاء المتأخر الذى قدم فى بهو الأعمدة وكان يحتوى سمك الشبوط والديكة الرومية المحشوة بكميات ضخمة ..

ولا نغفل هنا ان تونى بودنبروك زارت فى هذه السنين ضيعتين من ضياع مكلنبورج حيث أمضت بضعة أسابيع من الصيف مع صديقتها أرمجارد فى فى أملاك السيد فون شيلنج القائمة على الساحل تجاه ترافيمنده فى الجهة الأخرى من الجون . وفى مرة أخرى سافرت مع ابنة عمها تيلده الى حيث كان السيد برنار بودنبروك يعمل مفتشا . وكانت الأرض هناك تسمى « أونجناديه » * ولا تدر دانقا ، لكنها كبقعة تقضى فيها العطلة لم تكن على الرغم من ذلك مما يستهان به .
هكذا كانت السنون تمر . ولقد كان ما قضته تونى فى جملته عهدا من الصبا السعيد .

(*) ungnade بالألمانية معناها نقمة

الجزء الثالث

الفصل الأول

فى عصر يوم من أيام يونيه بعد الخامسة بقليل كان آل بودنبروك جالسين أمام البوابه فى الحديقة حيث كانوا قد تناولوا القهوة . وفى الخص المبيض من الداخل باللاكيه والمجهز بمرآة عالية مسندة الى الحائط يزدان مسطحها بطيور ترفرف ، وبيابين ذوى مصراعين مدهونين باللاكيه ، قائمين فى المؤخرة ، لكنهما اذا ما أمعن المرء النظر فيهما لايجدهما فى الواقع بابين بل يجد لهما أكرتين مرسومتين ، فى هذا الخص كان الهواء دافئا مكتوما أكثر مما ينبغى، ومن ثم أخرجوا الى خارجه أثاثه المصنوع فى خفة من الخشب المعقد المدهون .

وكان القنصل وزوجته وتونى وتوم وكلوتيلده جالسين من حول المائدة المستديرة المعدة تلمع فوقها الأوانى المستعملة ، بينما كان كريستيان منتحيا جانبا الى حد ما يحضر خطبة شيشيرون الثانية ضد كاتيلينا وعلى وجهه أمارات الضيق . وكان القنصل مشغولا بسيجاره وبمطالعة الاعلانات ، وزوجة القنصل قد تركت تطريزها الحريرى والتفتت باسمة الى الصغيرة كلارا ، وكانت تبحث مع ايدا يونجمان عن البنفسج فوق الساحة المخضرة ذلك أنه كان يوجد هناك بنفسج أحيانا . وكانت تونى تمسك رأسها بكلتا يديها، تستغرقها القراءة فى « اخوة سيرابيون» لهوفمان بينما توم يعابث جيدها بعود من الكلأ محاذرا أشد المحاذرة ، لكنها أخذا منها بسبيل الحكمة كانت تتظاهر بأنها لم تلحظ . وكانت كلوتيلده البادية أكبر من سنها جالسة فى ثوبها القطنى المزهر تقرأ حكاية بعنوان « أعمى وأصم وأبكم لكنه سعيد . » ، وتجمع فى أثناء ذلك فتات البسكوت عن مفرش المائدة وتتناول ماتجمعه بأصابعها الخمسة كلها وتلتهمه فى احتراس .

وبدأت السماء تغيم قليلا قليلا ، وكانت ملبدة ببضع سحب بيضاء . وكانت الحديقة الصغيرة الخاصة بالمدينة بطرقها وأحواضها المنسقة زاهية نظيفة فى شمس الاصيل ، وعبير البليحاء التى تحف بالاحواض يتخلل الهواء فيمر بهم بين الحين والحين .

وقال القنصل منبسطا وقد أخرج سيجاره من فمه : « هيه ياتوم ، لقد سويت صفقة الشوفان مع فان هنكدوم وشركائه ، تلك التى حدثتك عنها . »

فسأله توم فى اهتمام وقد كف عن معاكسة تونى : « ماذا يدفع ؟ »

« ستين ويالا فى ألف الكيلو .. سعر طيب أليس كذلك ؟ »

« عظيم ! » ذلك أن توم كان يعرف ان هذه صفقة طيبة جدا

ولاحظت زوجة القنصل على تونى !«ان مسلكك ليس على مايرام ياتونى »
ورفعت تونى مرفقا من فوق المائدة من دون أن ترفع بصرها عن كتابها ·
فقال توم : « لا بأس · ففى وسعها أن تجلس كما تشاء ، فهى على الدوام تونى بودنبروك · فهى وتيلده أجمل من فى الأسرة بلا نزاع · »

فدهشت كلوتيلده تمام الدهشة وقالت : « تـ · · ـوم بربك ! »وكان من غير المفهوم كيف استطاعت أن تمط هذه المقاطع الوجيزه · وأطاقت تونى فول أخيها ولزمت الصمت ، ذلك أن توم كان متفوقا عليها ، فلا فائدة · وانه لكفء لأن يجد الرد على ما يمكن أن تقول ، وأن يكون الضاحكون فى جانبه واستنشقت الهواء بقوة من منخريها المفتوحين ورفعت كتفيها · لكنه لما شرعت زوجة القنصل فى الكلام عن المرقص المنتظر عند القنصل هونيوس وبدر منها شىء عن حذاء لماع جديد رفعت تونى المرفق الآخر عن المائدة وابدت التفاتا الى الموضوع ·
وصاح كريستيان شاكيا : « انكم تتكلمون وتتكلمون ، وهذا الذى أزاوله صعب لا يطاق ! ليتنى كنت تاجرا ·!» قال توم : « أجل ، انك تريد أن تكون كل يوم شيئا جديدا · » ـ هنا جاء أنطون عبر الفناء ، جاء يحمل بطاقة فوق صينية الشاى فتلقفوه باهتمام ·

وقرأ القنصل : « جرينليش » وكيل أعمال من هامبورج · رجل لطيف ، موصى عليه بحرارة ، وابن قسيس · اننا نتعامل ، وبيننا مسألة ·· قل للسيد يا أنطون ـ أظن ان لامانع عندك يا بتسى ؟ قل له ان يتفضل هنا ·· »
ـ وجاء يخترق الحديقة ، قبعته وعصاه فى يد واحدة ، تكاد خطواته تكون منزنة ، ورأسه ممدود الى الأمام قليلا ، رجل ربعة فى حوالى الثانية والثلاثين ، يرتدى بذلة صوفية صفراء خضراء طويلة الحجر ، ويلبس قفازا رماديا من الخيط المفتول · كان وجهه متوردا يبتسم تحت شعر رأسه الشحيح الاشقر الرائق ، لكن له بجانب أحد منخريه بؤلولا يلفت النظر ، حليق الذقن والشفة العليا تتدلى له لحية عارضية طويلة على الطريقة الانجليزية فى لون الذهب الاصفر الصارخ ـ فما ان أشرف حتى أبدى بقبعته الكبيرة الرمادية الفاتحة حركة تدل على الاخلاص ··
وتقدم بخطوة أخيرة طويلة جدا ، فرسم بجسمه الأعلى نصف دائرة وانحنى على هذا النحو للجميع ·
وتكلم بصوت ناعم وتحفظ رقيق :« انى أزعجكم بتطفلى على دائرتكم العائلية ، فبعضكم يقرأ وبعضكم يتحدث فأرجو المعذرة ! »
قال القنصل الذى نهض من مكانه مع ولديه : « مرحبا بك يا سيد جرينليش العزيز ! » وضغط على يد الضيف · « انه ليسرنى أن أحببك

خارج المكتب وفى محيـــــط أسرتى · السيد جرينليش يابتسى ، صديق طيب من أصدقاء العمل · ابنتى انتونيا ···ابنـــة أخى كلوتيلده ·· أنت تعرف توماس من قبل ··· وهـــذا كريستيان ابنى الثانى ، طالب فى الجيمنازيوم ·

فأجاب السيد جرينليش بانحنـــاءة عن كل اسم ، ثم استطرد يقول : « وكما قلت ليس فى نيتى أن أقوم بدور المتطفل ··· فانى قادم لعمـــل ، فاذا سمحت لنفسى بأن أرجو السيد القنصـــل فى جولة معى فى الحديقة · »

فأجابت القنصلة : انك توليننا فضلا ، اذا لم تطرق فى الحال موضوع العمـــل مع زوجى بل تكرمت وارتضيت البقـــاء برهة فى صحبتنا · تفضل أجلس : »

قال السيد جرينليش متأثرا : « ألف شـــكر » وجلس على الأثر على حافة الكرسى الذى قدمه توم اليه ، واعتدل فى جلسته والقبعة والعصا على ركبتيه ومر بيده على فرد من لحيته ، وتنحنح نحنحة خفيفة رنت تقريبـــا : هيئيهم « وكأنه كان بهذا كلـــه يريد أن يقول : « هذه هى المقدمة فماذا بعد هذا ؟ »

وافتتحت زوجة القنصل الجزء الأهم فى الحديث ·

فسألتـــه وهى تميـــل برأسها جانبا وتضـــع شغلها فى حجرها : « انـــك من هامبورج ؟ »

فرد السيد جرينليش بانحناءة جديدة : « بكل تأكيد يا سيدتى القنصـــــلة ان مقامى فى هامبورج ، لكننى كثيرا ما أتغيب عنها ، فأعمالى كثيرة ، وعملى جم النشـــاط هيـ ـ ئيـ ـ هم ، أجل هـــذا ما أسمح لنفسى بأن أقوله · »

فرفعت زوجة القنصـــــل حاجبيها ، وحركت فمها حركة كما لو كانت قالت فى توكيد ينم عن الاحترام : كذا !

فأضاف السيد جرينليش ملتفتا الى القنصل نصف التفاته : « النشاط بلا هوادة هو عندى شرط الحيـــــاة » وتنحنح من جديد ، لما أن لحظ النظرة التى حدجته بها الآنسة انتونيا ، تلك النظرة الباردة الفاحصـــة التى تقيس بها الفتيات الصغيرات الشـــبان الغرباء ، والتى يبدو أن تعبيرها يمكن أن يبدى فى كل لحظة مظهر الازدراء · « ان لنا أقرباء فى هامبورج » ـ هكذا قالت تونى لتشارك فى الحـــــديث · فوضح القنصل : « آل دوشان · أسرة أمى المرحومة · »

فبادر السيد جرينليش الى الجواب قائلا : « انى ملم بهـــذا تماما · فان لى الشرف أن يعرفنى ســـادة الأسرة وسيداتها بعض المعـــرفة ، فهم أناس ممتازون ، أناس ذوو قلـــوب وعقول ، هيـ ـ ئيـ ـ هم · وفى الواقـــع أنه لو كان يسود كل اسرة ما يسود هـــذه الاسرة من روح لكانت الدنيـــا بخير · هنا يجد المرء ايمانا بالله ، ووداعة ، وورعا شـــــديدا ، وبالجملة روحا مسيحية حقيقيـــة هى مثـــل الاعلى · ويجمع هؤلاء السادة والسيدات الى هـــذا دنيوية نبيـــلة ووجاهـــة باهرة ياسيدتى القنصلة ، تفتننى شخصيا ·

ففكرت تونى : « من أين له هذه المعرفة بوالدى · فهو يقـــول لهمـا ما يشتهيان سماعه ··· لكن القنصل تكلم عرضا فقال :

« ان هذا الاتجاه المزدوج فى الذوق لأحسن ما يتصف به الانسان · »

ولم تتمالك زوجة القنصل نفسها من ان تمد الى الضيف يدها فيرن سوارها رنينا خافتا وتدير فى ذلك باطن اليد دورة واسعة فى صـــورة بادية الود ·

قالت : « انك تتحدث من القلب ياسيد جرينليش ! »

وهنا انحنى السيد جرينليش ثم اعتدل فى جلسته وأمر يده على لحيته وتنحنح وكأنه أراد ان يقـول : « فلنستمر » ·

وألقت زوجة القنصل بضع كلمات عن أيام مايو التى روعت مسقط رأس جرينليش هذا الترويع فى سنة ١٨٤٢ ··· فلاحظ السيد جرينليش : « حقا انه كان مصابا فادحا ومصيبة محزنة هذا الحريق · خسارة ١٣٥ مليونا ، أجل · محسوبة بالضبط · وانى لمدين للعنـــاية الالهية بأجزل الشـــكر ··· ذلك أنى لم أصب بشىء على الاطلاق · فقد كانت النار تتأجج فى الغالب من مناطق ســـان بيترى ونيكولاى ··· » وقاطع نفسه يقول : « ما هذه الحديقة الرائعة » وشـــكر للقنصل سيجارا قدمه اليــه · « حقـا ان هذه الحديقة كبيرة جدا على مدينة أى أرض مكتسية بالأزهار المتعـددة الالوان ··· أوه ، يا آلهى ، انى أعترف بضعفى أمام الزهـــــور وأمام الطبيعة على العموم ! وهذا الخشخاش الأحمر هناك · انه يلمع بصورة غير عادية بالمرة ··· »

وأثنى السيد جرينليش على تصميم البيت ؛ ذلك التصميم الوجيه ، أثنى على المدينة كلها اطلاقا ، وامتـــدح سيجار القنصل ونفح كلا من الحاضرين بكلمة رقيقة ·

وسأل مبتسما : « هل أتجاسر فأستعلم عما تقرأين ياآنسة انتونيا · »

فقطبت تونى حاجبيها لسبب ما وأجابت من دون ان تنظر الى الســـيد جرينليش :

« اخوة سيرابيون » لهوفمان ·

قال : حقا ؟ ان هذا الكاتب أدى أشياء جليلة ··· لكن معذرة ، لقـد نسيت اسم السيد ابنك الثانى يا سيدتى القنصلة · »

« كريستيان » ·

« اسم جميل · انى أحب ، اذا سمح لى بأن أقول ذلك · » والتفت ثانيـة الى رب البيت « أحب الأسماء التى تدل بذاتها ولذاتها على أن حاملهـــا

مسيحى . اسم يوهان (يوحنا) فيأسرتكم ورانى فيمـا أعلم ... فمن ذا الذى لا يفكر عند ذلك فى الحوارى المحبـوب للسـيد المسيح . فأنا على سبيل المثال اذا جاز لى أن أبدى هـذه الملاحظة » واستطرد فى هذا ببلاغة « اسمى كمظم أجدادى ، بندكس ، وهو اسم ينظر اليه كاختصـار لبنيديكت جرت به الأفواه . وأنت يا سيد بودنبروك تقرأ ؟ سيشيرون ؟ انها لمطالعة صعبة ، مؤلفات هـذا الخطيب الرومانى العظيم Duousque tandem' Catilina ... هـ ـ ئيـ ـ سهم أجل ، فانى بالمثل لم أنس ما تعلمته من اللاتينيـة كل النسيان !

وقال القنصل :

« انى على خلاف المرحـوم والدى ، طالما عارضت فى شغل الأدمغة الصغيرة باليونانية واللاتينية . فهناك أشـياء جدية وهامة كثيرة ضرورية للاعداد للحياة العملية ... »

فأسرع السيد جرينليش الى القول: « انك تعبر عن رأيى ياسيدى القنصـل قبل أن استطيع الاعراب عنه بكلماتى ! هذه مطالعات صعبة ، وكما نسيت أن اضيف ، لاتخلو من مطاعن . وانى ، بغض الطـرف عن كل شىء ، أتذكر مواضع فى هـذه الخطب ، غير لائقة تماما .. »

وساد الصمت برهـة فجعلت تونى تفكر : الآن سـيأتى دورى . ذلك ان نظرات السيد جرينليش تركزت فوقها ولقد آن دورها حقا . فقد هب السيد جرينليش بغتة من فوق كرسـيه قليلا وأتى من يده بحركة اختـلاجية وجيزة وان كانت رشيقة موجها أياها ناحيـة زوجة القنصل ، وهمس بقوة : « أرجوك ياسيدتى القنصلة ! هل تراعين ؟ » ثم قاطع نفسه بصـوت عال قائلا « انى أسـتحلفك يا آنستى ! » كما لو كانت تونى هى المعنية بفهم هذا . « ابقى لحظة فى هذا الوضع .. ! ثم استطرد ثانية همسا : » راعى كيف تداعب الشمس شعر الآنسة ابنتك ؟ » ثم تحـدث بغتة فى الهواء جادا مغتبطا كأنما يخاطب ربه أو قلبه : « لم أر فى حيـاتى قط شعرا أجمل من هذا الشعر » .

وابتسمت زوجة القنصل راضية ، وقال القنصل : « لاتحشى رأس الفتاة بما يثير الغرور ! » وعادت تونى تقطب حاجبيها . وبعد دقائق نهض السـيد جرينليش .

قال : « لكنى لا أريد أن أزعجـكم أكثر من ذلك . انما جئت لأعمال ... لكنه من ذا الذى يستطيع مقاومة الاغراء ... الآن ينادينى النشاط ! فهل لى أن أرجو السيد القنصل .. »

فقالت زوجة القنصل : « لست بحاجة الى ان اؤكد لك انه مما يسرني كثيرا أن ترتضى القدوم الينا مادمت مقيما فى هذا المكان . »

فلبث السيد جرينليش لحظة وقد عقد الامتنان لسانه ثم قال يعبر عن تأثره : انى مدين من كل قلبى يا سيدتى القنصلة . لكن حاشا أن أستغل وقتك . انى أقيم فى جناح فى فندق مدينة هامبورج ... »

وفكرت زوجة القنصل : « جناح ! » وهذا أيضا ما خطر ببالها من نحو السيد جرينليش .

وقررت وقد مدت يدها اليه بحركة ودودة : « وعلى كل حال أرجو أن لاتكون هذه آخر مرة نراك فيها . »

فقبل السيد جرينليش يدها ، وتريث لحظة حتى تقدم اليه انتونى يدها ، فلما لم تفعل وسم بجسمه الأعلى نصف دائرة ، وتراجع خطوة واسعة ثم انحنى مرة أخرى ووضع قبعته الرمادية على رأسه مطوحا اياها ، طارحا رأسه الى الوراء . وسار مع القنصل ...

وعاد القنصل الى أسرته يقول : « رجل لطيف » وعاود الجلوس .

فسمحت تونى لنفسها بأن تلاحظ وتؤكد : « انى أجده سخيفا ! »

فصاحت زوجة القنصل غاضبة شيئا ما : « تونى ، يا آلهى ، ماهذا الحكم ! شاب بهذا الايمان المسيحى ! »

وأكمل القنصل : « رجل بهذا التهذيب وهذه الخبرة بالحياة ! انك لا تفقهين ما تقولين . » ـ وقد كان يقع أحيانا أن يغير الابوان الموضوع فى مثل هذه الحالة مجاملة منهما . فيكون هذا أضمن لعود الوفاق .

وجعد كريستيان أنفه الكبير وقال : « لقد كان يتكلف الحديث ... فلا نتحدث نحن بتاتا . الخشخاش يلمع بصورة غير عادية !! ـ انى ازعجكم ـ يجب أن أرجوكم المعذرة ! لم أر فى حياتى قط شعرا أجمل من هذا ! ... وجعل كريستيان يقلد السيد جرينليش تقليدا بلغ من براعته ان اضطر القنصل نفسه الى الضحك .

وعادت تونى تقول : « أجل انه يغلو فى التكلف . كان يتكلم دواما عن نفسه . عمله نشط . يحب الطبيعة . يؤثر هذا الاسم وذاك . يسمى بندكس ... انى لأود أن أعرف ما شأننا بهذا . » وصاحت بغتة حانقة : « كان قوله كله تزكية لنفسه . كان يقول لك ماما ويقول لك بابا وهو ماكان يروقكما سماعه . وذلك ليتملقكما ! »

فقال القنصل فى صرامة : « لا ملام فى هذا يا تونى . فالمرء فى مجلس الغرباء يظهر خير جوانبه ، ويزن أقواله ، وينشد أن يروق الغير . هذا واضح ... »

وقالت كلوتيلده وادعة تتمطى : « انني أجده انسانا طيبا » وان كانت

الشخص الوحيـــد الذى لم يحفل بهالسـيد جرينليش أقل احتفال . :ما توماس فامتنع عن التعليق .

وقرر القنصل : « كفى ! انه رجل تعمر المسيحية قلبه ، حاذق ، نشط ، على علم واسع . وأنت يا تونى فتـاة كبيرة فى الثامنة عشرة ، وقريبا تصبحين فى التاسعة عشرة قد ســـلك معك سلوكا طيبا ، وتودد اليك ، فأخلق بك أن تكفى عن انتقاده . نحن جميعا أناس ضعفاء ، وانت ، ولا تؤخـذينى ، أنت فى الحقيقة آخر من يجوز له أن يقذف الناس بحجر ... توم ، الى العمل ! »

لكن تونى تمتمت قائلة : « لحية عارضية صفراء حمراء ! » وقطبت حاجبيها كما فعلت من قبل مرات .

الفصل الثانى

وبعد أيام ، بينما كانت تونى عائدة من الخارج ، لقيت السيد جرينليش عند زاوية شارعى برايتن ومنج فقال لها : « لقد كدرنى حقا يا آنستى أن أفتقدك . لقد سمحت لنفسى أن أزور السيدة ماما فافتقدتك كثيرا . فما أعظم ابتهاجى بأن ألقاك مع ذلك ! »

وكانت الآنسة بودنبروك قد وقفت حين بدأ السيد جرينليش الكلام ، لكن عينيها اللتين كانتا نصف مغمضتين ، واللتين تجهمتا بغتة لم ترتفعا الى أعلى من صدر السيد جرينليش . كانت تحف بفمها تلك الابتسامة الساخرة التى لاترحم ، والتى تقيس بها الفتاة الصغيرة رجلا ما وترفضه .. وتحركت شفتاها ـ ولكن بماذا تجيب ؟ ها ! لابد من كلمة ترد هذا البندكس جرينليش على أعقابه نهائيا ، وتقضى عليه ... لكنها لابد أن تكون كلمة كيسة ، فكهة ، مصمية ، تجرحه جرحا نافذا وتروعه فى وقت واحد ..

قالت ونظرتها لا تتحول عن صدر السيد جرينليش : « ان هذا غير متبادل ! » وتركته واقفا بعد أن أطلقت هذا السهم المسموم ، وأطرحت رأسها الى الوراء ، وانصرفت محمرة الوجه مزهوة بهذه الكياسة فى القول المنطوية على السخر ، عائدة الى البيت حيث علمت أن السيد جرينليش قد دعى الى تناول اللحم العجالى المحمر فى يوم الاحد القادم ...

وجاء يرتدى سترة خروج ليست حديثة الطراز لكنها بديعة جرسية الشكل ، مثناة ، تكسبه مسحة الجد وتخلع عليه الشبات ، وكان متورد الخد ، مبتسما ، معتنيا بفرق شعره القليل ، فواح العارضين المسرحين . وقد تناول من خليط المحار وحساء جوليين ولسان البحر المخبوز والعجالى المحمر والبطاطس المسحوقة والقنبيط وبودنج المارسكينو والخبز الأسود مع جبن الروكفور ، ولم يعيه أن يجد لكل لون من ألوان الطعام كلمة مديح جديدة ، كان يفهم كيف يلقيها فى ظرف . وقد رفع على سبيل المثال ملعقة الحلو ، ونظر الى تمثال مرسوم فوق كسوة الحيطان وخاطب نفسه بصوت مرتفع : « ليغفر الله لى ، فلست بمستطيع غير ذلك . لقد استمتعت بقسط وافر ، لكن هذا البودنج فاق كل شىء فى الفخامة ، فلامناص لى من أن أرجو سيدة البيت الطيبة قطعة أخرى ! » ورمشت عيناه فى خبث لزوجة القنصل . وتكلم مع القنصل عن الأعمال وعن السياسة ، فجلا بعض المبادىء فى جد وحذق ، وتحدث مع زوجة القنصل عن المسرح والمجتمع والزينة ، وحبا توم وكريستيان وكلوتيلده المسكينة ، بل أيضا كلارا الصغيرة والآنسة يونجمان بكلمات

رقيقة ... ولزمت تونى الصمت . كذلك لم يحاول هو من جانبه أن يتقرب اليها ، بل كان يتأملها الفينة بعد الفينة بنظرة من رأسه المائل جانبا فيها كدر وفيها تشجيع .

ولما استأذن السيد جرينليش هذا المساء فى الانصراف كان قد قوى فى النفوس ما تركت زيارته الأولى من أثر . فقالت زوجة القنصل : « انه رجل كامل الثقافة » وقال القنصل : « انه انسان مسيحى جدير بالالتفات . » أما كريستيان فقد أصبح أكثر اجادة فى تقليد حركاته وكلامه مما كان . وقالت تونى مقطبة الحاجبين : « طاب ليلكم » ، ذلك أنه كان يقوم بنفسها فى غموض أنها سوف ترى هذا الرجل الذى غزا قلبى والديها بهذه السرعة الخارقة مرة أخرى .

وحقا لقد ألفت السيد جرينليش عقب عودتها بعد ظهر يوم من زيارة واجتماع مع فتيات من أترابها ، رابضا فى حجرة المناظر الطبيعية يقرأ لزوجة القنصل « ويفرلى » لوالتر سكوت فى نطق نموذجى ، ذلك ان رحلاته التى قام بها لانجاز أعماله النشيطة قادته أيضا على قوله الى انجلترا . فانتحت تونى جانبا بكتاب آخر فسألها السيد جرينليش بصوت ناعم : « لعل ما أقرأ يا آنستى لا يوائم ذوقك ؟ » فردت عليه وقد أطرحت رأسها الى الوراء بشىء ينطوى على السخرية الحارة كقولها على سبيل المثال : « ولا أقل مواءمة ! »

لكن هذا لم يزعجه ، اذ جعل يتحدث عن والديه اللذين توفيا مبكرين ، ويروى عن والده الذى كان واعظا وراعى كنيسة ورجلا تفعم قلبه المسيحية ويحذق كذلك أساليب الحياة الى حد بعيد ... وقد سافر السيد جرينليش بعدئذ الى هامبورج بالفعل من دون ان تتوقع تونى أن تحضر زيارة وداعه . وقالت تونى للآنسة يونجمان التى كانت موضع سرها : « ايدا ، لقد رحل هذا الانسان » ! لكن ايدا يونجمان أجابت : « أيتها الطفلة ، سترين ... »

وبعد ثمانية أيام كان المنظر الثانى فى حجرة الافطار ... فقد نزلت تونى فى التاسعة فأثار دهشتها أن تجد أباها الى جانب القنصلة حول مائدة القهوة . وبعد أن طبعا قبلتيهما على جبينها اتخذت مجلسها جائعة محمرة العينين من أثر النعاس . وتناولت السكر والزبد وأخذت من جبن الروكفور ..

قالت : « ما أجمل أن ألقاك مرة ياأبى » وأمسكت بيضتها الساخنة بفوطتها وفتحتها بملعقة الشاى .

قال القنصل : « لقد انتظرت اليوم نوامتنا » وكان يدخن سيجارا ويضرب

المائدة بصحيفته المطوية ضربا خفيفا متواصلا · وانتهت القنصلة من افطارها في تؤده وحركات ظريفة · واتكأت بعد ذلك على الأريكة ·

واستطرد القنصل بقول ذى معنى : « ان تيلده فى المطبخ بالفعل · وأنا كنت خليقا بالمثل أن أكون فى عملى لو لم يكن عند أمك وعندى أمر جدى نريد أن نتحدث الى ابنتنا الصغيرة فيه · »

فنظرت تونى فى وجه أبيها وأمها و فمها مليىء بالخبز والزبد نظرة يمتزج فيها الفضول والقلق ·

فقالت القنصلة : « كلى يا ابنتى أولا · » ولما وضعت تونى سكينها على الرغم من ذلك وصاحت : « عجلى ! ماذا هناك يا أبى ! » أعاد القنصل عليها : « كلى فقط » وهو مايزال يعبث بالصحيفة ·

وبينما تحتسى تونى قهوتها صامته عديمة الشهية ، وتزدرد بيضتها وجبنها الروكفور بالخبز أخذت تفطن الى خبيىء الأمر ، فزايلت وجهها نضرة الصباح وامتقع لونها قليلا · وشكرت على العسل ثم لم تلبث ان أعلنت بصوت خافت انها فرغت من الطعام ···

قال القنصل بعد لحظة صمت أخرى : « يا طفلتى العزيزة ان الامر الذى نريد أن نخاطبك فيه يحتويه هذا الخطاب · » وبدلا من أن يدق على المائدة بصحيفته دق عليها بغلاف كبير أزرق « ولأوجز فأقول أن السيد بندكس جرينليش الذى عرفناه كلنا رجلا طيبا ودودا كتب الى انه فى خلال اقامته هنا تملكه ميل عميق الى ابنتنا ، فهو يطلب يدها بكل صورة فما رأى طفلتنا الطيبة فى هذا ؟ »

وكانت جالسة متكئة ، مطأطئة الرأس ، ويدها اليمنى تدير حلقة الفوطة الفضية ، لكنها رفعت بصرها بغتة بعينين غامتا كل الغيم واغرورقتا بالدموع · ثم قالت بصوت مكروب وكأنها تدفع قولها دفعا : « ماذا يريد هذا الانسان منى ! ماذا فعلت له ؟ » ثم أجهشت بالبكاء ·

وألقى القنصل على زوجه نظرة ورعى قدحه الخالى برهة وهو مرتبك ·

وقالت القنصلة فى حنان : « لماذا أنت مكروبة الى هذا الحد ؟ ثقى أن أبويك يضعان خيرك نصب أعينهما ، فلا يمكن أن يشيرا عليك باتباع منهج بعينه فى الحياة · انظرى ، انى أفرض أنك لا تحدوك بعد حيال السيد جرينليش مشاعر حاسمة ، لكن هذا سوف يأتى · أؤكد لك ان هذا سيأتى مع الزمن ··· ان مخلوقا صغيرا مثلك لا يمكن أن يعرف بالضبط ماذا يريد فى الحقيقة ··· ورأسك فى هذا مضطرب كقلبك ··· فيجب أن يتيح المرء لقلبه الوقت الكامل ويفتح رأسه لما يقول أهل الخبرة من الناس الذين يعملون لسعادتنا ··· »

فقالت تونى مسلوبة العزاء : « انى لا أعرف شـيئا عنه » وضغطت عينيها بالفوطة الباتسـتا الصـغيرة البيضاء المبقعة بالبيض : « انى لا أعلم الا أن له لحية ذهبية صفراء وعمـلا رائجا ... » وتركت شـفتها العليـا التى كانت ترتعش وهى تبكى ، وقعا مؤثرا يجل عن التعبير .

فاقترب القنصل منها بكرسيه فى حركة تنم عن حنو مفاجىء ومسح على شعرها وهو يبتسم :

قال : « صـغيرتى تونى ماذا كان ينبغى أن تعرفى عنه ؟ انك طفلة ، أترين ؟ انك ما كنت لتعرفى عنه جديدا لو أنه قضى هنا بدلا من أربعـة أسابيع اثنين وخمسين أسبوعا ... انك فتاة صغيرة لم تتفتح بعد عيناها للدنيا . فتاة تعتمد على ما تراه أعين الغير ممن يريدون لها الخير ... »

قالت : « انى لا أفهم ذلك ... لا أفهمه ... » وانخرطت فى البكاء دون وعى ، ودست رأسها كالهرة الصغيرة تحت اليد التى تملسه « انه يأتى الينا ... يقول لكل منا كلمـة تعجبه ... يرحل ... ويكتب ، انه ... انى لا أفهم ذلك ... كيف يصل الى هذا ... ماذا صنعت له ؟! ... »

فابتسم القنصل ثانية : « لقد قلت هذا مرة ياتونى . وهو يدل على حيرة الاطفال فيك . ان ابنتى يجب أن تعتقد أنى لا أضغط عليها ولا أعذبها .. فكل هذا يمكن أن يتروى فى هدوء ، ويجب أن يتروى فى هدوء . ذلك أن الامر جد وسأرد أيضا على السيد جرينليش بهذا المعنى فلا أرفض طلبه ولا أوافق عليـه فهنالك أشياء كثيرة مما ينعم فيه النظر وهذا اذن ما نراه جيـدا .. اتفقنا ! والآن يذهب بابا الى عمـله ... فالى اللقاء يا بتسى .. »

« الى اللقاء يا عزيزى جان »

وقالت زوجة القنصل لما بقيت وحدها مع ابنتها ، وبقيت الابنة فى مكانها ، لا تتحرك مطأطئة الرأس : « كان ينبغى أن تتناولى من العسل فوق الذى تناولت فالمرء يجب أن يأكل مافيه الكفاية . »

وجف دمع تونى شيئا فشيئا . وكان رأسها صاخبـا مليئا بالأفكار ... يا ألله ! ما هـذه المسألة ! لقد كانت تعرف أنها ستكون يوما زوجة لتاجر ، انها ستعقد زيجة طيبة مفيدة تتناسب مع هيبة الأسرة والمتجر ... لكن الامر يقع لهـا الآن للمرة الأول مفاجئـا ، فيريد أحـد النـاس الزواج منها حقا وجـدا ! فـكيف كان ينبغى أن يكون مسلكها ؟ وبالنسـبة لها هى ، تونى بودنبروك ، يتعلق الأمر فجاءة بكـل التعبيرات ذات الوزن الثقيل التى كانت قبل الآن تقرأها : « برضاها » و « يدها » و « مدى الحياة » ياربّاه ! أى مركز جـديد كل الجدة دفعة واحدة !

قالت : « وأنت يا أماه تنصحين لي أيضا بأن أعلن رضاى ؟ »
وترددت لحظة أمام كلمة « الرضا » لأنها بدت لها حاجة الجزالة وبمثابة أسلوب ، فنطقتها عندئذ في وقار لأول مرة في حياتها ، وأخذ الخجل يتولاها شيئا ما في ارتباكها الأول ، وبدا لها الزواج من السيد جرينليش لايقل خرقا الآن عما كان يبدو قبل عشر دقائق . لكن خطورة مركزها جعلت تفعمها بالارتياح .

وقالت زوجة القنصل : « أنصح لك يا ابنتى ؟ وهل نصح لك أبوك ؟ انه لم ينهك . هذا كل شيء . ولو أردنا أن نفعل ذلك لكان هذا منه ومنى دالا على عدم المسئولية . ان الزوج الذى يعرض عليك هو بالضبط مايسمى زوجا صالحا
ان الزوج الذى يعرض عليك هو بالضبط ما يسمى زوجا صالحا
يا عزيزتى تونى ... عندئذ تنتقلين الى هامبورج فى أحوال ممتازه وتعيشين هناك فى رغد .. »

كانت تونى تجلس بلا حراك فانسدل أمامها بغتة شيء كأنه ستار حريرى من قبيل ما كان فى صالون جديها ... فهل ستتناول وهى مدام جرينليش قدح الشوكولاتة كل صباح؟انه ليس من اللائق أن تسأل عن هذا .
واستطردت زوجة القنصل : «ان لديك كما قال لك أبوك وقتا كافيا للتفكير . لكننا يجب أن نلفتك الى أن مثل هذه الفرصة لاتاحة السعادة لك ، لن تعرض كل يوم ، وأن هذا الزواج هو بالضبط ما يفرضه الواجب والمصير . أجل يا ابنتى ، وهذا ايضا يجب أن أنبهك اليه . ان الطريق الذى انفتح لك اليوم هو الطريق الذى قدر لك . وأنت بلاريب تعرفين ذلك جيدا .. »

قالت تونى مشغولة الفكر : « نعم بالتأكيد » لقد كانت تدرك على التحقيق واجباتها نحو الاسرة والمتجر ، وكانت فخورة بهذه الواجبات وهى ، أنتونيا بودنبروك ، التى يرفع لها الحمال ماتهيزن قبعته العالية الخشنة ويخفضها خفضا عميقا ، والتى تجوب المدينة بوصفها ابنة القنصل بودنبروك كأميرة صغيرة ، قد استظهرت تاريخ الاسرة ، فقد لقى خياط الاردية فى روستوك نجاحا كبيرا ، ومنذ عهده والاسرة تدرج فى معارج الرقى ، وأنه لمن وكدها أن تزيد على أسلوبها فى بهاء الاسرة وبيت يوهان يودنبرك التجارى بأن تعقد زيجة غنية وجيهة ... وتوم يعمل لهذا بالفعل فى مكتبه .. أجل ان هذا النوع من الزواج هو بالتأكيد النوع الصالح ، ولكن أن يكون الزوج هو السيد جرنيليش بالذات .. لقد كانت تتمثله بلحيته العارضية الصفراء الذهبية ووجهه المتورد الباسم والثؤلول البادى على أحد منخريه وخطواته القصيرة بل أنها كانت تتخيل أنها تحس بذلته الصوفية وتسمع صوته الناعم ..

قالت زوجة القنصل : « لقد كنت أعرف أننا خلقاء بالتفكير الهادىء ... فلعلنا قد صح عزمنا على شىء ! »

فصاحت تونى : أوه ، حاشا ، وأكدت « أوه » بغضب مفاجىء . « أى خرق هذا أن أتزوج من جرينليش ! لقد كنت أسخر منه بعبارات لاذعة ... ولست أفهم مطلقا أنه لايزال يطيق هذا منى ! انه ليجب أن يكون على شىء من الكبرياء . وبدأت بهذا تقطر العسل على شريحة من خبز الريف .

فى هذه السنة لم تقم أسرة بودنبروك برحلة للاستجمام حتى فى أثناء عطلة كريستيان المدرسية· وقد أعلن القنصل ان أعماله ترتهنه ارتهانا شديدا وأن المسألة المعلقة الخاصة بأنتونيا قد جعلت البقاء والانتظار فى شارع منج أكثر ضرورة · وقد بعث الى السيد جرينليش بخطاب بالغ الديبلوماسية بخط يده · لكن مجرى الامور قد عاقه عناد تونى الذى اتخذ اشكالا صبيانية · كانت تقول : حاشا يا أماه ! انى لا أطيقه ! مؤكدة المقطع الثانى من الكلمة الاخيرة توكيدا بالغا أو تعلن فى صورة جدية « أبى » وقد ألفت أن تقول : « بابا انى لن أرضى به أبدا · »

كانت المسألة خليقة على التحقيق أن تقف عند هذه النقطة طويلا لو لم يحدث الآتى بعد عشرة أيام من تلك المحادثة التى دارت فى حجرة الافطار — وقد كان ذلك فى منتصف يوليه !

كان الوقت عصرا — عصرا حارا صحوا، وكانت زوجة القنصل قد خرجت من البيت ، وتونى جالسة وحدها فى حجرة المناظر الطبيعية تقرأ فى قصة عند النافذة لما حمل اليها أنطون بطاقة زيارة وقبل أن تجد الوقت الكافى لقراءة الاسم كان قد دخل الحجرة سيد يرتدى سترة جرسية الشكل وسراويل بلون البسلة· وقد كان ، كما هو مفهوم ، السيد جرينليش وعلى وجهه تعبير ينم عن الحنو والتوسل ·

فهبت تونى عن كرسيها مذعورة ،وأتت بحركة من يريد الهرب الى قاعة الطعام ··· فكيف يمكن أن تقابل سيدا طلب يدها ؟ ودق قلبها حتى كادت تختنق وامتقع لونها امتقاعا شديدا ·ووقت أن كانت تعرف أن السيد جرينليش بعيد منها ، كانت تلك المفاوضات الجدية التى دارت بينها وبين والديها ، وتلك الاهمية الفجائية التى باتت لشخصها ولقرارها ، مما يسليها رأسا ، لكنه الآن هنا من جديد ! واقف أمامها ! فما عسى أن يقع ؟ لقد عادت تحس أنها بسبيل أن تبكى ·

وأقبل عليها السيد جرينليش فى خطو سريع ، وذراعين ممدودتين ، ورأس يميل جانبا ومسلك رجل يريد أن يقول : ها أنذا اقتلينى اذا شئت ! وصاح : « يالها من صدفة !! أن أجدك يا أنتونيا ! » وقال « أنتونيا ! »

ومطت تونى شفتيها وهى واقفة منتصبة عند مقعدها ، والقصة فى يمناها · وقذفته وهى تحرك رأسها مع كل كلمة من تحت الى فوق وتؤكد كل كلمة فى غضب شديد — قذفته بقولها : « ماذا — يخطر — ببالك ؟ »

ومع ذلك فقد كانت العـــبرات فى طريقها آخذة بخناقها .
وكانت حركة السيد جرينليش من النشاط بحيث لم يلق الى هذه القذيفة باله .

وسأل فى لجاجة : « أكان يسعنى أن أنتظر أطول من ذلك .. أما كان يجب أن أعود ؟ لقد تلقيت من أسبوع مضى خطاب الســـيد والدك العزيز ـ ذلك الخطـاب الذى يحيى فى الامل . فهـل كان يسعنى أن أنتظر أطول مما انتظرت مبلبل الفـكر يا آنســـة أنتونيا ؟ لم أستطع أكثر من ذلك ... فألقيت بنفسى فى مركبة ... وأسرعت الى هنا ... وقد حجـزت بضـع حجرات فى فندق مدينة هامبورج ... وها أنذا يا أنتونيـا لأستقبل من شفتيك آخر كلمة حاسمة تجعلنى أسعد مما أستطيع أن أعبر ! »

وأصاب تونى جمـــود ، وتراجعت عبراتها من فرط ما أخذت . اذن فقد كان هذا تأثير خطـــاب والدها الذى حاذر فيه ! وأرجأ كل فصل فى الموضوع الى أجل غير مسمى ـ وجعلت تتمتم ثلاث أو أربع مرات :

« انك مخطىء ـ مخطىء ... »
وسحب الســـيد جرينليش مقعدا ساندا وقربه من مقعدها عند النافذة جدا وجلس وألزمها هى أيضا أن تعاود الجلوس ، وبينما هو ، وقد انحنى الى الامام ، يتناول يدها ، التى استرخت من فرط الارتباك فى يده ، استطرد بصوت متأثر يقول :

« يا آنسة أنتونيا ... منذ اللحظة الاولى ، منذ عصر ذلك اليوم ... انك تذكرين ذلك العصر ؟ لما رأيتك للمـرة الاولى فى محيط ذويك ، ظاهرة بهـذه الوجاهة وبهذا اللطف الحـالم ، انطبع اسمك فى قلبى بأحرف من نور ... » وصحح عبارته فقال ! « نقش » « فى ذلك اليوم ياآنستى أنتونيا باتت رغبتى الوحيدة ، رغبتى الحارة أن أظفر بيدك مدى الحياة . وما يجعلنى خطاب السيد أبيك العزيز أؤمله ، سوف تجعلينـــه أنت حقيقة سعيدة ... أليس كذلك ؟ انى أنتظر موافقتك ... وأقطع بها ! » وهنا أمسك بيده الاخرى أيضا يدها ، وحدق فى عينيها المفتوحتين الجازعتين . ولم يكن فى هذا اليوم يلبس قفـــازه المجدول ، فبدت يداه طويلتين بيضاوين تتخللهما عروق نافرة زرقاء .

وحملقت تونى فى وجهـه المتورد ، وفى الثؤلول على أنفه ، وفى عينيه اللتين كانتا فى زرقة عينى الاوزة .
فصـاحت : « لا ، لا ! » ثم أردفت ذلك بقولها : « انى لا أوافق ؟ »
وجهدت أن تتكلم فى حزم ، لـكنها جعلت تبكى .

فسألها بصوت جد منخفض ، مفعم تقريبا بالملام : « بم استحققت هذا الشك وهذا التردد من جانبك ؟ انك فتاة رعوك بالاعزاز ودللوك ... لكنى أقسم لك ، أجل ، انى لأجعل كلمتى ـ بوصفى رجلا ـ وديعة عندك ورهينة لديك بأنى سأحملك على أكف الراحة ، وأنك كزوجة لى لن تحرمى شيئا ، وأنك ستحيين فى هامبورج حياة تليق بك . »

فوثبت تونى ، وانتزعت يدها من يديه ، وبينما كانت عبراتها تتفجر صاحت من فرط اليأس :

« كلا ... كلا ! لقد قلت كلا . انى أرفض طلبك ؟ ألا تفهم اذن . يا للسماء ! »

لكن السيد جرينليش نهض أيضا وتراجع خطوة ومد ذراعيه موجها اليها باطن اليدين وتكلم فى جد كرجل ذى كرامة عنده تصميم :

« أتعلمين يا آنسة بودنبروك أنى لا أسمح بأن أهان على هذا النحو ؟ »

فقالت تونى : « ولكننى لا أهينك ياسيد جرينليش » ذلك أنها ندمت على أنها عنفته هذا العنف . يالله ! أكان لابد أن يصادفها هذا ؟ انها لم تتصور أن تخطب على هذه الصورة . لقد كانت تعتقد أنه يكفى أن يقال : « أن طلبك يشرفنى لكنى لا أستطيع قبوله ، فينتهى كل شىء .

فقالت وهى أهدأ ما أمكن أن تكون : « ان طلبك يشرفنى ، لكنى لا أستطيع قبوله ... اذن فلأتركك . وعفوا اذا لم يسمح لى وقتى بأكثر من هذا . »

لكن السيد جرينليش اعترض طريقها .

ثم سألها بصوت غير مسموع : « انك ترديننى ! »

فقالت تونى : « نعم » ثم أضافت على سبيل الاحتياط « للأسف »

فنفخ السيد جرينليش نفخة شديدة وتراجع خطوتين واسعتين الى الوراء وحنى جسمه الاعلى جانبا ، وأشار بسبابته الى السجادة وصاح بصوت مرعب : « أنتونيا ... ! »

هكذا وقفا لحظة وجها لوجه ، هو فى موقف الغاضب الصريح ، الآمر الناهى ، وتونى شاحبة ، باكية ، مرتعشة ، وعلى فمها منديلها المبلل . وأخيرا استدار السيد جرينليش ، وذرع الغرفة مرتين ويداه على ظهره كأنه فى بيته . ثم وقف عند النافذة وتأمل خلال زجاجها حلول الغسق .

وخطت تونى خطوا وئيدا فى شىء من الاحتراس نحو الباب الزجاجى ، لكنها لم تصل الى منتصف الحجرة حتى كان السيد جرينليش واقفا من جديد عندها

قال فى خفوت تام : « تونى » وأمسك بيدها فى رفق ... ثم جثا ... جثا ببطء على ركبته ، واستقرت لحيته العارضية الصفراء الذهبية بفرد من فرديها على يدها .

وأعاد : « تونى . أنظرى الى هنا .. لقد أوصلتنى الى هـذا .. فهـل لك قلب ، قلب يشعر ؟ استمعى الى ... انك ترين أمامك رجلا محطمـا مقضيا عليه ، اذا ... » وقاطع نفسه فى سرعة بعينها قائلا : « رجلا سـيموت حزنا اذا أنت ازدريت حبه !! انى ملقى هنا ... فحاذرى أن تقولى لى : انى أمقتك »

فقالت تونى فى لهجة معزية : « لا ، لا ! »

وجف دمعها واستشعرت التـأثر له والعطف عليه ؛ يالله لابد أنه يحبها كثيرا الى حد أن يدفعه هذا الامر الذى لاتحسه ولا تكترث له ، الى هـذا المدى ! أكان يمكن أن تشاهد ماشـاهدت ؟ ان المرء ليقرأ فى القصص وحـدها مثل ذلك ، ومع هذا يركع أمامهـا فى واقع الحياة سيد يرتدى سترة الفراك على ركبتـه ويتوسل ويتوسل !.. لقد بدت لها حقـا فكرة الزواج منه سـخيفة بكل بساطة ، لأنها كانت تجد السـيد جرينليش غبيا !! لكنه والله لم يكن فى هذه اللحظة بالغبى اطلاقا ! فقد كان فى صوته وعلى وجهـه ماينطق بخوف حقيقى ، ورجاء مخلص يغمره اليأس .

وعادت تقـول : « لا ، لا . » وقد انحنت فوقه متأثرة كل التأثر : « انى لا أمقتك ياسـيد جرينليش ، فكيف وسعك أن تقول ذلك ؟... ولـكن أنهض الآن ... أرجوك . »

وقال هو من جديد : « اذن لاتريدين قتلى ؟ » وقالت هى كرة أخرى بلهجة فيها عزاء قريب من عزاء الأم : « لا ، لا ... »

فصاح السيد جرينليش : « هذا وعد ! » وهب واقفا على قدميه . لكنه لما رأى حركة الذعر التى بدت من تونى ، جثا فى الحال على ركبتيه وقال وجلا مهذبا :

« حسنا ، حسنا ... لا تقولى الآن شيئا يا أنتونيا ! حسبنا من هذا الأمر ما كان لهذه المرة ... فسنتحدث عنه فيما بعـد ... مرة أخرى ... مرة أخرى ... فالى اللقاء ... وأستودعك الله ... سأعود ... أستودعك الله ! »

ونهض سريعا ، واختطف قبعتـه الرمادية الكبيرة عن المائدة ، وقبل يدها وخرج مسرعا من الباب الزجاجى .

وقد رأت تونى كيف تناول عصـاه من بهو الاعمدة واختفى فى الدهليز . وكانت واقفة فى وسط الغرفة مرتبكة خائرة القوى ، منديلها المبلل فى يد من يديها المرتخيتين .

الفصل الرابع

قال القنصل بودنبروك لزوجه :

« ليت شعرى ! أى باعث رقيق لدى تونى يمنعها من الموافقة على هذا الزواج! لكنها طفلة يابتسى ٠ انها محبة للهو ، ترقص فى المراقص ؛ وتدع الشبان يغازلونها ، راضية عن ذلك كل الرضا ، ذلك أنها تدرك أنها جميلة ومن أسرة ٠٠ ولعلها تبحث خفية وبلا وعى ٠ لكنى أعرفها ، فانها لم تكتشف قلبها بعد كما اعتاد الناس أن يقولوا ٠ فاذا سألها المرء فانها تدير رأسها هنا وهناك وتفكر ٠٠٠ لكنها لن تجد أحدا ٠٠ انها طفلة، عصفورة مستوحشة ٠٠٠ فلو قالت نعم لاهتدت الى مكانها وأمكنها الاستقرار، وقر عقلها ، وأحبت زوجها بعد أيام ٠٠ انه ليس بالوسيم ؛ كلا ، فليس حقا بالرجل الجميل ٠٠٠ لكنه مع ذلك حسن المظهر الى أقصى حد ، وليس بمستطاع فى النهاية أن تطلب المستحيل أو تطلب خروفا بخمسة أرجل اذا وجدت تعبيرى التجارى تعبيرا سديدا ! فاذا كانت تريد الانتظار حتى يأتى الوسيم ويكون عداذلك زوجا صالحا ــ فليكن أمر الله ! فستجد تونى بودنبروك شيئا على الدوام ٠٠ وفى تلك الاثناء من جهة أخرى تكون ثمة مخاطرة ، ثم ، ولأعبر ثانية بتعبير التجار ، أنه فى كل الايام خروج لصيد السمك ، لكنه ليس فى كل يوم صيد !٠٠٠ لقد أطلعت على دفاتر جرينليش فى مقابلة جرت لى معه قبل ظهر أمس ٠٠٠ لقد قدمها الى ٠٠٠ دفاتر يابتسى توضع فى اطار ؛ وقد أعربت له عن أعظم غبطة بها ! وأشياؤه مما تناسب مثل متجره الحديث كل المناسبة ٠ وثروته تصل الى ١٢٠٠٠٠ ريال ، وهو مايعد فيما يرى الاساس الراهن، ذلك أنه يربح فى كل عام مبلغا طيبا ٠٠ وقد استشرت آل دوشان فلم يك رأيهم سيئا ٠ قالوا أنهم حقا لا يلمون بأحواله لكنه يعيش كالسادة الاماجد ويغشى خير المجتمعات وأنه معروف عن تجارته الرواج والتشعب فى شتى المبادين ٠٠٠ وما علمته من آخرين فى هامبورج من المصرفى كيسلماير على سبيل المثال قد أرضانى كل الرضا وبالايجاز يابتسى ، اننى كما تعرفين لا يسعنى الا أن أتمنى من كل قلبى لهذا الزواج الذى لن يجلب لمتجرنا سوى الخير ! ــ وأنه ليؤسفنى والله أن تضايق الفتاة ويشدد عليها الخناق من جميع الجهات ، وأن تسير مكروبة تنكاد لا تتكلم ٠ لكننى لا أستطيع مطلقا أن أقرر رد جرينليش « بلا كلام ولا سلام » ٠٠٠ ذلك أن هناك أمرا آخر يابتسى ٠ وهذا الامر لن آمل تكراره : ان أحوالنا فى السنوات الاخيرة لم تكن كلها باعثة على الارتياح وليس هذا لأن البركة جفتنا ، حاشا وكلا ، فالعمل بأمانة يلقى ثوابه ٠ لكن الاعمال تجرى مجرى هادئا ــ أهدأ مما ينبغى ، وهذا فقط لأنى أسير فى أعمالى بمنتهى الحذر ، فلم نتقدم تقدما محسوسا منذ توفى والدى والاوقات اليوم ليست على التحقيق فى

مصلحة التاجر ... وبالايجاز ليس في العمل مايسر كثيرا . وابنتنا صالحة للزواج ، وفي وسعها أن تتخذ زوجا يجمع الكل على أنه في مصلحتها ، وأنه يملأ العين — فيجب أن يتم لها هذا الزواج! والانتظار ليس محمودا يابنتي، فكلميها كرة أخرى . وقد حاولت ظهر اليوم اقناعها بكل قواي ... »

لقد كانت توني في ضيق ، وكان القنصل محقا في هذا : لم تعد تقول « لا » لكنها لا تستطيع أن تخرج من شفتيها كلمة « نعم » — فليكن الله في عونها ! لم تكن تدرك لماذا عجزت عن أن تستخلص من نفسها كلمة « القبول »

في تلك الاثناء انتحى بها أبوها جانبا ووجه اليها كلمة جدية ، ودعتها أمها الى الجلوس بجانبها لتحثها على أن تقول في النهاية القول الفصل ... ولم تطلع الاسرة العم جوتهولد وأسرته على الموضوع لأنها كانت تتحدث عن أسرة شارع منج في شيء من السخرية ، لكنه حتى زيزيمي فيشبروث قد اتصل بها طرف من الموضوع وجاءت تسدى النصح بلهجة مهذبة صحيحة بل أن الآنسة يونجمان نفسها قالت : « توني ياطفلتي عداك الهم ، ابقى في الوسط الراقي . » ولم يكن يسع توني أن تزور الصالون الحريري المحترم هناك أمام « باب القصر » من دون أن تبدأها السيدة كروجر الكبيرة بقولها : « على فكرة ، اني أسمع عن مسألة هناك ، فآمل أن يتغلب عليك العقل أيتها الصغيرة .. »

وفي يوم أحد وهي جالسة مع والديها واخوتها في كنيسة مريم تكلم القس كولنج بلهجة قوية عن الآية التي تقول انه ينبغي أن تترك المرأة أباها وأمها وتتبع زوجها — فاحتد هنا فجأة . فحملقت توني فيه حيث كان فوق المنصة فلعله كان ينظر اليها ... كلا ، والحمد لله ، فقد كان متجها برأسه الضخم ناحية أخرى يعظ الجمهور الورع عامة . ومع ذلك فقد كان واضحا كل الوضوح أن هذا هجوم جديد عليها، وان كل كلمة موجهة اليها . كان يعلن ان كل امرأة شابة ، وكل امرأة ما تزال طفلة لا ارادة لها ولا رأى خاصا تعارض نصائح والديها المفعمة بالحب ، عرضة للعقاب ولأن يلفظها الرب ... وعند هذه العبارة التي تدخل فيما يتغنى به القس كولنج وينطقه بحماسة ، أصابت توني مع ذلك نظرة ثاقبة من عينيه مصحوبة بحركة مخيفة من ذراعه .. وقد رأت توني كيف رفع أبوها وهو بجانبها احدى يديه كأنما أراد أن يقول: « ما هذا ! لاتكن قاسيا ... » لكنه لم يكن ثمت شك في أن الراعي كولنج كان متفاهما معه أو مع الأم . وكانت في مقعدها محمرة اللون مطرقة ، تشعر كأنما أنظار الناس جميعا تتركز فوقها . وفي الأحد التالي رفضت توني بتاتا أن تذهب الى الكنيسة .

كانت تسير صامتة وباتت قليلة الضحك، كانت عديمة الشهية تتنهد أحيانا،

كسيرة القلب ،كأنما تصارع قرارا ثم ترفع بصرها الى ذويها شاكية ٠٠ ولم يكن بد من الرثاء لها ٠ فقدكانت تنحل على التحقيق وتفقد من نضرتها ٠

وأخيرا قال القنصل :

« هذه حال لا ينبغي أن تطول أكثر من ذلك ولا يجوز أن نسيء معاملة الطفلة ٠ انها يجب أن تخرج قليلا وتستريح وتفكر ٠ وسترين أنها ستثوب الى وشدها ٠ انني لا أستطيع التخلص من أعمالي ، والعطلة توشك ان تنتهي ٠٠٠ بيد أننا نستطيع جميعا أن نبقى هنا على خير حال ٠ وأمس كان هنا صدفة شفارتسكوبف العجوز المقيم في ترافيمنده ، ديدريش شفارتسكوبف رئيس المرشدين ٠ وقد لمحت له ببضع كلمات فأبدى استعداده لقبول الفتاة عنده بعض الوقت ٠٠ وساعوضه لقاء ذلك تعويضا بسيطا ٠٠٠ وعندئذ سوف تستمتع بحياة منزلية مريحة ، وتستجم ، وتبدل الهواء وتراجع نفسها ٠ وسيسافر توم معها ،وكل شيء على ما يرام ٠ وأن يقع هذا غدا خير من أن يقع بعد ذلك ٠٠ »

وأعلنت توني موافقتها على هذه الفكرة ٠ حقا انها تكاد لاترى السيد جرينليش ، لكنها كانت تعلم انه في المدينة وانه فاوض والديها وأنه ينتظر ٠٠ : وانه والله لفي الامكان أن تراه كل يوم أمامها يصرخ أو يتوسل ٠ لكنها في ترافيمنده ، وفي بيت غريب ستكون آمنة منه ٠٠٠ وهكذا أعدت حقيبتها على عجل وهي مسرورة ، وصعدت في يوم من أيام يوليه الاخيرة مركبة آل كروجر الفاخرة يصحبها توم ، وودعت ذويها منشرحة الصدر ، وخرجت الى « باب القصر » لتتنفس الصعداء ٠

الفصــــل الخامس

والطريق الى ترافيمنـــــده مستقيم دائما تعبر فيه الماء بالمعدية ثم تستأنفه في اســتقامه . وقد كان كلاهما يعرفه جيدا . كان الطريق الاغبر يطوى سلسا تحت حـوافر خيـل ليبرشت كروجر البنيـة من مكلينبورج الى هنـاك ترن رتيبــة جـوفاء ، ولو أن الشــمس كانت حامية والغبــار يحجب المنظر الهزيل . وقد تنـاولت الاسرة طعـام الغداء فى الساعة الواحـــدة بصفة استثنائية وقامت المركبة بالأخوين فى الثانية تماما . وهكذا سيظلان الى ما بعد الرابعـة بقليـل ، ذلك انه اذا كانت مركبة ما تحتاج الى ثلاث ساعات فخيول آل كروجـر تطمح أن تقطع الطريق فى ساعتين .

كانت تونى تهتز فى شـــبه نعاس حالم تحت قبعة من القش مفلطحة كبيرة ومظلة مكسوة بالدنتيلا المصفرة اللون التى كانت بلون « الدوبار » الرمـادى كثوبهـا البســيط الانيق ، وكانت تسندها الى غطاء ظهر المركبة . وكانت تلبس حذاء بأشرطة متعامدة وجوربين أبيضين ، تضع احـــدى قدميها فوق الاخرى فى صـــورة ظريفة . كانت تجلس مرتاحة أنيقـة فى اتكائها كمن خلق للركوب .

وكان توم وقد بلغ العشرين من عمره يرتدى بذة رمادية تميل الى الزرقة قد طوح قبعته القش الى الوراء وجعـل يدخن سجائر روسـية . لم يكن فارعا لكن شاربه وكان أشد سوادا من شعر رأسه وأهدابه ، قد أخذ ينمو بقـوة . واذ يرفع كعادته أحد حاجبيـه قليـلا جعل ينظر فى النقع المثـــار ويتأمل الاشجار الخاطفة على جانبى الطريق .

وقالت تونى : « لم أسر يوما بسفرى الى ترافيمنده كما أسر اليوم ... أولا لأسباب كثيرة ياتوم ، ولا حاجـة بك الى السخر منى ، فقد أردت أن اتخلص من زوج بعينـــه ، من اللحى الصفراء الذهبيـة بعض الوقت ... بعد ذلك ستكون ترافيمنده جديدة على كل الجدة عند آل شفارتسكويف هناك فى الصف الأول . ولن أحفل بمجتمع المستشفين ... فانى عليمـــة به كل العلم ... وليس هو مما يوائمنى ... هذا الى انه لن يصد ذلك ... الانسان هناك شىء فهو لا يخجـل ، والق بالك فقد يظهر يوما الى جانبى وعلى وجهه ابتســامة ظريفة .. »

والقى توم سيجــارته وتناول أخرى من العلبة التى كان غطاؤها مكفتا برسم

لذئاب تنقض على مركبـــة تجرها ثلاثة جياد . وكانت هدية من عميل روسى الى القنصل . وكان هوى توم فى هذه السجائر ، فى هذه اللفافات الصفر ، ذات الفم الأصفر وكان يدخنها بكميات كبيرة ، ومن عادته الرديئة أن « يهف » دخانها ، فاذا تكلم تفجر نانية من فمه بطيئا .

قال : « أجـــل ، ففيما يتعلق بهذا فان حديقة المصبحة تعج بالهامبورجيين والقنصل فريتشه الذى اشترى كل شىء احدهم ... ويقول أبى انه عقد صفقات رابحة فى الآونة الراهنة ... هذا الى انك تفوتين على نفسك أشـياء اذا أنت لم تشتركى قليلا فيما هنـــالك ... فبيتر دولمان هناك بطبيعة الحال . وفى هذا الوقت من السنة لايكون فى المدينة وأعماله تسير من نفسها ركضـا ... وهذا غريب ! ما علينا .. والخـــال يوستوس يخرج يوم الاحـد قليـــلا دافى ذلك شـك ، ويغشى الروليت .. ثم هنـــا آل مولندورف وكستنماكر جميعا فيما أعتقد ثم آل هاجنشتروم »

« ها ! ــ بطبيعـــة الحال ! وهـــل يمكن الاستغناء عن سارة سميلنجر .. »
« انها تسمى أيضا لاورا يا طفلتى ، فيجب أن نكون منصفين . »
« وجوليا بطبيعة الحال ... يقال ان جوليا ستعقد خطبتها هذا الصيف على أوجست مولندورف ، وجـــوليا لا تتورع ! لأن مآلها فى النهـــاية الى ذلك ! أتعرف يا توم ، ان هـذا ليبعث على السخط ! هذه الأسرة المتهافتة .»
« أجـل ، أجـل ... ان شترونك وهاجنشتروم يفيدان من ذلك ، وهذا هو المهم ... »
« بديهى ! والناس يعرفون أيضـا كيف يفعـــلان ذلك ... بالمرافق ، أتعرف .. من دون أية مراعاة أو ترفع ... وقد قال جـــدى عن هينريش هاجنشتروم : « ومع هذا يصغر الثـور فيصير عجلا » هذه كانت كلماته .. »
« أجل ، أجل ، أجل ، كل هـــذا واحـد . ان الكسب مكتـــوب بحروف كبيرة . أما ما يتعلق بهذه الخطبـــه فعملية سليمة كل السـلامة ، فجوليا تصبح فى بيت مولندورف ، وأوجست ينال وظيفة طيبة ... »
« آه ... انك تريد اغاظتى يا توم ، هـــذا كل شىء ... انى أحتقر هؤلاء الناس ... »

فبدأ توم يضحك وقال : « يا الهى ! لا بد أن ندبر أمورنا معهم ، اتعرفين ... وكما قال أبى أخـــيرا : انهم الصـاعدون ... بينما آل مولندورف على سبيل المثـال ... ثم اننا لايمكن أن ننكر على آل هاجنشتروم مهارتهم ، فهرمان نافع جـــدا فى الأعمـــال ، وموريتس على الرغم من ضعف صدره قد تخرج من المدرسة بنجاح باهر . ويقال انه حاذق ، وانه يدرس القانون »

« جميل ··· لكنه يسرني على الأقل ياتوم ، أنه توجد أيضا أسر أخرى لاتحتاج الى الانحناء أمامهم ، وأننا آل بودنبروك على سبيل المثال ·· »

قال توم : « كذا ؟ » واستطرد وهو يلقى نظرة على قفا يوخن العريض فقال مخافتا : « دعينا الآن من المباهاة فلكل أسرة معائبها · فالله يعلم أحوال خالى يوستوس على سبيل المثال · ان أبى كثيرا ما يهز رأسه حين يذكره · وجدى كروجر فيما اعتقد قد أمده عدة مرات بمبالغ كبيرة ··· وأولاد الخال أيضا ليست حالهم على مايرام · فيورجن الذى يريد أن يدرس لايزال عاجزا عن تأدية الامتحان النهائى ·· ويعقوب الذى يعمل عند دالبك وشركاته فى هامبورج يقال ان أحواله لاتبعث على الارتياح ، فنقوده لاتكفيه أبدا ، وان كان المدد لاينقطع عنه ، فما يمنعه عنه خالى يوستوس تمده به خالتى روزاليا ··· لا ، انى أجد أنه لايخلق بالمرء أن يرفع حجرا ليقذف به ، فاذا اردت أن تضعى آل هاجنشتروم الى ذلك فى كفة الميزان ، كان خليقا بك أن تتزوجى جرينليش حتما ! »

« هل استقللنا هذه المركبة لنتكلم عن هذا ؟ أجل ، أجل ! لعلى خليقة بذلك ! لكنى لا أريد أن أفكر فيه · انى أريد ببساطة أن أنساه · اننا نتوجه الآن الى آل شفارتسكوبف · اننى كما تعلم لم أرهم قط ·· لابد أن يكونوا أناسا طيبين ؟ »

« أوه ! ديدريش شفارتسكوبف ، رجل يتكلم العامية ، لكنه لايتكلمها دائما بل فقط عندما يكون احتسى خمسة أقداح من الجروج · ومرة ، وكان فى المكتب ، توجهنا الى جمعية الملاحين ··· فجعل يشرب كأنه بالوعة وقد ولد أبوه على سفينة نورويجية وأصبح هو بعد ذلك ربانا على هذا الخط · وقد مر ديدريش بدور طيب فى التعليم · فقومندانية المرشدين مركز ذو مسئولية ، ومرتبه كبير تقريبا · وهو خبير بالبحر من قديم ·· لكنه دائما كيس مع السيدات ، فخذى حذرك فسوف يغازلك ··· »

« ها ! وامرأته ؟ »

« انى نفسى لا أعرف امرأته · وسوف تكون مريحة · هذا الى أن لهما ابنا كان فى أيامى فى الفرقة قبل الأخيرة ، ولابد ان يكون الآن فى الجامعة ··· انظرى ، ها هو ذا البحر ! فليس أمامنا سوى ربع ساعة ·· »

وفى طريق مغروس على الجانبين بأشجار الزان سارت المركبة شقة وهى تحاذى البحر ، وكان أزرق اللون يرنق عليه السلام فى أشعة الشمس · وظهرت المنارة المستديرة الصفراء ، فتبدى لهما الجون والحصن برهة ، واستعرضا

الأسطح الحمر فى المدينة الصغيرة وفي الميناء الصغير أشرعة القوارب والحبال ثم سـارت بهما المركبـة بين البيوت الأولى ، واستدبرا الكنيسة ، وطوت المركبـة الصف الأول الممتد على ضفة النهر الى بيت صغير جميل ينمو فى شرفته الكرم ٠

وكان رئيس المرشـدين واقفا أمام الباب فخلع قبعته البحرية عند اقتراب المركبة ٠ وكان رجلا ربعة ، عريضا ، أحمر الوجه ، عيناه فى زرقة المـاء ، ولحيته شائكة بيضاء بلون الثلج تحيط بوجهه شبيهة بالمروحـة من الاذن الى الاذن ٠ وكان فمه المسحـوب جانبـا يحتجز غليونه الخشبى ، وشفته العليا الحليقة الجامدة الحمراء المقوسة تجعل له فى النفس هيبة ، وتنم عن التقوى ٠ وكانت صدريته بيضاء تضيء تحت سترته المفتوحة المحـلاة بكنار ذهبى ٠ كان واقفا هناك منفرج الساقين بارز البطن قليلا ٠

قال : « انه لشرف أى شرف لى يا آنسة أن ترتضى الاقامة عندنا فترة من الوقت ٠٠٠ » ورفع تونى من المركبـة فى رفق ٠ « تحياتى يا سيد بودنبروك لعل السيد الوالد بخـير ؟ والسـيدة الوالدة ؟ ٠٠٠ ان هـذا لمن دواعى مرورى الخالص ! ليتفضل السيدان لقد اعدت لكما زوجتى شيئا يشـبه اللقمة الصغيرة ٠٠٠ »

وقال للحوذى الذى كان قد حمـل الحقيبـة الى البيت « سر الى بيدرش صاحب الفندق ٠٠٠ فهناك تلقى الخيل مبيتا طيبا ٠٠ وأنت يا سيد بودنبروك ستبيت عندنا طبعا ؟ ٠٠٠ أجل ، لم لا ان الخيل يجب أن تستريح ، ولن يمكنك الذهـاب الى المدينـة قبل حلـول المساء ٠٠٠ »

وقالت تونى بعد ذلك بربع ساعة لما أن جلسوا فى الشرفة من حـول مائدة القهوة : أتعلمون ! هنـا يقيم المرء اقامة طيبة كما فى المصحـة على الأقل ٠ فما أجمـل الهواء ! ان المرء ليستنشق هنـا نبات البحر وانى لمسرورة كل السرور أن أكون ثانية فى ترافيمنده ! »

وكان المنظر من الشرفة المغطـاة بالخضرة يمتـد الى النهـر العريض المتـلألىء فى ضـوء الشمس ، وفوق صفحته القوارب وجسور المراسى ، ثم الى بيت المعدية القائم على الضفة الاخرى فى البريفال ذلك الجزء الثانى من شبه جزيرة مكلنبـورج ٠ وقد كانت أقداح القهوة الـكبيرة الشـبيهة بالأجران ، الزرقاء الحافة ، خشنة بصورة ملحوظة بالنسـبة الى البورسلين القديم البديع الموجود فى بيت بودنبروك ، بيـد أن المائدة التى كان عليها عند مكان جلوس تونى باقة من زهر المروج كانت تثـير الشهية والسفر يثير الجوع ٠

وقالت ربة البيت : « سترى الآنسة حتما انها ستستريح هنا ، فانها تبدو متعبة من وعثاء السفر ، اذا جاز لى أن أقول ذلك ؟ فهواء المدينة سينفعها ، ثم هنا الاحتفالات الكثيرة ... »

وكان يبدو على مدام شفارتسكوبف وهى ابنة قسيس من شلوتوب انها تناهز الخمسين وكانت أقصر من تونى بمقدار الرأس وأقرب الى النحول ، وكان شعرها الذى مازال أسود مصقولا ، مسرحا تسريحة نظيفة تشتمله شبكة واسعة العيون . وكانت ترتدى ثوبا بنيا داكنا ، ذا بنيقة صغيرة مشغولة بالكروشيه الابيض وقلابات أكمام من نفس الشغل . كانت نظيفة ، رقيقة ، ودودة تدعو بحرارة الى تناول خبز كورينث الذى خبزته بنفسها وكان موضوعا فى سلة الخبز المشبهة القارب تحف به القشدة والسكر والزبد وعسل خلايا النحل وكانت تزين هذه السلة حافة مطرزة بالخرز صنعتها ميتا الصغيرة وهى فتاة صغيرة مطيعة فى الثامنة من عمرها كانت تجلس الى جانب أمها فى ثوب اسكتلندى وضفيرة شقراء ناتئة بلون الكتان .

وقد اعتذرت مدام شفارتسكوبف من حالة المخدع الذى خصص لتونى والذى اصلحت فيه هذه من شأنها قليلا ، لأنه بسيط و ...

فقالت تونى : « انه فى منتهى الجمال ! فهو يطل على البحر ، وهذا أهم شىء .. » وغمست ، وهى تقول ذلك ، رابع شريحة من خبز كورينث فى القهوة . وتحدثت تونى مع الشيخ عن السفينة فولنفيفر التى كانت تصلح اذ ذاك فى المدينة ...

وبغتة جاء شاب يناهز العشرين من العمر الى الشرفة ومعه كتاب ، فرفع قبعة رمادية من اللباد واحمر وجهه خجلا وانحنى فى شىء من الارتباك .

فقال رئيس المرشدين : « ها أنت ذا يا بنى ! انك تأتى متأخرا .. » ثم قدمه : « هذا ولدى — » وذكر له اسما أول لم تفقهه تونى ، ثم استطرد : « يدرس للدكتوراه ... ويقضى عطلته معنا . »

فقالت تونى : « تشرفنا » كما تعلمت أن تقول . ونهض توم ومد له يده ، فانحنى شفارتسكوبف الصغير مرة أخرى ونحى كتابه واتخذ مكانا على المائدة وقد احمر وجهه من جديد .

وكان ربعة أدنى الى أن يكون مكتنزا ، أشقر حقا ، يكاد لا يرى شاربه الذى ثبت ولما يكد ، والذى كان عديم اللون كشعره القصير الذى يغطى رأسه المديد . كان يلائمه لون مشرق بصورة غير عادية وأهاب

كالبورسلين ذى المسام كان يمكن أن تشيع الحمرة الزاهية فيه . وكانت عيناه داكنتى الزرقة قليلا كعينى أبيه لهما نفس التعبير الفاحص الخير الذى لا اسراف فى حيويته وكانت ملامح وجهه متعادلة لطيفة تقريبا ، فلما بدأ يأكل أبدى أسنانا متراصة حسنة التكوين بشكل بين تلمع كأنها عاج مصقول .. هذا الى سترة مقفلة مغطاة الجيوب عطاطة من الظهر .

قال : « انى لأرجو المعذرة فقد حضرت متأخرا » وكان بطيئا فى كلامه بعض الشيء وفى نطقه قرقرة . واستطرد قائلا : « لقد قرأت على البلاج قليلا ، ولم أنظر ساعتى فى الوقت المناسب » وجعل يمضغ صامتا ويعاين توم وتونى بين الحين والحين فاحصا اياهما من تحت الى فوق .

وقال بعدئذ وسيدة البيت تدعو تونى الى تناول المزيد من الطعام :
« يمكنك أن تطمئنى ياآنسة بودنبروك الى عسل خلايا النحل فهو نتاج طبيعى خالص ... يعرف المرء معه مايبتلع .. يجب أن تأكلى منه كفايتك ... فالهواء هنا يهضم ... ويمرى ، فاذا لم تتناولى الكفاء نقص وزنك ... » وكان له أثناء الكلام أسلوب ساذج جذاب فى الانحناء الى الامام ، وتخيل شخص آخر غير الذى يتجه اليه .

وكنت أمه تصغى اليه فى حنو وتتحرى فى وجه تونى تأثير كلامه .. بيد أن شفارتسكوبف الكبير قال :
« لاتتشدق بالامراء والتمثيل ياحضرة الدكتور ... فما منا من يريد أن يعرف عنه شيئا . » فضحك الشاب وعاد وقد احمر وجهه ينظر الى طبق تونى .
وذكر كبير المرشدين الاسم الاول لابنه بضع مرات ، لكن تونى لم تستطع اطلاقا أن تستوعبه . فقد كان شيئا « كمور » أو « مورد » يستحيل أن تتبينه فى لهجة الشيخ العريضة العامية

ولما انتهت الوجبة وجعل ديدريش شفارتسكوبف يطرف فى الشمس مغتبطا وقد انفرجت سترته عن صدريته البيضاء بعيدا ، ويأخذ هو وولده فى تدخين غليونيهما الخشبيين القصيرين ، بينما عاود توم لفافات تبغه . كان الشباب قد اندمجوا فى حديث حام عن حكايات قديمة عن المدرسة اشترك فيه توم مسرورا ... وقد استشهد فيه بالسيد شتنجل حيث يقول : « كان ينبغى أن ترسم خطا ولكن ما الذى فعلت ؟ انك خططت « شرطة » ... واخسارتاه ! ان كريستيان لم يكن معهم ، اذن لقص ذلك خيرا منه .

وقال توم لشقيقته مرة وهو يشير الى الازهار القائمة أمامها : « لكان السيد

جرينليش خليقا أن يقول : أنهـا تلمع بصورة غيرمألوفة» فدفعته تونى فى جنبه وقد صعد الدم الى وجهها غاضبة ثم حولت الى حيث يجلس الفتى شفارتسكوبف نظرة هيابة ٠

لقد لبثوا اليوم طويلا فى تناول القهوة على غير المألوف ، ومكثوا طويلا معا ٠٠ وقد انتصفت السابعة بالفعل لما جعل الغسـق ينتشر فوق البريفـال فنهض الرئيس وقال :

« أرجو السادة المعـذرة ، فلا يزال لدى ما أؤديه هناك فى بيت المرشدين ٠٠٠ وسنأكل فى الثامنة اذا راقكم ذلك ٠٠٠ أو بعد ذلك قليـلا يامينا احتفاء بهذا اليوم ، أليس كذلك ؟٠٠٠ وأنت ـ، ونادى ابنـه باسـمه الاول ثانيـة ، لا تلزم مكانك هنا أو ههنا ٠٠٠ بل اخـرج وألن عظامك من جـديد ٠٠٠ فالآنسة بودنبرك سوف تفرغ حقائبها ٠٠٠ أو اذا شاءت الآنسة والسيد أن يذهبـا الى السـيف (البـلاج) فلانزعجهما ! »

فقـالت السـيدة شفارتسـكوبف بصوت رقيق فيه رنة الملام : «ديدريش ، يا الهى ، لم لا يبقى جالسـا ، فاذا شاءت الآنسة والسـيد أن يذهبا الى السيف فلم لا يصحبهما ، انه فى عطلة طبعا ياديدريش ، فهلا يصيب شيئا من الزيارة ؟ »

الفصل السادس

واستيقظت تونى فى الصباح التالى فى غرفتها الصغيرة النظيفة المكسوة الاثاث بقماش قطنى زاه زهرى ، وقد داخلها الشعور المتنبه السار الذى يفتح المرء عينيه عليه فى وضع جديد من أوضاع الحياة •

ونهضت ، وفيما تحيط ركبتيها بذراعيها وتطرح رأسها المنفوش الشعر الى الوراء ، رمشت عيناها فى شعاع النور الرفيع الذى يغشى البصر فى ضوء النهار ، المتسلل الى الغرفة بين الشبابيك المغلقة ، وجعلت تنبش فى هينة بين ماوعت الذاكرة من مشاهدات الامس •

وقد كاد ألا يخطر ببالها شخص السيد جرينليش • فالمدينة والمشهد الكريه الذى وقع فى حجرة المناظر الطبيعية وحث الاسرة والقس كولنج اياها كانت قصية كلها عن ذهنها • فهنا ستستيقظ من الآن كل صباح خلية البال • وأسرة شفارتسكوبف أناس فى غاية الرقة ، فقد قدموا مساء أمس سلطانية من شراب البرتقال ، مافى ذلك شك ، وشربوا الانخاب بحياة سعيدة يقضونها معا • كانوا مرحين ، وكان الشيخ شفارتسكوبف يقص عليهم من قصص البحر مايروق ، ويروى الفتى الحكايات عن جوتنجن حيث يدرس ••• على أنه من الغريب حقا أن تونى لم تعرف بعد اسمه الاول ! لقد ركزت انتباهها علها تدركه ؛ لكنهم فى العشاء كفوا عن ذكره ، ولم تك يطيق أن تستفسر عنه • وقد جعلت تكد ذاكرتها فى استذكاره ، وتتساءل : يا الهى ! ترى ماذا يسمى الفتى ! مور ••• مورد ؟ هذا الى أن الاسم يروقها : هذا المور أو المورد ، لقد كان يضحك ضحكة رضية ماكرة حين يطلب الماء ، فيذكر عقب طلبه بدلا من لفظه بضعة أحرف وبضعة أرقام فيضيق الشيخ به ويسخط ويقول هو : « أجل هذه هى الصيغة العلمية للماء ••• لكنها على كل حال ليست صيغة هذا السائل الذى يجرى فى ترافيمنده فانها أكثر تعقيدا ••• ففى كل لحظة يمكن المرء أن يجد نبعا ••• وللسلطات العالية آراؤها الخاصة فى الماء العذب • » فما أن يقول ذلك حتى يعود أبوه الى تعنيفه لأنه ذكر السلطات بلهجة الأزدراء • وكانت مدام شفارتسكوبف تستشف الاعجاب من محيا تونى ، وحقا لقد كان كلامه مسليا ، مضحكا ، علميا فى نفس الوقت •

لقد أحاطها الشاب بالتفات كبير تقريبا فقد شكت أثناء الاكل من أن رأسها ساخن وأنها تعتقد أن دمها أغزر مما ينبغى ••• فماذا كان جوابه ؟ لقد عاينها وقال لها أجل ان شرايين السالفين ملأى ، لكنه لا يستبعد أن لا يكون

الدم أو الكريات الدموية الحمراء كافية في الرأس ، ولعل عندها فقر دم ٠
وقفز العصفور من ساعة الحائط المحفورة الخشب ، وغرد مرات بصوت رائق أجوف ، وعدت تونى : سبعة ، ثمانية ، تسعة ، وقالت : « نهوضا » وقفزت من الفراش ورفعت شماسات النافذة ، وكانت السماء غائمة قليلا ، لكن الشمس كانت طالعة ٠ ومدت بصرها عبر الفنار وبرجه بعيدا فوق البحر المتموج الذى يحده من اليمين قوس من ساحل مكلنبورج ويمتد فى أشرطة خضر وزرق حتى يلتقى بالأفق المشبع بالبخار ٠ وقالت تونى لنفسها: سأستحم فيما بعد ؛ لكنى سأفطر كما ينبغي قبل ذلك حتى لا يستنفدنى الايض فأصير شيئا آخر ٠٠٠ وتوجهت بعد هذا التفكير الى حيث تغتسل وترتدى ملابسها ، وكانت تبتسم وتتحرك حركات سريعة مرحة٠

وكانت الساعة قد تجاوزت منتصف العاشرة قليلا لما غادرت غرفتها ، وكان باب الغرفة التى نام فيها توم مفتوحا ، اذ كان يركب فى الصباح الباكر الى المدينة ٠ وكانت رائحة القهوة تفوح هنا فوق فى الطبقة العليا التى لا تحتوى سوى مخادع النوم ٠ وبدت هذه الرائحة مميزة للبيت الصغير وازداد انتشارها وتونى تهبط الدرج المزود بدرابزين خشبى بسيط غير مفرغ وتجتاز الدهليز التحتانى الذى تقع عليه حجرتا الاستقبال والاكل ومكتب كبير المرشدين ودخلت تونى الشرفة نضرة مرحة فى ثوبها البيكيه الابيض ٠

وكانت مدام شفارتسكوبف جالسة مع ابنها وحدهما الى مائدة القهوة التى كان جانب منها قد أخلى من بقايا الافطار ، وكانت ترتدى ميدعة مما يستعمل للمطبخ ذات مربعات زرقاء فوق ثوبها البنى وأمامها حزمة من المفاتيح٠
قالت وهى تنهض : « معذرة ألف مرة يا آنسة بودنبروك من أننا لم ننتظر ٠ اننا نحن بسطاء الناس ننهض مبكرين فأمامنا مئات المهام ٠٠٠ وشفارتسكوبف الآن فى مكتبه ٠٠٠ أرجو أن لا تكون الآنسة مستاءة ، أليس كذلك ! »

فقدمت تونى من جانبها اعتذارها وقالت : « يجب ألا تعتقدوا أنى أتأخر فى نومى دائما الى هذا الحد ٠ ان ضميرى يؤنبنى كثيرا ٠٠٠ لكن خمير البرتقال الساخن الذى قدم مساء أمس ٠٠٠ »

هنا بدأ ابن البيت الفتى يضحك ٠ وكان يقف خلف المائدة وفى يده غليونه الخشبى القصير والصحيفة أمامه ٠
قالت تونى : « أجل انك المسئول ، عم صباحا ! فقد كنت تقارعنى على الدوام ٠٠٠ فالآن استحق أيضا قهوة باردة ٠ لقد كان ينبغى أن أكون أفطرت واستحممت ٠٠٠ »

قال : « لو فعلت لكان هذا أبكر مما ينبغي لسيدة صغيرة • ففي السابعة يكون الماء مايزال باردا تقريبا ، ١١ درجة ••• وهذا قارس نوعا ما بعد حرارة الفراش ••• »

قالت تونى : « ومن أين عرفت ياسيدى أنى أريد الاستحمام فى ماء فاتر؟»
واتخذت تونى مجلسها على المائدة ، ثم قالت : « لقد احتفظت لى بالقهوة ساخنة يامدام شفارتسكوبف ، لكنى سأصب لنفسى ••• فشكرا ! »

وتأملت ربة البيت ضيفتها وهى تتناول افطارها وشرعت تجاذبها أطراف الحديث •

« هل نامت الآنسة نوما هنيئا فى أول ليلة لها عندنا ؟ يا الهى ان الفرشة محشوة بخضرة البحر •• فنحن أناس بسطاء ••• غير أنى اتمنى لك شهية طيبه ، وصباحا مرحا • من المؤكد أن الآنسة ستجد على البلاج بعض المعارف ••• فاذا راقك صحبتك ابنى اليه • معذرة أنى لا أجالسك أكثر من ذلك فانى يجب أن أعد الاكل • ان عندنا مقانق محمرة • نقدمها على خير وجه نستطيعه • »

وقالت تونى للفتى بعد أن أصبحا وحدهما : « أنى لا أدع عسل خلايا النحل • فانظر ! ها أنذا أعرف ماأزدرد • »

ونهض الفتى شفارتسكوبف ووضع غليونه على درابزين الشرفة •

فقالت تونى : « لم لا تدخن ؟ كلا ؟ان التدخين لا يضايقنى اطلاقا • اننى عندما أدخل للافطار فى بيتنا يكون أبى قد ملأ حجرة الطعام بدخان سيجاره »
وسألته بغتة : « قل لى ! هل صحيح أن البيضه تعدل ربع رطل من اللحم ؟»

فطغت الحمرة على وجهه وسألها بين الضحك والاستياء : « هل تريدين أن تتخفلينى يا آنسة بودنبروك ؟ لقد تلقيت مساء أمس علقة من والدى لحذلقتى المهنية وتعالمى كما يقول ••• »

فكفت تونى لحظة عن الأكل لما تولاها من الارتباك وقالت : « اننى سألت بكل بساطة • تعالم ! كيف يمكن أن يقال هذا ••• اننى أود أن ازداد معرفة ••• يا آلهى ! انى ساذجة كما نرى • لقد كنت عند زيزيمى فيشبروت من الكسولات دائما • وأنت فيما أعتقد تعرف الكثير ••• » وقالت لنفسها : تعالم ! ان المرء ليبدى فى المجتمع الغريب خيرماعنده ويرتب كلامه وينشد الارضاء ••• هذا واضح بالتأكيد •••

وقال وهو يشعر أنه أطرى : « لقد اتفقنا بصورة ما • فأما ما يتعلق ببعض المواد الغذائية ••• »

وبينما كانت تونى تفطر ، والفتى شفارتسكوبف يتابع حديثه ويدخن

غليـونه بدأت تونى تثرثر عن زيزيمى فيشبروت وعن عهدها بالمثـوى ، وعن صديقاتها جـيردا أرنولدسن التى عادت الى أمســتردام ، وأرمجـارد فون شيلنج التى يمكن أن يرى شعرها الابيض من البلاج والجو صحو على الأقل ٠٠

بعد ذلك لما انتهت تونى من الأكل ومسحت فاها سألت وهى تشـــير الى الصحيفة :

« هل فيها جديد ؟ »

فضحك الفتى شـفارتسكوبف وهز رأســه ساخرا راثيـا : « كلا ، كلا ٠ وماذا يمكن أن يكون فيها ؟ ان صحف المدينة هذه لا تساوى شيئا ! »

قالت : « أوه ! لكن أبى وأمى حريصان عليها دائما ٠ »

فقال وقد احمر وجهه : « أجل ولكن! انى أيضـا أقرأها كما ترين ، لأنى لا أجد غيرها تحت يدى ٠ لكنه أن يذكر فيها ان التاجر الكبير القنصل فلان أو فلان ينوى الاحتفال بعيد زواجه الفضى ليس بالأمر الذى يهز المرء ٠٠٠ نعم ، نعم ، انك تضحكين ٠٠٠ لكنك خليقة أن تقرئى صحفا أخرى مثل صحيفة كونجز برجر هارتو نجشه أو رينيشه ، عندئذ تجدين أشياء أخرى ! ان فيها ما يقول عنها ملك بروسيا ٠٠٠ »

قالت : « ماذا يقول اذن ؟ »

قال : « نعم ٠٠٠ لا ، هذا ما لا اســتطيع للأسف أن أذكره أمام سيدة » واحمر وجهه كرة أخرى ثم اســتطرد يقول : « لقد أبدى سخطه على هــذه الصحـــافة ٠ » قال ذلك وهـو يبتسم ابتساما ينطوى على تهكم شديد ، مس تونى لحظة مساسا أليما ٠ ثم عاد يقول : « انها لاتعتدل فى لهجتهـا كثيرا مع الحكومة ؛ مع النبلاء والقسس وأبنـاء الشرفاء وتعرف كيف تمكر بالرقابة ٠»

قالت : « وانت ، ألا تتســامح انت أيضا مع النبلاء ؟ »

فسألها : « أنا ! » وارتبـك ٠٠٠ فنهضت تونى ٠

وقال : « سنعود مرة أخرى الى هذا الحــديث ٠ كيف لو أنى توجهت الى البلاج ؟ أنظرى ! ان الزرقة تكاد تغزو السماء ٠ فاليوم لن تمطر ، ولى رغبــة شــديدة فى أن أقفز الى البحر فهـل ترافقيننى الى هناك ؟ ٠٠ »

الفصل السابع

ووضعت قبعة القش الكبيرة على رأسها وفتحت مظلتها ، ذلك أن الحر كان طاغيا وقد هبت من البحر ريح هينة • وكان الفتى شفارتسكوبف يمشى الى جانبها بقبعته الرمادية المصنوعة من اللباد وكتابه فى يده ، يتأملها من الجنب فى بعض الاحيان • سارا على امتداد الصف الاول ، وتنزها خلال حديقة المصحة التى كانت منبسطة ساكنة عديمة الظل تتخللها طرق الحصباء وأحواض الورد • وكان خص الموسيقى متواريا بين أشجار التنوب ، قائما صامتا تجاه المصحة ودكان الحلوانى وكلا البيتين السويسريين اللذين كان يتوسطهما مبنى طويل يربط بينهما •وكانت الساعة تقترب من منتصف الثانية عشرة والمستحمون على البلاج •

وسار كلاهما فوق ساحة لعب الاطفال وقد صفت فوقها المقاعد وتدلت الارجوحة الكبيرة ؛ وتجاوزا فى سيرهما حمام الماء الساخن ، وتجولا على مهل فوق الكلأ ، ورائحة البرسيم والعشب الحامية العطرة منتشرة ، قد حل فوقهما الذباب يطن أو انطلق يحوم • وكان صوت رتيب مكتوم يتناهى من البحر وتمض على بعده بين الحين والحين رؤوس صغيرة من الزبد •

وسألت تونى : « ماذا تقرأ حقا ؟ »

فتناول الشاب الكتاب فى كلتا يديه ، وتصفحه على عجل من الدفة الى الدفة •

قال : « آه ! هذا شىء ليس لك يا آنسة بودنبروك ! محض دم وأمعاء وشقاء ••• أنظرى ، هنا بالذات كلام عن تنفس الرئة أو نوبة الاختناق وفيها تمتلىء حويصلة الرئة بسائل مائى ••وهذه حالة شديدة الخطورة تقع أثناء الالتهاب الرئوى ، فاذا ساءت لم يستطع المرء التنفس ، ومات بكل بساطة • وهذا كله يعالج بهدوء من فوق الى تحت ••• »

قالت: « ياللفظاعة » ! لكن اذا أردت أن تكون طبيبا ••• فسأعنى بأن تكون طبيبنا الخاص اذا ماتقاعد يوما جرابو فاجعل بالك الى هذا ! »

قال : « ها !••• وماذا تقرئين اذن يا آنسة بودنبروك ؟ »

فسألته تونى : « أتعرف هوفمان؟

قال : « صاحب رئيس الفرقة، القدر الذهبى ؟ بلى انه لجميل

جدا ٠٠٠ لكن ، ولعلك تعلمين » أنه للسيدات أكثر مما هو للرجال . فالرجال يجب أن يقرأوا اليوم شيئا آخر ٠ »

وقالت تونى بعد أن خطت بضع خطوات وقررت أمرا : « الآن يجب أن أسألك شيئا هو : ما اسمك الاول فى الحق ؟ اننى لم أحفظه من أول مرة ٠٠٠ وهذا يثير أعصابى ! وقد طالما كددت ذهنى لأتذكره ٠٠٠ »

« كددت ذهنك فى تذكره ؟ »

« حقا — لكن لا تصعب على الامر ! فليس من اللائق أن أسأل ٠ لكنى بطبيعة الحال أحب الاستطلاع ٠ على أنى لست بحاجة طيلة العمر الى أن أعرف ذلك ٠ »

قال وقد احمر وجهه كما لم يحمر من قبل : « اذن فاسمى مورتن ٠ »

قالت : « مورتن ! هذا جميل ٠ »

قال : « ربما كان جميلا ٠٠٠ »

قالت : « انه على كل حال أجمل مما لو كان اسمك هنس أو كونتس ٠ ان فيه شيئا خاصا ! أجنبيا ٠٠٠ »

قال : انك رومانتيكية يا آنسة بودنبروك ٠ لقد قرأت هوفمان أكثر مما يجب ٠ ان المسألة بسيطة كل البساطة : لقد كان جدى نصف نروجى ، وكان يسمى مورتن ٠ وقد عمدونى باسمه ٠ وهذا كل شىء ٠٠٠ »

وصعدت تونى محاذرة بين الكلأ والبوص العالى الحاد الذى كان قائما على حافة البلاج العارى فتراءى لهما صف الاكشاك الخشبية بأسطحها المخروطية يمتد البصر وراءها الى مخافر البلاج التى كانت أقرب الى البحر ، ترابط من حول الأسر فى الرمل الدافىء ، وسيدات يضعن على أعينهن نظارات زرقا للوقاية وتحمل أجزاء مستعارة من المكتبات ، وسادة فى بذات زاهية ، خالين ينكتون الرمل بعصيهم ويرسمون الأشكال ، وأطفال لفحتهم الشمس يضعون على رؤوسهم قبعات عريضة من القش ويجرفون الرمل ويتدحرجون ويحتفرون الرمل طلبا للماء ويخبزون الفطائر فى قوالب خشبية وينقبون الانفاق ويخوضون بسيقانهم العارية فى الموج الضحل وينزلون الى الماء زوارق تعوم ٠٠ ثم عن اليمين الحمام الخشبى يمتد فى البحر ٠٠

قالت تونى : « فلنسر الآن رأسا الى كشك مولندورف ولنعرج قليلا ! »

فقال : « بكل سرور ٠٠٠ لكنك ستنضمين الآن الى السادة على التحقيق ٠٠٠ فلأجلس أنا هنا الى الخلف على الصخر ٠ »

قالت : « أنضم ؟ ٠٠٠ بلى ، لأحييهم طبعا ٠٠٠ لكنى لا أحب هذا ، يجب أن

تعرف . فقد جئت الى هنا لأنشد الهدوء ... »
قال : « الهدوء ؟ ممن ؟ »
قالت : « نعم ، ممن ... »
قال : « اسمعى يا آنسة بودنبروك . يجب أن أسألك أيضا سؤالا آخر ... ولكن عندما تعرض مناسبة فيما بعد ، وحين يكون لديك الوقت .. والآن اسمحى لى أن أقول لك الى اللقاء ، فسأجلس خلف على الصخر ... »

فسألته فى شيء من الأهمية : « ألا ينبغى أن أقدمك ياسيد شفارتسكوبف ! »
قال فى عجلة : « لا ، لا . أشكرك جدا . انى لا أكاد أنتمى الى هؤلاء .. انى سأجلس هناك على الصخر ... »

وكانت جماعة كبيرة تلك التى خطت اليها تونى ، بينما توجه مورتن شفارتسكوبف يمينا الى تلك الصخرة الكبيرة التى كان الماء يغسلها بجانب الحمام ، ـ جماعة كانت ترابط أمام كشك مولندورف ، وتؤلفها أسر مولندورف وهاجنشتروم وكستنماكر وفريتشه . وفيما عدا القنصل فريتشه وهو من هامبورج ، ويملك كل شيء ، وبيتر دولمان المستهتر ، لم يكن فى الجماعة سوى السيدات والاطفال لأن اليوم كان ككل يوم ، ومعظم السادة يزاولون أعمالهم فى المدينة . وكان القنصل فريتشه رجلا مسنا ذا وجه حليق ناعم ، وجيها مشغولا هنا فى الكشك المكشوف بتلسكوب سلطه على سفينة شراعية تتراءى من بعيد . أما بيتر دولمان وكان يضع على رأسه قبعة من القش عريضة الحافة ، وله لحية من لحى الملاحين مقصوصة فى استدارة فكان واقفا يحادث السيدات اللواتى كن مستلقيات على الرمل فوق أردية ايقوسية منقوشة أو جالسات على كراسى صغيرة من قماش الشراع : السيدة زوجة السناتور مولندورف وهى من أسرة لانجهالز وكانت مشغولة بمنظار صغير طويل الذراع ويحيط برأسها شعر أبيض منفوش ، والسيدة هاجنشتروم والى جانبها جوليا التى كانت ما تزال صغيرة تقريبا ، لكنها كأمها تحمل فى أذنيها قرطا ماسيا ، والسيدة زوجة القنصل كستنماكر مع بناتها ، وزوجة القنصل فريتشه وكانت سيدة متغضنة قصيرة القامة تحمل على رأسها قلنسوة وتقوم فى الحمام بواجبات ادارية ، حمراء مجهدة لم تفكر فى غير الاجتماعات ومراقص الاطفال واليانصيب والنزهات البحرية ... وكانت المكلفة بالقراءة لها بعيدة منها بعض الشيء . أما الاطفال فكانوا يلعبون فى الماء .

وكستنماكر وولده هو اسم متجر الأنبذة الناجح الذى جعل فى السنوات الاخيرة يبعد س . ف . كوبن عن السوق وكان كلا الابنين ادوارد وستيفان يعمل فى متجر والدهما . ـ وكان القنصل دولمان ينقصه كل النقص ماتحلى به يوستوس كروجر من آداب مختارة . كان داعرا من النوع المتخصص فى

الايناس الخشن يسمح لنفسه بالخروج في المجتمع عن الحد بصورة غير مألوفة لأنه كان يعرف أنه محبوب لفذاذته في سلوكه المترف الجرىء الصاخب . فعندما تأخر ظهور لون من ألوان الطعام في مأدبة عند آل بودنبروك طويلا ، وتولى ربة البيت الارتباك ، وساءت نفسية الضيوف لانتفاء مايشغلهم أعاد هو روح المرح بأن زأر من فوق المائدة بصوته الجهير الصاخب : « لقد فاض بى ياحضرة القنصلة ! »

بهذا الصوت الخشن الرنان كان يقص في تلك اللحظة نوادر مريبة يتوبلها بعباراته العامية .. فكانت زوجة السناتور مولندورف تصيح المرة تلو الأخرى وقد أنهكها الضحك : يا الهى، ألا ما كففت بربك ياحضرة القنصل ! »
وقد استقبلت تونى بودنبروك من آل هاجنشتروم استقبالا فاترا ، ومن غيرهم من الجماعة استقبالا قلبيا حارا . حتى القنصل فريتشه هبط درجات الحص مسرعا » لأنه كان يأمل أن يعاون آل بودنبروك في العام القادم على رواج الحمام .

قال القنصل دولمان : « خادمك يا آنسة ! » قالها بمنطق رقيق ما أمكن ذلك أنه كان يعلم أن الآنسة بودنبروك لا ترتاح الى سلوكه ارتياحا خاصا
« الآنسة بودنبروك ! »
« أنت هنا ! »
« ما أفتنك ! » أ
« منذ متى ؟ »
« ما أبدع هندامك ! »
« أين تنزلين ؟ »
« عند آل شفارتسكوبف ؟ »
« عند كبير المرشدين »
« فكرة بديعة ! »
« كم أجدها بديعه الى أبعد حد ! »
وعاد القنصل فريتشه صاحب المصحة يقول : « أتنزلين في المدينة ؟ » دون أن يدخل في روع أحد أن هذا سه وآلمه .

وسألت زوجته : « هل ستولينا السرور في الاجتماع القادم ؟ »
وقالت سيدة أخرى : « أوه » أفي ترافيمنده لفترة وجيزة فقط ؟ » ...
والتفتت مدام هاجنشتروم الى زوجة لسناتور مولندورف وهمست اليها :
« ألا تجدين ياحبيبتى أن آل بودنبروك يتنزلون بعض الشيء ؟ »
وسألت احداهن : « ولم تستحمي بعد ؟ من من الفتيات لم تستحم اليوم بعد ؟ مارى ، جوليا ، لويزه ؟ ان صديقاتك ليصاحبنك عن طيب خاطر يا آنسة أنتونيا ... »

وانفصلت بضع فتيات عن الجماعة ليستحممن مع تونى ولم يدع بيتر دولمان أحدا يقوم عنه بمرافقة السيدات على امتداد البلاج

وسألت تونى جوليا هاجنشتروم : « يا لله ! أتذكرين روحاتنا وغدواتنا أيام المدرسة ! »

فقالت جوليا تبتسم ابتسامة اشفاق : « أجل ! كنت تمثلين دائما دور الشريرة ! »

واتجهن على البلاج الى الحمام فوق المعبر المركب من أزواج من الالواح فلما مررن بالصخور حيث كان يجلس مورتن شفارتسكوبف ومعه كتابه هزت له تونى رأسها من بعيد بحركة سريعة عدة مرات . وسألت احداهن : « من تحبين ياتونى ؟ »

فقالت تونى : « انه الفتى شفارتسكوبف . لقد رافقنى الى البلاج .. »

فسألت جوليا هاجنشتروم : « ابن رئيس المرشدين ؟ »

ونظرت الى مورتن حيث يجلس بعينين سوداوين تلمعان ، نظرة حديدة . وكان هو من جانبه يعاين الجماعة الرشيقة فى شيء بعينه من الكآبة . بيد أن تونى قالت بصوت مرتفع : « انى لآسفة لشيء : هو أن أوجسنت مولندورف مثلا ليس هنا ... لابد أن البلاج فى الايام العادية مضجر غاية الضجر . »

الفصل الثامن

وبدأت بذلك لتونى بودنبروك أسابيع جميلة فى الصيف أحفل بالتسلية وأدعى الى الارتياح من التى عاشتها فيما مضى فى ترافيمنده ، فأينعت ، اذ لم يعد ثم مايرهقها وعادت الجرأة وخلو البال الى كلامها وحركتها . وجعل القنصل يرعاها راضيا كلما جاء الى ترافيمنده فى أيام الآحاد مع توم وكريستيان . عندئذ يتناولون طعامهم على المائدة بالقائمة ويحتسون القهوة على نغمات موسيقى المصحة تحت سقف خيمة الحلوانى ، ويشاهدون فى الداخل قاعة الروليت حيث يتزاحم من حوله أناس مرحون مثل يوستوس كروجر وبيتر دولمان . أما القنصل فلم يكن يلعب قط .

وكانت تونى تتشمس وتستحم ، وتأكل المقانق المحمرة مع صلصة حب الزنجبيل وتقوم بنزهات بعيدة على الاقدام مع مورتن ، فى طريق السد حتى الناحية المجاورة ، وعلى امتداد البلاج الى « هيكل البحر » المطل والمسيطر على منظر مترام فوق البحر والبر . أو يصعدان الى ماوراء الغابة الصغيرة الواقعة خلف المصحة والتى يتدلى من مرتفعها الجرس الكبير الذى يدعو الى المائدة . أو يجذفان فوق ترافيه الى بريفال حيث يوجد الكهرمان ...

وكان مورتن مرافقا مسليا ، وان كانت آراؤه حامية قليلا تنزع الى المعارضة . فهو يصدر على كل شىء يعرض حكما صارما عادلا يبديه فى تصميم وان احمر وجهه وهو يبديه . وتتكدر تونى وتؤنبه اذا ما وصم كل النبلاء فى صورة غاضبة غير حصيفة شيئا ما ، بأنهم أغبياء أشقياء ؛ لكنها كانت فخورا جدا ، بأنه كان صريحا معها ، وأنه كان يسر اليها الآراء التى كان يحبسها عن والديه ... وقد قال لها مرة : « يجب أن أقص عليك هذا : ان فى حجرتى فى جوتنجن هيكلا عظميا كاملا ؟ أتعرفين أن مثل هذا الهيكل العظمى يمكن عند الحاجة أن يمسكه بعض الاسلاك . وقد ألبسته مرة بذلة قديمة لأحد رجال الشرطة .. ها ، ها . ألا تجدين هذا بديعا ؟ لكن اياك بربك أن تقولى هذا لأبى ! »

ولم يكن فى النادر أن تختلط تونى كثيرا بمعارفها فى المدينة على البلاج أو فى حديقة المصحة فيستهويها هذا أو تلك من الاجتماعات أو الجماعات البحرية عندئذ كان مورتن يجلس على الصخور . وقد باتت هذه الصخور منذ اليوم الأول

اصطلاحا بينهمـــا • « فالجلوس على الصخور » معناه الوحدة والســأم فاذا حل يوم مطـــير طوى البــحر المترامي في قنــاع أغبر فاندمج كل الاندماج فى السماء البعيدة التى تبلل البلاج وتغرق الطرق، قالت تونى عندئذ: « اليوم • يجب أن يجلس كلانا فوق الصخور ••• يعنى فى الشرفة أو فى حجــرة الجلوس • فلا يبقى الا أن تعزف لى أغانى الطلبـــة يامورتن وان أضجرتنى كل الضجر •»

فقال مورتن : « أجل لنجلس • ولكن اعلمى أنك مادمت هنا فلن يعود هناك صخور ! » ولم يكن يقول هذا الكلام اذا كان أبوه حاضرا • أما أمه فكان لها أن تسمعه •

وتســاءل رئيس المرشدين لمــا أن نهضت تونى ونهض مورتن بعد طعام الغداء فى وقت واحد وتهيئا للخروج : « ماالحكاية ؟ الى أين يذهب السيدان؟»

« أجل ، انى أسمح لنفسى بمرافقة الآنسة أنتونيــا الى « هيكل البحر » بعض الطريق • »

« تسمح لنفسك بهذا ؟ قل لى ياولدى فيليوس ، أما كان فى النهاية من الانسب أن تجلس فى حجرتك وتعيـــد مايشد أوتار أعصــــابك ؟ انك لن تصــل الى جوتنجن حتى تكون قد نسيت كل شيء ••• »

لكن مدام شفارتسكويف تكلمت فى لطف : « بربك ياديدريش : لم لايجوز له أن يرافقها ؟ دعه يذهب معها ! انه فى عطلة بلا ريب • أفلا ينبغى أن يجنى شيئا من وراء هذه الزيارة لنا ؟ »

ـ وذهبا

ذهبا على امتداد البلاج تحت عند الماء ، هناك حيث الرمل ينقلب من فيض الماء الى مايشبه الشباك وينصقل ويجمد حتى ليستطيع المرء السير عليه من دون عناء ؛ حيث يتناثر المحار الابيض العادى الصغير وآخر مستطيل كبير ويتحول الى حجارة ثمينة ؛ وبين هذا وذاك خضر البحر البليل الاخضر المصـفر تتخلله ثمار مستديرة جوفاء تفرقع حين تضغط ، وريات بســـيطة بلون الماء وأخرى صفراء مائلة الى الاحمرار، سامة تحرق الساق اذا مستها أثناء الاستحمام ••

وسألت تونى : « أتريد أن تعرف لم كنت غبيـــة من قبل ؟ لقد أردت أن أستخرج النجــوم الزهر من الريات • كنت أحمل الـكثير منها فى منديلى الى البيت ، وأضعها نظيفـــة فوق الشرفة فى الشمس كى تتبخر فتتخلف النجوم بلا ريب ! حسنا •• واذ أعود أعاينها أجد بقعة بليلة كبيرة تقريبا تفوح منها رائحة خضر البحر العفن ••• »

وسارا يلاحقهما هدير الموج المتلاحق الرتيب تصافح وجهيهما الريح الملحـة المتجددة الهابة من الموج طليقة لايعترضها شيء ، تقتحم الاذن وتصيب بدوار لطيف وتخدير خفيف ••• سارا فى هذا السلام الشامل الذى يرنق على البحر فى زمزمة خافتــة ويجعل فى كل صوت بسيط ، بعيد أو قريب شيئا مستسرا •

وكانت عن الشــمال هوى متشابهة ذات شقوق يكســـوها الطمى الاصفر

والحصى وزوايا تتبدل دائمـا وتخفى تعاريج السـاحل · هنا فى مكان ما حيث البـلاج أشد وعورة مما ينبغى تسلقا ليستأنفا بين الاشجار طريقهما الصاعد الى « هيكل البحر » · وكان الهيكل خصا ... مقاما من جذوع الاشجار الخشنة والالواح ، قد غطيت جوانبه الداخلية بالنقوش الكتابيـة والاحرف الاولى والقلوب والاشعار ·· فجلس تونى ومورتن فى غرفة من الغرف المقسمة المواجهة للبحر · وكانت تفوح منها رائحة الخشب كما تفوح من أكشاك الاستحمام ـ جلسا على مقعد مديد ضيق من صنع النجار فى مؤخرة الخص

وكان المكان هادئا جدا ، رهيبا هنا وق ، فى هذه الساعة من بعد الظهر نغرد فيه بضعة عصافير ويختلط فيـه حفيف الشـجر الخافت بهـدير البحر المترامى تحت وتبدو على بعده سفينة للعيان · واذ وقاهما الخص من الريح التى كانت قبـل الآن تهاجم آذانهما أحسا بغتة سكونا يحمل على التفكير ·

واستعلمت تونى عن السـفينة : « آآتية هى أم ذاهبة ؟ » فسألها مورتن بصوته المستأنى : « كيف ؟ » ثم قال سريعا وكأنه تنبـه من ذهول عميق : « ذاهبة · هذه هى « العمدة شتينبوك » مسافرة الى الروسيا · » وأضاف بعد برهة من الصمت : « لو أردت ماركبتها · فالاحوال هنـاك أدعى الى السخط مما هى عندنا ·! »

قالت تونى : « كذا ! أتنوى العودة الى الكلام عن النبـلاء يامورتن · انى أتبين هذه النية على وجهك ··· ليس هذا جميلاً منك ··· فهل عرفت نبيلا من قبل ؟ »

فصاح مورتن غاضبا تقريبا : « كلا ، والحمد لله ؟ »

« نعم ، نعم ، أترى ؟ لكنى أنا عرفت فتاة على كل حال · أرمجارد فون شيلنج التى تقيم هناك وقد حدثتك عنها ، لقد كانت أآنس منك ومنى وكادت لاتعرف أنها تنادى بفون · كانت تأكل مقانق « مت » وتتحدث عن البقر ··· »

فسـارع الى القـول : « ان هناك مستشفيات بالتأكيد يا آنسة تونى · لكن اسمعى ··· انك سـيدة صغيرة تنظرين الى الاشياء من الناحية الشخصية تعرفين نبيلاً فتقولين : لكنه فى الحق رجل طيب ! بالتأكيد ··· بيد أنه لا حاجة بالمرء الى أن يعرف واحدا ليحكم به على الكل ! فالامر انمـا يتعلق بالمبـدأ · بالنظام ! وعن هذا لابد أن تصمتى ·· أليس كذلك ؟ ما على المرء الا أن يولد ليصبح المختار والنبيل ·· الذى يجوز له أن ينظر الينا من عل فى ازدراء ··· الينا نحن الذين لانستطيع بكل فضائلنا أن نبلغ علياءه · » وكان مورتن يتكلم فى غضب يدل على السذاجة وطيبة القلب ؛ كان يحاول الاتيـان بحركات من يديه رأى نفسه أنها كانت خرقاء فعدل عنها · لكنه مضى فى الـكلام ، وكانت نفسيته مؤاتية · كان يجلس منكبا الى الامام ، يدس أحد ابهاميـه بين أزرار سـترته ويفرض على عينيه الآنيستين تعبـير التحدى ··· « نحن والطبقة الثالثـة كما نسمى حتى الآن ، نريد ألا يكون هناك سوى نبل الجدارة والاستحقاق ·

نحن لا نعترف بعد الآن بطبقة النبلاء المكاسيل ، نحن ننكر نظام المراتب التى تقسم اليها الطبقات .. نريد أن يكون الناس جميعا أحرارا متساوين ، وأن لا يخضع أحد لشخص ، بل يخضع الجميع للقانون ! .. لا ينبغى أن يكون بعد الآن امتيازات أو تحكم ، بل ينبغى أن نكون أبناء للدولة متساوين فى الحقوق . وكما أنه لا وساطة الآن بين عامة الناس وبين الله ، فانه ينبغى أن تكون علاقة المواطن بالدولة علاقة مباشرة ! ... نريد حرية الصحافة والعمل والتجارة ... نحن نريد أن يكون الناس جميعا قادرين على التنافس من دون محاباة ، وأن يكون للجدارة تاجها ! ... لكننا مستعبدون محكمو الوثاق .. ماذا كنت أريد أن أقول من لحظة ؟ أجل ، انتبهى ! من أربع سنوات مضت جددت قوانين الاتحاد فيما يتصل بالجامعات والصحافة ـ قوانين جميلة ! لا يجوز أن تكتب أو تعرف حقيقة قد لا تتفق والنظام القائم ... أتفهمين ؟ ان الحقيقة تكتم أنفاسها فلا يسمح بأن تجرى على لسان ... لماذا ؟ ابقاء على حالة سخيفة ، عتيقة ، متداعية ستزال مع ذلك ان عاجلا وان آجلا كما يعرف كل انسان ... أظنك لا تدركين هذا الانحطاط اطلاقا ، ان القوة ، القوة الغبية الفجة التى يخولها البوليس فى الآونة الراهنة من دون ادراك للفكر وللحديث ... كلا ، لقد اقترف ملك بروسيا ظلما كبيرا . فى سنة ١٨١٣ لما كان الفرنسيون فى البلاد نادانا ووعدنا بالدستور ... فلبينا النداء وحررنا ألمانيا ... »

وكانت تونى تتأمله من الجنب ، وتعتمد ذقنها فوق يدها ، فجعلت تفكر لحظة تفكيرا جديا ! أكان يسعه هو نفسه أن يساعد حقا على طرد نابليون

وعاد مورتن يقول : « فهل تظنين أنه بر بوعده ؟ كلا ! ـ ان الملك الحالى بارع فى الكلام المعسول ، حالم ، رومانتيكى مثلك يا آنسة تونى ... ذلك أنك يجب أن تلتفتى الى شىء هو أنه اذا نقض الفلاسفة والشعراء حقيقة أو رأيا أو مبدءا وعفوا عليه جاء ملك يكون قد ألم بهذه الحقيقة أو هذا الرأى أو المبدأ ولما يكد ، فاعتده أحدث وأحسن ماهناك ، وأنه يجب اتباعه ... نعم ، هذا هو شأن الملكية ! والملوك ليسوا بشرا فحسب بل هم أوساط بين الناس الى أبعد حد ، انهم دائما متخلفون عن بقية الناس مراحل عديدة . وقد وقع لألمانيا ماوقع للطالب المنتمى الى جماعة من جماعات الشباب ، كان أيام حروب التحرير محتفظا بشبابه الجرىء المتحمس فلم يلبث أن بات اليوم جبانا رعديدا .. »

فقالت تونى : « نعم ، نعم ، هذا حسن ، ولكن دعنى أسألك شيئا . ماذا يعنيك هذا فى الحق ؟ انك لست بروسيا .. »

« يا آنسة بودنبروك ! اننى أناديك باسم الاسرة عامدا .. وكان يجب أيضا أن أقول ديموازيل بودنبروك كى يكون حقك كاملا ! فهل الناس عندنا أكثر حرية ومساواة واخاء مما هم فى بروسيا ؟ هنا الحدود والفروق والارستقراطية كما هى هناك ! ... انك تعطفين على النبلاء ... فهل أخبرك لماذا ؟ لأنك نفسك نبيلة ! ألم تعرفى ذلك بعد ؟ ان أباك رجل عظيم ، وأنت أميرة تقوم هوة بينك وبيننا نحن الآخرين الذين لا ننتمي الى محيطكم ـ محيط الاسر

الحاكمة . حقا انه ليسعك أن تتنزهى معأحدنا قليلا على البحر طلبا للاستجمام لكنك يوم تعودين الى محفلك .. محفل المختارين المفضلين يكون للمرء منا أن يجلس فوق الصخر .. » وكان صوته قد بات غريبا بادى الانفعال .

وقالت تونى حزينة : « اذن لقد كنت مستاء حين جلست فوق الصخر ...! لقد رجوتك أن أقدمك الى الجماعة ..»

« أوه! انك تنظرين ثانية الى الموضوع نظرة شخصية كسيدة صغيرة يا آنسة تونى ! انني انما أتكلم عن مبدأ ... انني أقول انه ليست عندنا أخوة انسانية أكثر مما يوجد فى بروسيا » ثم استطرد بعد فترة من الصمت يقول بصوت أكثر خفوتا لكنه يحتفظ بانفعاله الغريب : « لو كنت أتكلم بصفة شخصية لما عنيت الحاضر بل لعلى كنت أعنى المستقبل ، ... حين تختفين بوصفك مدام كيت أو كيت نهائيا فى محيطك الراقى ... ويجلس المرء حياته فوق الصخر ...»

وصمت ، وصمتت تونى كذلك ، فلم تعد تنظر اليه بل الى الجانب الآخر . الى جدار الالواح القائم بجانبها . وساد بينهما سكون مقبض فترة كادت تكون طويلة .

وعاود مورتن الكلام فقال: « أتذكرين أنى قلت لك مرة ان عندى سؤالا أريد أن أسألك اياه ؟ أجل لقد شغلنى منذ عصر اليوم الاول الذى وصلت فيه الى هنا . فلتعرفى ذلك ! فاحزرى ما هو ! انه من المحال أن تعرفى ما أقصد ... سأسأل كرة أخرى اذا عرضت مناسبة، فليس مايدعو الى العجلة . ان الامر فى اساسه لا يعنينى ، انما هو الفضول ... كلا ، اليوم أريد أن أفشى اليك شيئا آخر ... أنظرى ! »

وهنا سحب مورتن من جيب سترته طرف شريط رفيع ملون، ونظر فى عينى تونى نظرة هى مزيج من الترقب والانتصار .

فقالت تونى غير فاهمة : « ما أجمل! ما معنى هذا ؟ »

فتكلم مورتن فى خطورة : « معنى هذا أنى أنتمى فى جوتنجن الى احدى جماعات الشباب . فالآن تعرفين ذلك! ان عندى طاقية بهذه الالوان ، لكنى ألبستها الهيكل العظمى الذى يرتدى بذلة الشرطى لمدة العطلة ... ذلك أنى لا يجوز لى أن أظهر بها هنا . أتفهمين ... ولى أن أعتمد على كتمانك ! فلو علم أبى بهذا الامر لحلت بى مصيبة ... »

« ولا كلمة يا مورتن ! كلا ، يمكنك الاعتماد على ! ... بيد أنى لا أفطن الى شىء من هذا الامر مطلقا .. فهل أنتم جميعا متآمرون على النبلاء ؟... ماذا تبغون ؟ »

قال مورتن : « نبغى الحرية ! »

فسألت : « الحرية ؟ »

قال : « أجل ، الحرية • أتعلمين ؟ الحرية ••• » وكرر هذا وهو يحرك ذراعه حركة غامضة ، خرقاء بعض الشيء ، لكنها تدل على التحمس ، تارة الى الخارج وتارة الى تحت ، وآونة فى اتجاه البحر ، لكن ليس الى تلك الجهة التى يحد الجون عندها ساحل ميكلنبورج ، بل الى حيث البحر طلق مترام الى الافق فى خطوط خضراء ، زرقاء صفراء غبراء تضيق دائما ، بديع ، بعيد ، متموج تموجا خفيفا ••

وتتبعت تونى بعينيها اتجاه يده ، بينما لم ينقص الكثير لتتحد يدا كليهما وهما ملقاتان على المقعد احداهما الى جانب الأخرى ، كانت تونى ومورتن ينظران معا بعيدا فى نفس الاتجاه • وقد لبثا صامتين طويلا أثناء أن كان هدير البحر يتناهى الى سمعهما هادئا متثاقلا •••واعتقدت تونى بغتة أنها متفقة مع مورتن فى فهم ما يسمى بالحرية فهما عظيما غير محدود ، عامرا بالادراك والشوق •

الفصل التاسع

« غريب أن لا يسأم المرء من البحر يامورتن • استلق مرة فى مكان آخر ثلاث ساعات أو أربعا على ظهرك دون أن تحرك ساكنا أو تتعلق بفكرة •• »

« أجل ، أجل ••• هذا الى أنى يجب أن أعترف بأنى ضجرت قبل ذلك أحيانا يا آنسة تونى ؛ لكن ذلك كان قبل أسابيع ••• »

وحل الخريف ، وكانت أول ريح قوية تهب وبعض السحب الغبراء الهزيلة الممزقة ترف مسرعة فوق وجه السماء• وكان البحر الكدر الفائر يغشاه الزبد فى كل مكان والموج العظيم القوى يدرج نحو الشاطىء فى هدوء لا ينى يشيع الفزع ، وينطوى ليستدير فى خضرة داكنة وبريق معدنى ، ثم ينقض صاخبا فوق الرمل •

كان الموسم قد انتهى تماما ، والجزء الذى كانت تعمره جمهرة المستحمين والذى قد رفع عنه جانب من الاكشاك لآن مشغولا بقليل من الكراسى التى على هيئة السلال ، قد فارقته الحياة أو كادت • لكن تونى ومورتن كانا يرابطان بعد الظهر فى ناحية نائية : هناك حيث تبدأ جدران الطين وحيث يقذف الموج عند موفنشتين برغاه عاليا • وكان مورتن قد أقام لتونى ربوة من الرمل أحكم دقها لتسند اليها ظهرها • وقد وضعت قدميها فى حذاء مربوط وجوربين أبيضين، احداهما فوق الاخرى، وارتدت سترة خريفها الناعمة الرمادية ذات الازرار الكبيرة • وكان مورتن مستلقيا على جنبه ووجهه اليها ، وذقنه معتمدة فى يده ؟ وبين الحين والحين يمرق طائر النورس فوق البحر ويطلق صرخة الطير الجارح • كانا يتأملان جدران الامواج الخضراء المرقشة بكلأ البحر وهى تهدد بالاقتراب وتتكسر على كتلة الصخر التى تتلقاها ••• فى هذا الصخب الابدى الضال الذى يخدر الاعصاب ، ويصيب بالبكم ويقتل الشعور بالزمن •

واخيرا أتى مورتن بحركة من كان نائما ثم استيقظ وسأل : « ستسافرين عما قريب يا آنسة تونى ؟ »

فقالت تونى شاردة الفكر ومن دون فهم : « كلا ••• كيف ؟ »

فقال : « يا الهى ! اننا فى العاشر من سبتمبر ••• وعطلتى تنتهى على كل حال قريبا ••• فكم بقى عليها •• أتشتاقين مجتمعات المدينة •• ؟ قولى !

ان هناك سادة ظرفاء ترقصين معهم ٠٠ لكن لا ، فما أردت أن أسأل عن هذا ! الآن يجب أن تجيبيني عن شيء ٠ » قال هذا وسوى ذقنه في يده في تصميم مفاجيء ثم نظر اليها ٠٠ « انه السؤال الذي كنت أرجئه هذا الزمن الطويل ٠٠ فهل تعرفين ؟ الآن ! من هو السيد جرينليش ؟ »

فأجفلت تونى ، ونظرت الى وجهه نظرة سريعة ، ثم حولت بعد ذلك نظرها كمن ذكر بحلم بعيد ٠ فتنبه فيها الشعور الذى كان داخلها في الوقت التالى لخطبة جرينليش اياها ، شعورها بأهمية شخصها ٠

فسألت جادة : « تريد أن تعرف هذا يامورتن ؟ اذن فسأخبرك به ٠ لقد آلمنى جدا أن توماس ذكر الاسم فى عصر اليوم الأول لوصولنا ٠ واذ كنت قد سمعته ٠٠٠ فيكفى ٠ السيد جرينليش ، بندكس جرينليش ، صديق فى العمل لوالدى ، وتاجر فى هامبورج ، ذو مركز حسن ٠ وقد طلب فى المدينة يدى ٠ » وأتى مورتن بحركة أجابت عنها على عجل بقولها : « ولكن لا ٠٠ فقد رددته ولم أستطع أن أحزم أمرى على الرضا به والارتباط بموافقتى مدى الحياة ٠٠ »

فقال مورتن فى خرق : « ولم لا ٠٠ اذا جاز لى أن أسألك ؟ » ٠

فصاحت وهى مغضبة تقريبا : « لماذا؟ يالله لأنى لم أطقه ٠ كان ينبغى أن تعرفه ! منظره ومسلكه وأن له ، فى جملة ماله ، لحية عارضية صفراء ذهبية ٠ شخص غير طبيعى تماما ، أعتقد أنه يتخضب بالمسحوق الذى يذهبون به بندق عيد الميلاد ٠٠٠ هذا الى أنه منافق ، يتمسح بوالدى ، ويوافق بصورة زرية على مايقولان ٠٠ »

فقاطعها مورتن :

« ولكن مامعنى ٠٠٠ يجب أن تقولى لى شيئا آخر ٠٠٠ مامعنى : هذا يلمع بصورة غير مألوفة تماما ؟ »

فضحكت تونى ضحكة عصبية متلاحقة ثم قالت :

« نعم هكذا كان يتكلم يامورتن ! لم يكن يقول « هذا ممتاز » أو « هذا يزين الغرفة » بل « هذا يلمع بصورة غير مألوفة تماما ٠ » لقد كان بهذه البلاهة ٠ أؤكد لك ! وفى هذا كان لحوحا الى أبعد حد ٠ كان يلاحقنى مع أنى لم أعامله قط الا متهكمة ٠ وفى مرة أثار مشهدا كان يبكى فيه ٠٠٠ أرجوك ! ان رجلا يبكى ٠٠٠ »

فقال مورتن بصوت خافت : « لابد أنه يحبك ٠ »

فصاحت مندهشة : « وماذا يعنينى هذا ؟ » وانقلبت على جنبها وهى مستندة الى الربوة الرملية ٠

قال : « انك قاسية يا آنسة تونى ٠٠٠ فهل انت قاسية دائما ؟ قولى لى !

انك لم تطيقى هذا السيد جرينليش ، فهل كنت تميلين اذ ذاك الى غيره ؟ ... انني أتساءل أحيانا : هل لك قلب جامد؟ أريد أن أقول لك شيئا ... وحقا انى استطيع أن أقسم لك عليه . أن رجلا لا يكون أبله ، لأنه يبكى من صدك عنه ... هـذا هو الموضوع . انى لست متأكدا اطلاقا من أنى قد أكون هـذا الرجل ... أرأيت ، انك مخـلوقة مدللة راقية ... فهل تسخرين دائما ممن يترامون على قدميك ؟ أقلبك جامد حقا ؟ »

وجعلت شفة تونى العليـا ترتعش فجأة بعد ذلك المرح الوجيز ، وصوبت اليه عينين واسعتين حزينتين لم تلبثـا أن اغرورقتا بالدموع وقالت بصـوت خافت : كلا يا مورتن ، أتعتقد هذا فى ... يجب ألا تعتقد فى هذا ! »

فصاح مورتن : « انى لا أعتقد هذا أيضا . » وضحك ضحكة بادية التأثر يحاول جاهدا أن يكتم فيها هتاف النفس . وتقلب تماما حتى بات بجانبها على بطنه ، وتنـاول ، وهو يرتكن على مرفقيـه ، يديها بكلتا يديه ، وتأمل وجهها بعينين فيهما زرقة الفولاذ وأنس الروح مغتبطا متحمسا ..

قال : « وأنت ... ، ألا تسخرين منى اذا قلت لك انى ... »

فقاطعتـه : « انى أعلم يامورتن » وحولت نظرها جانبا الى يدها الطليقة التى كانت تمر الرمل الابيض النـاعم من بين أصابعها فى تؤدة .

« وأنت تعلمـين ...! وأنت .. أنت يا آنسة تونى ... »

« نعم يامورتن .. انى أعلق عليك الكثير . انى أحبك حبا جما . انك أحب الى من كل من أعرفهم . »

فهب ، وأتى ببضع حركات من ذراعه وحار ماذا يفعل . ووثب على قدميه ثم ارتمى ثانية بقربها على الأرض ، وصاح بصوت متقطع ، مضطرب ، متضارب . عاد رنانا من الغبطة: « آه » انى أشكرك أشكرك . أترين ، لقد بت من السعادة ما لم أكنه يوما فى حيـاتى !... » ثم جعل يقبل يديها .

وبغتـة قال بصوت أكثر خفوتا : « ستسافرين الى المدينـة عما قريب ياتونى ، وعطلتى الجامعية تنتهى بعد أربعـة عشر يوما ... فأعود ثانية الى جوتنجن ، لكن هل تعدينني ألا تنسى عصر هذا اليوم الذى قضيناه هنا على البلاج حتى أعود ... وأنا دكتـور ، وأخطبك من والدك وان شق على الامر ... وأنك فى تلك الاثناء لا تصغين الى سيد يدعى جرينليش ؟ .. ان غيابى لن يطول . فاجعـلى بالك الى ذلك ... سأعمل ... وليس فى هذا مشقة .»

فقالت هائمة شـاردة الفكر : « نعم يامورتن » وتأملت عينيه وفمـه ويديه اللتين كانتا تمسكان بيديها .

وأدنى يدها من صدره أكثر وسألها مخافتا راجيا : « ألا تقوى أملى فى هذا ... أتسمحين لى بأن أقوى هذا الامل؟»

فلم تجب ، بل لم تجبـه بنظرة ، لكنها دفعت جسمها الاعلى من على ربوة الرمل مترفقة وأدنت نفسها منه قليلا فقبلها مورتن من فمها مستأنيا محتفلا ، ثم وجه كلاهما نظره الى جهات مختلفة فى الرمل وتولاهما خجل شديد .

الفصل العاشر

« الآنسة الغالية بودنبروك !

ما أطول ما حرم صاحب التوقيع من رؤية محيا الفتاة الفاتنة ! هذه الاسطر بهذه القلة خليقة أن تنبئك بأن هـذا المحيا لم يكف عن المثول لعينى فكره بحيث لم ينقطع فى هذه الاسابيع العامرة بالقلق واللهفة عن التفكير فى ذلك الاصيل البديع الذى أفلت منك فيه فى صالون والديك وعد قد كان حقا نصفا محفوفا بالخجل ، لكنه كان مسعدا أيما اسعاد • من ذلك الحين تقضت أسابيع طويلة اعتكفت فيها عن العالم طلبا للاستجمام والتأمل بحيث يجوز لى ان آمل الآن أن تكون قد مرت فترة الامتحان • وان صاحب التوقيع ليسمح لنفسه بأن يبعث اليك أيتها الآنسة الغالية مع الاحترام بالخاتم المرفق بهذا عربونا على الحنان الخالد •

مع أخلص التحيات واحب القبلات أطبعها على يديك •

أخلص المخلصين لذاتك الكريمة

جرينليش

« أبى العزيز

ما أشد • والله ما استأت ! لقد تلقيت الخطاب والخاتم المرفقين من جرينلـ ••• فأصابنى صداع من فرط الانفعال • ولم أجد خيرا من أن أبعث بهما اليك • ان جرينلـ ••• لا يريد أن يفهمنى • وهذا « الوعد » الذى يتحدث عنه بهذه الشاعرية لم يقع ، فأرجوك وألح فى الرجاء أن تفهمه بايجاز انى الآن أقل ألف مرة مما كنت قبل ستة أسابيع رغبة فى منحه موافقتى مدى الحياة ، وانه ينبغى أن يدعنى أخيرا فى سلام • انه يعرض نفسه للسخرية • ولك أنت يا خير والد أستطيع أن أقول انى مرتبطة من جهة أخرى بانسان يحبنى واحبه ، حتى انه لم يعد هناك محل لكلام • آه يا ابى ! انى لأستطيع أن أكتب عن هذا صحفا كاملة ، انى أتحدث عن السيد مورتن شفارتسكويف الذى يدرس الطب ويريد ان يطلب يدى بمجرد ان يصبح دكتورا • وانى لأعرف ان العادة تقضى بأن أتزوج تاجرا • لكن مورتن ينتمى الى الجانب الآخر من السادة المحترمين ، جانب العلماء • وهو ليس غنيا ، وهو ماله شأنه عندك وعند والدتى • لكنى يجب أن أقول لك هذا يا أبى العزيز وان كنت بهذا الصغر ، ان الحياة ستعلم البعض ان الغنى وحده لا يسعد دائما كل انسان •

مع ألف قبلة

من ابنتك المطيعة

انتونيا

حاشية ــ الخاتم من ذهب خسيس، وهو أيضا ضيق جدا فيما أرى .

« عزيزتي توني !

وصلتني رسالتك في الوقت المناسب ، وقد استوعبتها . وأخبرك أني قياما بواجبي لم أقصر في ابلاغ السيد جريند ... بصورة لائقة رأيك ووجهة نظرك الى الاشياء . لكن النتيجة كانت مع ذلك بحيث صدمتني صدمة بالغة ... انك فتاة ناضجة في موقف جاد من مواقف الحياة بحيث لا أتردد في أن ابصرك بالنتائج التي يمكن ان تترتب على خطوة تخطينها لا تصدر عن تفكير . لقد انفجر السيد جريند ... عند كلامي وتملكه اليأس فصاح بأنه يحبك ولن يتعزى عن فقدك الى حد أنه يريد الانتحار اذا أصررت على قرارك . واذ كنت لا احسبك جادة فيما كتبت عن ميل لك الى ناحية أخرى فاني أرجوك أن تضبطي انفعالك من الخاتم الذي ارسل اليك ، وان تفكري مرة أخرى في الامر تفكيرا جديا . وان ايماني المسيحي يا ابنتي العزيزة ليوحي الي بأن من واجب المرء أن يحفل بمشاعر الغير . ولسنا نعرف تهلا يجعلك قاض أعلى مسئولة عن اجرام رجل ازدريت مشاعره بالحاح وعدم اكتراث ، في حق حياته ، لكن الشيء الذي طالما أفهمتك اياه شفاها أريد ان اذكرك به ، واني لمسرور ان تتاح لي الفرصة لاكرره عليك كتابة . ذلك أنه وان كان الحديث الشفوي ذا تأثير أقوى وأكثر مباشرة فالكلمة المكتوبة افضل في انها تختار وتصاغ في هينة فتثبت ويعاد تلاوتها بالصيغة والوضع اللذين انتهى اليهما كاتبهما فيمكن ان يكون أثرها نفس الاثر . اننا يا بنيتي العزيزة لم نولد لما نعده بقصر نظرنا هناءنا الشخصي الخاص الضئيل ، ذلك أننا لسنا أفرادا منفصلين مستقلين قائمين لذواتنا ، بل نحن كحلقات في سلسلة . ولكنا خلفاء ونحن كما نحن ، أن لا يكون لنا شأن من دون أولئك الذين سبقونا وارشدونا الى الطريق ، اذ هم من جانبهم قد اتبعوا في حزم ومن دون أن ينظروا يمنة أو يسرة تقليدا مجربا محترما . وطريقه كما يخيل الى مرسوم الحدود واضح المعالم أمامك منذ اسابيع طويلة . وغير معقول أن تكون ابنتي وحفيدة جدك الذي اختاره الله الى جواره عضوا محترما في أسرتنا على الاطلاق اذا أنت عزمت بصورة جدية على أن تختاري وحدك أن تسيري في طريقك الخاص غير السليم في تحد واعتزاز . فأرجوك ياعزيزتي أنتونيا أن تجعلي هذا نصب عينيك .

ان أمك وتوماس وكريستيان وكلارا وكلوتيده (وهذه الاخيرة قد قضت عدة أسابيع عند والدها في ضيق) وكذلك الآنسة يونجمان يحيونك من قلوبهم . وانه ليسرنا جميعا أن نستطيع عما قريب أن نضمك الى صدورنا

الوفي في حبك
ابوك

الفصل الحادى عشر

وانهمر المطر ، وعامت السماء والارض والبحر بعضها فى بعض بينما انخرطت الريح العاصفة فى المطر تلطم به زجاج النوافذ فلايسيل عليه قطرات بل يجرى غدرانا ولايجعل الرؤية منها ممكنة ، وتحدثت أصوات فى مداخن المواقد شاكية يائسة .

فلما تقدم مورتن شفارتسكوبف من الشرفة عقيب الغداء بغليونه ليتبين حالة الجو كان سيد يرتدى سترة طويلة ضيقة مخططة بالمربعات الصفراء ويضع قبعة رمادية ، يقف أمامه ، على حين كانت مركبة مقفلة يلمع سطحها من البلل ، ملطخة العجلات بالطين تقف أمام البيت . فحملق مورتن من دون وعى فى وجه السيد المحمر ، وكانت له لحية عارضية كأنها مخضبة بالمسحوق الذى يصبغ به بندق عيد الميلاد باللون الذهبى .

فنظر السيد ذو السترة المخططة الى مورتن كما ينظر انسان الى خادم ، ورمش بعينيه رمشا خفيفا من دون أن يوجه اليه بصره ، وسأله بصوت ناعم: « هل السيد رئيس المرشدين موجود ؟»

فتمتم مورتن : « بالتأكيد ... أظن أن أبى ... »

وهنا حدق فيه السيد ، وكانت عيناه بزرقة عينى الأوزة ، وسأله : « هل أنت السيد مورتن شفارتسكوبف ؟ »

فأجاب مورتن : « نعم ياسيدى » وجهد أن يكسب وجهه تعبيرا ثابتا . فلاحظ السيد ذو السترة : « أنظر ! حقا ... » ثم قال: « تفضل أيها الشاب فأعلن الى السيد والدك قدومى . انى اسمى جرينليش . »

فقاد مورتن السيد خلال الشرفة وفتح له فى الدهليز الى اليمين باب المكتب وعاد الى حجرة الجلوس ليبلغ والده فلما خرج السيد شفارتسكوبف جلس الشاب الى المائدة المستديرة وأسند مرفقيه عليها ، وبدا من دون أن ينظر الى أمه التى كانت مشغولة عند النافذة القائمة ، برفو الجوارب ، وكأنه مستغرق فى قراءة الصحيفة التافهة التى لا تروى سوى أنباء العيد الفضى لزواج القنصل فلان . وكانت تونى فى حجرتها تستريح .

ودخل رئيس المرشدين الى مكتبه وعليه سيماء الرجل الراضى عما تناول

من غـدائه · وكانت سترته الرسمية مفتوحة فوق صدريته المقبوة البيضاء ، تتباين فيه لحية الملاح الناصعة البياض تباينا شديدا مع وجهه الاحمر ، ويدير لسيانه فى رضى بين أسنانه ، ويتخـذ فمه المستقيم خلال ذلك أوضاعا مختلفة هنا وهناك · فانحنى انحناءة مقتضبة يعبر بها تعبـير من يريد أن يقـول : هكذا تكون :

قال : « طاب وقتـك · فى خدمتـك ياسيدى ! »

وانحنى السيد جرينليش من جانبه فى تؤدة ، وسحب زاويتى فمـه قليلا ، ثم قال بصوت خافت : « هـ ـ ئـ ـ هم »

وكان المكتب حجرة صغيرة تقريبـا غشيت جدرانها بضـع أقـدام الى أعلى بالخشـب وبدا كلسـها الذى لم يكن مورقا · وأمام النافذة التى كان المطـر ينقر على زجاجها بلاانقطاع تتدلى ستائر صفراء مدخنة ، وعن يمين الباب منضدة طويلة خشنة مغطاة بالورق ، عليهـا خريطة كبـيرة لأوربا وأخرى صغرى لبحر البلطيق مثبتة على الحائط ، يتدلى من وسط سـقف الحجرة نموذج جيـد الصنع لسفينة منشورة الاشرعة جميعا ·

ودعا رئيس المرشـدين ضـيفه الى الجلوس على الاريكة المهروشة ، المكسوة بمشمع أسـود بال والمقـابلة للباب ، وارتاح هو فوق مقعد خشـبى ساند ، شابكا يديه فوق بطنـه ، بينمـا كان السيد جرينليش جالسـا فى سترته المحكمة الاقفال ، وقبعته على ركبتيه ، على حافة الاريكة بالضبط ، لا يلامس سنادة الظهر ·

قال : « اسـمى كمـا أعـود فأقول جرينليش ، جرينليش من هامبورج ، ولأقدم نفسى اليك أسـمح لنفسى بأن أذكر أنى صديق حميم فى العمل لتاجر الجملة القنصل بودنبروك »

« لى الشرف ياســيد جرينليش ! ولكن ألا يحب السيد أن يرتاح قليلا فى مجلسه ؟ كأسا من الجروج بعد الرحلة ، انى أنادى من فى المطبخ فى الحال ·· »

فتكلم السـيد جرينليش فى هدوء : « أســمح لنفسى بأن ألاحظ أن وقتى محدود ، وأن مركبتى تنتظرنى ، وانى مضطر فقط الى أن أرجـوك فى محادثة لا تزيد عن كلمتين · »

فكرر السيد شفارتسكوبف قوله : « فى خدمتك ياسيدى » وقد أرهبه الزائر قليلا ، وساد السكون برهة

وأنشأ السـيد جرينليش يقول : « ياسيدى الرئيس ! » وهو يهز رأسه

قليلا . ثم صمت ثانيــة ليعــزز تأثيرخطابه ، وزم فمه فى ذلك زمة شــديدة فى تصميم كما لو كان كيس نقود يشدبرباط

وعاودالكلام ، وتكلم عندئذ فيعجلة: « سيدى الرئيس ، انالمسألة التىجئت اليك من أجلها تتعلق رأسا بالســيدةالصغيرة التى تقيم فى بيتكم من بضعة أسابيع .. »

فسأل السيد شفارتسكوبف : « الآنسة بودنبروك ؟ »

فرد الســـيد جرينليش بلا نبرة :« بالتأكيد » وطأطأ فى ذلك رأسه وشد زاويتى فمه على بعض التغضنات .

واســتطرد فى توكيد يمــيزه تهزيجخفيف: « أرانى مضطرا الىأن أفاتحك » وتوثبت عيناه أثناء الـكلام فى التفاتشــديد من نقطة فى الحجــرة الى نقطة أخرى ثم الى النافذة : « بأنى من وقتقريب قد طلبت يد الآنسة بودنبروك، وانى أملك كل الملك موافقــــة والديهافوق ماخولتنى الآنسة نفسها من حق فى يدها بصريح العبارة وان كانت تلكالخطبة لم تعلن بالفعل فيكل مظاهرها.»

فســــأل الســيد شفارتسكوبف فيحرارة : « صحيح بالله ؟ انى لم أعلم عن ذلك شــيئا . أهنئــك ياســيد .. جرينليش ، أهنئك من كل قلبى ! لقد بات ملك يمينـــك شىء طيب ! شىءحقيقى ! ... »

فقال السيد جرينليش وهو يضغط كلامه فى برود : « ممنون جدا » .. ثم اســتطرد يقول بصــوت مرتفع كأنه يغنى : « على أن الذى جاء بى اليك فى هذا الشأن ياسيدى القومندان المحترمهو أنه قد قامت أخــيرا فى طريق هــذه الرابطة عقبات ، وأن هذه العقبات .. تنشأ من بيتك ... » ونطق الكلمات الاخيرة فى توكيد المتسائل الذى يريدأن يقول: « أممكنهذا الذى بلغ مسامعى؟»

لم يجــد الســيد شــفارتسكوبفما يجيب به غــير أن يرفــع حاجبيــه الاشيبين يخوضان فى جبينه وأن يقبضعلى ذراعى كرسيه بكلتــا يديه ، يدى الملاح السمراوين اللتينيعلوهما الشعرالاشقر .

وتكلم السيد جرينليش قائلا شــأنالواثق الحزين : « أجل ، حقا ان هذا ماسمعته . لقد سمعت أن ابنك السيدطالب الطب ... سمح لنفسه ــ وهو لا يدرى بالتأكيد ــ بأن يتعرضلحقوقى .. ســمعت أنه انتهــز فرصة وجود الآنســة هنا ، فأنتزع منهــا وعودا بعينها ... »

فصاح رئيس المرشدين وهو يعتمد بشـــدة على ســنادتى الذراعين ويهب ناهضا : « ماذا ؟ ينبغى فى الحال ... أن نتبين جلية الأمر »

وفى خطوتين كان عند الباب يغتصبه ويصيح عند الدهليز بصوت كان قمينا أن يطغى على أصخب صوت لتلاطم الموج : « ميتا ! مورتن ! تعاليا ! تعاليا كلاكما ! »

وتكلم السيد جرينليش وعلى وجهه ابتسامة رقيقة : «انى لخليق أن يؤسفنى اشد الاسف ، اذا كنت باستمساكى بحقى الاقدم أعترض خططك الأبوية ياسيدى الرئيس ... »

فالتفت اليه ديدريش شفارتسكوبف وحملق فيه بعينيه الزرقاوين الحادتين اللتين تحوطهما التغضنات الدقيقة ، وكأنه يجهد عبثا فى فهم مايعنى بكلماته. على أنه لم يلبث أن قال بصوت رن كأنما يخرج من حلق ألهبته جرعة حامية من شراب الجروج الساخن والماتكد : « انى رجل بسيط لا أدرك هذه التعبيرات الدقيقة الاريبة ... لكنك اذا كنت تعنى أنى ... اذن فلتعلم أنه قد عداك الصواب ياسيدى ، وأنك واهم فيما تفقهه من مبادئ ! انى أعلم من هو ابنى ، وأعرف من هى الآنسة بودنبروك . وأن عندى ياسيدى من الاحترام لنفسى ومن الكبرياء مايجعلنى أترفع عن تدبير مثل هذه الخطط الابوية !... ألا خبرانى ، ألا أجيبانى ماهذا الذى يقال ؟ ماهذا الذى أسمع فى حقيقة الأمر ؟... »

وكانت السيدة شفارتسكوبف وابنها واقفين بالباب ، الاولى خالية الذهن مشغولة باصلاح وضع مئزرها ومورتن عليه سيماء الخاطئ المصر على خطئه . وقد ظل السيد جرينليش عند دخولهما جالسا فلم ينهض لهما بحال ممعنا فى جلسته المنتصبة الهادئة على حافة الأريكة وقد أحكم تزرير سترته .

وانتهر رئيس المرشدين ابنه مورتن بقوله : « اذن لقد سلكت مسلك الغلام الغر ؟... »

وكان الفتى يدس ابهامه بين أزرار جاكتة الصيد التى كان يرتديها متجهم العينين ، عابسا ، قد نفخ خديه تحديا.

قال : « نعم يا أبى ، ان الآنسة بودنبروك وأنا ... »

« كذا ! أقول لك أنك معتوه أحمق ! غدا ترحل الى جوتنجن ! أسمعت ؟ فى اليوم التالى ! ان الامر كله عمل صبيانى ، عبث أطفال ، انتهينا ! »

فقالت السيدة شفارتسكوبف وهى تعتصر يديها : « ديدريش يا الهى ! ليس هذا الأمر بالذى يحسم على هذه الصورة ! من يعلم ... » وكفت عن الكلام وقد رأت كيف انهار أمام عينيها أمل جميل .

والتفت قائد المرشدين الى السيد جرينليش وقال له بصوت أجش : « أيريد السيد أن يكلم الآنسة ؟ »

فقالت السيدة شفارتسكوبف متأثرة يداخلها العطف : « انها نائمة فى غرفتها ! »

فقال السيد جرينليش وقد تنفس الصعداء قليلا : « متأسف » ونهض وهو يقول : « وأعود فأكرر أن وقتي محدود وأن مركبتى تنتظرنى · » ثم استطرد وهو يرسم أمام السيد شفارتسكوبف بقبعته حركة من فوق الى تحت فقال : « انى أسمح لنفسى ياسيدى الرئيس بأن أعبر لك عن أتم الرضا والتقدير لمسلك الرجولة والخلق الذى سلكته · انى أحييكم · وقد تشرفت والى اللقاء ·»

ولم يمد اليه ديدريش شفارتسكوبف يده بحال ، بل رج جسمه الاعلى الثقيل رجة مقتضبة الى الامام كمن يريد أن يقول : « هكذا والا فلا ! »
ومر السيد جرينليش بين مورتن وأمه فى خطوة متزنة إلى الباب ثم خرج·

الفصل الثانى عشر

وظهر توماس مستقلا مركبـة آل كروجر · وكان اليوم قد حل ·
جاء الشـــاب فى العاشرة صباحا وتناول لقمة صغيرة مع الاسرة فى حجرة الإستقبال · اجتمعوا كما اجتمعوا أول مرة لولا أن الصيف كان قد ولى ، وأن الجو كان أبرد ممـا ينبغى لا يصـلح للجلوس فى الشرفة وأن مورتن لم يكن موجـودا ··· اذ كان فى جوتنجن · ويوم رحل لم تودعه تونى ولم يودعها الوداع الواجب · فقـد وقف رئيس المرشدين عند الرحيل وقال : « كذا ، انتهينا ! »

وفى الحادية عشرة صعد الاخوان الى المركبة التى شدت الى مؤخرتها حقيبة تونى الـكبيرة · وكانت شاحبة اللون ترتعد فى جاكتتها الخريفية الناعمة من البرد ، والتعب ، وترقب السـفر ، والاسى الذى كان يطغى عليها فجأة بين الحين والحين ويشيع فى صدرها شعورا مقبضا بالألم · وقد قبلت ميتا الصغيرة ، وضغطت يد ربة البيت ، وهزت للسيد شفارتسكوبف رأسها لما قال : «لا تنسينا يا آنسـة · فلم نقصد سوءا ، أليس كذلك ؟ »

« هكذا ، وسـفرا سـعيدا ! والى السيد أبيك والسـيدة القنصلة أطيب التحيات ··· » ثم اصطفق باب المركبة فى قفـله وجـرها الجوادان البنيـان السمينان ، ولوح آل شـفارتسكوبف الثلاثة بالمناديل ···

وضغطت تونى رأسها فى ركن المركبة ونظرت من النافذة الى الخارج · وكانت السماء ملبدة بالغيوم ، ونهر ترافيـه يدرج موجات صغيرة تسـبق الريح ، وبين الحين والحين تنقر قطـرات صغيرة فوق زجاج النافذة · وكان على مخرج الصـف الامامى أناس يجلسـون أمام أبواب بيوتهم يرتقون الشباك ، وبعض الاطفال الحفـاة يعدون قادمين يتأملون المركبـة فى فضول · وقد بقى هؤلاء هناك ·

ولما استدبرت المركبـة آخر البيوت انحنت تونى الى الامام لترى المنارة كرة أخرى ثم ارتدت ثانية الى الوراء تستدظهرها وتغمض عينيهـا المتعبتـين الحساستين · ولم تكن قد نامت الليل من الانفعال فنهضت مبكرة لتعد حقيبتها ، ولم تجد ميلا الى الافطـار ، وكان طعم فمها تافهـا ، واحساسها بالهبوط قد بلغ منه أنها لم تحاول مرة أن تكبـح دمعها الذى كانت تغرورق به عينـاها كل لحظة بطيئا حارا ·

ولم تكد تغمض جفونها حتى كانت ثانية بالشرفة فى ترافيمنده تتمثل مورتن شفارتسكوبف بلحمه ودمه أمامها يتحدث اليها وينحنى الى الامام على طريقته ، ويتصور آخر هناوهنا فينظر اليه فاحصا دمثا ، ويكشف عن أسنانه الجميلة ضاحكا ، خالى الذهن من جمال أسنانه فيما يرى ... فهدأت كل الهدوء ، وتهلل وجهها ، واستذكرت كل شيء سمعته وعلمته منه فى أحاديث كثيرة فاستشعرت الرضا المسعد من أنها تريد أن تحتفظ بكل هذا فى نفسها كشىء مقدس ، شىء لا يمس . أما أن ملك بروسيا قد اقترف ظلما فادحا ، وأن صحف المدن وريقات أسيفه ، بل ان قوانين الاتحاد الالمانى عن الجامعات جددت من أربع سنوات مضت ، ان هذا كله سيبقى من الآن فصاعدا بالنسبة لها حقائق محترمة معزية ، كنزا سريا يسعها أن تتأمله كلما راقها أن تتأمله . ستفكر فيه وهى فى الشارع وبين أسرتها وعلى الأكل ... من يعلم؟ فقد تسلك الطريق المرسوم لها وتتزوج السيد جرينليش ، وهذا عندها أمر غير ذى بال . لكنه اذا تحدث اليها فسوف يكون تفكيرها فجأة أن النبلاء هم من حيث المبدأ قوم خليقون بالازدراء .

وابتسمت راضية ، لكنها على حين بغتة تبينت فى صوت العجلات لغة مورتن واضحة تماما . حية بصورة لا تصدق ، فجعلت تميز كل لفظ يحمله صوته المقرقر الطيب فى شىء من البطء ، وتسمع بأذنها الحقيقية كيف كان يقول: « اليوم يجب أن يجلس كلانا على الصخر يا آنسة تونى ... » وكانت هذه الذكرى الصغيرة تطغى عليها فانقبض صدرها من الاسى والالم ، وفاض دمعها من دون أن تحاول كبحه . وانضغطت فى ركنها تمسك بمنديلها بكلتا يديها أمام وجهها وتبكى بكاء مرا .

فنظر توماس فى شىء من الحيرة خارجا الى الطريق وسيجارته فى يده .

وقال أخيرا وهو يمسح بيده على جاكتته : « مسكينة ياتونى ! انى متألم لك من كل قلبى ... آنى أفهمك جيدا ، أترين ؟ لكن مع العمل ؟ ان مثل هذا يجب أن يجتاز ... صدقينى ... انى أعرفه أيضا . »

فقالت تونى وهى تنتحب : « آه ! ... انك لا تعرف شيئا ياتوم ! »

قال : « لا تقولى هذا ، فالآن على سبيل المثال قد ثبت أنى ذاهب الى أمستردام فى بداية العام القادم ، اذ حصل لى أبى على وظيفة لدى فان دركلين وشركائه ... ولا بد لى هنا من افتراق يدوم طويلا ، طويلا جدا . »

« أخ ، ياتوم ! افتراق عن الوالدين والاخوة ! هذا ليس بشىء ! »

فقال : « أجل ـ » وهو يمطها مطا ، وتنفس الصعداء كمن يريد أن يقـول شيئا آخر ثم يسكت عنه · ورفع أحدحاجبيه وهو ينقل سيجارته من زاوية فمه الى الزاوية الاخرى ، وحول رأسه جانبا ·

ثم عاود الحديث بعـد برهة قائلا : « ولن يدوم هذا طويلا · فهذا مايحدث ثم ينسى ··· »

فصاحت تونى وقد تملكها اليأس : « لـكن لا أريد بالذات أن أنسي ··· أنسي ؟··· أهذا اذن عزاء ؟! »

الفصل الثالث عشر

وجاءت المعدية ، وجاء طريق اسرائيلدورف وجبل أورشليم وحقل القصر، واجتازت المركبة بوابة القصر التى تعلو عن يمينها جدران السجن ، ثم درجت على امتداد شارع القصر وعبر كوبرج• فتأملت تونى بيوت الجمالون الغبراء ، ومصابيح الغاز المعلقة فوق الشارع ،ومستشفى روح القدس وأمامه شجر الزيزفون الذى كاد أن يتعرى من ورقه ••• يا الهى ، لقد لبث كل شيء كما كان • لقد بقى هنا قائما لا يتغير ،جديرا بالتكريم ، بينما كانت هى تتذكره كما لو كان حلما عفى عليه الزمن ، خليقا بالنسيان ! ان هذه الجمالونات الغبراء كانت ماتقادم عليه العهد وألفه الناس وتوارثوه ، وما يستقبلها من جديد وما ينبغى أن تعود الى العيش فيه • لقد كادت أغنية الوداع تخفت بهذه الطرقات وهذه الوجوه البادية فيها ، المعروفة من قديم • فى هذه اللحظة ــ وكانت المركبة تخترق الشارع العريض ــ مربها الحمال ماتهيزن فرفع قبعته العالية الخشنة وخفضها خفضا شديدا كأنما يقول لنفسه بوجه الاجير المشاغب : « من المؤكد انني من الاوغاد ••• »

وعرجت المركبة على شارع منج ،ووقف الجوادان البنيان السمينان يلهثان أمام بيت بودنبروك • وعنى توم بأخته يعاونها على الترجل بينما هرع أنطون ولينا اليهما ليفكا الحقيبة ولكنه كان لابد من الانتظار قبل الوصول الى البيت ، اذ كانت ثلاث من مركبات النقل الضخمة يخرج بعضها فى أثر بعض من باب البيت ، وقد علت شحنتها من أعدال الغلال التى كانت تحمل اسم بيت « يوهان بودنبروك » التجارى بأحرف عريضة سوداء ، وكانت المركبات الثلاث تترنح بأصواتها المتثاقلة المتجاوبة وهى تهبط الى الفناء عبر الرحبة والدرجات المسطحة • وكان مقررا أن يفرغ جانب من حمولة الغلال فى الدار الخلفية ويتحول الباقى الى مخزن « الحوت » أو « الأسد » أو « السنديانة » •••

وخرج القنصل والقلم خلف أذنه من المكتب لما وطيء الأخوان الرحبة وبسط ذراعيه لابنته •

« مرحبا بك فى بيتك ياعزيزتى تونى!

فقبلته ونظرت اليه بعينين كانتا ماتزالان مقرحتين من البكاء يقرأ فيهما شيء كأنه الخجل ، لكنها لم تجده غاضبا ولم يذكر كلمة بل قال فحسب : « ان الوقت متأخر ، لكننا انتظرنا بالافطار الثاني » •

وكانت القنصلة وكريستيان وكلوتيلده وكلارا وايدا يونجمان واقفين على بسطة السلم مجتمعين هناك للتحية ..

* * *

ونامت تونى فى الليلة الاولى فى شارع منج نوما عميقا هانئا ، ونزلت فى صباح اليوم التالى الثانى والعشرين من سبتمبر الى حجرة الافطار منتعشة هادئة . وكان الوقت لايزال باكرا جدا ، لاتكاد الساعة تبلغ السابعة . فليس ثم سوى الآنسة يونجمان تعد قهوة الصباح .

فقالت : « مرحى ! مرحى ! ياتونى ، ياطفلتى ! » وتلفتت حولها بعينين صغيرتين ناعستين ، عسليتين ، مستطردة : « بهذه الدقة فى المواعيد ؟ » .

وجلست تونى الى المكتب الذى كان مرفوع الغطاء ، وشبكت يديها وراء رأسها ثم أجالت بصرها برهة فى بلاط الفناء الذى كان يلمع من البلل فى لون أسود ثم الى الحديقة المصفرة الرطبة . ثم أخذت تنبش مستطلعة فى بطاقات الزيارة والرسائل الموجودة فوق المكتب ...

وكان يلاصق الدواة تلك الكراسة الكبيرة المعروفة ذات الجلدة المضغوطة والرسم الذهبى والورق المختلف . ولابد أنها كانت تستعمل مساء أمس . وعجيب ان أباها لم يضعها فى المؤخرة كمألوف عادته .

وقد تناولتها وتصفحتها وجعلت تقرأ فيها وتتعمق فى القراءة . وكان ما قرأته أشياء بسيطة فى الغالب معروفة لها . لكن كلا من الكاتبين قد تلقى عن سلفه طريقة جدية فى المحاضرة لا غلو فيها وأسلوبا فى تدوين اليوميات يميل الى التلميح بصورة غير مقصودة تمليها السليقة وتنطق بالاحترام المكنون الذى تكنه الأسرة لنفسها وللتقاليد وللتاريخ ، وهو من ثم أكثر انطواء على التوقير . ولم يكن هذا بالنسبة لتونى بالشىء الجديد ، فقد كان يجوز لها أحيانا الاشتغال بهذه الصفحات . بيد أنه لم يكن لمضمون هذه الاوراق فى نفسها فى يوم ما ما كان له فى هذا الصباح من وقع . فقد أثر فيها الجد والتبجيل اللذان كان يعالج بهما هنا أيضا أتفه ما تضمن تاريخ الأسرة من أحداث . وقد اعتمدت مرفقيها وجعلت تقرأ فى تفان متزايد وفخر وجد .

كذلك ماضيها الخاص الوجيز لم تنقصه نقطة من النقط : ميلادها والأمراض التى انتابتها فى طفولتها وأول ذهاب لها الى المدرسة ، ودخولها مثوى الآنسة فيشبروت وتثبيتها ...

لقد كان كل شىء من هذا مسجلا بعناية بخط القنصل الدقيق الفياض الذى يلتزمه التجار ، وبالاحترام الذى يكاد يكون خشوعا دينيا أمام الوقائع .

أفليس أضأل واقعة فيها من عمل الله وارادته التى تصرف مصائر الأسرة هذا التصريف العجيب ؟ ٠٠٠ وماذا عساه أن يكتب تحت اسمها فى المستقبل وقد تلقته من جدتها انطوانيت ؟ وسيقرأ كل شىء من يجىء من أعضاء الأسرة فيما بعد بنفس التقوى التى تابعت بها هى ما سبق من حوادث ٠

واستندت الى الخلف وهى تتنفس الصعداء ، ودق قلبها رهبة وأفعمتها الهيبة التى تحسها لنفسها ، وداخلها ما عرفته من شعور بأهميتها ، وعزز هذا الشعور روح استسلمت من هنيهة لتأثيره وسرى فيها كما تسرى الرعدة ٠ لقد كتب أبوها كحلقة فى سلسلة وكانت هى ٠٠٠ أى نعم ٠٠٠ كانت بالذات مطالبة كحلقة فى سلسلة ذات شأن رفيع قوية الشعور بالتبعة ، بأن تعاون على كتابة تاريخ أسرتها بالفعل والعزيمة ٠

وجعلت تتصفح الكراسة الكبيرة حتى أوفت على النهاية حيث سجل على قرطاس خشن من الفولسكاب نسب آل بودنبروك كاملا ملخصا بيد القنصل فى تواريخ واضحة مزودة بالأقواس والحواشى : ابتداء من زواج أول ابن للأسرة من ابنة الواعظ المدعوة بريجيت شورين الى زواج القنصل يوهان بودنبروك من اليصابات كروجر فى عام ١٨٢٥ ٠ وقد جاء فى الكراسة : وأنجب هذا القران أربعة أطفال ٠٠٠ ثم تلت الأسماء الاولى بعضها تحت بعض ، مقرونة بتواريخ الميلاد وأيامه ٠٠ وكان قد دون بالفعل تحت اسم الابن الأكبر أنه فى عيد فصح سنة ١٨٤٢ دخل فى تجارة آبائه « صبيا .

وأطالت تونى النظر الى اسمها والى الموضع الخالى تحته ٠ وبغتة ارتجت ، وانتاب محياها حركات عصبية نشطة ـ وبلعت ريقها .وتحركت شفتاها لحظة حركات سريعة وهما مطبقتان ثم اختطفت القلم ولم تغمسه بل رشقته فى المحبرة وكتبت بسبابة منحنية ورأس حام مائل على كتفيها ، وبخطها العصى الصاعد من الشمال الى اليمين فى انحراف : « ٠٠٠ خطبت فى الثامن والعشرين من سبتمبر ١٨٤٥ الى السيد بندكس جرينليش التاجر بهامبورج » ٠

الفصل الرابع عشر

« انى من رأيك تماما ياصديقى العزيز : ان هذه المسألة ذات أهمية ويجب انجازها . فلنوجز : ان البائنـة النقدية التقليدية لفتـاة شابة من أسرتنا تبلغ ٧٠٠٠٠ر٧٠ مارك . »

فألقى السـيد جرينليش على حميه المقبل نظرة تاجر ـ نظرة وجيزة فاحصة من الجنب وقال : « حقا » وكانت هذه الكلمة « حقا » فى طول الفرد الايسر من لحيته العارضية الصفراء كالنضـار بالضبط ، وكان يعبث بهـا بأصابعه فى اتزان . فلمـا انتهى من نطق « حقا » أفلت عثنونه

واستطرد يقول : « انك تعرف يا أبى المحترم ما أحسـه للتقاليد والمبـادىء المحترمة من توقير ! لكن ... ألا تدل هذه المراعاة الجميلة فى مثل هذه الحالة القائمة على غلو؟ ... ان عملا يتسع ... وأسرة تزدهر ... بالايجـــاز » ، ان الشروط تصـبح غير الشروط وخـيرامنها ... »

فتكلم القنصل : « ياصديقى العزيز ، انك ترى فى تاجرا مطبوعا ! يا الهى ... انك لم تدعنى أتم كلامى ، والا لعلمت أنى راغب ومستعد لأن أتساهل معك وفقا للظروف ، وأن أضـيف الى السـبعين ألفا عشرة آلاف مرة واحدة » .

فقال الســـيد جرينليش : « اذن ٠٠٠ر٨٠ .. » وأتى عندئذ بحركة من فمه كمن يريد أن يقول : « ليس أكثر مما ينبغى ولكنه كاف »

واتفقا على أسمح وجه ، وخشخشت ربطة مفاتيح القنصل الكبيرة الموجودة فى جيب سرواله وهو ينهض علامة الرضا . فقـد بلغ بالثمانين ألفا مقدار البائنـة التقليدية على حرف .

وهنا سلم السيد جرينليش وسافر الى هامبـورج ولم تدرك تونى كثـــيرا وضعها الجديد فى الحياة . لم يمنعها أحد من الرقص عند آل مولندورف ولانجهالز وكستنماكر وفى بيتهـا هى ، ولا أن تتزحلق فى ساحة القصر ومراعى ترافيه وتتلقى احترامات الشـبان . . . وفى أواسط أكتوبر أتيحت لها فرصة حضور حفلة عنـد آل مولندورف لاعلان خطبة ابنهم الاكبر وجوليـــا هاجنشـــتروم . وقالت تخـاطب أخاها : « تـوم ، انى لا أريد الذهاب . ان هـــذا مما يثير غضبى ! » لكنها ذهبت مع ذلك وتسلت على خير وجه .

هذا وقد باتت لها بالكلمة التى أضافتها الى تاريخ الأسرة أن تغشى مع القنصلة أو وحدهـا جميـع الحوانيت وأن تعنى بجهازها الذى يجب أن يكون وجيها .

وقد جلست خياطتان أياما فى حجرة الافطار تكففان وتطرزان الاسماء ، وتأكلان الكثير من خبز الريف بالجبن الأخضر ...

وتسأل أمها : «أجاء التيل من لينتفوريا أماه ؟ »

« لا يا ابنتى ، ولكن ها هى ذى دستتين من فوط الشاى »

« جميل — ولكنه وعد بأن يرسلها حتى عصر اليوم . ولابد للمفارش من حواش ! »

« ان الآنسة بيترلش تسأل عن الدنتيللا للحشايا يا ايدا » .

« انها فى خزانة البياضات فى الردهة على اليمين ياتونى ، يا ابنتى » .

« لينا — ! »

« ألا تستطيعين أن تتحركى مرة بنفسك ياعزيزتى ! »

« يا الهى ، هل تزوجت لأصعد الدرج وأهبط بنفسى ! »

« هل فكرت ياتونى فى ثوب الزفاف؟» .

« موريه انتيك ياماما ! ... لاأزف بدون موريه أنتيك ! »

وهكذا مر أكتوبر ونوفمبر ، فلما كان عيد الميلاد ظهر السيد جرينليش ليقضى ليلة العيد بين أسرة بودنبروك . كذلك لم يرفض الدعوة الى الاحتفال عند كروجر الشيخ . وكان سلوكه نحو عروسه يحدوه شعور رقيق كان من حق العروس أن يظهره . ولم يكن ثم رسميات لا ضرورة لها ! ولا موانع اجتماعية ، ولا مظاهر حنو خالية من الكياسة ! وقد ختمت الخطبة بقبلة متزنة فى حضرة الوالدين نفشت على الجبين نفثا . وكانت تونى تتعجب أحيانا قليلا من ان هناءه آنئذ يكاد لا يطابق ذلك اليأس الذى كان يظهره أيام أن كانت تصده . بل لقد كان فحسب يتأملها بسيماء مرحة هى سيماء من يملك من يتأمله .. وهنا وهناك بطبيعة الحال يمكن أن تتملكه نفسية منبسطة مباسطة اذا ما اتفق أن كان معها وحده ، وأن يحاول جذبها لاجلاسها على ركبتيه ليدنى فردا من لحيته العارضية من وجهها ، وليسألها بصوت يهتز سرورا : « ألم تبيتى ملكى ؟ ألم أستحوذ عليك ؟ ... » فترد تونى : « رباه ، انك تنسى نفسك ! » ثم تفلت منه فى لباقة .

وسرعان ما عاد السيد جرينليش الى هامبورج عقب عيد الميلاد ، ذلك أن تجارته النشيطة كانت تتطلب حتما وجوده شخصيا . وقد أقره آل بودنبروك صامتين على أن تونى قد أتيح لها قبل الخطبة الوقت الكافى للتعرف به .

وقد سويت مسألة السكن كتابة ، فان تونى التى كان يسرها كل السرور أن تعيش فى مدينة كبرى ، أعربت عن رغبتها فى الاقامة فى قلب هامبورج حيث مكاتب السيد جرينليش أيضا وفى شارع المستشفيات ، بيد أن العريس توصل بالحاح ينبعث عن رجولة الى تفويضه فى شراء فيلا بقرب ايمز بيتل

خارج المدينة فى موضع رومانتيكى بعيدعن الناس ، تصلحأن تكون عشا شعريا لزوجين شابين pocul negotus*

كلا انه لم يكن نسى لاتينيتــه كل النسيان !

وانقضى شهر ديسمبر . وفى بدايةعام ١٨٤٦ أقيمت حفلة الزفاف، فأحيوا مساء صاخبا وحفلة فخمة ، حضرهــا نصف المدينة . ورقصت صاحبات تونى . وفى جملتــهن أرمجارد فون شــيلنج التى جاءت الى المدينة فى مركبة عالية ــ مع أصدقاء توم وكريستيان ــ ومن بينهم أندرياس جيزيكه ابن قائد المطافىء وطالب الحقــوق ، وكذلك ســتيفان وادوارد كستنماكر من شركة كستنماكر وابنه ــ فى قاعة الأكل ، وفى الدهليز الذى كان مرشوشا لهذا الغرض بمسحوق التالك . وقد تكفل القنصل بيتر دولمان بالصخب قبل كل انسان ، فكان يحطم على بلاط الرحبة الكبرى كل ما أمكنه الحصــول عليه من قدور الفخار .

وقد عرضت لمدام شــتوت القاطنة فى شــارع صناع النواقيس الفرصــة كرة أخرى للاختلاط بالطبقة الراقية ، اذ عاونت الآنسة يونجمان والحياطة فى تزيين تونى فى ليلة الزفاف . قالت ، وليعاقبها الله ان كانت تكذب ، انها لم تر عروسا أجمل من تونى ، وجثت على ركبتها ، على ما بها من بدانة ، وثبتت فروع الآس على الموريه أنتيك الأبيض رافعة عينيها فى اعجاب ... حدث هذا فى حجرة الافطار . وكان السيد جرينليش ينتظر أمام الباب فى فراك طويل وصدرية حريرية ، وعلى وجهه الوردى تعبير ينطق بالجــد والاســتقامة . وقد لوحظ على الثؤلول النابت على منخره الأيسر شىء من المسحوق وكانت لحيته العارضيــة مسرحة بعناية .

وهنــاك فى بهو الاعمدة حيث اتفق عــلى أن يتم الزفاف اجتمعت الاسرة ــ وكانت جماعة ممتازة ! فقد جلس الزوجان كروجر المســنان يبدو عليهما شىء من الكآبة ، لكنهما كانا ظاهرة بارزة كما هو شأنهما على الدوام . وكان هنــاك القنصــل كروجر وزوجه مع ولديهما يورجن ويعقوب ، وقد جاء الاخير مثل الأقارب دوشان من هامبورج . وجاء جوتهولد بودنبروك وزوجــه التى من أسرة شتيونج ومعهما فريدريكه وهنرييت وفيفى اللواتى زهد ثلاثتهن فى الزواج بعد الآن . وكان الفرع الميكلنبورجى من الأسرة ممثلا بأبى كلوتيلده السيد برنارد بودنبروك الذى جاء من أونجناديه فراعه مارأى من مظاهر السيادة فى بيت قريبه الثرى . أما القاطنون من الاسرة فى فرانكفورت فقــد اجتزأوا بارسال الهــدايا ، ذلك أن السفر كان كثــير التكاليف ... لكنه كان بدلا منهم اثنان بوصفهما الغريبين الوحيدين عن الأسرة، وهمــا الدكتــور جرابو طبيب الأسرة الخاص ، والآنسة فيشبروت التى كانت تحمل فوق خصلها الجانبية قلنسية ذات

---

* بعيدا عن الاعمال التجارية

أشرطة جديدة خضراء ، وترتدى ثوبا أسود · قالت لما ظهرت تونى فى بهو الاعمدة الى جانب السيد جرينليش :« أتمنى لك السعادة يا طفلتى! » وشبت وقبلتها على جبينها قبلة قرقعت قليلا · لقد كانت الاسرة راضية عن العروس ؛ فقد كانت تونى تبدو حسناء ، رابطة الجأش، مرحة ؛ وان كانت شاحبة بعض الشىء من أثر الترقب والانفعال الذى يسبق السفر ·

كان بهو الاعمدة مزدانا بالازهار وكان هيكل مقاما على الجانب الايمن فقام القس كولنج راعى كنيسة القديسة مريم بمراسيم الزواج وحث على الاعتدال خاصة بكلمات قوية · وتم كل شىء وفقا للنظام والعرف فنطقت تونى « بنعم » بسيطة رضية ، بينما تنحنح السيد جرينليش مقدما « ليسلك » حنجرته ، وتلا ذلك أكل شهى كثير بصورة غير عادية · وبينما الضيوف والقسيس فى وسطهم يواصلون الاكل هناك فى القاعة ، صاحب القنصل وزوجته الزوجين الفتيين اللذين كانا قد استعدا للسفر ، الى الخارج ، فى الهواء المثلوج الذى كان يتخلل الضباب الابيض · وكانت مركبة السفر الكبيرة تنتظر أمام باب البيت محملة بالحقائب والاكياس ·

وصعدت تونى الى المركبة ، وتركت أمها تدثرها بغطاء الفراء الدافىء فى عناية بعد أن أعربت مرارا عن يقينها بأنها ستعود عما قريب الى البيت للزيارة ، وأنها تنتظر ألا تتأخر زيارة والديها لها فى هامبورج طويلا · وكذلك اتخذ زوجها فى المركبة مجلسه ·

وقال القنصل : « ··· جرينليش ، الدنتيللا الجديدة موضوعة فى حقيبة اليد الصغرى فوق، فضعها قبل الوصول الى هامبورج بقليل تحت المعطف ، أليس كذلك ؛ ان ضريبة الاستهلاك ··· يجب التفادى منها ما أمكن · وداعا ! وداعا مرة أخرى يا تونى ! والله معك ! »

وسألت القنصلة : « ستجدان فى آرينزبورج مقاما طيبا بالتأكيد ··· »

فأجاب السيد جرينليش : « أوصينا ياعزيزتى ماما ، أوصينا على كل شىء ! »

وودع مدام جرينليش كل من أنطون ولينا وترينا وصوفى ·

وكان باب المركبة يوشك أن يقفل عندما أتت تونى بحركة مفاجئة · فانها على الرغم من الظروف التى سببت هذه الحركة ، أزاحت غطاء السفر عنها ، وترجلت من المركبة من فوق ركبتى السيد جرينليش غير واعية ، وعانقت أباها بحرارة فأخذ جرينليش يضيق بذلك ·

« وداعا يا أبى ··· يا أبى الطيب! » ثم همست فى خفوت تام : « أراض أنت عنى ؟ »

فاحتضنها القنصل لحظة من دون أن ينبس ببنت شفة ، ثم دفعها برفق ، وهز يدها فى حرارة ···

وبات كل شيء معدا للرحيل فأقفل باب المركبـة وقرقع سوط السائق ، وهمت الخيل حتى ارتجت ألواح الزجاج ، وجعلت القنصلة تلوح بمنديلها الباتستا في الهواء حتى توارت المركبة التي كانت تهبط الشارع مقرقرة ، في ضباب الثلج ٠

كان القنصل واقفا نهبا للافكار الى جانب زوجته التي أحكمت وضع كاب الفراء بحركة رشـيقة فوق كتفيها ٠

« لقد رحلت يا بتسى »٠

« أجل ياجان ، أول شيء يتركنا ٠ ـ أتعتقد أنها سعيدة معه ؟ »

«آه ، بتسى ، انها راضية عن نفسها ، وهذا أعظم هناء يمكن أن نطمع فيه في هذه الدنيا ٠ »

وعادا الى ضيوفهما ٠

الفصل الخامس عشر

وهبط توماس بودنبروك شارع منج الى فينفهاوزن ، وتحاشى أن يلف عاليا الشــارع العريض حتى لا يضطر الى حمل قبعته دائما فى يده من أجل معارفه الكثيرين . وسار ويداه فى جيبى معطفه الدافىء الرمادى الـداكن ، فوق الثـلج المتجمد الذى كان يلمع كالبلور وتحت حذائه وهو يراجع نفسه تقريبا ... كان يسير فى طريقه الذى لم يعرف أحد عنه شيئا ... وكانت السماء تضىء نيرة زرقاء باردة ، وكان الهواء منعشا حادا عبقا ، والجو ساكنا قارصا راثقا نقيا تبلغ درجة جليده الخمس ، واليوم من أيام فبراير عديم المثال .

وخطا توماس نحو فينفهاوزن هابطا فاجتـاز « حفرة الخبازين » ووصل من شارع قاطع ضيق الى «حفرة السماكين» وتابع هذا الشارع الذى كان ينحدر مع شارع منج فى نفس الاتجاه الى نهر ترافيه ـ تابعه بضع خطوات مجانبا حتى وقف أمام بيت صغير ودكان أزهار متواضع جدا ، بابه ضيق وواجهته حقيرة قامت فيها بضعة أصص تحوى أبصالا نابتة يقوم بعضهـا الى جانب بعض على لوح أخضر من الزجاج .

فدخل ، فجعل جرس من الصفيـح مركب فوق الباب يرن كما لو كان كلب يقظ ينبح بالداخل . وكانت بداخـل الحانوت سيدة قصيرة بدينة مسنة عليها لفاعة تقف أمام الخوان تتحدث الى الفتاة البائعة وتتخير بين بضـعة من أصص الازهـار تفحصها وتشمهـا وتسـاوم وتثرثر ، تمسح فمها على الدوام بمنديل جيبها . فحياها توماس بأدب وانتحى جانبا ... وكانت قريبة لآل لانجهالز رقيقة الحال ، وعانسا ثرثارة رضيـة الخلق تحمل اسم أسرة من المجتمع الراقى من دون أن تنتسب الى هذا المجتمع . لا تدعى الى مآدب أو مراقص كبـرى ولكن الى دوائر صغيرة لتناول قدح من القهـوة ، ويسميهـا الجميع فيما خـلا القليل « العمة لوتشن » . وتحولت الى البـاب تتأبط أصيصا ملفوفا فى ورق حريرى ، وقال توماس بعد أن حيا من جـديد ـ قال لفتاة الحانوت بصـوت مرتفـع : « أعطنى بضـــع وردات من فضلك ... أجل أيا كانت . «لافرانس»

فلما أقفلت العمة لوتشن الباب خلفها وتوارت عن الانظار قال بصـوت أكثر انخفاضا : « كذا . أعيدى ما أحضرته يا آن ... طاب يومك يا آن الصغيرة ! أجل ، انى أجيئك اليوم حزينا حقا . »

وكانت آن تضـع مئزرا أبيض فوق ثوبها الاسود البسيط . كانت رائعـة الحسن ، رقيقة كالغـزال ؛ لهـا وجـه بنات الملايو تقريبا ، ووجنتان بارزتان هونا ما ، وعينان سـوداوان ضيقتان ينمرهما لمعـان ناعم ، وبشرة تميل الى الصفرة لاتلمع ولايوجد لها شبيه فى مكان ما قريب أو بعيد . وكانت يداها بنفس اللون « المطفى » ، رفيعتين جميلتين جمالا غير مألوف فى بنات تعمل فى حانوت .

وخطت خلف خوان البيع الى الطرف الايمن من الدكان الصغير حيث تتعذر الرؤية من واجهـة المحل فتبعها توماس الى ذلك الجانب من الخوان وانحنى فوقه وقبلها من شفتيها وعينيها .

فقالت : « انك مقرور تماما أيهـــا المسكين ! »

قال توم : « الدرجة الخامسة ! انى لم ألحظ شيئا ، بل جئت مكروبا تقريبا الى هنا . »

وجلس على خوان الدكان ، وأبقى يدها فى يده واستطرد يقول : « أجـل يا آن ، أتسمعين ؟ اليوم يجب أن نكون عقلاء . فقد وصلنا الى هذا الحد . »

قالت وفى صوتهـا نبرة الشـكوى « يا الـهى ... ! » ورفعت مئزرهـا والخوف والحزن مستوليان عليها ...

«كان لابد أن ننتهى الى هذا يا آن ... فهـلا كففت عن البكاء ! نحن نريد فى الحق أن نكون عقـلاء ، أليس كـذلك ؟ فهل ما يمكن عمله ؟ مثل هذا لابد له من نهاية . »

وسألت آن وهى تنتحب: «ومتى ...؟»

« بعد غد . »

« آه يا ربى ... ولمـاذا بعد غـد ؟ أسـبوعا آخر أرجـوك . . . خمسـة أيام ! ... »

«غير ممكن ، ياعزيزتى آن الصغيرة . كل شىء مقرر منظم ... انهم ينتظروننى فى امستردام ... انى لا أستطيع أن أزيد يوما واحـدا وان كنت أتمنى أن أفعل ! »

« وهذه بعيدة بشكل مخيف ... ! »

« أمستردام ؟ ماذا تقولين ؟ كـلا كلا . ثم اننا نستطيع أن يفكر كلانا فى الآخـر دوما ، أليس كذلك ؟ ثم انى سأكتب ! ألقى بالك ، سأكتب بمجرد ما أصل الى هناك ... »

قالت : « أما تزال تذكر ... قبل سنة ونصف سنة ؟ فى احتفال الرماة ؟ » فقاطعها مغتبطا ...

« حقا ، سنة ونصف ! ... كنت أظنك ايطالية ... لقد اشتريت منك قرنفلة ، ودسستها فى العروة . . . ولا أزال أحتفظ بها ... سآخذها معى الى امستردام ... يا له من غبار ويا له من حر ذلك الذى كان سائدا فى المرج ! ... »

« نعـم ، جئت لى بقـدح من شراب الليمون من المحل المجاور ... انى أذكر

هذا كأنه وقعاليوم ! كان كل شيءتفوح منه رائحة الخبيز بالدهن والناس ٠٠٠،
« لكنه ما أجمل ما كان فى الحق ! ألم يتبين كلانا فى عين الآخر فى الحالماكان من أمرنا ؟ »
«وأردت أن تركب معىالدوارة ٠٠٠ ولكنى لم يمكنى ذلك ، لأنه كان على أن أبيع ! ولكانت السيدة خليقة أن تنتقد ٠٠٠ »
« كلا ، لم يمكن يا آن ٠ وقد رأيتهذا تماما ٠ »
فقالت بصوت منخفض : « وقد كانهـــذا هو الشيء الوحيد الذى أبيتـه عليك ٠ »
فقبلهـا من جديد على شفتيها وبينعينيها ٠
« وداعـا يا حبيبتى آن الصغـيرةالطيبة ! ٠٠٠ أجل يجب أن نشرع فى أن نقول : وداعا ! »
« آه ، انك آت غدا على التحقيق كرةأخرى ؟ »
« نعم بالتأكيد فى مثل هذ الوقت ٠ وفى صباح بعد غد أيضا اذا استطعتأن أفلت ٠٠٠ بيد أنى أريد أن أقول لكشيئا يا آن ٠٠٠ انى راحل الى مكان بعيد شيئا ما، الىامستردام ٠ وهومكان بعيد على كل حال ٠٠٠ وستتخلفين أنت هنا ٠ فاياك وارتكاب مايحط ! أتسمعين يا آن ٠٠٠ ذلك أنك لم ترتكبى حتى الآن ما يشينك ٠ هذا ما أقوله لك ٠ »
وبكت فى مئزرهـا وقد سـترت بهوجهها ٠
قالت : « وأنت ؟ ٠٠٠ أنت ؟ ٠٠٠ »
قال : « الله أعلم يا آن كيف تسـير الأمور ! ان المرء لا يظل دائما شـابا ٠٠٠ وأنت فتاة عاقلة ، لم تذكرى يوما كلمة عن زواج أو ماشاكل ذلك ٠٠ »
« كلا ، حاشـا لله !٠٠٠ أن أطلبمنك هذا ٠٠٠ »
« قد يحمـل المرء ، أترين ٠٠٠ اذا كنت فى قيد الحيـاة فسـأتولى أعمالنا وسـأتخذ زوجة ٠٠٠ نعـم انى صريحمعك وأنا أودعك ٠٠ وكذلك أنت ٠٠ وسيجرى الأمر هذا المجرى ٠٠ فأتمنىلك الهنـــاء كل الهنـاء ياحبيبتى آن الصغيرة الطيبة ٠ ولكن اياك وارتكابما يحط ، أتسمعين؟ ذلكأنك لمترتكبى حتى الآن ما يشينك ، وهذا ما أقولهلك ٠٠ ! »
وكان المكان فىالداخلدافئا ٠ وكانترائحـة رطبة تفـوح من التـربة ومن الازهار فى الحانوت الصغير ٠ وفى الخارجكانت شمس الشـتاء تتهيأ للغروب ٠ وكانت حمرة الشفق الرقيقة النقيــةالشاحبة كأنها مرسومة على بورسيلين تزين السماء فىالجانب الآخر منالنهر ٠ وكانالناس يمرون سراعا بنافذةالعرض وأذقانهم مختفية فيما رفعوا من بنيقاتمعاطفهم ، فلم يروا شـيئا من الاثنين اللذين كان يودع كلاهما الآخر فىركندكان الازهار الصغير ٠

الجزء الرابع

الفصل الأول

فى الثلاثين من أبريل ١٨٤٦

عزيزتى ماما

الف شكر على رسالتك التى أبلغتنى فيها نبأ خطبة أرمجارد فون شيلنج الى السيد فون مايبوم فى بوبنراده • وقد أرسلت الى أرمجارد نفسها اعلانا بالمثل (وجيها جدا وبحافة مذهبة) ومعه خطاب منها ، تتحدث فيه عن عريسها فى أشد غبطة وتقول عنه أنه آية فى الجمال وأنه وجيه فما أسعدها ! ان الكل يتزوجون • فكذلك فى ميونيخ تلقيت اعلانا من ايفا ايفرز ، فستتزوج مدير مصنع للبيرة •

لكنى أريد أن أسألك الآن شيئا يا أمى العزيزة • لماذا لم يأت الى الآن نبأ عن زيارة للقنصل والقنصلة بودنبروك الى هذا المكان ! لعلكما تنتظران دعوة رسمية من جرينليش ؟ وما بكما حاجة الى ذلك ، فانه لا يفكر فى هذا اطلاقا فيما أعتقد ، فاذا ذكرته قال : « نعم ، نعم ، ياطفلتى » ان لأبيك مايعمله غير ذلك • » أو لعلكما تعتقدان أنكما تزعجاننى ؟ كلا اطلاقا ! أو ربما تظنان أنكما تثيران حنينى الى الوطن ؟ يارباه ، انى امرأة عاقلة ، أقف فى غمار الحياة وقد نضجت •

كنت من هنيهة أتناول القهوة عند مدام كيزيلاو الساكنة على مقربة • وهم أناس لطاف ، وكذلك جيراننا الذين الى اليسار ، آل جوسمان ، قوم يحبون الاختلاط وان كان بيتانا يقعان متباعدين تقريبا • ولنا صديقان طيبان يسكنان هنا بالمثل خارجا : الدكتور كلاسن (وسوف أحدثك عنه فيما بعد) والمصرفى كيسلماير صديق جرينليش الحميم • ولا تتصورين كم هو مضحك ذلك الرجل المسن ! ان له لحية عارضية بيضاء ، مقصوصة ؛ وشعرا أسود أبيض خفيفا يعلو رأسه كالزغب ويعبث به كل تيار هواء • ولما كانت لرأسه أيضا حركات مضحكة كأنه طائر وكان ثرثارا أو يكاد يكون فانى أسميه دائما العقعق • لكن جرينليش يحرم على هذه التسمية ، لأن العقعق على قوله يسرق وكيسلماير رجل شريف • وهو يسير منحنيا يطوح ذراعيه ، ويصل زغبه الى منتصف مؤخرة رأسه ، وفى هذا المنتصف فنازلا يبدو قفاه محمرا محززا • ان فيه شيئا يبلغ المرح البالغ ، وأحيانا ما يربت على خدى ويقول : أيتها الزوجة

الطيبة الصغيرة ، انها بركة لجرينليش من عند الله أن بت له زوجة ! ثم يخرج نظارة شـــابكة (ويحمل منهـا ثلاثا مربوطة فى أقطنة طويلة معقودة دائمـا على صدريته البيضاء) ويضعها على أنفه الذى يغضنه عندئذ ثم يتأملنى متسليا فاغرا فاه حتى ليحملنى على الضحك فى وجهه عاليا . لكنه لايستاء من ضحكى .

أما جرينليش فمشغول كثيرا يركب فى الصباح مركبتنـا الصغيرة الصفراء الى المدينة ثم يعود الى البيت فى الغالب متأخرا ، وأحيانا يجلس معى يقرأ فى الصحيفة .

فاذا خرجنا الى مجتمع : الى كيسلماير على سبيل المثال أو الى القنصل كودسيكر فى أمستردام أو الى السناتور بوك فى شارع راتهاوس اكترينا مركبة . ولقد رجوت جرينليش مرارا أن يشترى لنا كوبيه لأنهـا ضرورية هنـــا فى ظاهر المدينة . وقد وعدنى بها نصف وعد ، لكنه من عجب لايحب أن أصطحبه فى مجتمع ولا يحب كما يبدو لى أن أتحدث الى الناس فى المدينـة . فهل هذه غيرة منه ؟

ان فيلتنا التى سبق أن وصفتها لك تفصيلا يا أمى العزيزة جميلة جـدا فى الحق ، وقد ازدادت حســنا بما جلبناه اليها من أثاث حديث . ولا أظنك تقولين شيئا ضد صالوننا فى الطبقة الأرضية المرتفعة : انه مكسو كله بالحرير البنى، وحجرة الطعام المجاورة مكسوة كسوة جميلة بالخشب ، وقد تكلف الـكرسى فيها ٢٥ ماركا . أما جلوسى ففى غرفة التأملات التى نستعملها حجرة للجلوس هـذا الى غرفة أخرى للتـدخين ولعب الورق . أما القـاعة التى تشغل فى الجانب الآخر من الدهليز نصف الارضية فقد جهزت الآن بستائر صفراء وأصبحت تتميز عن غيرها بوجاهتهـــا . وفوق حجر النوم والحمام واللبس والخدم . وللمركبة الصفراء « سائس » صغير . وأنا أكاد أقنع بالخادمتين، ولا أعلم هل هما أمينتان تماما ، ولكنى والحمد لله لست بحاجة الى مراقبـــة كل من الثلاثة . وبالايجاز كل شىء هنا كما يليق باسمنا .

على أن هناك شيئا هو الأهم ، وقد أرجأته الى الختـــام . من وقت قريب أحسست شيئا غريبا بعض الغرابة لم أكن معه فى صحة كاملة ولكنى فى حالة مغايرة للمعتاد كل المغايرة . وقد أنبأت بهذا الشىء الدكتور كلاسن لما عرضت مناسبة . وهو شخص قصـــير القامة جدا ، ذو رأس كبير وقبعـــة أكبر ، منحولة فوق هذا الرأس . وهو دائما يضغط لحيته الطويلة الرائقة الاخضرار لانه ظل سنين طويلة يصبغها بالاسود، يضغطها بعصـا ذات مقبض على صورة قرص من العظم . ولكنت خليقة يا أماه أن تريه . فلمـا أنبأته لم يجب بشىء بل جعل يحرك نظارته وتبرق عيناه ، ويومىء الى بأنفه الذى يشبه البطاطسة، ثم ضـحك وعاينني بوقاحة لم أعرف معها أين أولى وجهى ، ثم فحصنى وقال ان كل شىء على مايرام ، فقط يجب ان أتناول ماء معدنيا ، لانى ربما كنت ،

على قوله فقيرة فى الدم · ــ آه يا أماه ، ارجو أن تترفقى فى ابلاغ هــذا الى أبى الطيب كى يسجله فى أوراق الأسرة · سأنبئك بما يجد فى أقرب فرصة ·

تحيــاتى القلبية لأبى وكريستيان وكلارا وتيلده وايدا يونجمان · لقــد كتبت أخيرا الى توماس فى أمستردام ·

ابنتك المطيعة
أنتونيا

فى الثانى من أغسطس ١٨٤٦

عزيزى توماس

تلقيت بسرور ما أبلغتنى اياه عن اجتمــاعك بكريستيان فى أمستردام ، فلعــلك قضيت معه أياما سارة · انى لا أعلم بعــد شيئا عن متابعة أخيك السفر الى انجلترا عن طريق أوســتند وآمل أن ترافقه السلامة ، وأرجو بعد اذ اعتزم اتخاذ المهنة العلمية أن لا يكون قد فات الاوان بالنسـبة له لتحصيل شىء ذى قيمـــة لدى رئيســه المستر ريتشــارد سن ، وأن يحالف عمــله التجارى البحرى النجاح ويباركه الله · والمستر ريتشارد سن (بثريد نيـدل ستريت) كما تعلم من أصدقاء بيتنــا النجارى الحميمين ، فكم يسـعدنى أن ادخل ولدى الاثنين شركات تربطنى بها أوثق أواصر الصــداقة · وما أراك الا شــاعرا الآن ببركة ذلك : فاحساسى بالرضا التام من أن السيد فان دركيلن قد رفع مرتبك بالفعل فى ربع الســنة هذا ، وأنه يهيىء لك بعد ذلك مكاسب اضافية · وانى لمقتنع بأنك قد أظهرت بمهارتك فى العمل جدارة بهذا الاقبال·

على أنه يؤلمنى أن صحتك ليست على مايرام · فمــا كتبته الى عن حالتــك العصــبية ذكرنى بشــبابى لمــا كنت أعمل فى أنفرس ثم اضطررت الى السفر الى ايمز من هناك للاستشفاء · فاذا كان شىء من هذا لازما لك يابنى فانى مستعد كما هو مفهوم ، لان أمدك بالرأى والفعل وان كنت أتهيب مثل هذه النفقــات الاخرى فى هــذه الاوقات المضطربة من الناحية السياسية ·

وعلى كل فقــد قمنا أنا وأمك فى أواسط يونيه برحلة الى هامبورج لزيارة اختك تونى ، وان يكن قرينها لم يدعنا اليها · لكنه لاقانا مع ذلك لقاء قلبيــا وكرس نفســـه لخدمتنا خلال اليومين اللذين قضيناهما عنده الى حد أنه أهمل أعماله ، وكاد لا يدع لى وقتــا لزيارة دوشان فى المدينة· ان تونى فى شهرها الخامس · وقد أكد طبيبها ان كل شىء سيجرى مجرى طبيعيا سارا ·

بعد ذلك أحب أن أذكر لك شيئا عن رسالة جاءتنى من السيد فان دركيلن ، فهمت منها أنك تزور أسرته على الرحب والسعة · وأنت يابنى الآن فى السن

التى تبدأ تجنى فيها ثمار التربية التى رباك أبوك · فلتكن نصيحة لك انى فى مثل سنك كنت أنبه دائما سـواء فى برجن أو فى أنفرس الى أن أكون فى خدمة رئيسانى ، لطيفـا معهن ، وهو ماحققى لى أعظم المنـافع · وبغض النظـر عن التشريف الذى يلقاه المرء من الاختلاط الوثيق بأسر الرياسة فانه اذا ما أخطأ المرء مرة فى عمـله أو كان الرئيس غير راض عنه كل الرضا ـ وهى حال يجب على كل حال تجنبهـا ما أمكن ، وان كانت مما يمـكن أن يقـع ـ أقـول اذا حدث هذا فالمرء خليق أن يجد فى الرئيسة مدافعا عنه وساعيا الى نفعه ·

أما مايتعلق بخططك المستقبلة فى عملك يابنى فانها تدعو الى غبطتى بما ألمسه فيها من حيـوية ناطقة ، لكنى لا أوافقك عليها كل الموافقة ، فانك لتصدر فيها عن رأى هو أن تصريف تلك المحاصيل التى ينتجها محيط مدينة آبائنا كالغلال والبـذور والجلود والصوف والزيت والكسب والعظـام الخ · هو التجارة الطبيعية الدائمـة التى تفضـل غيرها وتزاولها مدينة آبائنا ، وترى أن تتجه نحو هـذا الفرع الى جانب تجـارة العمولة · ولقد راودتنى هذه الفكرة فى وقت كانت المزاحمة فى هذا الفرع التجارى لاتزال ضئيلة جدا (بينما هى اليوم قد اشتدت اشتدادا كبيرا) وقمت ، بقدرما سمح المجـال وسنحت الفرصـة ، ببضع تجارب فى هذا الباب · وقد كانت رحلتى الى انجلترة تستهدف فى الغالب السعى وراء انشاء صلات مع هذه البلاد أيضا · وقد ذهبت لهـذا الغرض حتى سكوتلنده وأوجـدت معارف نافعين ، لكنى لم ألبث أن تبينت الصبغة الخطرة التى لازمت تجارة الصادر الى هناك ، وهو ماحال دون تنمية هذه التجـارة لاسيما وانى كنت دائمـا على ذكر من تلك النصيحة التى خلفهـا لنا جدنا مؤسس متجـرنا وهى : « يابنى ، أد أعمالك بالنهار وأنت مرتاح الضمير ، لكن لا تؤد منها الا مايجعلنا ننام بالليل مرتاحين ! »

وأرى أن أقدس هذا المبدأ حتى آخر يوم من حيـاتى ، وان كان من الممكن أن يخالج المرء الشك هنا وهناك ، اذ يرى أناسا تنقصهم هذه المبادىء ينجحون فى هذه الاعمال أكثر منا ، وانى لأفكر فى شـترونك وهاجنشـتروم اللذين يزدادان مكانة : بينما تسـير أعمالنـا سيرا بطيئا · وأنت تعلم أن المتجر بعد أن صغر من جراء موت جدك قد توقف عن النمو · وانى لأصلى لله أن يمكننى من أن أخلف لك تجارتنا فى مثل حالتها الراهنة · ولى فى وكيلى السيدماركوس معاون مجرب بصير · فحبذا لو استبقت أسرة أمك ما لها خيرا بعض الشىء مما هو الآن ، متضاما غير موزع ، فان الارث ليصبحن لنا عظيم الشأن !

انى مرهق بصورة غيرعادية بالاعمال التجارية والبلدية · فأنا رئيس جمعية مرتادى الجبال · وقد انتخبت بعد ذلك مندوبا عن الاهالى فى الادارة المالية وغرفة التجارة ولجنة المحاسبة وملجأ فقـراء القديسة آن ·

تحيات أمك وكلارا وكلوتيلده القلبية · كذلك كلفنى سادة عديدون بان أبلغك تحياتهم وهم السـناتور مولنـدروف والدكتور أوفرديك والقنصل كستنماكر

والسمسار جوش وا٠ف٠ كوبن وأيضاالسيد ماركوس فى المكتب والربانان كلوت وكلوترمان ٠ صحبتك بركة اللهيا بنى ٠ فاعمل وصل وادخر ٠

والدك المحب

الثامن من أكتوبر ١٩٤٦

والدى العزيزين المحترمين

ان الموقع على هذا يشعر بالارتياح اذ يبلغكما أن ابنتكما زوجتى المحبوبة وضعت بتوفيق الله ومشيئته بنتا من نصف ساعة مضت ٠ ولست أجد كلاما يعبر عن مبلغ تأثرى وابتهاجي٠ وصحة النفساء الغالية وكذلك صحة الطفلة على مايرام ٠ والدكتور كلاسن راض كل الرضا عن الحالة ٠ كذلك تقول مدام جروس جورجيس القابلة أن الامر تم فى يسر ٠ وان انفعالى ليحملنى على أن أدع القلم وأقدم احترامى الى الوالدين المبجلين مشفوعا بالحنان والاجلال

ب ٠ جرينليش

لو كان المولود ذكرا لعرفت له اسما جميلا ٠ أما الآن فأحب أن أسمى المولودة ميتا لكن جرينليش يريد لها اسم ايريكا

الفصل الثاني

وقال القنصل لما حضر الى المائدة ورفع الطبق الذى كان يغطى حساءه :
« ماذا بك يا بتسى ؟ أتشعرين بتعب ؟ماذا تحسين ؟ يبدو أنك متألمة ؟ »

لقد باتت المائدة المستديرة القائمة فى قاعة الاكل الواسعة صغيرة جدا . فلم يكن يجلس عليها كل يوم خلا الوالدين غير الآنسة يونجمان وكلارا البالغة العشرين من عمرها وكلوتلده الهزيلة الذليلة التى تأكل فى هدوء . وتلفت القنصل من حوله ... فألفى الوجوه جميعا مهمومة . فما الذى حدث ؟ لقد كان نفسه عصبيا تنتهبه الهموم ؛ ذلك أن البورصة قد ألم بها الاضطراب من تلك المسألة المعقدة ـ مسألة شلزويج هولشتين ... وفى الجو الى ذلك اضطراب آخر : فانه لما خرج أنطون بعد ذلك ليحضر طبق اللحم علم القنصل ما حدث بالبيت . فترينا الطاهية ـ ترينا الفتاة التى لم تبد الى ذلك الحين سوى الوفاء والاستقامة ـ تحولت بغتة الى حال من السخط السافر ؛ اذ كانت عقدت من زمن قريب أواصر صداقة هى نوع من المحالفة الفكرية مع صبى قصاب الامر الذى اشمأزت منه القنصلة كثيرا . ولابد أن هذا المخلوق الدموى قد أثر فى مجرى آرائها السياسية على أسوء صورة . ذلك أن القنصلة لما لفتتها الى نوع من الصلصة أساءت صنعه ثبتت ذراعيها العاريتين فى خصرها وقالت : « على رسلك ياحضرة القنصلة ؛ فلن يدوم الامر طويلا ؛ ثم يأتى نظام آخر ؛ أجلس فيه عندئذ على الاريكة فى ثوب حريرى وتخدمينني أنت ... »
وطبيعى أن تنذر فى الحال بترك الخدمة .

وقد هز القنصل رأسه . فهو نفسه قد اضطر أخيرا الى ملاحظة أشياء مختلفة تثير القلق . حقا ان الحمالين وعمال المخازن الذين هم أكبر من غيرهم سنا قد كانوا من الاستقامة بحيث لم تدخل مثل هذه الافكار رءوسهم ؛ لكنه كان بين الصغار من دل مسلكه على أن روح السخط الجديدة قد عرفت كيف تشق طريقها فى خبث ... وقد وقع فى الخريف اضطراب فى الشوارع على الرغم من أن مشروع دستور جديد يتفق ومقتضيات العهد الجديد كان معدا ؛ وقد صدر به مرسوم من الدولة بعد ذلك بقليل ليكون قانونها الاساسى على الرغم من معارضة ألبرت كروجر وغيره من الشيوخ العنيدين . وقد انتخب ممثلون للشعب وانعقد مجلس المواطنين ... بيد أن الهدوء لم يستقر ؛ وكانت الفوضى شاملة . أراد كل تعديل الدستور وقانون الانتخاب وتشاجر المواطنون . نادى البعض « بمبدأ الطبقات » وقالها أيضا القنصل بودنبروك . ونادى الآخرون « بقانون الانتخاب العام » وقالها معهم هينريش هاجنشتروم . وصاح آخرون فوق ذلك : « نريد قانون انتخاب طبقات عاما » ولعلهم كانوا

أيضا يعرفون ما تنطوى عليه هذه الصيحة • وراحت الافكار تنتشر فى الجو وتطن فى الهواء مثل ازالة الفروق بين المواطنين والسكان وتسهيل الحصول على حرية الافراد بقانون • فليس عجيبا أن يخطر ببال ترينا خادمة بودنبروك ما خطر من الجلوس فوق الاريكة وارتداء الثياب الحريرية • وسوف تسوء الحال أسوأ مما ساءت • فان الامور كانت تهدد بتحول مخيف ...

كان اليوم من أوائل أكتوبر من عام ١٨٤٨، والسماء زرقاء يشوبها بعض السحاب الخفيف المعلق ، وتضيئها فى مثل بياض الفضة شمس لم تعد بطبيعة الحال من القوة بحيث تمنع الموقد من أن يطقطق خلف سياجه العالى اللامع فى حجرة المناظر الطبيعية •

وكانت كلارا الصغيرة ؛ وهى طفلة ذات شقرة داكنة وعينين قاسيتين تقريبا جالسة تحيك أمام منضدة الحياطة عند النافذة ؛ بينما كانت كلوتيده تحتل المكان المجاور للقنصلة على الاريكة مشغولة كذلك على هذا المنوال • ومع أن كلوتيلده بودنبروك لم تكن أكبر كثيرا من ابنة عمها المتزوجة أى فى الحادية والعشرين لا أكثر ولا أقل ؛ فقد جعل وجهها المستطيل يبدى خطوطا ظاهرة يساعد شعرها المفروق المشدود الذى لم يكن يوما أشقر ؛ بل كان على الدوام أغبر باهتا ؛ على أن يدخل فى الروع أن صورة العانس قد اكتملت لها • وقد كانت راضية بهذا ؛ لم تعمل شيئا لتخفف من هذا الوقع • ولعل حاجتها كانت الى أن تكبر بسرعة لتجتاز على عجل كل شك وكل أمل • واذ كانت لا تملك شروى نقير فقد عرفت أن أحدا على وجه الارض لن يرضاها زوجة وجعلت تنظر فى تواضع الى مستقبل لن يعدو أن تستهلك فى أية حجرة صغيرة معاشا ضئيلا يدبره لها عمها القادر من صندوق مبرة ترعى الفقيرات من بنات الاسر المحترمة •

وكانت القنصلة مشغولة من جانبها بقراءة رسالتين قصت تونى فى احداها عن نمو صغيرتها ايريكا السعيد ؛ وروى كريستيان فى الاخرى عن حياته وأفعاله فى لندن فى حرارة من دون أن يذكر بطبيعة الحال شيئا عن عمله عند المستر رتشاردسن ... وكانت القنصلة التى ناهزت الخامسة والاربعين تشكو مر الشكوى من مصير الشقراوات اللواتى يهرمن بهذه السرعة ؛ ذلك أن اللون الرقيق للشعر المحمر ينطفىء فى هذه السنوات على الرغم من كل وسائل الترطيب ؛ والشعر نفسه يأخذ فى المشيب ويمعن اذا لم يكن باليد والحمد لله وصفة الصبغة الباريسية التى تحول دون ذلك أول ما تحول • وقد صممت القنصلة على ألا يبيض شعرها » فاذا ثبت أن الصبغة لم تعد صالحة فسوف تضع على رأسها عارية شعر من ذلك اللون الذى كان لشعرها أيام الصبا • وقد كانت تضع على قمة تسريحتها التى ما تزال تنطق بالفن شريطا حريريا

صغيرا تحوطه دنتيللا بيضاء وهو البداية والاشارة الاولى الى القلنسية ؛ وأحاطت بها جونلة فضفاضة منقوشة ؛ أما أكمامها الجرسية الشكل فكانت مبطنة بالموسيلين المنشى . وكانت بضع أساور من ذهب كثيرا ما ترن حول معصمها رنينا خفيفا .

كانت الساعة اذ ذاك الثالثة بعد الظهر فسمع بغتة تصايح وصياح ؛ ونوع من الزعيق والصفير ووقع خطوات كثيرة فوق الشارع ؛ ضجة كانت تقترب وتتزايد ...

فقالت كلارا : « أماه ؟ ما هذا ؟ » وكانت توصوص من خلال النافذة «كل هؤلاء الناس ... ما خطبهم ؟ من أي شيء هم مسرورون هكذا ؟ »

فصاحت القنصلة وقد ألقت الرسالتين وهبت من مقعدها والخوف يساورها ؛ وبادرت الى النافذة وقالت : « أهذه ... يا الهي ؛ أجل هي الثورة ... هو الشعب ... »

وكانت المسألة أن الاضطرابات تفشت فى المدينة أثناء النهار بطوله فقذفت بالحجارة نافذة عرض عند تاجر الاقمشة بنتيين فى الشارع العريض وحطم زجاجها ، والله وحده يعلم دخل نافذة السيد بنتيين بالسياسة العليا

ونادت القنصلة بصوت مرتعش من قاعة الاكل حيث كان الخادم يشتغل بالادوات الفضية : « أنطون ! انزل ! أوصد باب البيت ! أقفل كل شيء ! انه الشعب ... »

فقال أنطون : « نعم يا حضرة القنصلة ! وهل أجسر على هذا ! ... انى عبد السيادة ... فاذا رأوا مبذلة خدمتى ... »

فقالت كلوتيلده حزينة تتمطى دون أن تقف عملها اليومى : « يا لهم من أشرار » . ـ فى هذه اللحظة قدم القنصل من بهو الاعمدة ؛ ودخل من الباب الزجاجي وكان يحمل معطفه فوق ذراعه وقبعته فى يده .

فقالت القنصلة مرتعبه : « أتريد الخروج يا جان ... »

قال : « أجل ياحبيبتى . يجب أن أذهب الى المجلس ... »

قالت : « لكن الشعب يا جان ؛ الثورة ... »

قال : « أخ ؛ ليس الامر بهذه الخطورة يابتسى ... ان الله حافظ . لقد تجاوزوا البيت فعلا . وسأخرج من الجهة الخلفية ... »

قالت : « جان ؛ اذا كنت تحبنى ... أتريد أن تعرض نفسك لهذا الخطر؟ ... أتريد أن تتركنا هنا وحدنا ؟ ... أوه ؛ انى خائفة ؛ خائفة ! »

« ياحبيبتى أرجوك ؛ انك تثيرين نفسك على هذا النحو ... ان الناس

سيتظاهرون قليلا أمام البلدية أو في السوق ... وقد تكلف مظاهراتهم الدولة بعض ألواح من الزجاج ؛ وهذا كل شيء » .

« الى أين تريد ياجان ؟ »

« الى المجلس ... وسأصل متأخرا قريبا . فقد أخرتني أعمالي . وانه لمن العار أن أتخلف اليوم . فهل تعتقدين أن أباك يدع أحدا يمنعه من الخروج على كبر سنه ... »

«اذن اذهب في حراسة الله ياجان ... ولكن حاذر ؛ أرجوك انتبه لنفسك ! واجعل بالك الى أبي ! فلو أصابه شيء ... »

« لا تنشغلي يا حبيبتي ... ؟

وصاحت القنصلة في أثره : « متى تعود ؟ »

«في منتصف الخامسة ؛ في الخامسة ... على حسب ... ان جدول الاعمال يشتمل على أمور هامة ؛ فالامر يتوقف ... »

وعادت القنصلة تقول : « انى خائفة ؛ خائفة ! » وجعلت تتحرك في الحجرة غادية رائحة وهي تتلفت يمنة ويسرة .

الفصل الثالث

وقطع القنصل بودنبروك أرضه المترامية وهو مسرع ؛ فلما خرج الى « حفرة الخبازين » سمع خلفه وقع خطوات ثم أبصر السمسار جوش وكان بالمثل يصعد الشارع المنحرف الى الجلسة وهو ملتف بمعطفه الطويل بصورة رائعة • وفيما هو يلوح باحدى يديه الطويلتين النحيلتين بقبعته الجزويتية ويؤدى بالاخرى حركة تدل على التواضع التام ، تكلم بصوت كظيم مكبوت يقول: « سيدى القنصل ••• انى أحييك ! »

كان هذا السمسار سجسموند جوش وهو أعزب يناهز الاربعين ؛ أشرف الناس وأدمثهم خلقا على الرغم من هيئته• غير أنه كان أديبا وكان مبدعا ؛ يتميز وجهه الحليق الناعم بأنف مقوس وذقن مدببة بارزة وملامح حادة وفم عريض مسحوب الى جنب ؛ قد انطبقت شفتاه الرقيقتان فى صورة تدل على الشر • وقد كان وكده ـ وقد نجح فى هذا نجاحا لا بأس به ـ أن يعرض رأسا وحشيا جميلا شيطانيا يكون لدساس ؛ وشخصية شريرة مشاكسة مسلية تشيع الخوف فى النفس هى وسط بين أبليس ونابليون ••• وكان شعره الاشيب يطغى على جبينه فى عمق وعبوس وقد آسف مخلصا انه لم يكن أحدب • ـ كان ظاهرة غريبة لطيفة بين سكان المدينة التجارية القديمة • فهو منهم لانه يزاول بكل فضائل المواطن عملا صغيرا ثابتا ؛ وفى تواضعه عملا محترما من أعمال الوساطة والسمسرة • لكن فى مكتبه خزانة كتب كبيرة حافلة بدواوين الشعر بكل اللغات ؛ وقد شاع أنه يشتغل مذ كان فى العشرين من عمره بترجمة كافة درامات لوب دى فيجا ••• وحقا لقد مثل مرة دومنجو فى رواية « دون كارلوس » لشيلر فى عرض قدمه هواة • وكان هذا هو خاتمة ما وصل اليه فى حياته • ـ لم تخرج قط كلمة نابية من فمه ؛ بل انه فى أحاديثه التى تتناول أعماله كان يلفظ عباراته المألوفة من بين أسنانه وعلى ملامحه تفاعل من يريد أن يقول : « أيها الوغد ! انى ألعن أجدادك فى أجداثهم ! » وقد كان فى بعض الاعتبارات وريث المرحوم جان جاك هوفشتيده وخليفته ؛ لولا أن كيانه أكثر تجهما وأعظم تأثيرا وأن ليست له تلك البهجة وتلك الدعابة التى استخلصها صديق يوهان بودنبروك الكبير من القرن السابق • ـ

وفى ذات يوم خسر فى البورصة بضربة واحدة ستة ريالات ونصف ريال فى ورقتين أو ثلاث ورقات مالية اشتراها من طريق المضاربة ؛ فتملكه شعوره الدرامى ؛ وقدم عرضا تمثيليا : ارتمى على مقعد واتخذ هيئة من خسر معركة ووترلو فضغط قبضته على جبينه وكرر « عليك اللعنة ! » وهو يفتح

عينيه فتحة الذى يجدف فى حق الله • ولما كانت المكاسب الضئيلة الهادئة الاكيدة التى يجنيها من بيع هذه القطع من الارض أو تلك تضجره فى الحقيقة فقد كانت هذه الخسارة وهى الضربة القاسية التى أصابت بها السماء دساسا متعة وسعادة له ظل أسابيع يستهلكها ؛ فكان اذا خاطبه أحد بقوله : « لقد سمعت أنه ألم بك مصاب ياسيد جوش! لقد عز على ذلك ••• » أجابه : « أوه ياصديقى العزيز homs non educato dal dolore riman sempre bambino ومفهوم أن أحدا لم يفقه هذا القول • فهل كانت هذه العبارة من لوب دى فيجا ؟ الثابت أن هذا السيجسموند جوش رجل عالم غريب الاطوار •

قال للقنصل بودنبروك وهو يصعد الشارع الى جانبه منحنيا فوق عصاه التى يتكىء عليها : « أية أوقات هذه التى نعيش فيها أوقات العاصفة والحركة ! »

فأجابه القنصل : « انك محق » • وقال له : « ان الاوقات مضطربة فماذا ياترى ستكون عليه جلسة اليوم ؟ ان مبدأ الطبقات ••• »

واستطرد السيد جوش يقول : « كلا، استمع الى ! لقد لبثت طيلة النهار خارجا وراقبت الشعب ، فكان بينه فتيان عظام تضطرم أعينهم بالبغضاء والحماسة •• »

فأخذ يوهان بودنبروك يضحك : « انك عندى المنشود يا صديقى ! يظهر أن هذا يروقك ! ولكن لااسمح لى ••• هذه أعمال صبيانية ! كل هذا ! ماذا يريد هؤلاء الناس؟ انهم شرذمة من الشبان لا خلاق لهم يريدون أن ينتهزوا الفرصة للتجمهر قليلا ••»

« مؤكد ، لكنه لا يمكن أن ننكر •• لقد كنت حاضرا حين قذف صبى القصاب فير كيماير نافذة بنتيين بالحجارة ••• لقد كان كالنمر ! »

ولفظ السيد جوش الكلمة الاخيرة مطبق الاسنان بصورة خاصة ثم استطرد بعد ذلك يقول : « أوه ، اننا لا يمكن أن ننكر أن للمسألة جانبها الرفيع ، فهى فى آخر الأمر شىء يغاير ماعرفناه ، شىء غير عادى ، عنيف " عاصف ؛ وحشى

---

* من لم يهزمه الالم بقى طفلا طوال حياته

... اعصار ... أخ ، ان الشـــعب جاهل ،، أعرف ذلك ! لكن قلبى ، قلبى هذا ، معه ... » وكانا قد بلغ البيت البسيط المدهون بالزيت الاصفر ، الذى توجد قاعة اجتمـــاع المجلس فى طبقته الارضية .

وتتبع هذه القـــاعة محلا للبـــيرة ومرقصا تديره أرملة تدعى سير كرينجل، لكنها فى أيام بعينها توضع تحت تصرف السادة أعضــــاء مجلس المواطنـــين . ويدخل اليهـــا من دهليز مبلط ضيق على جانبه الأيمن أماكن للاكل وتتصاعد منه روائح البيرة والاطعمة ،، وعلى جانبه الايسر باب مركب من ألواح مدهـــونة باللون الاخضر يؤدى الى القاعة ليس له أكرة ولا قفـــل ، ويبلغ من ضـــيقه وانخفاضه أنه لا يخطر ببـــال أحد أن يوراءه قاعة بهذا الاتســـــاع . وكانت القاعة باردة جرداء تشـبه المخزن لها سقف مبيض برزت منه العروق الخشبية وجدران مبيضة أيضـــا . ولنوافذهـــا الثلاث العالية تقريبـــا صلبان مدهونة باللون الأخضر وهى عارية من الستائر، ترتفع قبالتها صفوف مدرجة من المقاعد فى أسفلها مائدة عليهـــا جرس كبـــير وملفات وأدوات كتـــابه ،، مخصصـــة للرئيس وكاتب المجلس وقومســـيرى مجلس الشـــيوخ الحاضرين . وعـــلى الحائط المقابل للأبواب مشاجب للملابس مغطاة بالمعاطف والقبعات .

واستقبل القنصل ومرافقـه لغطـــاوهما يدخلان القاعة من الباب الضيق يتبع أحدهمـــا الآخـــر ، وقد كانا على ما ظهر آخر من وصل . وكانت القاعة حافلة بالمواطنين الذين كانوا واقفـــين بعضهم مع بعض جماعات ، أيديهم فى جيوب سراويلهم ، أو خلف ظهورهم أو فى الهواء يتناقشـــون . وقد كان مائة على التحقيق مجتمعين من الاعضاء المائة والخمسين الذين يؤلفون الهيئة ،، اذ آثر عدد من نواب المركز أن يلزموا بيوتهم فى الظروف القائمة .

وكان فيما يلى المدخل جماعة واقفين، يتألفون من أناس أقل من غيرهم شأنا ، ومن اثنين أو ثلاثة من أصحاب الاعمال ومدرس فى المدارس الثانوية ومن « أبى الايتام » السيد مندرمان ،، والســـيد فنتسل الحلاق المحبوب . والســـيد فنتسل رجل قصير القامة قوى البنية أسود الشارب ذو وجه تلوح عليه أمارات الذكاء ، ويدين حمـــراوين ، قد حلق ذقن القنصل فى صباح اليوم ، لكنه فى هذا المكان ند له . وهو يحلق فى الاوساط الراقية فقط تقريبـــا لآل مولندورف ولانجهـــالز وبودنبروك وأوفرديك . ويرجع الفضـــل فى انتخـــابه لمجلس المواطنين الى معرفته التامة بشئون المدينة واختلاطه بالناس ومهارته واعتـــداده الملحوظ بنفسه مع كل من هم دونه .

وصاح بهمة وبعينين جادتين يخاطب راعيه : « أيعرف السيد القنصل أحدث ما جد ؟ »

« وماذا ينبغى أن أعرف ياعزيزىفنتسل ؟ »

« حتى صباح اليوم لم يكن أحد قدعرفه بعد ... لا يؤاخذنى السيد القنصل ، انه آخر نبأ ! ان الشعبلا يزحف على البلدية أو السوق ! انه آت الى هنا ويريد تهديد مجلسالمواطنين ! لقد حرضهالمحرر ريبسام.»

فقال القنصل : « غيرممكن ! » وشق طريقه بين الجماعات الامامية الى وسط القاعة حيث أبصر حماه مع عضوىالشيوخ الدكتور لانجهالز وجيمس مولندورف فقال وهو يهز أيديهم :« أصحيح اذن أيها السادة ؟ » ...

حقا لقد كان المجلس كله عليما به ،فالمتجمهرون كانوا يزحفون وكانوا على مسمع منه .

فقالالبرشت كروجر فىبرودواحتقار: « أوغاد ! »

وقد جاء الى هنا فى مركبته ؛ وكانصاحب هذه القامة المديدة الوجيهةالتى كانت ذات يوم للفرسان المتأنقين ، قدبدأ ينوء فى الظروف العادية بوقر الثمانين التى بلغها . لكنه اليوم كانمنتصب القامة تماما ، يغمض عينه نصف اغماضة ، ويرخى زاويتى فمه اللتين يقوم فوقهما طرفا شاربه الابيض القصيران وجيهين يبديان الازدراء .وكان يتلألأ على صدريته المخملية السوداء صفان من الازرار المرصعة بالحجارة الكريمة ...

وكان غير بعيد فى هذه الجماعةهينريش هاجنشتروم ، وهورجل ربعة ذو لحية عارضية محمرة شيباء ، وعلىصدريته المخططةبالازرق سلسلةسميكة من سلاسل الساعات يرتدى سترةمفتوحة . وقد كان واقفا مع شريكه السيد شترونك فلم يحى القنصل علىالاطلاق .

واجتمع بعيدا حول تاجر الاقمشة بنتيين الرجل الذى يظهر عليه اليسار عدد كبيرمنالسادة الآخرين يقص عليهمفى اسهاب دقيق ما أصاب لوح زجاج نافذته ... « قطعة منالآجر هى نصفقالب ياسادة ! ... تراخ .. ونفذت الآجرة وأصابت بعدئذ « ثوبا »من القماش المضلع الاخضر... أصابت الملف !... ومع ذلك فهذه مسألةتتعلق بالدولة ... »

وكان صوتالسيد شتوتالساكن فىشارع جلوكنجيسر يسمع فى أى ركن من أركان المكان بلا انقطاع ، وكانصاحبه يرتدى سترة سوداء فوققميص صوفى ويشترك فىالمناقشة بعبارة « انهالنذالة لم يسمع بها من قبل ! » يكررها على الدوام ، ويؤكدها فى غضب .

وطاف يوهان بودنبروك بالموجودين يحيى هنا صديقه المسن ث٠ف٠كوبن ، وهناك مزاحم هذا الصديق القنصل كستنماكر وقد ضغط يدالدكتورجرابو، وتبادل بضع كلمات مع جيزيكه قومندان المطافىء والمهندس فويجت والرئيس الدكتورلانجهالز شقيق السناتور ، ومع بعض التجار والمدرسين والمحامين ٠

لم تكن الجلسة قد افتتحت لكن المناقشة كانت حامية ، يسب السادة جميعا هذا الكاتب ، هذا المحرر ريبسام الذى يعلم الناس عنه أنه هو الذى حرض الجمهور ٠٠٠ ولماذا فى الحق ؟ انهم هنا ليتحققوا هل يحافظ المجلس الممثل للشعب على مبدأ الطبقات أو يدخل قانون الانتخاب العام الذى يسوى بين الجميع ٠ وقد طالب مجلس الشيوخ بهذا الأخير بالفعل ، فماذا كان الشعب يريد اذن ؟ انه يريد أن يمسك بخناق السادة ، هذا هو كل شيء ٠ لقد كان أسوء مركز تعرض له السادة من قبل! فقد أحاط القوم بقومسيرى الدولة ليتعرفوا رأيهم؛ كذلك أحاطوا بالقنصل بودنبروك الذى كان يجب أن يكون ملما بموقف المحافظ فى المسألة ، ذلك أنه منذ أن بات السناتور أوفرديك صهر القنصل يوستوس كروجر رئيسا لمجلس الشيوخ فى العام الماضى أصبح آل بودنبروك أصهارا للمحافظ ، وهو ما رفعهم فى نظر الناس كثيرا ٠٠٠

وعاد الضجيج فى الخارج بغتة ٠٠٠ فقد بلغت الثورة ماتحت نوافذ قاعة الاجتماع ! فخمدت فى الحال تلك الآراء الهائجة المائجة التى كانوا يعربون عنها هنا فى الداخل ، وشبكت الايدى على البطون وقد بكم أصحابها من الرعب ، ونظر كل منهم فى وجه الآخر أو نحو النافذة التى ارتفعت وراءها القضبان ، وامتلأ الجو بصيحات تصم الآذان خرجت عن الحد وجفاها العقل ، ثم خمدت الاصوات فى الخارج على حين غفلة كما خمدت داخل الدار ، وكأنما رعب الثوار أنفسهم من مسلكهم ٠ وفى هذا السكون العميق الذى كان يخيم على الجميع لم يسمع الا كلمة صادرة من المقاعد السفلى فى القاعة حيث كان يجلس ليبرشت كروجر ، كلمة هتكت حجاب الصمت باردة بطيئة مؤكدة ، كلمة : « أوغاد »

فنطق على أثرها فى ركن من القاعة لسان مكتوم يتفزز من الغضب : « انها لنذالة لم يسمع بها من قبل ! »

ثم رفرف فجأة فوق الاجتماع صوت سرع مرتعش مستتر هو صوت بنتيين تاجر الاقمشة يقول :

« أيها السادة ! ٠٠٠ أيها السادة ٠٠٠ استمعوا الى ٠٠ انى أعرف هذه الدار ٠٠٠ فاذا وطىء الثوار أرضها فهناك فى السقف فجوة ٠٠٠ وقد كنت أطلق منها النار على القطط وأنا غلام صغير ٠٠٠ ومن اليسير عندئذ التسلق منها الى سطح الجار فيصبح المرء فى أمان ٠٠٠ »

ففح صـوت السمسـار جوش بين أسنانه يقول : « جبن وضيع ! » وكان يعتمـد ذراعيه المتشابكين على مائدة الرياسة ويحملق فى النوافذ بنظرة تثير الرعب مطرق الرأس « جبن » أيهـا السيد ؟ كيف ؟ اللعنة ... ان الناس يقذفون بالحجارة ! انى أرى بعينى ..»

فى هذه اللحظة ثارت الضجة فى الخارج من جديد ، ولكن من دون أن تصل الى الدرجة العاصفة التى وصلت اليها فى البداية . كانت ترتفع الآن هادئة ، متواصلة ، مدمدمة ، شادية ، تتحـلى بالصبر ، فيهـا تقريبا رنة السرور ، ويميز المرء فيهـا هنا وهناك صفيرا ونداءات مثل « مبدأ » و « حق المواطن » ... أما المواطنون فكانوا ينصتون فى تفان ...

وتكلم الرئيس السـيد الدكتـور لانجهـالز بعد برهة بصـوت مكتوم يخاطب المجتمعين « سادتى ، أرجو أن أكون متفقا معكم ، اذا أنا افتتحت الجلسة الآن ... »

وكان اقتراحا متواضعا ، لكنه لم يلق أقل تأييد من هنا أو هناك .

وقال أحدهم فى تصميم قويم لا يسمح باعتراض : « أنا لست من هذا الرأى .» وكان رجلا قرويا يدعى بفال من مركز زيتسراور نائبـا عن قرية كلاين ـ شريتشتاكن . ولم يذكر أحد أنه سمع صوته من قبـل فى مداولات المجلس ؛ لكنه فى الموقف الحاضر كان الرأى الصادر أيضـا عن أبسط الرءوس ذا وزن ... فكان أن عبر السيد بفال عن رأى المواطنين جميعا غـير وجـل وبغريزة سياسـية أمينة .

فقال السـيد بنتيين غاضبا : « الله يحفظنا ! هناك فى الشارع يمكن أن نرى مايجرى ونحن جلوس على مقاعدنا هنا ! ان النـاس يقذفون بالطوب ! انى أرى بعينى ... »

وصـاح تاجر الخمور كوبن يائسا : « وكأنه ينقصنا أيضـا أن يكون الباب اللعين بهـذا الضيق . اننـا اذا أردنا الخروج انضغطنا فيه وضغطنا أنفسنا ! »

فتكلم السيد شتوت بصوت مكتوم : « انها لنذالة لم يسمع بها من قبل ! »

وعاود الرئيس الكلام ملحا : « سادتى ! أرجوكم أن تنعموا النظر ... ان على أن أقدم فى غضون ثلاثة أيام صـورة من محضر الجلسة الذى ندونه اليوم ... هـذا الى أن المدينة تنتظر نشر هـذا المحضر مطبوعا ، فأحب على كل حال أن آخذ الاصوات على فتح الجلسة ... »

على أنه بغض النظر عن بضعة قليلة من المواطنين أيدت الرئيس ، لم يوجد أحد على استعداد للانتقال الى جدول الاعمال . فقد كان أخذ الاصوات خليقا أن يكون عديم الجدوى ، فلم يكن يجوز اثارة الشعب لان أحدا لم يكن يعرف ما يريد الشعب . ولم يكن يجوز أن يلطم الشعب بقرار يتبع هذا الاتجاه أو ذاك ، فكان لابد من التريث وعدم الانفعال . وكانت ساعة كنيسة مريم تدق منتصف الخامسة ...

وشد بعضهم أزر بعض ليصبروا ويصابروا ، وجعلوا يعتادون الضجيج الذى كان يرتفع فى الخارج ،ثم ينخفض ويقر ثم يعود الى الارتفاع . وأخذوا يستمسكون بأهداب الهدوء ويخلدون الى السكينة ، ويتخذون مجالسهم فوق الصفوف السفلى والكراسى ... وبدأ نشاط كل هؤلاء المواطنين المجدين يدب ... فجروا هنا وههنا على الكلام عن الاعمال ، بل هنا وههنا على عقد الصفقات ... واقترب السماسرة من كبار رجال الاعمال ... وجعل السادة المحتجزون يتحادثون ، كأناس يجلس بعضهم الى بعض أثناء اعصار شديد عن أشياء أخرى ، وينصتون الى الرعد بوجوه تبدو عليها أمارات الجد وتبعث على الاحترام . ودقت الساعة الخامسة ثم منتصف السادسة وحل الغسق . وجعل أحدهم يتنهد بين الحين والحين لأن امرأته تنتظره بالقهوة . فسمح السيد بنتيين لنفسه هنا بأن يذكر بثغرة السطح ، لكن معظم الحاضرين صرفوا أنظارهم عنها مثل السيد شتوت الذى قال وهو يهز رأسه هزا عجيبا : « انى أسمن من أن أمر منها . »

وكان يوهان بودنبروك قد لازم حماه كما حتته القنصلة ، فتأمله فى شىء من القلق وهو يسأله : « لعل هذه المغامرة الصغيرة لم تؤثر عليك يا أبى ؟ »

وكان على جبين ليبرشت كروجر تحت ذؤابة ناصيته الناصعة البياض عرقان مزرقان نافران ، وبينما كانت احدى يدى الشيخ الارستقراطيتين تعبث بأزرار صدريته المصنوعة من الحجارة الكريمة كانت الاخرى ترتعش فوق ركبته مزدانة بماسة كبيرة .

قال وقد ألم به تعب غريب : « هراء يا بودنبروك ! انى متضايق . وهذا كل شىء . » لكنه كذب نفسه حين نش فجأة يقول : « بالله يا جان ! ان هذه الوقاحة السافلة يجب أن تلزم الحد بضربها بالبارود والرصاص ؟ هؤلاء الغوغاء ! الاوغاد ! »

فتمتم القنصل مطيبا خاطره قائلا : « كذا ... كذا ... انك محق ، فهذه مهزلة مزرية تقريبا ... ولكن ما العمل ؟ يجب أن يحلم المرء ... لقد حل المساء وسينسحب الناس بالفعل ... »

وسأل ليبرشت كروجر وقد خرج عن طوره تقريبا : « أين مركبتى ؟ ... انى آمر باحضار مركبتى ! » وانفجر غضبه ، وارتعش جسمه كله واستطرد يقول : « لقد أوصيت أن تكون حاضرة فى الخامسة فأين هى ؟ ... ان الجلسة لن تنعقد ... ففيم بقائى هنا ؟ ... انى لا أفكر فى أن يتغفلونى ! ... انى أريد مركبتى ! ... هل يهينون حوذيى ؟ أنظر ماذا هناك يا بودنبروك ! »

« يا حمى العزيز » رفقا بنفسك وهدىء روعك ! انك ثائر ... وهذا يضر بك » بديهى ... أن أذهب للبحث عن مركبتك ... فأنا نفسى برم بهذا الموقف . سأكلم الناس وأطلب اليهم الانصراف الى بيوتهم ... »

وسار القنصل يخترق القاعة مسرعا على الرغم من احتجاج ليبرشت كروجر ومن أنه أمره بغتة فى توكيد ينم عن الهدوء والازدراء : « قف ! ابق هنا ! انك تعرض نفسك للمهانة يا بودنبروك ! »

ولحق به سيجسموند جوش عند الباب الاخضر الصغير ، وأمسك ذراعه بيده وسأله بصوت كريه هامس : « الى أين يا سيدى القنصل ؟ ... »

وكان وجه السمسار قد تغضن تغضنا عميقا ، وهمت ذقنه المدببة حتى كادت تبلغ أنفه معبرة عن تصميم وحشى ، وتهدل شعره الابيض قاتما فوق سالفيه وجبينه » ودك رأسه بين كتفيه حتى نجح فى أن يكون له مظهره المشوه وصاح : « انك ترانى مستعدا لان أخاطب الشعب ! »

فقال القنصل : « خل عنك ! فخير أن تدعنى أفعل أنا ذلك يا جوش ... فان لى فى الراجح بين الناس أكثر مما لك من معارف ... »

فأجاب السمسار بصوت خافت : « فليكن ! فأنت انسان أعظم منى شأنا » ثم استطرد وقد رفع صوته : « ولكنى سأصحبك ، سأقف بجانبك يا قنصل بودنبروك ! ولو مزقنى العبيد الطلقاء اربا ... »

فلما خرجا قال : « أوه ، ياله من نهار ويا له من مساء ! » ... ولا شك أنه لم يشعر قط بمثل ما شعر به عندئذ من السعادة اذ قال : « أجل يا سيدى القنصل ! هذا هو الشعب ! »

واجتاز كلاهما الطرقة وخرجا قبالة الباب ووقفا على بسطة الدرج الضيق المؤدى بدرجاته الثلاث الى الرصيف . وكان الشارع معرضا لمنظر غريب . كان كأنما أقفر . فى النوافذ المفتوحة المطلة عليه ، المضاءة فى البيوت المحيطة ؛ طلعة يطلون منها على جمهور الثوار الذين كانت تكتنفهم الظلمة ويتزاحمون أمام

مجلس المواطنين . وكان الجمهور من حيث عدده لا يزيد كثيرا على عدد المجتمعين فى القاعة ، يتألف من شباب عمال الميناء والمخازن ، ومن الخدم وتلاميذ المدارس الالزامية وبعض بحارة السفن التجارية وأناس آخرين تجدهم فى الاحياء الوضيعة من المدينة ، وفى الازقة والممرات والمتسللات . كذلك كان هناك ثلاث أو أربع من النسوة يمنين أنفسهن من هـذا المشروع بنفس المغانم التى تمنى بها نفسها طاهية بيت بودنبروك . وكان بعض الساخطين وقد تعبوا من الوقوف ، قد جلسوا على الرصيف ووضعوا أرجلهم فى مجرى المطر ، وجعلوا يتناولون قطع الخبز المدهون بالزبد .

وكانت الساعة تقارب السادسة ، ومع أن الفسق كان قد أوغل كانت مصابيح الزيت المتدلية من سلاسل ممتدة عبر الشارع غير مضاءة . وكانت هذه الحقيقة الواقعة وهذا الخرق الواضح للنظام وهو ما لم يسمع به ، هو أول ما أغضب القنصل بودنبروك بحق ، وجعله يبدأ الكلام بلهجة ساخطة تكاد تكون موجزة . قال :

« أيتها الجيف ! ما هذا الذى تأتونه فى خرق ! ماذا تقترفون هنا ! »

فهب الآكلون على أقدامهم عن الرصيف ، وشب الذين يلونهم فى ذلك الجانب من طريق المرور على أطراف أصابعهم ، ورفع بعض عمال الميناء الذين يعملون فى خدمة القنصل بودنبروك قبعاتهم . والتفت الجميع ، ودفع بعضهم بعضا فى الجوانب ، وقال بعضهم بصوت مكبوت : « هذا هو القنصل بودنبروك ! القنصل بودنبروك يريد أن يلقى كلمة ! أقفل فمك ياكريستيان ؛ انه يستطيع أن يخطب كالشيطان ! هذا هو السمسار جوش ... أنظر ! ياله من قرد ! انه مهتاج أشد الاهتياج . »

وعاود القنصل الكلام موجها عينيه الصغيرتين الى عامل من عمال المخزن فى الثانية والعشرين مقوس الساقين كان واقفا أمام الدرج مباشرة ، وقبعته فى يده وفمه محشو بالخبز : « كورل سمولت ! تكلم ياكورل سمولت ! لقد لبثم هنا طيلة بعد الظهر تزعقون . »

فقال كورل سمولت وهو يمضغ : « نعم ياسيدى القنصل » هذه قضية ... لكن .. الأمور بلغت هذا الحد ... اننا نقوم بثورة . »

« ما هذه الحماقة يا سمولت ! »

« نعم ياحضرة القنصل ، أنت تقول هذا ، لكن الامور بلغت هذا الحد ... ونحن لم نعد راضين عن هذه القضية ... نحن نطالب بنظام آخر ... ولم يعد أيضا أننا ... »

« اسمع ياسمولت وأنتم الآخرون ! من كان منكم يعقل فليذهب الى بيته ، ولايشغل نفسه بعد الآن بثورة ولايخل بالنظام ... »

فقاطع السيد جوش ولصوته مثل الفحيح ... « النظام المقدس ! »

قال القنصل بودنبروك : « النظام أقول ... حتى المصابيح لم تشعل ... وهذا خروج بالثورة عن الحد ! » . هنا كان كورل سمولت قد انتهى من ازدراد لقمته فوقف والجمهور من خلفه منفرج الساقين وأبدى اعتراضاته ...

« أجل ياحضرة القنصل ، هذا ما تقوله ، لكن هذا فقط من أجل المبدأ العام لقانون الانتخاب ... »

فصاح القنصل : « يالله ، ويالك من أحمق » ونسى فى غضب أن يخاطبه بالعامية « انك تهذى وتقول سخفا ... »

فقال كورل سمولت وقد أرهبه كلام القنصل شيئا ما : « نعم ، ياحضرة القنصل ، ان كل شىء كما هو ، لكن الثورة يجب أن تكون . هذا قول مؤكد كل التأكيد . الثورة فى كل مكان . فى برلين وفى باريس .. »

« سمولت ، ماذا تريد فى الحق ، قل ! »

« نعم ياحضرة القنصل ، انى أقول فقط : اننا نريد جمهورية ، أقول ذلك فقط ... »

« لكن أيها الأبله ... ان لكم واحدة بالفعل ! »

« نعم ياحضرة القنصل ، اذن نريد واحدة أخرى . »

فأخذ بعض الوقوف ، ممن هم أعرف منه ، يضحكون مستأنين ومن قلوبهم ، ومع أن قلة منهم هى التى فهمت جواب كورل سمولت فقد انتشرت البهجة بينهم حتى باتت جمهرة الجمهوريين يقهقهون قهقهة عريضة تنطق بالطيبة . وظهر بنوافذ قاعة مجلس المواطنين بعض الوجوه المستطلعة لبعض السادة وبأيديهم أقداح البيرة ... وكان الوحيد الذى خيب أمله هذا التحول فى الامور وآلمه هو سيجسموند جوش .

وقال القنصل بودنبروك فى النهاية : « والآن أيها الشقى ، أظن أن خير مايفعل هو أن تعودوا جميعا الى بيوتكم ! »

فأجاب كورل سمولت وقد ربكه كل الربكة ماأحدثه من تأثير : « نعم ياحضرة القنصل ، هكذا . ولنترك المسألة الآن . وانى مسرور من أن حضرة القنصل لم يستأ منا ، والى اللقاء أيضا ياحضرة القنصل ... »

وأخذ الجمهور يتفرق وهو فى أشد اغتباط

وصـاح القنصـل بسمولت : « قف لحظة ! قل لى ألم تر مركبة كروجر ؟ هنا أمام بوابة القصر ؟ »

«أجل ياحضرة القنصل ، انها قادمة ، انها تصعد الينا على غير انتظار ... »

« حسـنا ، انصرف الآن بسلام ياسمولت ، وقل ليوخن أن يسرع قليلا لأن السيد يريد العودة الى المنزل . »

« سمعا وطاعة ياسيدى القنصل ! » وألقى كورل سمولت قبعته فوق رأسه وهبط الشارع بخطى متباعدة متزنة .

الفصل الرابع

لما عاد القنصل بودنبروك مع سيجسموند جوش الى الاجتماع كان مظهر القاعة أدل على الارتياح مما كان قبل ربع ساعة. وقد كانت مضاءة بمصباحين غازيين قائمين على منضدة الرياسة وعلى ضوئهما الاصفر كان السادة جلوسا ووقوفا مع بعضهم البعض يصبون لانفسهم من بيرة القنانى فى أقداح لامعة ويتقارعون ويتحادثون فى ضوضاء ونفسية غاية فى المرح . وكانت مدام زير كلنجل أرملة زير كلنجل حاضرة تعنى بضيوفها المحتجزين وتمدهم بالاقتراحات بكلام فصيح ، اذ الحصار خليق أن يستمر طويلا ، واذ تفيد من هذه الاوقات الهائجة المائجة لتبيعهم مقادير كبيرة من جعتها الصفراء التى تكاد تكون كحولية . وكان خادم الدار عند عودة المفاوضين قد أحضر مؤونة جديدة من القنانى حاسرا كميه متهلل الوجه بابتسامة، ومع أن المساء كان قد أوغل والوقت كان من التأخر بحيث يمنع من الالتفات الى تعديل الدستور ، فان أحدا لم يبد ميلا الى الانفضاض والعودة الى المنزل . وتناول القهوة كان فى هذه الحالة قد فات اليوم أوانه ...

وبعد أن تلقى القنصل عدة مصافحات تهنئة له على نجاحه توجه من فوره الى حميه الذى كان ساخطا . فقد كان جالسا فى مكانه منتصبا ، جافا ؛ برما يجيب على ما نقل اليه من أن المركبة الآن فى طريقها الى المجلس بصوت فيه سخرية يرتعش من مرارة النفس أكثر مما يرتعش من الشيخوخة : « هل سمح الغوغاء بأن يتركونى أعود الى بيتى ؟ »

وفى حركات جافة لا تذكر بحال بلفتاته الظريفة التى يعرفها الناس فيه ترك من يضع له المعطف فوق كتفيه ، ودفع ذراعه تحت ذراع صهره لما عرض عليه القنصل أن يرافقه ، وقال فى غير اكتراث : « شكرا ! »

وكانت المركبة الفاخرة المزدانة بمصباحين كبيرين عند مقعد الحوذى واقفة أمام الباب حيث بدىء باشعال المصابيح — الامر الذى أثلج صدر القنصل ، وامتطى كلاهما المركبة . وجلس ليبرشت كروجر عن يمين القنصل مستقيما فى جلسته ، صامتا ؛ لا يسند ظهره ؛ مغمض العينين نصف اغماضة ، وعلى ركبتيه غطاء المركبة ، بينما كانت المركبة تدرج مخترقة الشوارع وتجرى زاويتا فمه المسحوبتان جانبا فى غضنين عموديين يصلان الى ذقنه ، تحت طرفى شاربه الابيض القصيرين ، ويأكل صدره غل ما أصابه من اذلال وينتهبه ؛ وهو ينظر الى المقعد الخالى أمامه نظرة جامدة باردة .

وكانت الحركة فى الشوارع أنشط من المألوف فى أيام الآحاد ، والجو السائد فيما يبدو جو الاعياد ، والشعب يجول هنا وهناك راضيا مسرورا بأن

الثورة قد جرت هذا المجرى السعيد • بل لقد كان الناس يغنون ، وهنا وهناك تنطلق صيحات الصغار : مرحى ! والمركبة مارة بهم وهم يلقون بقبعاتهم فى الهواء •

قال القنصل : « انى أعتقد حقا أنهم متأثرون بالقضية تأثرا كبيرا يا أبى • فحسبنا أن نتذكر أى مهزلة من التغفيل كان الامر كله وأية ملهاه ! » ولكى يتلقى من الشيخ جوابا أو تصريحا جعل يتكلم عن الثورة كلاما عاما ، قال : « لو أن الجمهور المحروم من الملك تبين مبلغ ما تؤديه الثورة لقضيتهم فى هذه الاوقات من نفع ضئيل ••• يا الله ! ان الامر هكذا فى كل مكان! لقد دار بينى وبين السمسار جوش بعد ظهر اليوم حديث وجيز • وهو الرجل العجيب الذى يتأمل كل شىء بعين شاعر وكاتب مسرحيات ••• انظر ياحمى ! لقد انتشرت الثورة فى برلين على موائد الشاى الانيقة ، ثم جاء الشعب فخاض المعركة فى سبيل القضية وعرض نفسه للاخطار – فهل ينتهى الامر على حسابه ؟ »

فقال السيد كروجر : « لعلك تفتح النافذة التى الى جانبك ! »

فالقى يوهان بودنبروك عليه نظرة سريعة وعجل بانزال اللوح الزجاجى •

وسأله مهتما : « أتحس بوعكة يا أبى العزيز ؟ »

فأجاب ليبرشت كروجر بشدة : « كلا ، كلا ! اطلاقا ! »

فقال القنصل وقد عدل غطاء الفراء على ركبتى حميه ليفعل أى شىء : « انه تلزمك لقمة وراحة • »

وبغتة – وكانت المركبة تدرج فى شارع القصر – وقع شىء مخيف • ذلك أنه لما مرت المركبة ، على مبعدة خمس عشرة خطوة من جدران البوابة التى بدت فى شبه ظلام بجماعة من غلمان الازقة الصاخبين الطروبين قذف أحدهم حجرا الى داخل المركبة من النافذة المفتوحة ، وكان حجرا عديم الاذى تماما يكاد لا يتجاوز حجمه بيضة الدجاجة ألقته يد كريشان سنوت أو هينى بوس من الغلمان احتفالا بالثورة ، لا يراد به سوء على التحقيق ولم يستهدف المركبة فى الراجح على الاطلاق • وقد دخل المركبة من النافذة من دون أن يحدث صوتا ، وصدم من دون صوت أيضا صدر ليبرشت كروجر المغطى بالفراء الوثير ، ثم تدحرج بلا صوت كذلك من الفراء واستقر على الارض •

فقال القنصل غاضبا : « قحة سمجة ! هل الناس مساء اليوم مفلوتو العيار ؟ ••• لكنه لم يصبك أذى يا حمى ، أليس كذلك ؟ »

فلزم كروجر الشيخ الصمت • لزمه بصورة تبعث على الخوف • فقد كان داخل المركبة من الظلمة بحيث يتعذر تمييز وجهه • وقد كان يجلس أشد استقامة وعلوا وتيبسا من ذى قبل من دون أن يمس حشية الظهر • لكنه

بعدئذ ندت عنه كلمة واحدة نطقها فى بطء وجفاء وثقل : « « أوغاد ! »

وتحاشى القنصل اثارته أكثر من ذلك فلم يرد . ومرت المركبة من البوابة ولها رنين ، وبعد ثلاث دقائق كانت تسير فى الطريق العريض الممتد أمام السور المذهب الاطراف الذى يحد ملك كروجر ، وكان على جانبى باب الحديقة الواسع الذى يؤلف المدخل الى الممشى المؤدى الى الشرفة والذى يقوم على جانبيه شجر الكستناء ـ مصباحان ساطعان على غطائيهما زران مذهبان . وأجفل القنصل لما أن تأمل هنا وجه حميه فقد كان أصفر اللون مترهلا بالغضون ؛ قد تقبض فيه التعبير الجاف الجامد المنطوى على الازدراء الذى كان فمه يحتفظ به » الى ذلك الحين ؛ الى ملمح غريب من ملامح الشيخوخة يدل على الوهن والانحراف والتدلى والغباء ... ووقفت المركبة أمام الشرفة .

وقال ليبرشت كروجر: «ساعدني!» وان كان القنصل الذى ترجل قبله قد طرح عنه غطاء الفراء وقدم له ذراعه وكتفه ليستند اليهما . وقد اقتاده فى هينة ورفق على أرض الحصباء بضع خطوات الى الدرج المكشوف اللامع المفضى الى قاعة الاكل . وفى أسفل الدرج هوى الشيخ على ركبتيه وانطرح رأسه بثقل فوق صدره الى حد أن سمع صوت اصطكاك فكه المتدلى بفكه الاعلى ودارت عيناه وانكسرتا ...

ولحق ليبرشت الفارس الانيق بآبائه .

الفصل الخامس

بعد ذلك بسنة وشهرين ، وفي صباح يوم من أيام يناير من عام ١٨٥٠ وقد تشبع الجو ببخار ثلجه كان السيد جرينليش وزوجته جالسين بجانب ابنتهما الصغيرة البالغة من العمر الثالثة في حجرة الطعام المكسوة بخشب ذي لون بني فاتح على كرسيين يبلغ ثمن كل منهما ٢٥ ماركا يتناولان افطارهما الاول .

وكان زجاج النوافذ يغشيه الضباب فيكاد لا يشف عما وراءه ، فكانت الاشجار العارية والشجيرات من خلفها تبدو عائمة . وكان الموقد الوهاج المنخفض المزجج باللون الاخضر يطقطق ويشيع في المكان دفئا لطيفا عبقا بعض الشيء ، والموقد قائم في بعض الاركان بجانب الباب المفتوح المؤدي الى حجرة التأملات حيث يرى بعض النبات . وفي الجهة المقابلة ستائر خضراء مزاحة تكشف عن الصالون المكسو بالحرير الاخضر وعن باب زجاجي عال قد سدت شقوقه بملفات من القطن . واختفت من خلفه شرفة صغيرة في الضباب الاشهب الكثيف ، هذا الى مخرج ثالث جانبي يؤدي الى الدهليز .

وكان الحرير الدمشقي المشغول الناصع البياض المبسوط فوق المائدة المستديرة تعلوه مشاية من القماش الاخضر المطرز ، ويغطيه بورسيلين ذو كنار ذهبي يبلغ من شفافته أنه كان يبرق هنا وهنا كالصدف . وكان جهاز للشاي يطن ، وفي سلة خبز مسطحة من الفضة الرقيقة على صورة ورقة مشرشرة ملفوفة قليلا قطع مستديرة وشرائح من خبيز اللبن . وكان تحت مكبة من البلور كرات مبشورة من الزبد ، وتحت مكبة أخرى صنوف مختلفة من الجبن يرى منها الاصفر والمرمري الاخضر والابيض . ولم يكن ينقص المائدة زجاجة من النبيذ الاحمر كانت قائمة أمام رب البيت ، ذلك أن السيد جرينليش كان يفطر بما هو ساخن

وكان جالسا مديرا ظهره الى الصالون كامل اللباس ، قد زين لحيته العارضية من هنيهة ، وبدا وجهه في هذه الساعة من الصباح ورديا « يرتدي سترة سوداء وسراويل ساق زاهية اللون مخططة بالمربعات الكبيرة » ويأكل على العادة الانجليزية قطعة من الكستليتة محمرة تحميرا خفيفا . وكانت زوجه تجد هذا من مقومات الوجاهة ، لكنها تمجه بدرجة كبيرة الى حد أنها لم تستطع قط أن تحزم أمرها على استبداله بفطورها المكون من الخبز والبيض .

وكانت تونى فى عباءة نومها ، فهى تحب عباءات النوم ولا يبدو فى عينيها أوجه من « نيجليجيه » أنيق ، ولما كانت لم تتخل فى بيت أبيها عن هذا الكلف فقد كانت أحرص عليه امرأة متزوجة • فهى تملك ثلاثة من هذه الاردية الطيعة الرقيقة التى يبدى صنعهــا من الذوق والدقة والخيــال أكثر مما تبدى ثياب الرقص • لكنها اليوم كانت ترتدى ثوب الصباح الاحمر الداكن الذى يوافق لونه بالضبط لون الغشـــاء الخشبى والذى يزيد قماشه المزدان برســوم الازهــار الكبيرة نعومة عن القطن، تحليه فصوص زجاجيــة دقيقة جــدا من نفس اللــون مبثــوثة فيه كقطرات الغيث ••• وقدجرى فوقه من مقفل الرقبة الى الحاشية صف مستقيم متقــارب من الشرائــط المخملية الحمراء •

وكان شعرها الاشقر الفاتح المزدان بشريط من المخمل داكن الحمرة ، معقوصا خصلا فوق جبينها • ومع أن مظهرها ، كما كانت تعــلم نفسها ، كان قــد بلغ المنتهى ، فقــد بقى تعبير شفتها العليا المفترة قليلا كما كان من قبل ، دالا على الطفولة والسذاجة والجــرأة • وكانت جفون عينيها اللتين تجمعان بين الزرقة واللون الرمادى ، محمرة من الماء البارد • وكانت يداهــا البيضاوان القصــيرتان بعض الشىء ، البديعتا التكوين مع ذلك، صــورة من أيدى بودنبروك ، يحيــط بمعصميها الرقيقين ســوارا الاكمــام المخمليــان ، وتحركان السكين والملعقة والفنجال حركات تدل اليوم لامر ما ، على الاقتضاب والعجلة •

كانت الى جانبهــا الصــغيرة ايريكا طفلة حسنة التغذية ، ذات خصل قصيرة رائقة الشقرة تجلس على كرسى برجى من كراسى الاطفال وترتدى ثوبا مضحكا عديم الشـــكل مشــغولا من الصوف السميك الرائق الزرقة ، وتمسك بكلتا يديها الصغيرتين فنجــالا كبيرا يخفى وجهها بأكمله وتحتسى منه لبنها ويسمع لها بين الحين والحين تنهدات صغيرة تنم عن الاستسلام •

ودقت مدام جرينليش الجرس على الاثر فدخلت التابعة تينكا من الدهليز لترفع الطفلة عن برجها وتحملهــا الى حجرة لعبها فى الدور العلوى •

وقالت تونى : « يمكنك أن تنزهيها بالعربة نصف ساعة فى الخارج ياتينكا • لكن لا تزيدى ، والبســيها الجاكتــة السميكة ، أتسمعين ؟ ••• فالضباب منتشر • » وبقيت مع زوجها وحدهما •

وقالت بعــد صمت وجيز تريد على مايبدو استئناف حديث انقطع : « انك تجعل نفسك مضحكا ••• فهــل عندك أســـباب ترد بها ؟ أبد حقــا أسبابا مضادة ••• فانى لاأســتطيع دوما أن أعنى بأمر الطفلة •• »

« انك لاتحبين الاطفال يا أنتونيا •• »

« لا أحب الاطفال !٠٠٠ انى لا أملك الوقت لحب الاطفال ٠٠ ان تدبير البيت يستغرقنى ! انى أستيقظ وفى رأسي عشرون فكرة يجب تنفيذها أثناء النهار ثم آوى الى الفراش وذهنى مشحون بأربعين لم تنفذ بعد ٠٠٠ »

« ان لديك فتاتين تخدمانك ، منهما شابة ٠ »

« فتاتان ، حسن ٠ تينكا عليها الغسيل والتنظيف والخدمة والطاهية مشغولة دائما ٠ فأنت تأكل كوستليتة فى الصباح الباكر ٠٠٠ فكر ياجرينليش! ان ايريكا يجب ان عاجلا وان آجلا أن تكون لها مربية ٠٠٠ »

« انه لا يناسب حالتنا أن يكون لها من الآن مربية ٠ »

« حالتنا آ ٠٠٠ آه ياربى ، انك تجعل نفسك مضحكا ! فهل نحن اذن متسولون ؟ هل بات علينا أن نتخلى عن الضرورى ؟ انى على ما أعلم قد جلبت لك ثمانين ألفا من الماركات ٠٠٠ »

« آه آلافك هذه الثمانون ! »

« بالتأكيد !٠٠٠ انك تذكرها مستهينا ٠٠٠ ان الامر عندك لم يتوقف عليها ٠٠ انك تزوجت منى عن حب ٠٠٠ حسن ٠٠ لكن أما زلت تحبنى ؟ انك لا تعبأ برغباتى ٠ فينبغى أن يكون للطفلة فتاة ٠٠ والمركبة « الكوبيه » اللازمة لنا لزوم الخبز اليومى لم تعد تذكر مطلقا ٠٠٠ لماذا تدعنا نسكن الريف على الدوام ، اذا كانت حالتنا لا تسمح لنا باقتناء مركبة نتوجه بها الى المجتمعات كما يليق ؟ لماذا لا تحب أبدا أن أتوجه الى المدينة ؟٠٠٠ لأحب اليك أن ندفن هنا دفعة واحدة » وأن لا أرى وجه انسان ٠ انك لا تطاق ! »

فصب السيد جرينليش لنفسه نبيذا فى الكأس ، ورفع المكبة البلورية ومد يده الى الجبن » ولم يحر جوابا على الاطلاق ٠

فعادت تونى تقول : « أما زلت تحبنى ! ان صمتك من عدم اللياقة بحيث يسمح لى بأن أذكرك بمنظر بعينه فى حجرتنا ذات المناظر الطبيعية ٠٠٠ كان لك يومئذ مظهر آخر !٠٠٠ انك منذ يومنا الاول لا تجلس معى الا فى المساء ، وذلك فقط لتقرأ فى صحيفة ٠٠٠ كنت فى البداية تبدى على الاقل شيئا من الالتفات لرغباتى ، لكن هذا بات من أمد طويل وكأنه لم يكن ٠ انك تهملنى ! »

« وأنت ٠ أنت تعملين على خرابى ٠ »

« أنا ؟ أنا أعمل على خرابك ٠٠٠ »

« أجل ٠ انك تجرين على الخراب بكسلك ، بحبك للخدم والانفاق ٠٠٠ »

« أوه ! أتأخذ على تربيتي الحسنة ! انني عند والدى لم أكن أحتاج الى أن أحرك اصبعا . والآن أصبح من المحتم على أن أكد فى تدبير المنزل ، لكنى أستطيع أن أطلب أن لا تحبس عنى أبسط المعونات . ان أبى رجل غنى ماكان يسعه أن ينتظر أن ينقصنى من يخدمنى ... »

« اذن انتظرى حتى نفيد من هذا الغنى، وبعدها تظفرين بالخادمة الثالثة. »

« أتتمنى موت أبى ؟! اننى أقول اننا من أهل اليسار واننى لم آت اليك بيدين خاليتين ... »

ومع أن السيد جرينليش كان يمضغ فانه ابتسم ، ابتسم متعاليا ، شجنا ؛ صامتا . فأربك هذا تونى .

فقالت وهى أهدأ نفسا : « جرينليش ، انك تبتسم وأنت تتحدث عن أحوالنا ... فهل أنا مخدوعة فى مركزنا ؟ هل ساءت أعمالك ؟ هل ... »

فى هذه اللحظة سمع دق ، نقر وجيز على باب الدهليز ، ودخل السيد كيسلماير .

الفصل السادس

جاء السيد كيسلماير كصديق للبيت الى الحجرة من دون استئذان ، ودون قبعة ومعطف، وظل واقفا بالباب . كان مظهره يطابق كل المطابقة ما وصفته به تونى فى رسالة لها الى أمها . كان قصير القامة شيئا ما ، لا بالبدين ولا بالنحيل . وكان يرتدى سترة سوداء باتت تلمع بعض الشيء وسراويل قصيرة ضيقة مما ينتهى عند الساق ، وصدرية بيضاء تتقاطع فوقها سلسلة ساعة طويلة رفيعة مع رباطين أو ثلاثة أربطة تمسك بها نظارته ، تتباين مع وجهه الاحمر لحيته العارضية البيضاء المقصوصة تباينا حادا ، وكانت تغطى خديه وتكشف ذقنه وشفتيه . وكان فمه صغيرا حركا مضحكا ، لا يحتوى فكه الاسفل سوى سنين . وبينا وقف السيد كيسلماير مرتبكا ، تائها ، مفكرا ، ويداه ، فى جيبى سراويله العموديين ، ثبت هاتين السنين الجانبين الصفراوين المشبهين المخاريط فوق شفته العليا . وكان الزغب الابيض والاسود النابت فى رأسه يرفرف خفيفا، وان لم تكن هناك أدنى نسمة تهب أو تحس .

وأخيرا أخرج يديه من جيبى سراويله ، وانحنى ، وترك شفته السفلى مدلاة ؛ واستخلص فى عناء رباطا من أربطة نظارته من التعقيدة المستقرة على صدره، ثم ركز بضربة واحدة نظارته الشابكة على أنفه ، واتخذ وجهه فى ذلك تقطيبة تعبر عن اقدامه على أعظم مغامرة ، ثم تأمل الزوجين وقال : « أها ! »

ويلاحظ فى الحال وقد ألف استعمال هذه العبارة بصورة غير عادية ، أنه درج على أن يلفظها على صور مختلفة جدا ، فريدة جدا . كان يستطيع نطقها ورأسه منطرح الى الخلف ، وأنفه منكمش، وفمه مفغور ، ويداه ملوحتان فى الهواء ، فى رنين أنفى مسترسل معدنى يذكر بغناء الجونج الصينى ... وكان يستطيع أن يلفظها من جهة أخرى وبغض النظر عن ظلال كثيرة ، وجيزة جدا، عرضية ، رقيقة ؛ وهو مايمكن أن يتميز بأنه أغرب فى بابه ، ذلك أنه كان ينطق حرف « أ » كدرا » وأنفيا جدا . أما اليوم فلفظ « أها » عابرة ، مرحة ، مصحوبة بهزة صغيرة متقلصة من الرأس لاحت كأنها صادرة عن حالة نفسية طروب غاية الطرب . ومع ذلك فانه لايجوز أن يؤمن لهذا ، لان هناك حقيقة واقعة هى أنه كلما ازداد المصرفى كيسلماير مرحا كان هذا منه أدل على نفسية خطرة . واذا ظل يقفز هنا وهناك بأهاته ، ويرشق أنفه بنظارته ، ثم يدعها تسقط ، واذا لوح بذراعيه وثرثر ولم يعرف من فرط بلاهته أن يستقر فليثق المرء بأن الشر يستهلكه . وقد طرف السيد جرينليش بعينيه حين رآه واستراب به بصورة صريحة

قال : « أبهذا البكور ؟ »

فأجابه كيسلماير : « أجل » وهز احدى يديه الصغيرتين الحمراوين المتغضنتين في الهواء كمن يريد أن يقول : صبرا ، فان عندى لك مفاجأة !... « انى أريد أن أتحدث معك . أريد أن أتحدث معك بلا ابطاء ياعزيزى ! » وكان كلامه مضحكا جدا ، فقد كان يدحرج كل كلمة ويخرجها من فمه امصغير الادرد ، الحرك بكل ما في السخف من قوة . كان يلفظ « معك » كما لو كان حلقه مشحما . ومضى السيد جرينليش يطرف بعينيه ، كلما ازداد استرابة وسوء ظن .

وقالت تونى : « تعال الى هنا ياسيد كيسلماير ! اجلس ! جميل منك أن تأتى ... انتبه . ينبغى أن تكون حكما بيننا . لقد كنت من لحظة أتشاحن مع جرينليش ... قل لى : أيجب أن يكون لطفلة فى الثالثة مربية أم لا ! والآن ؟ ... »

بيد أن السيد كيسلماير بدا كأنه لم يلتفت اليها . فقد جلس فاغرا فاه الصغير بأوسع ما يستطيع مغضنا أنفه ونبش بسبابته لحيته العارضية المقصوصة الامر الذى أحدث صوتا يثير الاعصاب ، وعاين من فوق النظارة مائدة الافطار الانيقة ، وسلة الخبز الفضية والبطاقة الملصقة على زجاجة النبيذ الاحمر بوجه طروب جدا .

واستطرت تونى تقول : « ذلك أن جرينليش يزعم أنى جررت عليه الخراب ! »

وهنا نظر كيسلماير اليها ... ثم حول نظرته الى جرينليش ... ثم انفجر يقهقه قهقهة عجيبة ؛ صاح : « أنت تجرين عليه الخراب ... ؟ أنت ... تجر ... أنت . اذن أنت تخربين بيته ... يا الهى ! آه يا الهى ! يا أيها الزمن السعيد ! ... ان هذا لمضحك ! مضحك الى آخر ، آخر حد . » واستسلم لفيض من الآهات المتنوعة .

وكان الهر جرينليش يتحرك فوق كرسيه يمنة ويسرة حركة عصبية ظاهرة ، فتارة يدس سبابته الطويلة بين بنيقته ورقبته ، وتارة يمر يديه فى عجلة فوق لحيته العارضية الصفراء الذهبية ...

قال : « كيسلماير ! أمسك عن هذا ! انك مستكمل حواسك ! كف عن الضحك ! أتريد نبيذا ؟ أتريد سيجارا ؟ علام تضحك فى الحقيقة ؟ »

« علام أضحك ؟ ... نعم ناولنى كأسا من النبيذ ، أعطنى سيجارا ... علام أضحك ؟ أنت تجد اذن أن قرينتك تجر عليك الخراب ؟ »

فقال جرينليش غاضبا : « انها مخلوقة للترف • »

فلم تعارض تونى فى هـذا بحال ، بل قالت وقد رفعت شفتها العليا الى أعلى وتبحبحت فى سند ظهرها ، ووضعت يديها فى حجرها فوق الشرائط المخملية التى تزدان بهـا عباءتهـا المنزليـة :« نعم ••• هكذا خلقت ؛ فهذا واضح وقد ورثته عن أمى • فآل كروجر جميعا مترفون • »

وكان يمكن أن تصرح بنفس الهدوء بأنها رعناء ، سريعة الغضب ؛ لا تترك ثأرا • ان روح الاسرة المتأصل فيها قد أبعدها تقريبا عن معانى الارادة الحرة وتقرير المصير ، وجعلها تتبين صفاتها فى هدوء وتسلم بها دون تمييز ودون أن تحاول اصلاحها • وقد كان من رأيها دون أن تفطن الى هـذا ، ان كل صفة كائنـا ما كان نوعها ، تعنى شـيئا موروثا وتقليـدا عائليا جـديرا من ثم بالاحترام والتبجيل فى كل الحالات •

لقد فرغ السيد جرينليش من تناول فطوره ، واختلط عبير السيجارين بدخان الموقد الدافىء •

وقال رب البيت : « أيمر الهواء فى سيجارك يا كيسلماير ؟ ••• خذ واحدا آخر • انى أصب لك كأسـا أخرى من النبيذ الاحمر ••• انك تريد التحدث الى اذن ، فهـل الامر يدعو الى العجلة ؛ ذو شـأن ؟ ••• أتجد الجو هنـا أدفأ مما ينبغى ؟ ••• سنركب فيما بعد معا الى المدينة ••• ان حجرة التدخين أبرد على كل حال ••• » لكن السيد كيسلماير لم يعد ، مع كل مظاهر الالتفات هذه ، أن يهز احدى يديه فى الهواء كمن يريد أن يقول : لافائدة من كل هذا ياعزيزى!

واخيرا نهض كلاهما ، وبينما بقيت تونى فى قاعة الطعام لتراقب التابعـة وهى تخلى المائدة اقتاد السيد جرينليش صديق أعماله مخترقا حجرة التأملات ، يسير أمامه مائل الرأس يلف طرف الفرد الايسر من لحيته العارضية بين أصابعه مستغرقا فى التفكير ؛ واختفى السيد كيسلماير خلفه فى حجرة التدخين وهو يطوح بذراعيه •

وانقضت عشر دقائـق ، وتوجهت تونى لحظة الى الصالون ، لتمر بنفسها الرياشة المتعددة الالوان فوق القرص اللامع المصنوع من خشب الجوز الذى للمكتب الصغير وعلى الارجل المقوسة للمائدة ، ثم انتقلت على مهل الى حجرة الجلوس من قاعة الطعام تخطو فى هدوء ووقار ملحوظين • وظاهر أن الآنسـة بودنبروك لم تفقد شـيئا من الاعتداد بالنفس بوصفها مدام جرينليش • فقد كانت تسـير منتصبة القامة ، تضغط ذقنها بعض الضغط على صدرها وتتأمل الاشـياء من عل • تعابثها العباءة من حولها بثنياتهـا الطويلة الناعمة وهى جـادة وتمسك باحـدى يديهـا ربطة المفاتيح المدهونة باللاكيه ، وتلامس باليد

الاخرى الجيب الجانبى لعباءة الداكنةالحمـرة بينما ينم تعبـير فمها ـ ذلك التعبير الساذج الدال على خلو البال ـعنأن مهابتها كلها شيء من عمل الاطفال، عديم الاذى ، يدل على التظاهر ·

وكانت تتحرك فى حجـرة التـأملاتوبيدهـا رشاشة صغيرة من النحاس تروى بها تربة النباتالورقىالسوداء ،وكانت شديدة الحب لنخيلها الذى كان يزيد من وجاهة بيتها بصـورة فخمة ،تتحسس فى رفق نبتا صغيرا ناجما من أحـد العيـدان السميكة المستديرة ،وتفحص فى حنو تلك المراوح المبسوطة فى جلال · وتبعد هنـا أو هناك طرفاأصـفر بالمقص ··· وبغتة انصتت اذ كان الحديث الذى دار فى غرفة التدخينقد علا ورن بالفعل منذ عدة دقائق رنينا قويا ··· لقد ارتفع الى حد أن فهمتمنه مدام جرينليش كل كلمـــة حيث كانت ، مع أنالباب كان محكما والستارةصفيقة ·

سمعت السـيد جرينليش يصيح : « لاتصرخ هكذا ! بربك الا ما اتزنت!» وكان صوته الناعم لا يحتمل هذا الجهدفهو يصر من جراء ذلك صريرا ··· ثم زاد على ذلك قوله : « ألك فى سيجار!»

فأجـاب المصرفى : « بكل سرور · شـكرا ! » وتلت فترة صـمت تناول السيد كيسلماير فى خلالها ماتناول · ثم قال : « فلنوجز ، أتريد أم لا تريد ! واحدة من اثنتين ! »

« كيسلماير ، مد الاجل ! »

« أهـا ! ··· لا ياعزيزى ، كـلا ،مستحيل · لا كـلام فى هـــذا ! على الاطلاق ··· »

« لم لا ؟ ماذا دهاك ؟ تفاهم معىبربالسمــاء ! هـــل انتظرت كل هـــذا الوقت ··· »

« لا يوم فوق ما انتظرت ياعزيزى !بلى ، لنقل ثمانية أيام ، لاساعة زيادة· الا يعتمد اذن أحد ما على ··· »

« لا تذكر أسماء يا كيسلماير ! »

« لا أسماء ، حسن ··· ألا يعتمدأحـد ما آخر على المحمــود السـيرة السيد ··· »

« لا تسمه ···! لا تكن أحمق بربك ! »

« حسنا · لا تسمية · ألا يعتمد أحدما آخر على البيت التجارىالمعروفالذى يعلو ائتمانك ويهبط معه يا عزيزى ؟كم خسر هذا البيت فى تفليسة بريمن ؟ خمسين ألفا ؟ سبعين ألفا ؟ مائة ألف ؟أكثـر من ذلك ؟ أما أنه كان مرتبطا ،

ومرتبطا بصورة هائلة تماما فما يعرفه كل مخلوق ··· ان مثل هــــذا مسالة مزاج · أمس كان··· حسن ، لاأسماء· أمس كان البيت التجاري المعروف طيبا يحميك كل الحماية من الضيق وهوخالى البال··· واليوم هوفى كساد· وبندكس جرينليش أكسد الكاسدين ··· هذاواضح بلا ريب ألا تلاحظ هذا ؟ انك فى الحق أول من يجب أن يحس هــــذه التقلبات··· فكيف يلاقونك اذن؟ كيف ينظرون اليك اذن؟ ان «بوك وكوتسيكر» كرماء تحدوهم الثقة بصــورة هائلة ، فكيف مسلك بنك الائتمان اذن ؟ »

« انه يمد الاجل · »

« أهــا ! أتكذب ؟ انى أعــرف أنه ركلك أمس ! ركلك ركلة منعشـــة الى أبعد حد ؟ ··· والآن انظر ؟·· ولكن لايتولك الخجل ! فانه بطبيعة الحال فى مصلحتك أن تمــوه على بأن الآخرين اليوم هادئون مطمئنون كما كانوا من قبــل ··· هيــه ياعزيزى ! اكتب الى القنصل · انى انتظر أسبوعا · »

« دفعة على الحساب ياكيسلماير ! »

« دفعة هنــا وهناك · ان الدفعات التى على الحساب يدفعها المرء وهو مقتنع سلفا بأن أحدا بعينه قادر على الدفع ! فهل أنا بحاجة الى اجراء تجارب فى هذا البــاب ؟ انى عليم بمبلغ قــدرتك على الدفــع · ان الدفعة على الحســاب مما أجده غاية فى التسلية ··· »

« أخفض صــوتك يا كيسلماير ! لاتواصل الضحك بهذا الشكل اللعين ! ان مركزى من الخطورة ··· أجل انى أعترف بأنه خطير ؛ لكنى أنتظر على هذا النحو أو ذاك أعمالا كثيرة ··· ويمكن أن تجلب هذه الاعمال جميعها خيرا · اســتمع الى ! انتبه ! مد الاجل ، وأنا أوقع لك على عشرين فى المــائة ··· »

« لاشىء من هذا ، لاشىء من هذا··· مضحك كل الضحك ياعــزيزى ! انى محب للبيع فى الوقت المناسب · وقــدعرضت عليك ثمانية فى المائة ، ومددت لك الاجل · وعرضت عليك ١٢ و ١٦ فى المــائة وكنت فى كل مرة أمهلك · والآن تستطيع أن تعرض ٤٠ فى المائة فلن أفــكر فى امهــالك ، لــن أفــكر ياعزيزى! ··· انه منذ أن سقط اخوان فســـتفال فى بريمن على أنوفهــم وكل امرىء فى هذه اللحظة يسعى الى انقاذ مصــالحه من البيت التجارى المعــروف وتأمينهــا ··· وكما قلت ، اننى ممن يحبون البيع فى الوقت المناسب · لقد كنت احتــرم توقيعاتك طيــلة أن كان بودنبروك فى مركز حسن لا يعتــوره شك ··· فى تلك الاثناء كنت أجمع من الفوائد المتأخرة رأسمال وأرفــع لك النسب المئــوية ! غير أن المرء يستبقى الشىء طالما كان يرتفع أو يظل على الاقل فى مركــز ثابت ··· أما اذا بدأ فى النزول فالمرء خليق أن يبيع ··· أريد أن أقول انى أطالب برأسمالى · »

« كيسلماير ، انك قليل الحياء ! »

« آـها ، اني أجد هذه الكلمة مسلية جدا ! ماذا تريد اطلاقا ؟ انك لابد أن تتجه الى حميك ؟ ان بنك الائتمان يغلي وأنت بالذات لست الى هذا خلوا من الشوائب ... »

« كلا ياكيسلماير ... اني أستحلفك أن تستمع الى الآن في هـدوء ! ... اني صريح ، اني أعترف لك بلا لف ولادوران ان مركزي حـرج وأنت وبنـك الائتمـان لستما الوحيدين ... لقـد قدمت الى صكوك ... كأنما كل شيء كان على ميعاد ... »

« بديهي . وفي هذه الظروف ... لكنها تصفية ... »

« كلا ياكيسلماير ، اسمعني ! ... أولني حبك ، وخذ سيجارا آخر ... »

« اني لم أفرغ بعد من هذا ؟ دعني وسيجارك في سلام ! ادفع لي ... »

« كيسلماير ، لا تدعني أسقط الآن ... انك صـديقي ، لقـد أكلت على مائدتي ... »

« لعلك لم تأكل أيضا على مائدتي ياعزيزي ؟ »

« أجل ، أجل ... لكن لا تنذرني بسحب ثقتك الآن ياكيسلماير ... ! »

« ثقة ؟ ائتمان بعد هذا ؟ هل أنت مجنون ؟ ... قرض جديد .. ؟ »

« اني أستحلفك يا كيسلماير ... قرضا صغيرا ، شيئا قليلا ! ... اني محتاج الى بضـع دفعات للتأدية وعـلى الحساب، أنفقها ذات اليمين وذات الشمال لأسترد احترامي وصبري .. أسندني تفز بصفقة كبيرة ! فكما قلت لك ، ان هنـاك طائفة من الاعمـال تنتظرني ، وستكون النتيجة خيرا في كل شيء ... فأنت تعلم اني جاد وواجد ... »

« نعم ، أنت غبي أخرق ياعزيزي . ألا تتكرم الكرم الاكبـر فتقول لي ماذا تريد أن تجـد الآن ؟ ... ربمـا في مكان ما من العالم الواسع بنكا يضـع لك على المـائدة قرشا فضيـا ؟ أو حما آخر ... دعك .. ان ضربتك الكبرى باتت في ذمة المـاضي ! ومثلهـا عزيز عليك مرة أخرى ! احتراماتي ! لا ، بل أسمى التقدير ! »

« أخفض صوتك بحق الشيطان ... »

« انك غبي ! جاد وواجد ... نعم ولكن لمصلحة أناس آخرين ، انك عديم المبـالاة ، ومع ذلك لم تجن فائدة مرة من وراء ذلك . لقد نصبت واحتلت على رأس المـال لتدفع لي ١٦ في المائة بدلا من ١٢ . لقد أطرحت شرفك ودست

عليه من دون أن تجنى أقل فائدة • لك ضمير كضمير كلب القصاب ، ومع ذلك أنت منحوس ، بل أبله ، مغفل هزيل ؛ ان أمثالك موجودون ، وهم مسلون الى أقصى حد ! ••• لم تخاف مثل هذا الخوف من الالتجاء بالمسألة كلها الى « المعروف » ؟ ألأنك لاتشعر براحة تامة فى هذا ؟ ألأنه من أربع سنوات مضت لم تكن الامور على مايرام؟ ولم يكن كل شيء يجرى مجرى نظيفا كل النظافة ، أليس كذلك ؟ أتخشى أن أشياء بعينها ••• »

« حسنا ياكيسلماير ، سأكتب • لكن اذا رفض؟ اذا تركنى أسقط؟ ••• »

« أوه ••• أها ! عندئذ نعلن افلاسا صغيرا ، افلاسا صغيرا مسليا للغاية ياعزيزى • وهذا لا يهمنى • لا يهمنى بحال من الاحوال ! انى شخصيا قد استرددت مصاريفى تقريبا من الفوائد التى التقطتها من هنا وهناك ••• ولى فى التفليسة الاولوية ياعزيزى ••• ثم انتبه ، انه سوف لا ينقصنى شيء • فأنا عليم بدخائلك أيها المحترم! وقائمة الجرد فى جيبى مقدما ••• أها ! وسأعنى بألا تهرب سلة خبز فضية أو عباءة منزل ••• »

« كيسلماير ، لقد أكلت على مائدتى ••• »

« دعنى من مائدتك ! بعد ثمانية أيام أتلقى ردك • انى ذاهب الى المدينة • قليل من الحركة ينفعنى نفعا جزيلا • عم صباحا ياعزيزى ! وليكن صباحا سعيدا مرحا ••• »

وبدا على السيد كيسلماير أنه يريد الانصراف ، بل لقد انصرف ، وسمع وقع خطاه الغريبة الجارفة فى الطرقة ، وتمثله من شاء يطوح ذراعيه •••

ولما دخل السيد جرينليش فى حجرة التأملات كانت تونى واقفة هناك وبيدها الرشاشة النحاسية ، فنظرت فى عينيه •

فقال لها : « لم تقفين ؟ ••• لم تحملقين ؟ ••• » وكشر عن أسنانه ، ورسم فى الهواء حركات مبهمة بيديه ، وأرجح جسمه الاعلى هنا وهناك ، ولم يكن وجهه الوردى قادرا أن يشحب الشحوب كله ، بل كانت تغطيه بقع حمراء ، كأنه وجه مريض بالحصبة •

الفصل السابع

وصل القنصل بودنبروك فى الساعة الثانية بعد الظهر الى الفيللا فدخل صالون آل جرينليش بمعطف السفر الرمادى وعانق ابنته بحرارة أليمة بعينها. وكان بادى الشحوب والشيخوخة ، وكانت عيناه الصغيرتان غائرتين فى محجرهما ، وأنفه بارزا بروزا حادا وكبيرا بين خديه المترهلين ، وشفتاه تبدوان أرق مما كانتا فى العادة ، ولحيته التى لم تعد أخيرا سوى خطين مخصلين يجريان من السوالف الى وسط الخدين ، لكنها كانت تنبت تحت ذقنه وخديه تغطيها نصف تغطية بنيقته المنشاة وربطة رقبته العالية ـ هذه اللحية قد وخطها الشيب كما وخط شعر رأسه .

لقد قضى القنصل أياما عصيبة أليمة ، اذ مرض توماس بنزيف فى الرئة تلقى الاب نبأه السىء من السيد فان در كيلن فاستودع أعماله يدى وكيله الحريصتين وبادر من أقصر طريق الى أمستردام ، وقد تثبت من أن مرض ابنه لا ينطوى فى ذاته على خطر مباشر ، لكنه كان من المستحسن أن يبدل الهواء فى الجنوب على عجل ـ جنوب فرنسا . ولما كان من محاسن الصدف أنه كان قد رتب لابن رئيسه الشاب رحلة استجمام ، فقد ترك الشابان يسافران الى بو معا بمجرد أن أصبح توماس قادرا على السفر .

ثم أنه ماكاد يعود الى بيته حتى أصابته هذه المصيبة التى زعزعت كيانه لحظة من الزمان ! هذا الافلاس فى بريمن الذى فقد فيه « من ناحية » ثمانين ألف مارك ... فلأى سبب ؟ كانت السفاتج المسحوبة المخصومة على « فستفال اخوان » بعد اذ توقف المشترون عن الدفع ، قد عادت الى بيت بودنبروك التجارى ، لا بوصف أنه ينقصها التغطية . فقد أبدى بيت بودنبروك فى الحال ما وسعه دون تردد أو ارتباك . لكن هذا لم يمنع أن يتجرع القنصل كل مافاجأه من جفوة وتحفظ وسوء ظن يثيره عادة مثل هذا المصاب ، ومثل هذا الوهن فى رأسمال المتجر لدى المصارف « والاصدقاء » والبيوت التجارية ...

وقد نهض ، وتنبه لكل شىء وهدأ ، وسوى ، وتحدى ... لكنه وسط الكفاح وفى غمرة البرقيات والرسائل والحسابات حل به هذا أيضا : بندكس جرينليش ، جرينليش زوج ابنته بات عاجزا عن الدفع فهو يرجو ويتوسل ويندب فى رسالة مسهبة مضطربة ، أسيفة جدا ، طلبا لمساعدة تبلغ من مائة الى مائة وعشرين ألف مارك . وقد أبلغ القنصل زوجه هذا النبأ فى ايجاز ، مترفقا ملتزما

المسطح ، ورد على السيد جرينليش ردا جافا يرجوه مقابلته مع المصرفى كيسلماير فى بيت الاول ، ثم سافر اليه .

واستقبلته تونى فى الصالون ، وكان يروقها أن تستقبل الضيف فى الصالون المكسو بالحرير البنى . واذ كان يداخلها شعور نافذ رهيب بأهمية مركزها الخاص دون أن تلم ببواطن الامور فانها لم تستثن الاب اليوم من هذا الاستقبال . وكان منظرها جميلا جادا وهى ترتدى ثوبا رماديا زاهيا جرسى الاكمام ، مزودا بالدنتيلا من فوق الصدر والمعصمين وجونلة واسعة تساير أحدث شهرة ، وتتحلى برصيعة صغيرة من الماس عند مقفل الجيد .

« طاب يومك يا أبى ، أخيرا نلتقى بك مرة ! كيف صحة ماما ؟ .. ألديك أخبار طيبة عن توم ! ... اخلع معطفك وتفضل بالجلوس يا أبى العزيز ! ألا تريد أن تتزين؟ ... لقد أعددت لك حجرة الضيوف فى الطبقة العليا .. ان جرينليش يتزين فى هذه اللحظة أيضا ... »

« دعيه الآن يا ابنتى ، فانى أريد أن أنتظره هنا تحت . أنت تعلمين أنى أتيت لحديث مع زوجك ... حديث جدى جدا ياعزيزتى تونى . فهل حضر السيد كيسلماير ؟ »

« نعم يا أبى ، انه جالس فى حجرة التأملات يتفرج على الالبوم ... »

« وأين ايريكا ؟ »

« فوق مع تينكا فى حجرة الاطفال ، وصحتها حسنة . انها تغسل دميتها .. ليس فى الماء طبعا .. دمية من الشمع ... بالايجاز تفعل فقط هكذا .. »

قال القنصل : « مفهوم » وتنفس الصعداء ثم استطرد : « انى أفترض يا ابنتى العزيزة انك غير ملمة بمركز زوجك ؟ »

وكان قد جلس فوق مقعد ساند من المقاعد المحيطة بالمائدة الكبيرة بينما اتخذت تونى مجلسها عند قدميه فوق كرسى صغير يعرض ثلاث حشايا حريرية بعضها فوق بعض فى وضع منحرف . وكانت أصابع يده اليمنى تعبث بانتباه بالماسات العالقة بجيدها .

فأجابت تونى : « كلا يا أبى . فانى لا أعلم شيئا . وهذا ما أعترف لك به . يا الهى اننى بلهاء ، أتعلم ؟ انى غير بصيرة ! لقد أنصت أخيرا حينما كان يتكلم كيسلماير مع جرينليش ...وقد بدا لى فى ختام حديثهما كأنما كان

السيد كيسلماير يمازح ··· فقد كان كلامه دائما مضحكا · وقد طرق سمعى اسمك مرة أو مرتين ··· »

« سمعت اسمى ؟ بأية مناسبة ؟ »

« لا أعلم يا أبى ، فلست أعرف عن المناسبة شيئا ! ··· لقد بات جرينليش فى ذلك يتولاه السخط ··· أجل ، لا يحتمل ، وهذا مالابد من قوله ! ·· الى أمس · ثم رق ، وسأل عشر مرات أو اثنتى عشرة مرة هل أحبه ، وهل أتكلم له عندك كلمة طيبة اذا مارجاك فى شىء ··· »

« آه ! »

« لقد أنبأنى أنه كتب اليك ، وأنك آت ··· وأحمد الله أنك أتيت ! فالحال هنا غريبة بعض الغرابة ·· لقد أعد جرينليش مائدة اللعب الخضراء ··· وعليها طائفة من الاوراق والاقلام الرصاص ··· ويقال انك ستتداول معه ومع كيسلماير · »

فقال القنصل وهو يملس شعرها بيده : « اسمعى يا ابنتى العزيزة ··· يجب أن أسألك عن شىء ، شىء جدى ! فقولى لى ··· أتحبين زوجك من كل قلبك ؟ »

فقالت تانى : « بالتأكيد يا أبى · » قالت هذا بوجه فيه رياء الاطفال كعادتها يوم كانت تسأل : انك لن تغضبى بعد الآن ليزا بائعة العرائس ياتونى ؟ وصمت القنصل لحظة · ثم عاد يسأل:
« انك تحبينه طبعا بحيث لاتستطيعين العيش من دونه ··· مهما تكن الظروف، أليس كذلك ؟ حتى لو أراد الله أن يتبدل مركزه وأن ينتقل الى حال لاتعود تسمح له بأن يظل يحيطك بكل هذه الاشياء ··· ؟ » ورسم بيده حركة خاطفة تناولت أثاث الحجرة وستائرها والمت بالساعة المذهبة القائمة فوق ركيزة المرآة ، واخيرا عبر ثيابها الى تحت ·

فأعادت تونى بنفس النغمة المعزية التى تتخذها دائما تقريبا اذا ماكلمها أحد بصورة جدية : « بالتأكيد يا أبى» · وعبر نظرها بوجه أبيها الى النافذة التى كان يساقط خلفها مطر رفيق كثيف دون أن يسمع له صوت · وكانت عيناها تنطقان بتعبير كالذى يتخذه الاطفال حين تجافى اللياقة امرءا يتلو أقصوصة فيفيض بالكلام عن الاخلاق والواجبات ··· تعبير يمتزج فيه الارتباك والقلق والتقوى والتضايق ·

ولبث القنصل دقيقة يتأملها صامتا وهو يطرف بعينيه فى تفكير · فهل كان مرتاحا الى جوابها ؟ لقد درس كل شىء أثناء أن كان فى بيته وأثناء الطريق ·

وكل انسان يفهم أن قرار يوهان بودنبروك الاول والاكثر انطواءا على الاخلاص كان يتجه الى أن يتحاشى جهده دفع شيء الى صهره مهما كان مقداره . لكنه لما تذكر كيف ألح — ولنستعمل هنا كلمة خفيفة — فى مناصرة هذا الزواج ، لما استعاد الى الذاكرة تلك النظرة التى حدجته بها حين كانت تودعه بعد حفلة الزفاف ثم سألته : « أأنت راض عنى ؟ » ، وجب عليه أن يفسح فى نفسه لشعور مرهق تقريبا بذنبه حيال ابنته ، وأن يقول لنفسه ان ارادتها هى التى يجب أن يكون لها القول الفصل فى هذه المسألة .

فقد كان يعلم أن موافقتها على هذا الزواج لم تكن عن حب لكنه كان ينتظر أن يكون فى الامكان بهذه السنوات الاربع وبالاعتياد وبميلاد الطفلة تغيير الكثير ، وأن تحس تونى الآن أنها مرتبطة بزوجها قلبا وقالبا ، وأن ترفض كل فكرة للانفصال لأسباب دينية ودنيوية قوية . وقد فكر القنصل فى أنه فى هذه الحالة يجب عليه أن يرضى ببذل أى مبلغ من المال . حقا ان الواجب المسيحى والكرامة الزوجية تقتضيان تونى أن تتبع زوجها الى الصحراء بدون قيد أو شرط ، لكنها اذا أظهرت بالفعل مثل هذا التصميم فانه خليق أن يشعر بأنه لن يكون من حقه حرمانها دون ذنب جنته من كل المزايا ووسائل الراحة التى ألفتها فى الحياة منذ نعومة أظفارها . وهكذا كان يحس أنه مكلف بالحيلولة دون وقوع كارثة ، وأن يأخذ بيد جرينليش بأى ثمن . ولنوجز فنقول ان نتيجة تأملاته كانت الرغبة فى أن يأخذ معه ابنته مع طفلتها وأن يدع السيد جرينليش وشأنه . فلا قدر الله هذه النهاية ! وعلى كل فقد فكر فى المادة القانونية التى تنص على حق طلب الطلاق اذا عجز الزوج عن اعالة الزوجة والولد . بيد أنه يجب عليه قبل كل شيء أن يتحرى رأى ابنته ...

قال لها وهو ماض فى تمليس شعرها فى حنان : « انى أرى يا طفلتى العزيزة انه تحدوك مبادىء حميدة طيبة . لكنى ... لا يسعنى أن أفترض أنك تنظرين الى الاشياء كما يجب أن ينظر اليها كوقائع ، والشكوى لله . فاننى لم أسألك ماذا أنت خليقة أن تفعلى فى هذه الحالة أو تلك ، ولكن ماذا تفعلين الآن ، اليوم ، فى الحال . ولست أدرى مبلغ علمك وحزرك للاحوال السائدة ... من ثم أرى على واجبا محزنا هو أن أقول لك ان زوجك يرى نفسه مضطرا الى التوقف عن الدفع ، وانه من ناحية عمله لم يعد يستطيع الوقوف على قدميه ... وأظنك تفهميننى ... »

فسألت تونى بصوت خافت وهى تنهض نصف نهوض عن وسائدها ، وتقبض على يد القنصل فى عجلة : « هل أفلس جرينليش ... ؟ »

فقال القنصل فى جد : « نعم يا ابنتى ، ألم تحزرى هذا ؟ »

فقالت متلعثمة : « لم أحزر شيئا معينا » ثم استطردت تقول وهى تحملق

من الجنب فى السجادة : « اذن لم يكن كيسلمساير يهزل ... ؟ » وصاحت بغتة : « ياارباه ! » وهوت على مقعدها . فى هذه اللحظة تمثلت كل ما يمكن أن تؤديه كلمة افلاس ، كل ما كانت أحسته كطفلة صغيرة فى هذه الكلمة من غموض ورعب ... « افلاس » . كان شيئا أشنع من الموت ، معناه الهرج والمرج والانهيار والخراب والعار والفضيحة واليأس والشقاء . وأعادت : « هل أفلس ؟ » وكانت هذه الكلمة المهلكة قد طعنتها فى الصميم وحطمتها . بحيث لم تفكر فى معونة يمكن أن تمد بها يدها ، ولا فى معونة يمكن أن تأتى من ناحية أبيها .

ورعاها أبوها بحاجبين مرفوعين وعينين صغيرتين غائرتين يبدو عليهما الحزن والتعب ، لكنهما ينمان مع ذلك عن قلق بالغ .

فقال فى رفق : « لقد سألتك اذن يا عزيزتى تونى هل أنت مستعدة لأن تتبعى زوجك الى الفاقة والفقر ؟ ... » وقد اعترف لنفسه على الاثر بأنه اختار كلمة « الفقر » القاسية مدفوعا بغريزته كوسيلة للتخويف ، ثم زاد عليها قوله : « وقد ينهض ثانية من عثرته ... »

فأجابت تونى : « بالتأكيد يا أبى . » لكن هذا لم يمنع أن تستخرط فى البكاء . فكانت تنتحب فى منديلها الباتستا المشغول بالدنتيللا والذى يحمل حرفى ا . ج . وكان بكاؤها من قبيل بكاء الاطفال دون تهيب أو تزويق . وكانت فيه شفتها العليا ذات وقع مؤثر يجل عن الوصف .

ومضى أبوها يتأملها ويسألها : « أجد ما تقولين يا ابنتى؟ » وكان مثلها لايدرى ما يفعل .

فشهقت : « الا يجب على ... انه يجب على بالتأكيد ... »

فقال فى قوة : « ليس على الاطلاق » لكنه صحح فى الحال قوله شاعرا بالذنب فقال : « انى لا أحملك على هذا قطعا ياعزيزتى تونى ان قيدتك مشاعرك بزوجك دون فكاك ... »

فنظرت اليه بعينين مغرورقتين بالدموع تنمان عن عدم الفهم

قالت : « كيف يا أبى ... »

فالتفت القنصل يمنة ويسرة حتى اهتدى الى وسيلة للكلام قال : « ياطفلتى الطيبة ، يمكنك أن تعتقدى انى خليق أن يحز فى نفسى تعريضك للمتاعب والآلام التى سوف يجرها مصاب زوجك وتصفية أعماله ومركز بيتك رأسا ...

وانى لراغب فى تجنيبك هذه المضايقات الأولى وأخذك أنت وصغيرتك ايريكا مقدما الى بيتنا · وأظن أنك ستحمدين لى هذا ··· ؟ »

فصمتت تونى لحظة كفكفت خلالها دمعها ، ونفخت باهتمام فى منديلها وضغطته على عينيها لتحول دون التهابهما ، ثم سألت بلهجة المصمم دون أن ترفع صوتها : « أبى ، هل جرينليش مسئول؟ هل أوقع نفسه فى هذه المصيبة بخرقه وعدم شرفه ! »

فقال القنصل : « الراجح جدا أنه كذلك ··· أعنى · كلا ، لست أدرى يا ابنتى · لقد قلت ان الكلام معه ومع مصرفيه لم يجر بعد ··· »

وظهر أن تونى لم تلتفت الى هذا الجواب اطلاقا · وقد كانت منحنية تعتمد على مرفقيها وذقنها فى يدها فوق حشياتها الحريرية الثلاث ، تنظر برأسها المنخفض غارقة حالمة الى داخل الغرفة من تحت الى فوق ·

قالت بصوت خافت تكاد لا تحرك به شفتيها : « أخ يا أبى ، ألم يكن خيرا اذ ذاك ··· »

وكان القنصل لا يستطيع أن يتبين وجهها · لكن هذا الوجه كان يحمل التعبير الذى كان يحمله فى غير مساء من أمساء الصيف ، حين كانت تستند فى ترافيمنده الى نافذة حجرتها الصغيرة ··· وقد كانت احدى ذراعيها مستقرة فوق ركبتى والدها بينما أرخت يدها دون سند الى أسفل · وحتى هذه اليد كانت تعبر عن أسى بالغ ، وتفان رقيق ، عن حنين حلو عامر بالذكريات مسترسل الى بعيد ·

واستفسر القنصل بودنبروك : « خيرا ··· ؟ ليته لم يقع شىء يا طفلتى؟ »
لقد كان مستعدا لأن يقر من قلبه أنه كان خيرا لو أن هذا الزواج لم يتم ؛ لكن تونى قالت فحسب وهى تتنهد : « لا شىء ! »

لقد بدا أنها كانت قيد أفكارها وأنها بهذه الافكار كانت تحوم بعيدا ، وأنها نسيت « الافلاس » تقريبا · وألفى القنصل نفسه مضطرا لأن ينطق بما كان أحب اليه أن يؤيده ·

قال : « أظن أنى أحزر أفكارك ياعزيزتى تونى ؛ وأنا كذلك من جانبى لا أتردد فى الاعتراف بأنى نادم فى هذه الساعة على الخطوة التى بدت لى من أربع سنوات مضت حكيمة شافية ···. نادم باخلاص · وأعتقد انى لست مسئولا أمام الله · أعتقد أنى قمت بواجبى خير قيام حين عنيت بأن أوفر لك كيانا يوائم

أصابك ... لكن الله أراد شيئا وأردت غيره ... ولن تعتقدى فى أبيك أنه عوض هناءك للخطر فى رعونة ومن دون تفكير . لقد اتصل بى جرينليش مزودا بخير التوصيات ، ابنا لقسيس ورجلا مسيحيا خبيرا بالدنيا ... وقد تحريت عنه فيما بعد فى دوائر الأعمال فكانت نتائج تحرياتى فى مصلحته . وأنعمت النظر فى الظروف والاحوال ... ان هذا غامض مظلم ما يزال ينتظر الجلاء . لكنك لا تتهمينني ، أليس كذلك؟...»

« لا يا أبى ، كيف يسعك أن تقول مثل هذا الكلام ! تعال لاتدع هذا يكربك يا أبى المسكين ... انك شاحب اللون ، ألا آتيك ببضع من نقط المعدة ؟» وكانت تطوق رقبته بذراعيها فقبلته فوق خديه .

قال : « أشكرك ، كذا ، كذا ... دعى فقط ! شكرا ـ أجل لقد مرت بى أيام عصيبة ... فما العمل ؟ لقد تعرضت للمضايقات . هذا امتحان من الله . لكن هذا لا يمنع أننى لا أستطيع أن أشعر أنى حيالك بلا ذنب تماما ، يا ابنتى . ان كل شىء يتوقف الآن على السؤال الذى سبق أن وجهته اليك ، والذى لم تجيبى بعد عنه بما فيه كفاء . كلمينى بصراحة يا تونى ... هل تعلمت أن تحبى زوجك فى سنى الزواج هذه ؟ »

فعادت تونى تبكى ، وفيما هى تغطى عينيها بمنديلها الباتستا الذى تمسك به بكلتا يديها قالت وهى تنتحب: «آه ، ماذا تقول يا أبى ! ... اننى لم احبه قط ... لقد كان دائما بغيضا الى . ألا تعرف هذا اذن ... ؟ »

وكان من الصعب أن تقول ماذا كان يعتمل على وجه يوهان بودنبروك . فقد كانت عيناه تنظران مرعوبتين حزينتين يطبق شفتيه مع ذلك اطباقة تغضنت منها زاويتا فمه وخداه كما هو شأنه حين ينتهى من عقد صفقة رابحة . قال فى خفوت : « أربع سنوات ... »
وجف دمع تونى فجأة وهبت من مقعدها واقفة ومنديلها المبلل فى يدها ثم قالت غاضبة : « أربع سنوات ... ها ! لقد كان أحيانا يجلس معى فى المساء ويقرأ الصحف فى هذه السنوات الاربع ... ! »

فقال القنصل متأثرا : « لقد وهبكما الله طفلة ... »

« نعم يا أبى ... وانى أحب ايريكا جدا ... وان زعم جرينليش انى لاأحب الاطفال ... اننى لن أنفصل عنها ، هذا ما أقوله لك ... لكن جرينليش ـ كلا ! ... جرينليش ـ كلا ! . ويفلس الى هذا الحد أيضا ! ... آه يا أبى ، بكل سرور ! اذا أردت أن تأخذنى أنا وايريكا الى البيت ... فالآن تعرف كل شىء ! »

فأطبق القنصل شفتيه من جديد ،وكان راضيا كل الرضا . ومع هـــذا فانه لم يطرق المسألة الرئيسية بعد ؛على أنه مع هذا التصميم الذى أظهرته تونى لا يخاطر المرء بشىء كثير .

وقال : « يلوح مع هـــذا كله أنك تنسين تماما ياابنتى ان من الممكن تقديم يد المعونة ... ومن قبلى . لقد عرفك أبوك فعلا انه لا يسعه الشعور ببراءته حيـال من كل ذنب ... وفى حالة ما ... نعـم فى حالة ما اذا رجـوت وانتظرت منه هـــذه المساعدة فسوف يتدخل ويحول دون السقوط ، ويغطى ديون زوجك بالحق أو بالباطل ، ويدع مركبه يسير ... »

وتأملها قلقا فأرضته ملامح وجهها اذ كانت تعبر عن خيبة أملها .

وسألتـه : « كم فى الحقيقة يتطلب الامر ؟ »

قال : « وماذا يهم هـذا فى الموضوع ... ان الامر يتطلب مبلغا كبيرا جدا ! » وهز القنصل بودنبروك رأسه عدة مرات كما لو كانت فداحة التفـكير فى هـذا المبلغ تهزه رويدا رويدا فى غدو ورواح. واستطرد يقول : « لا يصح أن أخفى عنك فى هذا ان بيتنا التجارى ، بغض النظر تماما عن هذه المسألة ، قد تكبد خسائر ، وأن تقديم هـذا المبلغ معناه اضعاف البيت وتوهينه . وهنـا يبيت من الصعب أن يسترد قوته . ولست أقول هذا بحال كى ... »

ولم يكمل . فقد هبت تونى واقفة ، بل أنها تراجعت بضع خطوات ومنديلها المبلل لايزال فى يدها ، وصاحت : « كفى، مستحيل ! »

وكان فى مظهرها بطولة أو كاد يكون: وقد فعلت كلمة « البيت التجـــارى » فعلها . والراجح كل الرجحان أنها كانت أفعـل فى نفسـها من نفس نفورها من السيد جرينليش .

ومضت تتكلم وقد خرجت عن طورها : « لا تفعل هـذا يا أبى ! أتريد أن تفلس أنت أيضا ؟ كفى ! مستحيل ! »

فى هذه اللحظة فتح باب الطرقة قليلا وفى تردد ودخل السيد جرينليش . فنهض يوهان بودنبروك ، وأتى فى نهوضه بحركة معناها : انتهى !

الفصل الثامن

كان وجه السيد جرينليش تعلوه بقع حمراء لكنه كان في أحسن هندام ، فكان يرتدي سترة سوداء من قماش متين ، مثناة ، وكانت سراويله بلون الحمص شبيهة كلها بتلك التي أدى فيها زيارته الاولى ذات مرة . وقد لبث واقفا في تراخ ، وتكلم وبصره الى الأرض، بصوت ناعم خافت : « أبى ... »

وانحنى القنصل في جفاء ، وأصلح من رباط رقبته ببضع مسكات نشيطة . وزاد السيد جرينليش على كلمته : « أشكر لك قدومك »

فأجاب القنصل : « كان هذا واجبي ياصديقي . لكنني أخشى أن يكون هذا هو كل ما أستطيع أن أفعله في موضوعك . »

فألقى عليه صهره نظرة عجلى وازداد موقفه تراخيا .

واستطرد القنصل يقول : « اسمح ان مصرفيك السيد كيسلماير ينتظرنا ... فأي مكان خصصت لحديثنا ؟ اني تحت تصرفك .. »

فتمتم السيد جرينليش قائلا : « أرجو أن تتفضل فتتبعني »

فقبل القنصل بودنبروك ابنته فوق جبينها وقال : « اصعدي الى ابنتك يا أنتونيا ! »

ثم سار مع السيد جرينليش الذي كان يتحرك تارة أمامه وتارة وراءه ثم أزاح الستائر خلال قاعة الطعام الى حجرة الاستقبال .

فلما التفت السيد كيسلماير الذي كان واقفا عند النافذة قفت شعرات الزغب البيضاء السوداء فوق رأسه ثم ارتخت ثانية فوق قمته

وقال جرينليش جادا متواضعا : «السيد المصرفي كيسلماير ... تاجر الجملة القنصل بودنبروك ، نسيبي ... » وكان وجه القنصل جامدا لا تتحرك فيه جارحة ، وانحنى السيد كيسلماير مرخيا ذراعيه ، مثبتا نابيه فوق الشفة العليا قائلا : « خادمك ياسيدي القنصل ! اني شديد الارتياح لايلائي هذه المسرة ! »

وقال السيد جرينليش : « أستميحك عذرا ياكيسلماير أن اضطررتك الى الانتظار . » وكان جم الادب مع هذا ومع ذلك .

وأبدى القنصل وهو يتلفت باحشاذات اليمين وذات الشمال : « هل ندخل فى الموضـــوع ؟ » فأسرع ربالبيت الى الجواب قائلا : « فليتفضـــل السيدان ... »

وبينما كان السادة ينتقلون الىحجرةالتدخين قالالسيد كيسلماير منشرحا: « هل ارتحت فىسفرك ياحضرة القنصل؟... أهلا ، مطر ؟ نعم ، فصـــل ردىء من فصول السنة ، فصل كريه قذر . لو كان هناك قليل من الجليد ، قليل من الثلج ! ولكن لا شىء من ذلك ! مطر ! وحل ! فصل بغيض الى أبعد حد... » وقال القنصل لنفسه . ياله من انسان غريب .

وقامت فىوسط الحجرة الصغيرة التى كان توريقها داكنا محلى بالأزهار مائدة مستطيلة مكسوة بقماشأخضر أقرب الىأنتكون واسعة . وكان المطر فىالخارجقد ازداد هطولا والظلام من الحلوكة بحيث أشعل السيدجرينليتس الشمعاتالثلاث القائمة فى شـــمعدانات فضية على المائدةفى الحال . وكان على المـائدة الخضراء رسائل أعمال مزرقة عليها أختامالمتاجروأوراق منزوعة ممزوقة هنـــا وههنا مغطاة بالتواريخ والتوقيعات . ولوحظفوق ذلك دفتر رئيسى سـميك وأداة معدنية تحوى محبرة ورمالة تبرز منهاريشمـــات أوز جيدة العيدان وأقلام رصاص .

وأدى الســـيد جرينليش احتراماتهبالايماءات والحركات الهادئة اللبقـــة المتحفظة التى يحيى بها المرء المشـــيعينفى الجنازات .

وقال فى عذوبة : « أبى العزيز تفضلوتناولهذا المقعد الساند ، وأنت ياسيد كيسلماير هل تتكرم بالجلوس هنا ؟... »

وأخيرا استتب النظام وجلسالمصرفىقبالة رب البيت بينما رأس القنصـــل الاجتماع على الجانب العريض من المائدةفوق الكرسى الساند ، وكان ظهر هـــذا الكرسى يلامس باب الطرقة .

وانحنى الســـيد كيسلماير وأرخىشـــفته السـفلى واستخلص من فوق صدريته نظارة ورشقها فوقأنفه مغضناياه ، فاغرا فاه ، ثم جعل يمشط لحيته العارضية المشـــذبة بأصابعه فتحدثصوتا يثير الاعصاب ، ثم ثبت يديه فوق ركبتيه وأشـــار الى الاوراق وأبدى فىايجاز وابتهاج : « هذه هى العمليـــة بحذافيرها ! »

وقال القنصل : « أتسمحان لى بأنالقى نظرة أدق على الموقف ؟ » وتناول

الدفتر الكبير · وبغتة مد السيد جرينليش كلتا يديه فوق المائدة مظللا وكأنتا يدين طويلتين تجرى فيهما عروق بارزة زرقاء وترتعشان فيما يرى ثم صاح بصوت متأثر : « لحظة ، لحظة يا أبى ! الا ماتركتنى أمهد للموضوع بكلمة ! · · · ستطلع ولن يفوت نظرتك شىء · · · ولكن صدقنى ! انك ستطلع على مركز رجل بائس ، لا رجل مذنب ! أنظر فى يا أبى الى رجل جاهد القدر دون هوادة لكن القدر صرعه ! أنظر الى هذه النظرة · · · »

فقال القنصل برما برماً ظاهرا : « سأرى ياصديقى ، سأرى · » وسحب السيد جرينليش يديه ليجرى القدو مجراه ·

وتقضت دقائق طويلة مخيفة ساد فيها الصمت وكان السادة الثلاثة جالسين فى ضوء الشموع المضطرب تحتويهم جميعا وترهقهم حيطان أربعة مظلمة · ولم يكن يسمع من حركة سوى حفيف الاوراق التى كان القنصل يتناولها · اللهم الا المطر المتساقط فى الخارج الذى كان هو الصوت الوحيد ·

ودفع السيد كيسلماير بابهاميه فى فتحتى الذراعين بالصدرية ، ولعب ببقية أصابعه البيان على كتفيه ، وجعل ينظر من الواحد الى الآخر فى مرح لا يوصف · وكان السيد جرينليش جالسا دون أن يسند ظهره ، واضعا يديه على المائدة ، يحملق أمامه فى كدورة ، ويحدق الحين بعد الحين فى حماه بنظرة من الجنب تدل على الخشية · وكان القنصل يقلب صفحات الدفتر الكبير ، ويتابع بظفر أصبعه خانات من الارقام ، ويقارن التواريخ ، ويدون بالقلم الرصاص أرقامه الصغيرة غير المقروءة على الورق · وكان وجهه المتوتر يعبر عن رعبه من الحالة التى يطلع عليها · وأخيرا وضع يده اليسرى فوق ذراع جرينليش وقال مهزوزا : « مسكين ! »

ونطق جرينليش : « أبى · · · » وسقطت دمعتان كبيرتان على خدى الرجل المأسوف عليه وجرتا فى لحيته العارضية الصفراء الذهبية ، فتابع السيد كيسلماير مجرى هاتين القطرتين بأعظم اهتمام ؛ بل لقد نهض قليلا ، وانكب الى الامام ، وحملق فى وجه الجالس قبالته فاغرا فاه · وقد تأثر القنصل بودنبروك تأثرا كبيرا ، وألانه المصاب الذى نزل به أيضا فأحس كيف جرفته المرثية ، لكنه لم يلبث أن تمالك شعوره ·

فقال وهو يهز رأسه هزة خالية من العزاء : « كيف أمكن هذا فى هذه السنوات القليلة ؟ »

فأجاب السيد كيسلماير منبسط النفس : « لعب أطفال ! فى أربع

سنوات يمكن كأحب مايكون أن تنزل بالمرء مصيبة ، لو فكر المرء كيف كان فستفال اخوان ما يزالون فى بريمن منذ أمد قريب يخطون ٠٠٠ »

ونظر اليه القنصل وهو يطوف بعينيه وكأنه يراه ولا يسمعه ٠ انه لم يعبر بحال عن الفكرة الحقيقية التى تشغل باله ٠٠٠ وقد تساءل مستريبا، وبلا فهم مع ذلك ٠٠٠ لماذا كل هذا الآن بالذات ؟ لقد كان ب٠ جرينليش خليقا قبل سنتين او ثلاث سنوات أن يكون فى نفس الموقف الذى يقفه الآن٠ كان يمكنه أن يدرك هذا بنظر واحدة: فقد كان ائتمانه لا ينفد ، وكان يتلقى من البنوك الاموال ، ويحصل لمشاريعه على توقيعات بيوت تجارية ثابتة تابعة لأمثال السناتور بوك والقنصل جودشتيكر مرارا وتكرارا ، وكانت سفاتجه فى السوق كالنقد ٠ فلماذا الآن، الآن، بالذات ــ ومدير بيت يوهان بودنبروك كان يعرف تمام المعرفة معنى هذه الكلمة « الآن » ــ لماذا هذا الانهيار من كل جانب ــ هذا السحب التام لكل ثقة كما لو كان الجميع على ميعاد ، هذا الانقضاض الجماعى على ب٠جرينليش مع اطراح كل مراعاة ، بل كل مجاملة؟ ان القنصل لخليق أن يكون رجلا ساذجا اذ هو لم يعرف أن الاعتبار الذى كان لبيته هو كان قمينا أن يفيد صهره السيد جرينليش بعد خطبته لابنته ٠ ولكن هل كانت سمعة الاخير تتوقف على سمعته هو هذا التوقف التام الرائع دون غيره ؟ ألم يكن جرينليش نفسه عندئذ شيئا مذكورا ؟ والتحريات التى قام بها القنصل والدفاتر التى فحصها ؟ ٠٠٠ فليكن من أمرها مايكون، فان تصميمه ألا يحرك فى هذه المسألة عقلة فى أصبع قد بات أقوى من ذى قبل ٠ لابد أنه أخطأ الحساب ! والظاهر أن ب ٠ جرينليش عرف أن يدخل فى الروع أنه متضامن مع يوهان بودنبروك وهذا الخطأ الشائع شيوعا مرعبا يجب أن يستبعد الآن الى الابد ! وكيسلماير هذا أيضا يجب أن تتولاه الدهشة ! فهل لهذا المهرج ضمير ؟ فقد تجلى كيف قامر بلا خجل على شىء واحد هو أنه ــ أى يوهان بودنبروك ــ لن يترك زوج ابنته يسقط ، وكيف ظل يزود جرينليش المقضى عليه من أمد بالقرض تلو القرض ، لكنه يدعه يوقع دائما على فوائد ربا فاحشة ٠٠٠

قال : «لا يهم ، فلندخل فى الموضوع ٠ أنه اذا صح لى كتاجر أن أقدم تقريرا فى هذا الشأن ، فانى آسف أن أقول ان هذا مركز رجل تعس حقا ، لكنه مسئول الى درجة كبيرة ٠ »

فتمتم جرينليش قائلا : « أبى ٠٠٠»

فقال القنصل فى سرعة وقسوة : «هذا النداء يقع فى أذنى وقعا سيئا !» ثم استطرد يقول وقد التفت الى المصرفى التفاتة خاطفة : « ان مطالبك يا سيدى من السيد جرينليش تبلغ ستين ألف مارك ٠٠٠ »

فأجاب السيد كيسلماير في هدوء : « بالمتأخرات والفوائد المضافة الى رأس المال ثمانية وستين ألفا وسبعمائة وخمسة وخمسين ماركا وخمسة عشر شلنا . »

« حسنا ... وأنت لا تميل بحال من الاحوال الى الصبر عليه فوق ما صبرت ؟ »

فأخذ السيد كيسلماير يضحك ببساطة ، يضحك ملء فمه ويقذف ضحكات لا أثر فيها للسخرية ، بل ضحكات دمثة ، ناظرا في وجه القنصل كأنما يريده أن يضحك مثله .

فتكدرت عينا يوهان بودنبروك الصغيرتان الغائرتان واحمرت حوافهما بغتة حتى بلغ الاحمرار عظمتي الخدين . وقد سأل ما سأل حرصا على الشكل فحسب ، اذ كان يعلم أن أى تأجيل من جانب الدائن الواحد ما كان ليحسن المركز تحسينا جوهريا ، لكن الكيفية التي رد بها هذا الرجل أخجلته وأثارت مرارته الى أبعد حد . وفي حركة واحدة من يده أزاح كل شيء كان أمامه ، وألقى بالقلم الرصاص على المائدة وقال : « وهكذا أعلن أنى لا أريد أن يكون لى بهذه المسألة دخل بعد الآن ، وبأى شكل كان . »

فصاح السيد كيسلماير وهو يهز يديه في الهواء : « أها ! هذه كلمة نطقت بوقار . ان السيد القنصل سيسوى المسألة بكل بساطة ! دون دخول في مناقشة طويلة ! وبخفة يد ! »

فلم ينظر اليه يوهان بودنبروك نظرة واحدة .
والتفت في هدوء الى السيد جرينليش قائلا : « انى لا أستطيع أن أساعدك يا صديقى . ان الامور يجب أن تجرى مجراها ، ولست أجد نفسى قادرا على وقفها . فتمالك نفسك وأنشد العزاء والقوة عند الله . يجب أن أعد هذه المحادثة منتهية . »

وفجأة اتخذ وجه السيد كيسلماير تعبيرا جديا يختلف عما اعتاده اختلافا عجيبا ، لكنه أومأ الى السيد جرينليش مشجعا . وكان هذا يجلس بلا حراك ، يعتصر يديه الطويلتين فوق المائدة بشدة مما طقطقت له أصابعه .

فقال بصوت يتلجلج : « أبى ... سيدى القنصل ... لن . ولا تستطيع أن تبغى خرابى وشقائى ! ألق السمع الى ! ان الامر يتعلق بعجز قدره مائة وعشرون ألفا ... وفي وسعك انقاذى ! فأنت رجل غنى ! ولتنظر الى المبلغ كما

لويد ٠٠٠ كتسوية نهائية ، كنصيب ابنتك من الميراث ، كقرض ذى فوائد ٠ ٠
فسوف أعمل ٠٠٠ فأنت تعلم أنى جادوواجد ٠٠٠ »

فقال القنصل : « لقد قلت الـكلمة الاخيرة ٠ »

فسأل السيد كيسـلماير وهو ينظر الى القنصل من خـلال نظارته القابضة ويغضبن فى ذلك أنفه : « اسمح لى ٠٠٠ ألا تستطيع ؟ اذا كان لى أن احمل السيد القنصل على التفكير فالآن بالذات أحسن فرصة فى الحق لاقامة الدليل على متانة بيت يوهان بودنبروك التجارى ٠٠٠ »

« تحسن ياسيدى صنعا اذا تركت لى وحدى الاهتمام باعتبار بيتى ــ وليس من الضرورى لاظهار قدرتى على الدفع أن ألقى بمالى فى أول حفرة أصادفها ٠٠٠ »

« لا أقصد ، لا أقصـد ! « حفرة » كلمة مسلية الى أقصى حد ٠ ولكن ألا تعنى ياسيدى القنصل ان افلاس السيد صهرك يمكن أن يظهر مركزك فى ضوء كاذب ٠ ضوء ردىء ، أليس كذلك ؟ »

فقال القنصل : « أستطيع أن أوصيك مرة أخرى بأن تجعل سمعتى فى عالم الاعمال من شئونى الخاصة ٠ »

فنظر السيد جرينليش فى وجه مصرفيه حائرا وعاد يقول : « أبى ٠٠٠ انى أتوسل اليك ، فكر فيما تفعل ! ٠٠٠ هل الامر يتعلق بى وحدى؟ أوه ، فليحل بى الخراب أنا ! ولكن ابنتك ، امرأتى ؛ تلك التى أحبهـا ، والتى جاهدت فى سـبيل الحصول عليها هــذا الجهـاد المـرير ٠٠٠ وطفلتنا ٠ طفلتنـا نحن الاثنين ، تلك الطفـلة البريئـة ٠٠٠ أنتركها أيضا للشقاء ! لا يا أبى ، ما كنت لاحتمل هذا ، انى لأوثر أن أقتل نفسى ٠٠٠ أجل ، بيدى هـــذه أقتل نفسى ٠٠٠ صدقنى ! ولتبرئك السماء عندئذ من كل ذنب ! »

فاستند يوهان بودنبروك الى كرسيه السـاند ممتقع اللـون خافق القلب ٠ فللمرة الثانيـة تجتاحه مشاعر هـذا الرجل الذى يعبر عنها بصدق ٠ فعليه ثانيـة أن يسمع نفس نغمة التهـديد الكريهة التى سمعها يوم أبلغ السـيد جرينليش خطـاب ابنته المرسـل من ترافيمنده ، وثانيـة تسرى فى نفسه الرعدة من ذلك التبجيل الحـالم الذى يحسه جيله من نحو المشاعر المتضاربة فى ذهنه الصـاحى العملى ٠ بيد أن هذه النوبة لم تستغرق أطول من ثانية ، فقد أعـاد فى نفسـه : مائة وعشرين ألف مارك ، ثم قال فى هدوء وثبات : « ان أنتونيا ابنتى ٠ وسأعرف كيف أحـول بينها وبين معاناة ما لاذنب لها فيه ٠ »

فسأل السيد جرينليش وقد تقلص رويدا رويدا : « ماذا تعـنى بهـــذا القول ٠٠٠ »

فأجاب القنصل : « ستعلم هذا . والآن لن أزيد على قولي شيئا . » ونهض ، وثبت كرسيه على الأرض ؛ واتجه نحو الباب .

وجلس السيد جرينليش صامتا ، جامدا . يتحرك فمه في جهتيه حركات ارتجاجية تحول دون استخلاص كلمة منه . وعاد الى السيد كيسلماير مرجه بحركة القنصل الختامية النهائية ، بل لقد طغى عليه ، وتجاوز كل حد ، وبات مخيفا ! وزلت نظارته عن أنفه الممتد الى ما بين عينيه ، بينما هدد فمه الصغير البارز منه ناباه الاصفران الوحيدان بالتمزق . وكانت يداه الصغيرتان الحمراوان تطوحان في الهواء ، وزغب رأسه يرفرف ، ووجهه الناشز تماما عن موضعه ، المقطب من فرط المرح بلحيته العارضية البيضاء المشذبة يشبه في لونه القصدير ؛

صاح بصوت يتضارب : «أها ! اني أجد هذا مسليا جدا . لكنه ينبغي أن ننعم النظر يا حضرة القنصل بودنبروك في مغبة التخلي عن مثل هذا المثال الفائق البديع للاصهار ... فان مثل نشاطه وابتكاره لن يوجد مرة أخرى في أرض الله الواسعة الحبيبة ! أها ! فقبل أربع سنوات ، لما كانت السكين ذات مرة فوق الرقبة ... والحبل من حولها ... كيف كنا نصرخ في البورصة على حين بغتة معلنين خطبته للآنسة بودنبروك قبل أن تتم بالفعل ... احتراماتي الجميع ! كـ ـ لا بل مني أسمى التقدير ... ! »

وصر السيد جرينليش : « كيسلماير ! » وأتى من يديه بحركات تشنجية كمن يدفع عن نفسه شبحا ، ثم جرى الى ركن في الغرفة فارتمى فوق مقعد ، مخفيا وجهه في يديه ، منطويا على نفسه الى حد أن استقر فردا لحيته العارضية فوق فخذيه ، بل جعل يرفع ركبتيه مرات .

ومضى كيسلماير يقول : « كيف كنا نفعل هذا في الحق ؟ كيف بدأنا في اقتناص البنت وآلاف الماركات الثمانين ؟ أو ـ هو ! من السهل تدبير ذلك . من السهل حتى على من يملك سدس نشاطه وابتكاره أن يدبر هذا بأن يقدم للنسيب المنقذ دفاتر جميلة ، دفاتر نظيفة بديعة يثبت فيها كل شيء على خير وجه ... الا أنها تتفق والحقيقة المبرة كل الاتفاق ... ذلك أنه في الحقيقة المرة كانت ثلاثة أرباع البائنة تسدد سفاتج بديون . »

كان القنصل واقفا بالباب ، شاحب اللون شحوب الموت ، قابضا يده . وكانت القشعريرة تنساب في ظهره . فهل كان في هذه الغرفة الصغيرة المضطربة الضوء وحده مع نصاب ، ومع قرد مسعور من فرط الشر ؟

ولفظ وقد زايله الاطمئنان : « أيها السيد ، اني أحتقر كلماتك ؛ واحتقر

وشاياتك الجنونية على الاكثر ، لأنهاتمسنى أيضا . أنا الذى لم أدفع ابنتى الى الشقاء فى طيش وقلة مبالاة . لقدقمت بتحريات أكيدة عن صهرى ...

واستدار ولم يرد أن يسمع شيئاآخر . وفتح الباب . لكن السيد كيسلماير صاح فى أثره : « أما تحريات ؟ لدى من ؟ عند بوك ؟ عند جود شتيكر ؟ عند بيتر سمن ؟ عندماسمان وتم ؟ لقدكانوا جميعا ضالعين! كانوا كلهم ضالعين بصورة مخيفة كانوا جميعا فى غاية الغبطة ، لأنهم باتوا بالزواج آمنين ... »

وصفق القنصل الباب وراءه .

الفصل التاسع

كانت دورا تعمل فى قاعة الطعـام ودورا هى الطاهية التى لا تخلو تماما مما يريب فأمرها القنصل : « دعى مدام جرينليش تنزل من فضلك ! »

فلمـا حضرت تونى قال لها أبوها « استعدى يا ابنتى ! » وسار معها الى الصالون هناك ٠ وقال : « أعدى أشياءك على جنـاح السرعة ، وأتمنى أن تكون ايريكا أيضا على أهبة السفر ٠٠ فنحن سنركب الى المدينـة ٠٠ وسنبيت فى الفنـدق ، ثم نسـافر فى الصباح الى وطننا ٠ »

قالت تونى: « أجل يا أبى » ٠ وكان وجهها محمرا يدل على الاضطراب والحيرة تأتى من يدها بحركات سريعة غير مجدية عند خصرها من دون أن تدرى بأى شىء تبـدأ استعداداتها ، أو تسـتطيع أن تصدق بعد حقيقة ما وقع ٠

وسألت أباها وجلة منفعلة : « ماذا آخذ معى يا أبى ؟٠٠٠ كل شىء ؟ كل ملابسى ؟ حقيبة أو اثنتين ؟٠٠ هل يشهر جرينليش افلاسه حقا ؟٠٠٠ يا الهى ٠٠ ولكن هل آخـذ معى حليى ؟٠٠٠ أبى ، البنات يجب أن يصرفن ٠٠٠ فلن أستطع بعد الآن دفع أجورهن ٠٠ كان جرينليش سـيعطينى اليـوم أو غـدا مصروف البيت ٠٠ »

« دعى هذا يا ابنتى ، فهذه الاشياء سترتب هنا ٠ خذى الضرورى فقط ٠ حقيبة واحدة ٠٠٠ صغيرة ٠ وسترسل اليك أشـياؤك فيما بعد ٠٠ أسرعى ! أسمعت ؟ ان ٠٠ »

فى هذه اللحظة انفرجت السـتائر ودخل السـيد جرينليش الى الصالون بخطى سريعـة ، وذراعين ممدودتين ورأس مائل الى جنب : مسـلك رجل يريد أن يقول : ها أنذا ! اقتلينى اذا شئت ! وأسرع الى زوجته وخر أمامها على ركبتيـه ٠ وكانت نظرته تبعث على الشفقة وفردا لحيته العارضية الصفراء الذهبية منفوشين ، وسترته متكسرة ، وربطة رقبته منحرفة ، وبنيقته مفتوحة وعلى جبينه تلاحظ قطرات دقيقة ٠

قال : « أنتونيا ٠٠٠ أنظرى الى هنا ٠٠ الك قلب ،، قلب يشـعر ؟٠٠٠ استمعى الى ٠٠٠ انك ترين أمامك رجلا مقضيا عليه اذا ٠٠ نعم ، رجلا سيموت

من الحزن اذا ازدريت حبه : هنا أجثو ... فهل تستطيعين أن تقولى لى : « انى أمقتك ــ ؟ انى أتركك ؟ » »

وبكت تونى . فقد كان بالضبط ما كان اذ ذاك فى حجرة المناظر الطبيعية فهل ترى من جديد ذلك الوجه الذى يجعده الخوف وتينك العينين المتوسلتين اللتين تتطلعان اليهما ، ترى ثانية مع الدهشة والتأثر ان هذا الخوف ، وهذا التوسل صادقان لا يشوبهما رياء .

فقالت وهى تنتحب : « انهض ياجرينليش ! انهض بربك ! » وحاولت أن تنهضه من كتفيه « انى لا أمقتك ! فكيف يسعك مثل هذا القول ! » والتفتت الى أبيها عديمة الحيلة لا تدرى ما ينبغى أن تقوله فوق الذى قالته . فتناول القنصل يدها وانحنى لصهره واتجه معها الى باب الطرقة .

وصاح السيد جرينليش وقد هب على قدميه : « أتذهبين ؟ .. »

فقال القنصل : « لقد صارحتك بأنى لا أستطيع أن آخذ على عاتقى اسلام ابنتى الى الشقاء بلا ذنب جنته . وأزيد على ذلك أنك بالمثل لا تستطيع ذلك . لا ، ياسيدى . لقد أضعت ابنتى ، فاشكر الله على أنه حفظ قلب هذه الطفلة نقيا ، وذهنها خاليا ، وأنها تنفصل عنك من دون مقت لك ! أستودعك الله . »

وهنا فقد السيد جرينليش صوابه . فقد كان يمكن أن يتكلم عن انفصال وجيز وعودة وحياة جديدة ، ولعله كان يمكنه أن ينقذ الميراث ، لكنه لم يعد هناك محل لتفكيره وجده ووجده . كان يمكنه أن يتناول الطبق البرنزى الكبير غير القابل للكسر الموجود فوق ركيزة المرآة ، لكنه تناول الزهرية الرقيقة المحلاة بالأزهار الموجودة بجانب الطبق وألقاها على الارض فتناثرت ألف قطعة .

وصاح : « ها ! حسن ! طيب ! انصرفى ! أتظنين أنى أعول وراءك أيتها الحمقاء ؟ أخ لا ، انك تخدعين نفسك أيتها الغالية ! انى لم أتزوجك الا لمالك ، واذ هو مايزال غير كاف فالى بيتك ! فقد بت برما .. برما .. برما بك . »

واقتاد يوهان بودنبروك ابنته الى الخارج دون أن ينبس ببنت شفة .. لكنه نفسه رجع أدراجه ، وخطا الى السيد جرينليش الذى كان واقفا عند النافذة ويداه فوق ظهره يحملق فى المطر المتساقط فى الخارج ، ومس كتفه برفق وتكلم اليه مخافتا حاثا : « تمالك نفسك ، وصل لله ! »

الفصل العاشر

ظل البيت الكبير القائم فى شارع منيجطوبلا تخيم عليه نفسية مكبوتة لماعادت اليه مدام جرينليش بطفلتها الصغيرة . فكانوا يسيرون فيه محاذرين ويكرهون الحديث « عن الموضوع » ... اللهم الا الشخص الاول فى الموضوع نفسه فقد كان على النقيض من ذلك يتكلم عنه بحرارة ويشعر بأنه موضوعه .

وقد شغلت تونى مع ايريكا فى الطبقة الثانيه الحجرات التى كان يشغلها والدها ذات يوم فى عهد الجدين بودنبروك . وقد خاب أملها قليلا لما لم يلق أبوها فى روعها بحال أن يجعل لها خادمة خاصة بها ، ومرت بها نصف ساعة تفكر لما أن أبدى لها فى كلمات رقيقة أنه لا يجمل بها فى أول الامر غير أن تعيش فى عزلة ، وأن تستغنى عن المجتمع فى المدينة لأن مركزها كامرأة مطلقة يفرض عليها أشد اعتزال أول ما يفرض . وان كانت من ناحية المعانى الانسانية بريئة لا ذنب لها فى المصير الذى قدره الله امتحانا لها . بيد أن تونى كانت تتحلى بسجية جميلة هى أن ترتضى كل مركز فى الحياة فى حذق وسرور عظيم بالجديد . وهكذا سرعان ما رضيت عن نفسها فى دورها امرأة أصابها الضر ، دون أن تسأل عنه ، كانت ترتدى ملابس داكنة ، وتسرح شعرها الاشقر الباهت مفروقا مصقولا كصغار الفتيات وتعوض ماينقصها من العشرة والاجتماع بانطلاقها فى تأملات عن الزواج والسيد جرينليش وعن حياتها ومصيرها عامة ، مظهرة أهمية عظمى وسرورا لا يهن بجدية مركزها وعظم شأنه .

ولم يكن كل امرىء يتيح لها فرصة ذلك . فالقنصلة كانت مقتنعة بأن زوجها سلك مسلكا يمليه الواجب ، لكنها كانت اذا بدأت تونى الكلام ، ترفع يدها الجميلة البيضاء رفعة خفيفة وتقول : « كفى يا ابنتى . انى لا أحب سماع شىء عن هذا الموضوع . »

وكلارا وهى فى الثانية عشرة ولما تكد تبلغها ، لم تكن تفهم شيئا فى الموضوع ، وابنة العم تيلده كانت كذلك أغبى من أن تفقه شيئا فكان كل ماكانت تلفظه ، ممطوطا ينم عن الدهشة : « أو ، تونى ! هذا محزن ! » وعلى العكس من ذلك كانت الشابة تجد سامعة منتبهة فى الآنسة يونجمان التى كانت تبلغ الخامسة والثلاثين من العمر ويحق لها أن تباهى بأنها شابت فى خدمة الطبقة الراقية . كانت تقول لها : « لا حاجة بك الى الخوف ياتونى يا ابنتى ، فما

زلت صغيرة وستتزوجين ثانية ٠ » هذا الى أنها كانت منقطعة لتربيـة ايريكا الصغيرة توليهـا الحب والوفاء وتقص عليها نفس الذكريات والحـكايات التى كانت أطفال القنصل تنصت اليهـا من خمس عشرة سنة مضت ! خاصة عن عم مات غصة فى مارينفردر لأنه « أنـكر قلبه »

بيد أن حديث تونى كان على أحبـه وأطوله مع والدها بعد طعـام الغداء أو فى الصباح أثناء افطارهما الاول ٠ فقـد باتت صلتها به دفعة واحدة أوثق كثيرا من ذى قبل ٠ اذ كانت فيما مضى أدنى فى شعورها نحوه الى الهيبـة والخوف منها الى الحنو » وذلك لسـلطانه فى المدينة ٠ وحذقه المتسم بالهمة والثبات والشدة والتقوى ٠ لكنه أثناء الحديث الذى جرى بينهما فى صالونها كان معها انسانا أفعمهـا فخرا وتأثرا حين آكرمها بالتحدث اليها عن هذه المسألة حديثـا خاصا جديا فترك لها نفسها الفصل ،واعترف لها وهو من لا يجرؤ على الدنو منه أحد ، بأنه لا يشعر حيالها بأنه برىء من الذنب ٠ ومن المؤكد أن تونى ماكان ليخطر لها هذا الخاطر قط ، لكنها وقد قاله قد صدقته وباتت مشاعرها نحوه أرق ٠ أما مايتعلق بالقنصل نفسه فانه لم يغير أسلوب تفكيره بل كان يعتقـد أنه يجب عليه أن يهون على ابنته مصيرها الفادح بمضاعفة حبه لها ٠

ان يوهان بودنبروك لم يسـلك مع صهره المخاتل ماسلك عن باعث شخصى ٠ وحقا أن تونى وأمها قد علمتا من مجرى بعض الاحاديث كيف لجـأ السـيد جرينليش الى وسائل غير شريفة للحصول على ٨٠٠٠٠ر مارك ، لـكن القنصـل تحاشى بلا ريب أن يذيع المسألة أو يبلغ العدالة ٠ وقد شعر فى كبريائه بوصفه رجل أعمال أنه أغضب اغضابا شديدا ، لكنه طوى صامتا ذلك العار الذى لحقه من أن يتغفل هذا التغفيل المزرى ٠

وعلى كل فقد رفع قضية الطلاق فى تصميم بمجرد أن أشـهر افلاس بيت ب٠ جرينليش التجارى الذى منى ببيوتات تجارية أخرى فى هامبورج بخسائر غير قليلة ٠ وكانت هذه القضية والفكرة فى أنها نفسـها تؤلف المحـور فى قضية حقيقيـة ـ كان هـذا هو ما ملأ تونى بشعور من الوقار يجل عن الوصف

قالت : « أبى » ذلك أنهـا فى مثل هـذه الاحاديث لا تخاطب أباها قط : بابا « أبى كيف تتقـدم قضيتنا ؟ انك ترى آكيـدا أن كل شىء سيسير سـيرا حسنا ؟ والمـادة واضحة تماما ، فقـد درستها دراسة دقيقة « عجز الزوج عن اعالة أسرته ٠٠٠ » ويجب أن يرى السادة هذا ٠ ولو كانت طفلتى ولدا لاحتفظ به جرينليش ٠٠٠ »

وقالت مرة أخـرى : « لقـد أطلت الفكرة فى سنى زواجى يا أبى ٠ ها ! اذن هذا كان السبب فى أن الرجل لم يرد بتاتا أن نسكن فى المدينة ، وهـو

ما كنت شديدة الرغبة فيه . اذن هذاهو السبب فى أنه لم يكن يحب أن يرانى أتردد على المدينـة وأغشى المجتمعات ! ففيهـا كان الخطر أكبـر ممـا كان فى ايمزبيتل من أن أعلم بصورة ما ماكان يدور حوله ! ... ياله من لص ! »

فرد عليها القنصل : « ينبغى آن لا نقيم أنفسنا قضاة يا ابنتى . »

او تبدأ بهيئة من يشعر باهميته لما أن حكم لها بالطلاق : « هل دونت الحكم يا أبى فى أوراق الاسرة ؟ كلا ، أوه اذن أدونه أنا ... أرجوك أن تعطينى مفتاح المكتب . »

وجعلت تكتب تحت السـطور التى خطتها من أربع سـنوات مضت تحت اسمها فى همة وخيلاء : « انحل هـذا الزواج فى سنة ١٨٥٠ فى شهر فبراير بحكم القانون . »

ثم وضعت القلم وفكرت لحظة .

وقالت : « أبى ـ انى أعلم جيدا أن هـذا الحادث وصمة فى تاريخ أسرتنا . اجل ، لقد أطلت الفكرة فى هذا . انه بالضبط كما لو كان فى هـذا الكتاب بقعة من الحبـر . لكن لا تبتئس ... فان على أن أمحو هـذه الوصمة ثانية ! فما زلت صغيرة . ألا تجد أنى ما زلت جميلة نوعا ما ؟ وان كانت مدام شتوت قد قالت لى لما لقيتنى : « يا الهى ! لقد كبـرت يا مدام جرينليش ! » ومهمـا يكن من أمر فانه يسـتحيل أن يظل المرء طيلة العمر غبيـا كما كنت من أربع سنوات مضت . فالحياة تجر المرء معها بطبيعة الحال ... وصفوة القول ، أنى سأتزوج ثانيـة ! سترى أن كـل شىء سينصلح بزوج جديد مفيـد ! ألا ترى ذلك ؟ »

« انك بين يدى الله يا ابنتى . لـكنه لا يليق على الاطلاق أن تتحدثى الآن عن مثل هذه الامور . »

هذا الى أن تونى بدأت حوالى هـذا الوقت تستعمل كثـيرا عبارة : « كما يقع فى الحياة » وأنها عند كلمة « الحياة » كانت تفتح عينيها فتحة لطيفة جادة تدخل فى الروع أن لها فى حياة الانسان ومصيره نظرات عميقة .

واتسعت المائدة فى قاعة الطعام عما كانت ، وعرضت لتونى فرصة جديدة للافاضة لما عاد توماس فى أغسطس من هذا العـام من بوالى البيت . وكانت تحب هذا الأخ وتحترمه . وقد عرف أيضا ألمها فى سفرها من ترافيمنده واحترمه ، ورأت فيـه من كل قلبهـا مدير البيت التجارى فى المستقبل ورب الاسرة فى يوم من الايام .

قال : « نعم ، نعم ، اننا كلينا قد خضنا أشياء كثيرة يا تونى ... » ثم رفع حاجبا وترك السيجارة الروسية تنتقل الى الزاوية الاخرى فى فمه ، وكان فى الراجح يفكر فى بائعة الازهار الصغيرة ذات الوجه الملايى التى تزوجت من أمد وجيز من ابن صاحب المحل واستقلت بادارة دكان الازهار الكائن فى « حارة الصيادين »

وتوماس بودنبروك ، وكان ما يزال شاحب اللون قليلا ، ظاهرة أنيقة تلفت أناقتها الانظار . وقد بدا أن هذه السنوات الاخيرة قد أكملت تربيته . فكان يقع فى نفس رائيه أنه عسكرى بتسريحته المفرشة فوق الاذنين الى ربوتين صغيرتين ، وشاربه المفتول على الطريقة الفرنسية تماما والمشدود بمكواة فى اتجاه أفقى ، وقامته الربعة العريضة المنكبين تقريبا . لكن عروقه المزرقة البارزة جدا فوق سالفيه الضيقين اللذين يرتد شعره منهما على شكل جونين وميله الخفيف الى الارتعاش ، وهو ما كافحه الدكتور جرابو الطيب عبثا ، كان يشير الى أن بنيته لم تكن قوية بشكل ملحوظ . أما ما يتعلق بتفاصيل تكوين الجسم كالذقن والانف واليدين خاصة ... وهما يدان بودنبروكيتان أصيلتان كل الاصالة ـ فان شبهه بجده كان بارزاً كل البروز .

وكان يتكلم لغة فرنسية فيها نبرة أسبانية ويدهش كل مرىء بهوايته لكتاب حديثين يميلون الى السخر والجدل .. ولم يكن يفهم نزعته هذه فى المدينة سوى السيد جوش السمسار العبوس . أما أبوه فكان ينحى عليهما انحناء بالغ الشدة .

ولم يمنع هذا من أن يرى فى عين القنصل ما كان يشعر به نحو ابنه الأكبر من فخر وسعادة ؛ فقد حياه عقب وصوله فى تأثر وفرح بوصفه معاونه الجديد فى مكاتبه التى جعل هو نفسه يعمل فيها برضا أكبر من ذى قبل ، وخاصة بعد موت مدام كروجر العجوز فى نهاية العام .

وكان لابد من تحمل الخسارة فى السيدة المسنة برباطة جأش ، اذ كانت قد بلغت أرذل العمر ، وكانت تعيش وحدها أخيرا . صعدت روحها الى بارئها وقد خلفت لآل بودنبروك مالا كثيرا يبلغ ١٠٠ر٠٠٠ ريال كاملة عززت رأسمال العمل فى المتجر تعزيزاً مرموقاً جداً .

ونتيجة أخرى من نتائج هذه الوفاة أن يوستوس ، صهر القنصل ، صفى أعماله وأخلد الى الراحة بمجرد أن باتت فى يده بقية ارثه ، تعبا من فشله المتواصل فى أعماله . ولم يكن يوستوس كروجر المستهتر ابن الفارس الانيق ، المحب المحباة ، رجلا سعيدا جدا . اذ عجز لدماثة خلقه وحياته السهلة المرحة عن أن يخلق لنفسه فى عالم التجارة مركزا أمينا ، متينا ، لا يعتوره شك .. وقد

بدد جانبا كبيرا من ميراثه عن والديه سلفا ، ثم زاد عليه أخيرا أن سبب له يعقوب ـ أكبر أبنائه ـ هما مقيما .

فهــذا الشاب الذى اتخذ فيما يظهر فى هامبورج الكبرى صحابا لا خلاق لهم قد كلف والده مع الايام مبلغا طائلا من الماركات . وحين كان القنصل كروجر يأبى أن يدفع أكثر مما دفع ، وتنفح الزوجة الضعيفة الحانية هــذا الابن المفكك فى السر بمبالغ أخرى من المال ، كانت تنشب بين الزوجين خلافات محزنة . ولكى تترع الكأس حدث فى نفس الوقت الذى توقف فيه بندكس جرينليش عن الدفع تقريبا ـ حدث فى هامبورج حيث كان يعقوب كروجر يعمل عند دلبك وكومب ، شيء آخر ، شيء ردىء ... اعتداء منكر .. لزم فيه من يعنيهم الامر الصمت ، ولم يوجهوا فيه أسئلة الى يوستوس كروجر ؛ لكنه قيل ان يعقوب حصل فى نيويورك على مركز وكيل تجارى وأنه سيسافر عما قريب . وقد رؤى مرة فى المدينة قبل سفره حيث رجح أنه ذهب اليها ليحصل من أمه على مزيد من المال فوق الذى أرسله اليه أبوه للسفر . وكان فتى خليع اللباس سقيم المنظر .

وصفوة القول أن الامر وصل الى أن القنصل يوستوس كان يقول « ابنى » فقط كأن ليس له سوى ابن واحد ، يعنى بذلك يبرجن الذى لم يرتكب فى الحق جريمة قط ، لكنه كان ضيق الذهن . فقد حصل على الشهادة الثانوية بمشقة وكان يقيم فى يينا من أمد وجيز ، حيث كان يتوفر على دراسة القانون دون ميل كبير أو نجاح كما كان يلوح .

وقد كان يوهان بودنبروك شــديد الالم لمـا آلت اليه أسرة زوجه من حال لا تشرفها كثيرا ، يتوجس من ثم خيفة قلقا على ولديه . وقد كان من حقه أن يثق الثقة كلها بمهارة ابنه الاكبر وحده. أما مايتعلق بكريستيان فقد كتب مستر ريتشاردسن يقول ان الفتى قد أتقن اللغة الانجليزية وأبدى موهبــة أكيدة ، لكنه لا يبدى دائما اهتماما كافيا بالعمل، ويظهر ضعفا ملحوظا جدا حيال تسليات المدينة العالميــة ، كالمسرح على ســبيل المثال .

وقد دل كريستيان نفسه فى رسائله على حاجة ملحة الى التجوال ورجا بحرارة أن يؤذن له فى قبول وظيفة « هناك » أى فى أمريكا الجنوبية وربما فى شيلى . لكن القنصــل قال ان هــذا منه تعلق بالمغامرة ؛ وأمره أن يكمل أولا معارفه التجارية عند المستر ريتشاردسن فى خلال سنة رابعة . وقد تبودلت عندئذ بضــع رسائل عن خططه ؛ وفى صيف ١٨٥١ أبحر كريستيان بودنبروك بالفعل الى فالباريزو حيث حصّل على وظيفة . وقد سافر رأســا من انجلتره دون أن يعرج قبل ذلك على وطنه .

بيد أن القنصل ؛ بغض النظر عن ولديه ؛ لاحظ مع الارتياح كيف كانت تونى تدافع عن مركزها فى المدينة بكل تصميم وشعور بالذات كابنة من بيت بودنبروك ··· وقد كان عليها طبعا أن تتغلب بوصفها امرأة مطلقة على كثير من الشماتة والتحامل من جانب الأسر الأخرى ·

قالت لما عادت من نزهة على الاقدام محمرة الوجه : « أها ! » وألقت قبعتها على الاريكة فى حجرة التأملات ··· «ان مولندروف هذه المولودة فى أسرة هاجنشتروم وسميلنجر ؛ هذه المسماة جوليا ؛ هذه المخلوقة ··· مارأيك فيها يا أماه ! انها لاتحييني ··· كلا ؛ انها لاتحييني ! انها تنتظر أن أحييها أنا أولا ! فماذا تقولين فى ذلك ؟ لقد مررت بها فى الشارع العريض رافعة الرأس ونظرت رأسا فى وجهها ··· »

« انك تذهبين الى أبعد مما ينبغي ياتونى ··· كلا ؛ ان لكل شيء حدوده · لماذا لم تحيى مدام مولندروف أولا ؟ انك من لداتها ؛ وهى سيدة متزوجة كما كنت أنت ··· »

«أبدا يا أماه ! رباه ، هذه النفاية !»

« كفى يا عزيزتى ! هذه العبارات الخشنة ··· »

« أوه ، ألا يمكن أن يجمح المرء ! »

ان كراهيتها لهذه الأسرة الصاعدة قدغذاها مجرد تصورها أن آل هاجنشتروم ربما كانوا يشعرون بأن من حقهم أن ينظروا اليها من عل ، وخاصة للحظ الذى جعل هذا البيت يتدرج فى معارج الرقى · فقد مات هينريش الشيخ فى أوائل عام ١٨٥١ فأدار هرمان ··· هرمان صاحب خبز الليمون واللطمة متجر الصادر الناجح الى جانب السيد شترونك ، وتزوج بعد ذلك بأقل من عام من ابنة القنصل هونيوس أغنى رجل فى المدينة · وقد وصل بتجارته فى الخشب الى أن يستطيع أن يخلف لكل من أولاده الثلاثة مليونين · وأخوه موريتس كان فى دراسته طالبا ممتازا على الرغم من ضعف صدره ، ثم استقر فى المدينة عالما من علماء القانون · وهويعد من الرؤوس الرائقة الماكرة الفكهة بل الألمعية ، وزاول بسرعة عملا كبيرا ؛ فليس فى مظهره شيء من أسرة سميلنجر لكن له وجها أصفر وأسنانا حادة فلجاء ·

بلى انه لمن تقاليد الاسرة — أسرة بودنبروك — أن يكون المرء فيها مرفوع الرأس · ومنذ عاش العم جوتهولد بعيدا عن الاعمال يجوب مسكنه المتواضع على ساقيه القصيرتين وفى سراويله الفضفاضة ، ويأكل من علبة من الصفيح « بومبونا للصدر » لأنه يحب الحلوى كثيرا — باتت نفسيته نحو أخيه من

أبيه ، ذلك الأخ المفضل ـ أهدأ مع الايام ، وأكثر استسلاما ؛ وهو ما لم يمنع أن يستشعر حيال زواج تونى الفاشل شيئا خفيا من الارتياح بالنظر الى بناته الثلاث اللواتى لم يتزوجن • لكننا لكى نتناول بالكلام زوجته التى من أسرة شتيونج ،' وعلى الاخص بناته الثلاث البالغات السادسة والثلاثين والسابعة والثلاثين والثامنة والثلاثين على التوالى ، نقول انهن قد أبدين بالنسبة لمصاب ابنة عمهن وقضية طلاقها اهتماما يكاد ينطوى على الغلو ، أبلغ كثيرا مما أبدين جليا يوم الخطبة ويوم الزفاف نفسه • وفى أيام الاطفال التى باتت تنعقد ثانية فى أيام الخميس فى شارع منج منذ وفاة السيدة كروجر الكبيرة لم تكن تونى نحوهن فى مركز سهل للدفاع عن نفسها •••

كانت فيفى الصغرى القصيرة البدينة ـ وكان لها أسلوب مضحك هو أن تهتز مع كل كلمة ويسيل لعابها من زاويتى فمها ـ كانت تقول : «يا للمسكينة ! اذن لقد نطق بالحكم ؟ اذن بت بالضبط كما كنت من قبل ؟ »

وكانت هنرييت التى تشبه أختها الكبرى فى قامتها المديدة العجفاء البالغة الطول والنحول تقول : « أخ ، بالعكس ، انك فى هذه الحالة أشد أسى مما لو كنت لم تتزوجى اطلاقا • »

وكانت فريدريكا تؤكد : « يجب أن أقول هذا ، ان من الخير كل الخير ألا يتزوج المرء • »

فتقول تونى وهى تطرح رأسها الى الوراء بعد اذ فكرت فى جواب سديد محكم الصيغة : « لا يا عزيزتى فريدريكا ! انك تقعين عندئذ فى غلطة لا ريب فيها ، أليس كذلك ؟ لقد خبر المرء الحياة على كل حال ، أتعلمين ! ان المرء لم يعد غبيا ! هذا الى أنه ما يزال عندى فى أن أتزوج ثانية أمل أكبر مما يحدو من يتزوج لأول مرة • »

وقالت بنات العم : « كذا ! » بصوت واحد ، ونطقنها بصورة جعلتها أحد وأكثر امعانا فى عدم التصديق •

أما زيزى فيشبروت فكانت أطيب وألبق من أن تذكر المسألة ولو مجرد ذكر • فقد كانت تونى تزور مربيتها السابقة أحيانا فى المنزل الصغير الاحمر الواقع فى ميلنبرونك رقم ٧ وكان ما يزال آهلا بعدد من الفتيات الصغيرات ، وان كان المثوى قد أخذ يخرج عن النهج الحديث قليلا قليلا • كذلك كانت

الفتاة المسنة الحاذقة تدعى الى شارع منج على ظهر وعلى أو أوزة محشوة بين الحين والحين ، فتنهض بعدئذ على اطراف أصابعها ، وتقبل تونى فى تانر قبلة معبرة ترن فوق جبينها رنينا خافتا • أما ما يتصل بأختها غير المتعلمه مدام كيتلسن فقد جعل الصمم تشتد عليها وطأته أخيرا فلم تفقه شيئا تقريبا من قصة تونى • كانت تطلق ضحكتها خالية الذهن تكاد ترن بالشكوى فى مناسبات غير ملائمة من فرط طيبتها فترى زيزيمى نفسها مضطرة على الدوام الى أن تدق على المائدة تصيح بها « نلى » •

ومرت السنون وتلاشى الأثر الذى خلفته حكاية ابنة القنصل بودنبروك فى المدينة وفى الأسرة شيئا فشيئا • وكانت تونى لاتذكر زواجها الا الفينة بعد الفينة ، حينما تلاحظ فى وجه ايريكا الصغيرة النامية هذا الشبه أو ذاك بيندكس جرينليش • لكنها عادت ترتدى الملابس الزاهية وتموج شعرها ثانية فوق الجبين وتزور كسابق العهد المجتمعات فى محيط معارفها • وعلى كل فقد كانت جد فرحة بأن تتاح لها الفرصة لمغادرة المدينة صيفاً فى كل عام لمدة طويلة ••• ذلك أن صحة القنصل كانت للأسف تستلزم رحلات أخرى للاستشفاء •

كان يقول : « انى لا أعرف ما معنى أن يشيخ المرء ! ان قطرة من القهوة تقع على سروال ، لا أستطيع أن آتى فوقها بماء بارد من دون أن أعود من ذلك فى الحال بداء شديد فى المفاصل ••• فكم سمح المرء لنفسه فى الماضى بأشياء ! » كذلك كان القنصل يعانى أحياناً من نوبات الدوار •

وتوجه الى أوبرزالسبرون وايمز وبادن ـ بادن وكيسنجن وقام من هناك برحلة تثقيفية مسلية عبر نيرنبرج وميونيخ ماراً بسالسبورج الى ايشل وفيينا فبراغ ودرسدن فبرلين الى موطنه••• ومع أن مدام جرينليش كانت ، لضعف عصبى فى المعدة ، قد بدأ يبدو عليها أخيراً ، مضطرة الى الخضوع فى الحمامات لاستشفاء قاس ، فانها كانت تشعر بأن هذه الرحلات تبديل مرغوب فيه جداً ، ذلك أنها لم تكن تخفى البتة برمها بعض الشىء بالبقاء فى موطنها •

كانت تقول وهى تتأمل سقف الغرفة تفكر : « أوه ، ياربى ، أنت تعرف يا أبى كيف تجرى الحياة ! حقاً أننى قد عرفت الحياة ••• لكنه من أجل هذا بالذات يبدو لى الجلوس هنا دوما فى البيت شيئا سخيفا ومنظرا كدرا نوعا ما • لعلك لا تظن أنى أكره البقاء عندكم يا أبى ••• اذن لاستحققت الضرب ولكنت ناكرة للجميل الى أبعد حد ! لكنك تعلم ما هى الحياة ••• »

على أنهـا كانت تتضايق على الأخص من الروح الذى كان مظهـره الدينى يتزايد على الدوام فى بيت ابيها الفسيح اذ كانت نزعة التقوى عند القنصل تظهر أقوى وأشد كلما تقدمت سنه وازداد سقمه ؛ ومنذ تقدم بزوجه العمر بدأت هى الأخرى تستسيغ هـذا الاتجاه الروحى • وقد كانت الصـلاة على المائدة فى بيت بودنبروك مألوفة دائماً ، لكنه منذ أمد أصبح قانوناً أن تجتمع الاسرة صباحا ومساءا فى حجرة الافطار ومعها الخدم لتسمع من فم رب البيت فقرة من الانجيل • هذا الى تزايد زيارات القسس والمبشرين من عام لعام ، ذلك أن البيت السرى المحترم القائم فى شارع منج حيث ـ وهذا على الهامش ـ كان يقدم الطعام الشـهى ، كان معروفاً فى عالم الاصلاح اللـوترى الكهنوتى والارساليات الداخلية والخارجية بأنه يقرى الضيف • فكان يقصده من كافة نواحى البلاد فى شتى المناسبات سادة سود اللباس طوال الشعور ليقيموا فيه بضعة أيام ••• ضامنين أحاديث ترضى الله ، ووجبات مغذية ، ومعونة كبيرة لأغراض مقدسة • وكـذلك وعاظ المدينة كانوا يدخلون ويخرجون ضيـوفاً عليه •••

وكان توم من الرزانة والفهم بحيث يقتصر على ابتسامة يبديها ، أما تونى فكانت تهزأ بكل بساطة بل انه كان يروقها للأسف أن تتغفل رجال الدين كلما سنحت لها فرصة لذلك •

فأحياناً حين تعانى القنصلة وجعاً فى الرأس كان من شئون مدام جرينليش أن تعنى بادارة البيت وتختار قائمة الطعام • ففى ذات يوم وقد حل ضيفاً على البيت واعظ أجنبى تبعث شهيته على سرور الجميع ، أعدت فى خبث حساء خنزير وهو الطبق المحلى لأهل المدينة • وهو مؤلف من حساء الكرنب توضـع فيه ألوان الطعام كلهـا من شرائح خنزير مقـددة وبطاطس وشـمندور وقنبيط وبازلاء وفول وكمثرى وبرقوق حامض ويعلم الله ماذا من عصير وخلافه • طبق لا يستسيغه على وجه البسيطة من لم يعتده منذ الطفولة •

وكانت تونى لاتنى تسأل الضيف : « أيعجبك الطعام ياسيدى القسيس ؟ أطيب المذاق ؟ كلا ؟ يارباه » من كان يظن هـذا ! » ويبدو على وجههـا خبث الصغار ، وتدع طرف لسانهـا يعابث شفتها العليا ، شأنهـا كلما فكرت فى « مكيدة » أو نفذتها •

ووضع القسيس البدين الملعقة مستسلماً وقال فى براءة : « سأتناول من الطبق التالى • »

فبادرت القنصلة الى القول : « انه ليس ثم سوى طبق صغير من الحلوى ؛ ذلك أنه لم يكن من المعقول أن يتلو مثل هذا الحساء طبق ما ، وعلى الرغم مما تلا من حلوى « الفرسان الغلابة » مع هلام التفاح فان القسيس المخدوع لم يملك سوى النهوض عن المائدة دون أن يشبع » بينما كانت تونى تضحك خفية وتوم يضبط نفسه برفع حاجب من حاجبيه ٠

وفى مرة أخرى كانت تونى تقف مع الطاهية شتينا تتحدثان عن شئون البيت فى الردهة واذا بالقس ماتياس المقيم فى كانشتات ، وكان ينزل بالبيت مرة أخرى لبضعة أيام ، عائد من خرجة ، يدق جرس الباب ٠ فذهبت ترينا لتفتح وهى تخوض فى مشيتها كعادة أهل الريف فسألها القس فى لطف يريد مباسطتها وامتحانها قليلا : « أتحبين السيد ؟ » ولعله قصد أن ينفحها بشىء لو وجدها مخلصة للسيد المسيح ٠

فقالت ترينا مترددة : « نعم ياحضرة القسيس ٠٠٠ » واحمر وجهها وفتحت عينيها « أيهما تعنى اذن ؟ الكبير أو الصغير ؟ »

ولم يفت مدام جرينليش أن تروى هذه النادرة على المائدة حتى أن القنصلة لم تتمالك نفسها من الاغراق فى الضحك على نحو ما يفعل آل كروجر ٠

أما القنصل فخفض بصره فوق طبقه بالتأكيد ، جاداً ساخطاً ٠

وقال القس ماتياس مرتبكاً : « سوء فهم ٠٠٠ »

الفصل الحادى عشر

ووقــع مايلى فى مرحلة متأخرة من صــيف عام ١٨٥٥ فى عصر يوم من أيام الآحاد • كان آل بودنبــروك يجلسون فى حجرة المناظر الطبيعية ينتظرون القنصل ، وكان مشغولا بارتداء ملابسه تحت ، اذ تواعد آل بودنبروك مع أسرة كستنماكر على مشروع من مشاريع الأعياد ، نزهة فى حديقــة للتسلية أمام « باب القصر » • واتفقوا فيما خلا كلارا وكلوتيلده اللتين كانتا فى كل يوم أحد تنسجان جوارب فى بيت احدى الصديقات لأطفال صغار من الزنوج ـ اتفقوا على أن يتناولوا القهوة هنــاك ، وربما خرجوا ، اذا سمح الجو ، الى نزهة تجذيف فى النهر •

وقالت تونى : « ان أبى هــذا لا يحتمل » لاجئة كعادتهــا الى ألفاظ قوية « ألا يستطيع مرة أن يكون متأهبا فى الموعد المضروب ! انه يجلس الى مكتبه •• ويظل جالســا لا يبارحه ••• لأن هذا أو ذاك من الأمور يجب أن ينجز ••• يا الله ، لعل هذا ضرورى ، وكأنى لم أقل شيئا ••• وان كنت لا أعتقد أن علينا أن نشهر افلاسنا فى الحال ، اذا هو وضع القلم قبل أوانه بربع ساعة ••• انه حين يتأخر عشر دقائق عن الميعاد ويخطر موعده بباله يصعد الدرج قفزا ، درجتين درجتين ، وان كان يعلم أنه يصيبه الاحتقــان والخفقان بعــد الصعود ••• هذا مايقع منه قبــل كل اجتماع وقبــل كل خروج ! ألا يتيح لنفسه الوقت الكافى ؟ ألا يسعه الخروج فى الميعاد والاتئاد ؟ ان هذا لا يدل على شعور بالمسئولية ، فلو كان زوجى لحركت ضميره بصورة جدية ياماما !••• »

كانت تجلس مرتدية حريرا متلونا يطابق البدع السائد (الموضة) ، وتجاور القنصلة على الاريكة • وكانت القنصلة من جانبها تلبس ثوبا أثقــل وزنا من الحرير الرمادى المضلع المشغول بالدنتيلا السوداء • وكانت أطراف قبعتهــا المصنوعة من الدنتيلا والتل المنشى المربوطة تحت ذقنها بشريط من الاطلس تتدلى فوق صدرها ، وكان شعرها المفروق المصقول لا يتغير لونه الأشــــقر الأحمر ، وفى يديها البيضاوين اللتين تبدو عروقهما مزرقتين ازرقاقا خفيفا ، بونبونيرة ، وبجانبها توم سائدا ظهره فى كرسيه الساند يدخن سيجارته ، بينما كلارا وتيلده تجلسان متقابلتين بجوار النافذة • وكان من غير المفهوم أن تتناول كلوتيلده المسكينة كل يوم مثل طعام البيت الطيب الدســم ولا يمرى عليها ، فهى تزداد على الدوام نحولا ، وثوبها الأسود الردىء التفصيل لاتجمله

هذه الحقيقة الواقعة • هذا الى أنف مستقيم ذي مسام ، متضخم عند الأرنبة ، تحت رأس مشدود الشعر بلون الرماد في وجه مستطيل هادىء اغبر اللون ••

وقالت للارا : « اترين ان السماء لن تمطر ! » وكان من عادة الفتاة الصغيرة الا ترفع صوتها عند السؤال قط بل تنظر في وجه كل واحد نظرة معينة قاسية تقريبا • وكان ثوبها البنى مزدانا فحسب ببنيقه مستقرة صغيرة بيضاء منشاة وقلابات على هذا الغرار • كانت جالسة في استقامة تضم يديها في حجرها • وكانت الخادمات يخشينها أكثر مما يخشين سواها ، وتؤدي الصلاة صباح مساء ، ذلك ان القنصل لم يعد يستطيع أن يتلوها من دون ان يشكو صداعا •

وعادت الى السؤال : « أتأخذين معطفك هذا المساء ياتوني ! فالسماء ستمطر ••• خسارة هذا المعطف الجديد • انى أرى من الاصوب أن ترجئوا نزهتكم ••• »

ورد عليها توم بقوله : « كلا ، ان آل كستنماكر آتون •• لا بأس ••• فقد هبط البارومتر فجأة ••• كارثة ما صغيرة ••• لا تلبث السماء بعدها أن تطلع • ان أبى لم ينته بعد • حسن ، نستطيع أن ننتظر حتى يفرغ • »

ورفعت القنصلة احدى يديها تعارض مستعيذة : « أتعتقد أن الجو سيتغير ياتوم ؟ اخ ، انك تعلم ان هذا يخيفنى • »

قال توم : « كلا ، لقد تكلمت صباح اليوم في الميناء مع القبطان كلوب ، وهو لا يخطىء • ان الأمر لايعدو هطلة مدرارة ••• لا تصحبها ريح قوية •• »

لقد أتى هذا الأسبوع الثانى من سبتمبر بأيام متأخرة رديئة وقد أناخ أغسطس على المدينة بأثقل مما فعل يوليه في ريح جنوبية شرقية فأضاءت فوق الجمالونات سماء قاتمة الزرقة بصورة غريبة ، شاحبة الأفق كما هو الشأن فى الصحراء • وبعد غروب الشمس شعت البيوت والأرصفة فى الشوارع دفئا خافتا كأنها أتون ••• واليوم تحولت الريح الى الغرب كل التحول وهبط البارومتر فى نفس الوقت هذا الهبوط المفاجىء ••• بيد أن رقعة كبيرة من السماء كانت ما تزال زرقاء ، لكن كتلة من السحب الزرقاء الغبراء كانت ترتفع منتفخة طرية كالوسادة •

وأضاف توم : « انى أجد أيضا أنه لو نزل المطر لكان هذا على مايرام • فنحن خلقاء أن يضنينا هذا الهواء اذا سرنا فيه • فهو دافىء دفئا غير طبيعى ولم نشهد مثله فى بو ••• »

فى هذه اللحظة دخلت ايدا يونجمان الى الغرفة وبيدها الصغيرة ايريكا •

وكانت الطفلة مندسة فى ثوب قطنى منشى حديثـــا تفوح منه رائحة النشـــا والصابون ويبدو منظرها مستحبا جدا . فلها تماما اللون الوردى الذى للسيد جرينليس وعيناه ، لكن شعرها أغبرا كانت نسخة تونى .

وكانت ايدا الطيبة قد شاب شعرها تماما ، فهو ابيض تقريبا وان لم تتجاوز الاربعين، لكن هذا فى اسرتها نمطي : كانت عمها الذى قضى نحبه كمدا ، شاب شعره فى الثلاثين : هذا الى ان نظرة عينيها الصغيرتين ، العسليتين كانت تدل على الوفاء والحياة واليقظة . وقد بات لها الآن عشرون عاما عند آل بودنبروك وهى تفخر بانها لا يستغنى عنها ، فقد كانت تشرف على المطبخ وقاعة الطعام وخزائن البياضات والصينى ، وكانت تقوم بالمشتريات المهمـــة ، وتقرا لايريكا الصغيرة ، وتحيك لها ملابس العرائس ، وتعمل معهـــا ، وتحضرها ظهـــرا من المدرسة مزودة بربطة من خبز فرانتس المموّن . وكانت كل سيدة تقول للقنصلة بودنبروك او لابنتها : «يا لها من آنسة هذه التى عندكم ياعزيزتى! انها تساوى وزنها ذهبا ، هذا ما أقوله لك! عشرون سنة !... ستكون فى الستين وما بعدها ما تزال قوية ! هؤلاء الناس ذوو العظام ... ثم هـــذه العيون الوفية ! انى أحسدك ياعزيزتى ! » لكن ايدا يونجمان كانت تعرف قيمة نفسها . كانت تعرف من هى . فاذا جلست خادمة عادية مع ربيبها على نفس المقعد الذى تجلس عليه فى ميلنفال وأرادت ان تتجاذب معها أطراف الحديث كمن يخاطب نـــدا ، قالت الآنسة يونجمان « ايريكا ! هنا تيار » وانصرفت بها .

وجذبت تونى ابنتها الصغيرة اليها وقبلتها فوق احدى وجنتيها الورديتين ، ثم مدت اليها القنصلة على الاثر راحة يدها وهى تبتسم لها ابتسامة شتيتة .. ذلك أنها كانت تراقب السماء وهى قلقة اذ تتزايد فيها الغيوم . وكانت يدها اليسرى تعبث فى حالة عصبية بحشايا الاريكة وعيناها الصافيتان تجولان فى اضطراب من الجنب الى النافذة .

وسمح لايريكا بالجلوس بجانب جدتها ، واتخذت ايدا مجلسهـــا على كرسى دون أن تسند ظهرها اليه وجعلت تشتغل بالابرة . وهكذا جلس الجميع برهة صامتين ينتظرون القنصل . وكان الهواء مقبضا ، وفى الخارج قد اختفت آخر قطعة زرقاء من السماء الشـــديدة الغيم التى كانت تبسط رواقها على الأرض قريبة ، ثقيلة ، ملبدة . وقد بهتت ألوان الحجرة وانطفأت أصباغ المنـــاظر الطبيعية من ورق الحيطان ، وذهبت صفرة الاثاث والستائر ولم تعد الظلال فى ثوب تونى تتراقص ، وباتت أعين الحاضرين باهتة اللون . والريح ، الريح الغربية التى كانت تعبث هناك بالاشجار فى فناء كنيسة مريم وتسفى فى الشارع المظلم فتثير الغبار فى الجو حلزونات صغيرة ، سكنت مرة واحدة ، وساد الهدوء التام برهة .

هنا حلت بغتة هذه اللحظة ··· وحدث شيء لم يسمع له حس، شيء مرغيب ؛ فقد تضاعف الشعور آنئذ بالزمته وأحست الأجواء وكأنها تضغط ضغطاً ارتفع في ثانية واحدة ارتفاعاً سريعا أرعب المخ وأرهق القلب وكتم الأنفاس ··· وكان طير من طيور السنونو يرفرف فوق الشارع »، ويداني بلاطه الى حد أنه كان يلطمه بجناحيه ··· هذا الضغط الذى لم يكن منه انفراج ، هذا التوتر « هذه المضايقة الطاغية للمتعضى ـ هذا كله كان خليقا ألا يحتمل لو أنه طال أكثر مما طال أدنى جزء من لحظة ولو لم يتل منتهاه الذى بلغه فى لمح البصر فرج وتخلفه طفرة ··· انشقاق وقع فى مكان ما واعتقد الناس أنهم يسمعونه كذلك ··· لو لم ينهمر في نفس اللحظة غيث كاد ألا يسبقه قطر حتى أزبد الماء فى مجاريه وطغى على الأرصفة ···

وتوماس الذى عوده مرضه على تعقب انفعالات أعصابه ، انحنى في تلك الثانية الى الامام ، وحرك يده نحو رأسه ورمى بلفافة تبغه · وتلفت حوله لعل الآخرين شعروا بما شعر هو به ، وانتبهوا اليه · وقد ظن أنه لاحظ شيئا على أمه ، أما من عداها فبدا أنهم لم يعوا شيئا · كانت الأم تنظر اذ ذاك الى الخارج في المطر الغزير الذى كان يحجب كنيسة مريم تماما · وتتنهد قائلة : « الحمد لله ! »

وقال توم : « هكذا · سيبرد الجو فى دقيقتين ، وتعلق القطرات بالأشجار · وسنتناول القهوة في الشرفة · تيلده افتحى النافذة ! »

ونفذ صوت المطر الى الداخل أعلى وقعا ، وصخب صخبا صريحا · وهدر كل شيء وتلاطم ، ورز وأزبد ، وانطلقت الريح ثانية وشقت فى هبوبها قناع الماء الكثيف ومزقته ، وبددته فى طريقها ، وأتمت كل دقيقة بتلطيفة جديدة ·

هنا جاءت لينا ، التابعة لينا تعدو في بهو الأعمدة وتقتحم الحجرة فى هوج ، حتى صاحت ايدا يونجمان مهدئة لائمة : « ما خطبك بربك ! ··· »

وكانت عينا لينا الزرقاوان الخاليتان من التعبير تحملقان وفكاها تصطكان برهة من دون كلام ···

« أخ ياسيدتي القنصلة ! أحقا ! تعالسوا بسرعة ··· أحقاً ياربي · ماذا جنيت ! ··· »

فقالت تونى : « حسنا · انى أراها قد أتت وزرا جديدا ! كسرت فى الداجع بورسيلينا ثمينا ! لا يا أماه ، ان خدمك ··· ! »

لكن الفتاة صرخت هالعة : « لا ، لا يامدام جرينليش ··· ليت الأمر كان هكذا ··· انما هو يتعلق بالسيد ، فقد أردت أن أحضر له الحذاء » وكان جالسا على الكرسى الساند لا يستطيع الكلام » ·

فصاح توماس : « الى جرابو ! » وانطلق الى الخارج من الباب ·

وصاحت القنصلة : « رباه ، رباه » وشبكت يديها بجانب وجهها وأسرعت الى الخروج ·

وردد توماس مبهور الانفاس : « الى جرابو ··· فى مركبة ·· فى الحال! »

وهبطوا الدرج ودخلوا حجرة الافطار الى مخدع النوم ·

لكن يوهان بودنبروك كان قد لقى ربه ·

الجزء الخامس

الفصـل الأول

قالت القنصلة : « عم مساء يا يوستوس • أبخير أنت ؟ اجلس ! »
وعانقها القنصـل كروجر فى رقة وخفة ، وهز يد ابنة أختــه الكبرى التى كانت موجودة كذلك فى قاعة الطعام • وكان اذ ذاك فى الخامسة والخمسين من عمره ، يطلق الى شاربه الصغير لحية عارضية قوية مستديرة تترك ذقنه خالية ، ويخطها الشيب تماما • وكانت على صلعته العريضة الوردية بضعة خيوط هزيلة من الشعر مسرحة ، وعلى كم سترته الأنيقة شريط حداد عريض •

وسألها : «أتعرفين الجديد يابتسي؟ ان هذا يهمك كثيرا ياتونى • بالايجاز ، ان أرضنا الواقعة أمام « باب القصر » قد بيعت ••• لمن ؟ لا لرجل واحد بل لاثنين لأنها ستقسم ، فيقتطع البيت ويقام سياج معترض ، ثم يقيم التــاجر بنتيين عن اليمين والتاجر ، زورنسن عن الشمال كوخا حقيرا ••• والآن على بركة الله • »

فقالت مدام جرنيليش وهى تشـبك يديهـا فى حجرها ، وترفع بصرها الى السقف : « عجيب ••• قطعة أرض جدى ! ••• بهذا يكون الملك قد تبدد • ان فتنـة المكان كانت بالـذات فى ترامية ••• وهو ما لم يكن له فى الحقيقة ضرورة ••• لكنه كان من مقتضيات الوجاهة • الحديقة الكبيرة الممتدة الى نهر تراڤيه ••• والبيت القائم فى المؤخرة مع المصعد ، وطريق الكستناء ••• فالآن تقسم الأرض اذن ، فيقف بنتيين على باب يدخن غليونه ، ويقف زورنسن على الآخر••• بلى انى أقول أيضا : «على بركة الله » يا خالى يوستوس • فلم يعد أحد من الوجاهة بحيث يسكن الأرض جميعها • والحمد لله أن جدى لم يعد يمكنه أن يشهد هذا ••• »

وكان الحـداد مازال مخيما رهيبـا لا يسمح لتونى بأن تعبر عن استيائها بكلمات أعلى وأقوى• كان ذلك فى يوم فض الوصية بعد وفاة القنصل بأسبوعين وفى منتصف السادسة بعد الظهر • وكانت القنصلة بودنبروك قد دعت أخاها الى موافاتها فى شارع منج ليشترك مع توماس والسيد ماركوس الوكيل فى

اجتماع للنظر فيما أوصى به الفقيد وفى حالة ثروته • وقد أعلنت تونى تصميمها على الاشتراك فىالمداولات • وهى على حد قولها ، مدينة بهذا الاهتمام للبيت التجارى وللأسرة على السواء ، معنية بأن تكسب هذا الاجتماع صفة الجلسة أو مجلس الأسرة ، فأسدلت ستائر النوافذ ، وأضاءت على الرغم من مصباحى الغاز القائمين على مائدة الطعام المفتوحة ، المغطاة بالقماش الأخضر ، كل الشموع الموجودة فى الشمعدانات الكبيرة المذهبة ، مبالغة فى الاحتفال • هذا الى كمية كبيرة من ورق الكتابة وأقلام الرصاص المبرية وزعتها على المائدة من دون أن يعلم أحد فيم يكون استعمالها فى الحقيقة •

وكان ثوبها الأسود يجمل قامتها بنحافة البنات ، ومع أنها ربما كانت أشد من الآخرين تألما لموت أبيها ـ وقد كانت فى السنوات الأخيرة بهذا القرب الى قلبه ـ وأنها الى الآن قد سكبت دموعها الحارة مرتين لمجرد تذكره ، فان انتظار اشتراكها فى هذا المجلس الصغير وهذا الاجتماع الجدى ، كسا خديها الجميلين بلون الورد ، وأشاع الحياة فى نظراتها ، وأكسب حركاتها غبطة وأهمية ••• أما القنصلة فكانت على النقيض من ذلك تعانى ، قد هدها الخوف.وبرح بها الألم ، وأنهكتها آلاف الرسميات التى اقتضاها الحداد ، والاحتفالات التى استلزمها الدفن • فبدا وجهها وقد أحاطت به الدنتيلا السوداء فى أشرطة قبعتها ، أشحب ، وكانت نظرات عينيها الزرقاوين الرائقتين غير لامعة ، لكن شعرها المفروق المشدود ، الأشقر الأحمر ، لم تر فيه الى الآن شعرة بيضاء واحدة ••• فهل كان هذا من فعل الصبغة الباريسية أو كانت العارية ؟ هذا ما كانت تعلمه الآنسة يونجمان وحدها ، ولن تفشيه لسيدات البيت ولو مرة واحدة •

وجلسوا فى طرف مائدة الطعام ينتظرون مجىء توماس والسيد ماركوس من المكتب • وكانت صور الآلهة المرسومة تتميز على قواعدها بيضاء فخورة من مؤخرة اللوحة وسمائها الزرقاء •

وقالت القنصلة : « ان المسألة ياعزيزى يوستوس هى••• انى دعوتك••• ولأوجز ، فالمسألة تتعلق بكلارا الصغيرة • وقد ترك لى عزيزى المرحوم جان اختيار وصى لا تزال تحتاج اليه الفتاة خلال ثلاث سنوات ••• وانى لأعلم أنك لا تحب أن ترهق بالتزامات ، فعندك واجبات حيال زوجك وحيال ولديك ••• »

« حيال ولدى يا بتسى • »

« حسنا ، حسنا • يجب أن نكون مسيحيين ورحماء يا يوستوس وأن تصفح عن المسيئين كما هى الوصية • وفكر فى أبينا الذى فى السموات • »

ونظر اليها أخوها متعجبا بعض الشيء • فقد كانت مثل هذه العبارات قبل الآن تسمع من فم القنصل المرحوم •••

واستطردت تقول : « كفى ! انه لا يرتبط بهذه المهمة التى تحدوها المحبة متاعب تقريبا ••• فأرجوك أن تتولى الوصاية • »
« بكل سرور يا بتسى ، حقا ، بكل سرور أفعل هذا • ألا يسمح لى برؤية قاسرتى ؟ ان هذه الطفلة الطيبة جادة بعض الشيء أكثر مما ينبغى ••• »

ونوديت كلارا ، فظهرت شاحبة اللون لابسة ثياب الحداد ، تمشى متئدة ، وتأتى بحركات تدل على التحفظ الحزين • فقد كانت تقضى وقتها بعد وفاة أبيها فى صلاة متواصلة تقريبا تؤديها فى حجرتها • وكانت عيناها السوداوان بلا حراك ، قد تحجرتا فيما بدا من الألم وخشية الله •

فخطا اليهـا الخال يوستوس كيسا كمـا هو ، وكان ينحنى لهـا وهو يضغط يدها ، ثم وجه اليها بضع كلمات حسنة الصياغة • ورجعت من حيث أتت بعد اذ تلقت من القنصلة قبلة على شفتيها الجامدتين •

وعاودت القنصلة الكلام : « كيف حال يورجن الطيب ؟ كيف يجد نفسه فى قسمر ؟ »

فأجاب يوستوس كروجر اذ يعاود الجلوس ويهز كتفيه : « بخير • أظنه وفق الى مكانه • فهو غلام طيب يا بتسى ، غلام شريف ، لكنه ••• بعد أن أخفق مرتين فى الامتحان ، كان الخير كل الخير فى هذا ••• فدراسة القانون لم تكن تروقه ، ووظيفة البريد فى قسمر مقبولة كل القبول ••• قولى لى ، انى أسمع أن ابنك كريستيان قادم ؟ »

« نعم يا يوستوس انه قادم • فالله يصونه فى البحر ! آه لقـد طالت غيبته بصورة مخيفة ! ومع أنى كتبت اليه فى اليوم التالى لوفاة چان ، فانه لم يتسلم الخطاب بعد • وهو الى ذلك يحتاج بالسفينة الشراعية الى شـهرين تقريبا • لكنه لابد من مجيئه ، فانى شديدة الحاجة اليه يا يوستوس ! حقا لقد قال توم ان چان ما كان ليوافق قط على تركه ليسافر لوظيفـة فى ڤالباريزو • لكنى أرجوك : لقد مرت ثمانى سنوات تقريبا دون أن أراه • ثم بعد ذلك فى هـذه الظروف ! كلا ، انى أريدكم جميعا من حولى فى هذا الوقت العصيب ••• فهذا بطبيعة الحال بالنسبة للأم ••• »
فقال القنصل كروجر : « بالتأكيد ، بالتأكيد ! » ذلك ان عينيها اغرورقتا بالدموع •

واستطردت تقول : « والآن يوافق توماس أيضا . فأين يكون كريستيان .نيرا مقاما الا فى متجر المرحوم والده ، فى متجر توم ؟ ففى استطاعته البقاء هنا، والعمل هنا... آه ، انني دائما وجلة من أن يصيبه المناخ هناك بأذى... »

ودخل توماس بودنبروك مصحوبا بالسيد ماركوس الى القاعة . وكان فريدريك ولهلم ماركوس وكيل القنصل المتوفى رجلا فارع القوام ، يرتدى سترة بنية على كمها شريط الحداد ، وكان فى كلامه خافت الصوت مترددا يتلعثم بعض الشيء ويفكر طويلا فى كل كلمة ، اعتاد ان يمسح على شاربه الكستنائى الأحمر الذى يغطى فمه دون عناية بأصبعيه السبابة والوسطى المدودتين المستقيمتين من يده اليسرى فى بطء وحذر ، أو يفرك يديه بعناية محيلا عينيه العسليتين المستديرتين جانبا محاذرا حتى ليدخل فى الروع أنه فى غاية الاضطراب وشرود الفكر ، وان كان يقظا على الدوام فى فحصه للأشياء .

وكان توماس بودنبروك ، وقد بات فى سنيه الباكرة رئيسا للبيت التجارى الكبير ، يبدى فى مظهره ومسلكه شعورا جديا بمكانته . لكنه كان ممتقع اللون وكانت يداه خاصة — وفى احديهما يلمع الخاتم الكبير الموروث المرصع بحجر اخضر — بيضاوين كالقلابتين الباديتين من أكمامه السود ، شاحبتين شحوبا كالذى يخلفه الصقيع ، وتدلان دلالة تامة على مابهما من جفاف وبرد . وقد كان من الممكن أن تعبر هاتان اليدان اللتان كانت اظافرهما البيضاوية المعنى بها عناية كبيرة تبدى لونا مائلا الى الزرقة — تعبران فى لحظات بعينها ومواقف بعينها يعتريها شيء من التشنج وينقصها شيء من الوعى — تعبيرا يجل عن الوصف عن حساسية أبيه وتحفظ مشوب تقريبا بالخوف ، تعبيرا كان الى ما قبل ذلك غريبا عن أيدى آل بودنبروك العريضة تقريبا المشبهة أيدى المواطنين لكنها بديعة التكوين ، ولا يلائمها كثيرا ... وقد كان أول هم لتوم أن يفتح الباب ذا المصراعين المؤدى الى حجرة المناظر الطبيعية ليتيح للقاعة دفء الموقد الذى كان يتقد خلف السياج المصنوع من الحديد المطروق .

وسأله يوستوس كروجر : « اذن لايجوز بعد أن يخاطبك المرء بيا « حضرة القنصل » ؟ أفقدت الأراضى الواطئة الأمل فى أن تمثلها يا توم ؟ »

« نعم يا خالى يوستوس ! فقد فضلت هذا ... انظر ، لقد كان فى وسعى أن أتولى القنصلية فى الحال مع بعض الالتزامات الأخرى ، لكنى أولا مازلت صغير السن الى حد ما ... ثم انى تحدثت فى هذا مع عمى جوتهولد فسر وقبل . »

« معقول جدا يابنى ، وسياسى جدا ... مسلك الأماجد تماما . »

وقالت القنصلة : « ياسيد ماركوس ، ياعزيزى السيد ماركوس ! » ومدت يدها اليه التى قلبت راحتها بعيدة جدا فتناولها ببطء ، وبنظرة جانبية حذرة تدل على الامتنان « لقد دعوتك الى هنا ٠٠٠ وأنت تعلم بماذا يتعلق الأمر، وأعلم أنا أنك متفق معنا ٠ فقد أعرب زوجى المرحوم فى وصاياه الأخيرة عن رغبته فى أن تضع قواك الأمينة المحمودة فى خدمة بيتنا التجارى لا كمعاون غريب كما كانت الحال الى الآن بل كشريك ٠ »

فتكلم السيد ماركوس قائلا : « على التحقيق وبالتأكيد ياحضرة القنصلة ٠ وانى لأرجو بكل اخلاص أن تكونى مقتنعة بأن هـــذا التكريم لشخصى الذى ينطوى عليه هذا العرض يلقى منى التقدير والشكر ٠ ذلك أن الوسائل التى أستطيع أن أقدمها للبيت التجارى ضئيلة كل الضآلة ٠ ولست أعلم أمام الله والناس ما أفعله خيرا من قبول ما تعرضينه ويعرضه السيد نجلك مع أجزل الشكر ٠ »

فتكلم توماس قائلا فى عجلة وخفة : « أجل يا ماركوس ٠ واذن أشكر لك من قلبى استعدادك لتولى جانب من المسئولية الكبيرة التى ربما نوءت بها أكثر مما ينبغى ٠ » ومد يده عبر المائدة الى شريكه لأن كليهما متفقان على ذلك من أمد ، ولم يكن هذا كله سوى شكليات ٠

وقال القنصل كروجر : « يقولون « الشركة صعلكة » وستقضيان كلاكما على هذه السخافة ! والآن نريد أن نستعرض الأحوال ٠ وأنا هنا لأعنى ببائنة قاصرتى فحسب، وماعداها عندى سيان ، هل عندك نسخة من الوصية يابتسى ؟ وأنت يا توم حسبة بسيطة ؟ »

قال توم : «هى فى رأسى» وأخذ يشرح الموقف ، وهو يحرك قلمه الذهبى على رقعة المائدة هنا وهناك ، ويرسل بصره الى حجرة المناظر الطبيعية مستندا الى الوراء ٠٠٠

وكان الموضوع أن الثروة التى خلفها القنصـــل كانت أجسم مما كان يظن ٠ وطبعا لقد ضاعت بائنة ابنته الكبرى ، والخسائر التى تكبدها البيت التجارى فى تفليسة بريمن سنة ١٨٥١ كانت ضربة شديدة ٠ كذلك سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٥٥ الحالية قد جرت اضطراباتها ومجرى الحرب فيها الخسائر ٠ لكن نصيب بودنبروك فى تركة كروجر ومقداره ٤٠٠٫٠٠٠ مارك قد بلغ ٣٠٠٫٠٠٠ لأن يوستوس استهلك منه سلفا مبلغا كبيرا ٠ ومع أن يوهان بودنبروك كان دائما يشكو جريا على عادة التجار فقد عودلت الخسائر بمكاسب بلغت ٣٠٫٠٠٠ ريال

فى خمس عشرة سنه • وإذن فقد بلغت الثروة بغض النظر عن كل عقار مبلغا صحيحا قدره ٧٥٠٫٠٠٠ مارك •

بل ان توماس على كل ماكان يطلع عليه من سير الأعمال قد أخفى عنه مقدار هذه الثروة • وبينما كانت القنصله تتلقى هذا الرقم فى رزانة ، وتونى تنظر أمامها فى أجل وقار خلا من الفهم ، ولا تستطيع مع ذلك أن تنفى عن سيماها شيئا يدل على القلق معناه : هل هذا أيضا كثير ؟ كثير جدا ؟ هل نحن أيضا أثرياء ؟••• وبينما السيد ماركوس يفرك يديه فى تؤده ، مشتت الفكر فيما يظهر والقنصل كروجر يبدو عليه الضجر ، كان هذا الرقم الذى نطق به توماس يملأه فخرا أثار أعصابه وحركه وكاد يضايقه فقال بصوت متهدج ويدين مرتعشتين : «كان يجب أن نكون وصلنا من أمد الى المليون••• انه كان تحت تصرف جدى فى خير أوقاته ٩٠٠٫٠٠٠ مارك • وأية صفقات عقدنا هنا وهناك ! وبائنة ماما ! وميراثها ، آه ، لكن الخسارة الدائمة ••• يا الهى ، ان هذا من طبائع الأشياء • لا تؤاخذونى اذا كنت أتكلم فى هذه اللحظة فى مصلحة البيت دون سواها ، وأرفع الكلفة بعض الشىء ••• فهذه البائنات وهذه الدفعات التى أديت الى العم جوتهولد والى من فى فرانكفورت وهذه المئات والآلاف التى لم يكن بد من خروجها من المتجر ••• ولم يكن اذ ذاك لرئيس البيت سوى ولدين ••• كفى ، ان هناك أعمالا تنتظرنا يا ماركوس ! »

ان الحنين الى العمل والشوق الى الظفر والسلطان واشتهاء اخضاع الحظ قد التهب كله فى عينيه برهة واضطرم ، فقد شعر بأنظار الجميع متجهة اليه تترقب هل يرفع من مكانة المتجر ومنزلة الأسرة القديمة أو يحافظ عليها على الأقل • وكان فى البورصة تلقاه النظرات الشزراء من رجال الأعمال المسنين الطروبين المتشككين الساخرين بعض الشىء تتساءل فيما يلوح : « هل تتغلب على هذا الأمر يابنى ؟ » فيقول فى نفسه : نعم سأتغلب •

وفرك فريدريك ولهلم ماركوس يديه متئدا وقال يوستوس كروجر :
« هدىء روعك يا توم ! ان الزمن لم يعد كما كان اذ جدك مورد بروسى للجيش • »

وبدأ حديث مفصل عن فحوى الوصية جليلها وحقيرها ، حديث اشترك فيه الجميع ، وأبدى فيه القنصل كروجر حالة نفسية مرحة ، اذ كان يتكلم عن توماس دائما كما يتكلم عن حضرة صاحب السمو الأمير الحاكم من الآن فصاعدا ، وكان يقول « ان أرض المخازن تبقى للتاج من دون كلام طبقا للتقاليد • »

واقتضت نصوص الوصية فيما خلا ذلك وكما هو مفهوم ، أن يبقى كل شىء

ما أمكن مجتمعا ، وأن تكون السيدة اليصابات بودنبروك من حيث المبدأ وريثة عامة ، وتظل الثروة كلها مودعة فى العمل حيث أكد السيد ماركوس أنه يعزز رأس مال المتجر بمبلغ ١٢٠٠٠٠ مارك بوصفه شريكا • وقدخصص لتوماس ثروة خاصة مؤقتية بمبلغ ٥٠٠٠٠ ولكريستيان مثل هذا القدر اذا ما أراد أن يستقل في عمله ، وكان يوستوس كروجر نشطا فى هذا الأمر لما تليت الفقرة التالية : « ان تحديد مبلغ البائنة لابنتى الصغرى المحبوبة كلارا فى حالة الزواج أتركه لتقدير زوجتى المجبوبة » •

فاقترح : « لنقل مائة ألف » مستندا الى الوراء في جلسته واضعا ساقا على ساق » فاتلا بكلتا يديه شاربه الأشيب القصير • فكان الدماثة بعينها • لكن المبلغ المقرر حدد بثمانين ألف مارك •

وجاء فى الوصية بعد ذلك : « وفى حالة تزوج ابنتى الكبرى المحبوبة أنتونيا مرة أخرى يصنح ألا يتجاوز جهازها مبلغ ١٧٠٠٠ ريال بالنظر الى أنها سبق أن خصها فى زواجها الأول مبلغ ٨٠٠٠٠ مارك ••• » فحركت مدام أنتونيا ذراعيها الى الامام فى صورة أنيقة تدل كذلك على الانفعال ، كى ترد أكمام الثوب الى الوراء ، ثم رفعت بصرها الى السقف وصاحت : « جرينليش ــ هه ! » وكأنها صيحة حرب » أو نفخة مزمار • وسألت : « أتعرف فى الحق ياسيد ماركوس كيف حال الرجل ؟ كنا نجلس ذات عصر فى الحديقة أمام البوابة فى صفاء ••• أتعرف ياسيد ماركوس : بوابتنا • ــ حسنا ! فمن ذا حضر ؟ شخص له لحية عارضية بلون النضار ••• يا له من لص ! ••• »

فقال توماس : « كذا ! لندع الكلام عن السيد جرينليش لما بعد • أليس كذلك ؟ »

« حسنا ، حسنا ! لكنك توافقنى يا توم ، فأنت انسان عاقل ، وقد خبرت ان ليس كل شيء فى الحياة شريفا عادلا ولو أنى كنت قبل أمد وجيز مازلت ساذجة جدا • »

قال توماس : « أجل ••• » ومضى فيما كانوا فيه ، ودخلوا فى التفاصيل وعلموا بالنصوص الواردة فى الوصية عن انجيل الأسرة الكبير ، وعن أزرار القتصل الماسية وعن أشياء كثيرة أخرى ••• وبقى يوستوس كروجر والسيد ماركوس لتناول طعام العشاء •

الفصل الثانى

فى أوائل فبراير ١٨٥٦ وبعد غيبة ثمانى سنوات ، عاد كريستيان بودنبروك الى مدينة آبائه آتيا من هامبورج بعربة البريد ، يرتدى بزة صفراء ذات مربعات كبيرة عليها مسحة المناطق الحارة ، حاملا معه منقار سمكة من سمك السيف وعودا من قصب السكر فتلقى قبلات القنصلة بمسلك موزع بين تشتت الفكر والارتباك .

وقد احتفظ بهذا المسلك أيضا لما توجهت الأسرة فى صباح اليوم التالى لوصوله مباشرة الى المقبرة الواقعة فيما يلى « باب القصر » لتضع اكليلا على القبر . وقد وقفوا جميعا معا فى الطريق المغطى بالثلوج أمام اللوحة العريضة التى تحيط فيها أسماء الراقدين هناك برنك الأسرة المنقوش على الحجر ... أمام الصليب الرخامى القائم المستند الى حافة حرج المقبرة الصغير العارى من الورق بفعل الشتاء ، كانوا جميعا هناك فيه عدا كلوتيلده التى كانت تقيم فى أونجناده لتعنى بوالدها المريض .

ووضعت تونى الاكليل على اسم أبيها المنقوش حديثا بالأحرف الذهبية على اللوحة ، وركعت أمام القبر على الرغم من الثلج لتصلى بصوت خافت . وكان القناع الأسود يرفرف حولها وثوبها الفضفاض يستقر بجانبها مبسوطا مرتفعا بصورة بديعة ، ولا يعلم الا الله مبلغ ما كان فى هذا الوضع المصبوب من كامن الألم والتقوى من جهة ، ومن رضى سيدة جميلة عن نفسها من جهة أخرى . ولم يكن توماس فى حالة نفسية تسمح له بالتفكير فى ذلك . لكن كريستيان كان ينظر الى أخته نظرة شزراء تعبر عن مزيج من الهزء والقلق كأنه يريد أن يقول : « أتستطيعين أن تتحملى تبعة ذلك أيضا ؟ ألن ترتبكى حين تنهضين ؟ يا للفعلة السوءى ! » وضبطت تونى هذه النظرة وهى تنهض ، لكنها لم ترتبك على الاطلاق بل طرحت رأسها الى الوراء وأصلحت من شأن القناع والثوب ، وتحولت للذهاب فى اطمئنان ووقار ، وهو ماخفف عن كريستيان فيما بدا .

واذا كان القنصل المتوفى بتدلهه فى حب الله والمسيح أول من عرف فى أسرته المشاعر الرفيعة الراقية المفضلة وتعهدها ، فان ولديه كليهما كانا أول من أجفل من آل بودنبروك فى اظهار هذه المشاعر الطليقة الساذجة وذعر منها فى حساسية . وحقا لقد خبر توماس موت أبيه فى ألم أفدح مما كان ألم جده فى فقد أبيه .

ومع ذلك فلم يألف أن يجثو على ركبتيه أمام القبر ولا ارتمى قط فوق المائدة لينتحب كالطفل كما فعلت أخته تونى ، بل تألم الى أقصى حـد من الـكلمات الضخمة الممزوجة بالعبرات التى أحبت مدام جرينليش أن تنوه بها بأخلاق أبيها الميت وبشخصه أثناء تناول المحمر والحلوى • فقد كان يقابل مثـل هـــذه الانفجارات بجد وكياسة وصمت رزين وايماء متحفظ من الرأس ••• وبالذات حين لا يرد المتوفى على لسان أحد ولا يعدد أحد مآثره كانت عينـاه تغرورقان بالدمع رويدا رويدا من دون أن يحول تعبير وجهه •

أما كريستيان فكان غير ذلك • فلم يكن يستطيع ضبط نفسه وكانت أخته تفيض بهذه المشاعر الساذجة ـ مشاعر الأطفال • كان ينكب فوق طبقه، ويشيح بوجهه ، ويبدى رغبته فى التسلل وكثيرا ماكان يقاطعها بقوله : «بربك ياتونى!» فى خفوت وعذاب ، مقطبا أنفه الكبير تقطيبات لا تحصى •

أجل لقد كان يبدى الاضطراب والارتباك بمجرد أن يتحول الحديث الى المتوفى، وكان يبدو كما لو كان لا يخشى ولا يتجنب فلتات التعبير عن المشاعر العميقة الجادة المظهرية وحدها بل المشاعر نفسها كذلك •

لم يره أحد يسكب دمعة على أبيـه الميت • وليس هذا فقط لأنه لم يعتـد البكاء ، فالغريب أنه كثيرا ما كان يأخذ أخته تونى جانبا ليجعلها تقص عليه بجلاء واسهاب ما وقع عصر ذلك اليوم الرهيب الذى حدثت فيه الوفاة ، على الرغم من كراهيته لمثل هذه الأحاديث • ذلك أن مدام جرينليش كان فى وكدها أن تقص بحرارة •

ويسألها للمرة الخامسة : « اذن كان أصفر اللون ؟ ماذا كانت الفتاة تصرخ لما اقتحمت عليه الحجرة ؟ •••• اذن كان أصفر اللون جداً ؟ •• ولم يستطع أن يقول شيئا قبل أن يموت ؟ ••• ماذا قالت الفتاة ؟ •••» وسكت ، سكت طويلا ، وكان أثناء هذا الصمت يجيل عينيه الصغيرتين المستديرتين الغائرتين فى الغرفة جولات سريعة يحدوها التفكير • قال بغتة : « شنيع » وروى والرعدة تسرى فيه وهو ينهض • كان على الدوام يغدو ويروح بعينين مضطربتين تنمان عن التفكير ، بينما يتولى تونى العجب من أن أخاها الذى كان يلوح عليه الخجل لأسباب غير مفهومة حين تندب أباها عاليا ، كان يحب أن يعيد بصوت مرتفـع وفى غمرة من التفكير المرعب حشرجة الموت التى استفسر الخادم لينـا اياها فى اهتمام بالغ •

وكان كريستيان لا يتجمل اطلاقا ، وكان هزيلا شاحب اللون مشدود جلد

الرأس يبرز بين عظمتي خديه أنف ذو أرنبة ضخمة ، بينا ، خاليا من اللحم ، خفيف شعر الرأس بشكل ملحوظ • وكانت رقبتـــه دقيقة مديدة ، وساقاه النحيلتان مقوستين الى الخارج تقويسا قويا••• هذا الى أن اقامته فى لندن قد أثرت عليه فيما يبدو أبقى تأثير • واذ كان فى فالباريزو أيضا قد اختلط غالبا بانجليز فقد اتخذ مظهره بأكمله مسحة انجليزية لم تكن تضيره وكانت تبدو فى تفصيلة بزته المريحة وقماشها الصوفى المتين وفى أناقة حذائه ـ تلك الاناقة العريضة الثابتة ، وفى الصورة التى يتدلى بها شاربه القوى الاشقر المحمر فوق فمه فى عبوس • حتى يداه اللتان كان بياضهما من النوع الباهت ذى المسام وهو ما تسببه الحرارة ، كانتا تتركان بأظافرهما المستديرة المقصوصة النظيفة أثرا انجليزيا •

وسأل مرة بلا مناسبة أخته تونى : « قولى لى ••• أتعرفين مايصيب المرء •• انى أجد صعوبة فى التعبير •• عندما يزدرد لقمـــة جامدة فيحس ألما ينتاب الظهر كله ؟ » وكان أثناء هذا الكلام يقطب أنفه كله ويجعده تجعيدات صغيرة بارزة •

فقالت تونى : « نعم ، ان هذا شىء عادى جدا ••• يتناول المرء جرعة من الماء ••• »

فرد عليها غير راض عن الجواب قائلا : « كذا ؟ كلا ، لا أظن أننا نعنى نفس الشىء •• » وسرى فى وجهه شىء من الجد المشوب بالقلق يظهر تارة هنـا وتارة هناك •

لقد كان أول من اصطنع فى البيت نفسية طلقة مسرية • فهو لم ينس شيئا من تلك المحاكاة التى كان يقلد بها مارسيلوس شتنجل المتوفى ، وكثيرا ما ظل الساعات يتكلم بلهجته •• وكان على المائدة يستعلم عن مسرح المدينـة ••• هل تعمل عليه فرقة جيدة •• وماذا يمثل عليه •

فقالت تونى فى شىء من التوكيد بالغت فيه فى قلة الاكتراث كى لا يعـــيل صبرها : « لا أعرف • انى لا أهتم الآن بذلك •• »

لكن كريستيان تجاهل سماع ذلك كل التجاهل وبدأ يتكلم عن المسرح قال : « انى لا أستطيع أن أقول كم أحب ارتيـاد المسرح ، فمجرد كلمـة « مسرح » تجعلنى من فورى سعيدا •••• ولست أعلم هل يحس أحدكم هـذا الشعور ؟

فانى استطيع أن أجلس ساعات ساكنا أتطلع الى الستارة المسدلة ... فأشعر فى ذلك بالغبطة التى كنت أشعر بها طفلا حين كنا ندخل هنا لنتلقى هدايا عيد الميلاد ... واصلاح آلات الفرقة الموسيقية للاستعداد !... انى لأذهب الى المسرح ، ولو لأسمع هذا !... وأحب مناظر الحب بصفة خاصة ... فان بعض المحبين يفهمون كيف يعتمد المحب رأسه هكذا بين يديه ... والممثلون على الاطلاق ... لقد اختلطت فى لندن وڤالباريزو أيضا بالممثلين كثيرا ... وكنت فى أول الأمر فخورا حقا بالكلام معهم فى الحياة العادية الصرفة . وفى المسرح كنت التفت الى كل حركة من حركاتهم ... هذا مسل جدا ! فالواحد منهم يلقى كلمته الأخيرة ويستدير بكل هدوء ثم يتجه نحو الباب متئدا غاية الاتئاد ، مطمئنا غاية الاطمئنان من دون أن يحس ارتباكا ، وان كان يعلم أن أنظار الجميع تتابعه ... فكيف يكون هذا فى الاستطاعة ؟... كنت من قبل أشتاق دائما أن أكون مرة وراء الكواليس ـ فالآن أصبح هناك وكأنى فى بيتى تقريبا . هذا ما أقوله ... تصوروا ... فى مسرح أوبيريت ـ كان هذا فى لندن ـ رفعت الستارة ذات مساء وأنا ما أزال فوق خشبة المسرح أتحدث الى الآنسة ووترلوز ... الآنسة ووترلوز ... فتاة جميلة جدا ! وبغتة تنكشف لى قاعة النظارة ... يا الهى لست أعلم كيف انحدرت من خشبة المسرح ! »

كانت مدام جرينليش هى وحدها تقريبا التى تضحك بين الجلوس على المائدة، لكن كريستيان مضى يتكلم بعينين جائلتين . تكلم عن مغنيات الكونسير الانجليزيات أثناء تناول القهوة ، فتحدث عن سيدة ظهرت بعارية شعر مرشوشة بالمسحوق وبعصا طويلة مسنودة على الأرض « وغنت أغنية اسمها : هذه مارى! «مارى، أتعلمون ، مارى أشد الناس خزيا... فاذا ارتكبت احدى النساء أشنع الأوزار فهذه مارى ! مارى هى أردأهن جميعا » أتعلمون .. الرذيلة .. » ونطق الكلمة الأخيرة فى تقزز ، مقطبا أنفه ، رافعا يده اليمنى معوجة الأصابع.

وقالت القنصلة : « كفى يا كريستيان ! ان هذا لا يهمنا على الاطلاق . »

لكن نظرة كريستيان تجاوزتها شاردة ، وكان سيكف عن الكلام حتى من دون اعتراضها ، وذلك أنه بينا كانت عيناه الصغيرتان المستديرتان الغائرتان تطوفان ولا تكفان بدا أن التفكير العميق المضطرب فى مارى والرذيلة يستغرقه .

وبغتة قال : « غريب ... انى أحيانا لا أستطيع أن أبلع ! لا ، ليس هذا بالذى يضحك ، انى أجده أمرا جديا بالغ الجد ، انه ليخطر ببالى انى ربما لا أستطيع أن أبلع فأبيت عاجزا بالفعل عن البلع ، وتستقر اللقمة بعيدة عن الحلق ، وهذا الذى هنا ، الرقبة والعضلات ... يتعطل بكل بساطة ...

لا يخضع لارادة ، أتعلمون • أجل ، ان المسألة هى : أنى لا أجرؤ مرة على أن أريد ارادة حقة » •

وصاحت تونى صيحة أخرجتها عن طورها : « كريستيان ! يا الهى ، ماهذا الهراء ! أنت لا تجرؤ على ارادة البلع ••• لا ، انك تعرض نفسك للسخرية ، ماهذا الذى تحكيه لنا ••• »

ولزم توماس الصمت ، لكن القنصلة قالت: « هذه هي الأعصاب ياكريستيان، فقد حان الوقت لأن تعود الى وطنك • فالمناخ فى تلك البلاد خليق أن يزيدك مرضا » •

وجلس بعد المائدة الى الهارمنيوم القائم فى قاعة الطعام ، ومثل عازفا على البيان ، فكان كأنما يطرح رأسه الى الوراء ، وفرك يديه وأجال نظره فى الغرفة من تحت الى فوق • ثم بدأ ، بلا حس ، ودون أن يطأ المنافيخ ، لأنه لايستطيع أن يعزف بحال من الأحوال ، ولأنه لم يكن على استعداد موسيقى كمعظم آل بودنبروك — بدأ وهو منكب ، يعالج « الباس » فأدى تقاسيم جنونية " ثم ارتمى الى الوراء ورفع بصره الى أعلى مغتبطا ، ودق بكلتـا يديه على المفاتيح بكل قوة وانتصار ••• فأغرقت كلارا نفسها فى الضحك • كان عزفه خداعا ، ونزوة وشعوذة ومهزلة لا تقاوم ، يحمل الطابع الانجليزى الأمريكى الغريب الشاذ ، بعيدا بعدا كبيرا عن أن يؤثر تأثيرا سيئا • لأنه نفسه كان يحس الراحة التامة فيه والأمان •

وقال : « كثيرا جدا ما ذهبت الى الحفلات الموسيقية ، فأنا أغلو فى شهود العازفين وهم يعزفون على آلاتهم ! ••• فانه حقا غاية فى الابداع أن تكون فنانا ! »

ثم عاود الكلام من جديد ، لكنه لم يلبث مع ذلك أن كف فجأة فانقلب جادا على غير انتظار : مفاجئا الى درجة أن بدا كأنما أزيح عن وجهه قناع ، فنهض ، وملس شعره القليل وتوجه الى مكان آخر • ولبث هنـاك صامتا ، متكدرا ، قلق العينين ، يحمل وجهه تعبير من ينصت الى صوت غريب •

وقالت مدام جرينليش ذات مساء لأخيها توماس ، اذ كانا وحدهما : « انى أجد كريستيان أحيانا على شىء من الغرابة ••• فانظر كيف يتكلم فى الحقيقة •••

انه ينهمك في التفاصيل بصورة غريبة يخيل الى معها ٠٠٠ ولكن كيف أعبر !
انه يتناول الأشياء من زاوية غريبة جدا ، أليس كذلك ؟ ٠٠٠ »

فقال توم : « أجل ، انى أدرك تماما ما تقصدين يا تونى • ان كريستيان أخرق القلب، ومن الصعب أن أعبر عن ذلك ٠٠٠ انه ينقصه ما يمكن أن يسميه المرء التوازن ، التوازن الشخصى • فهو من جهة يعجز عن ضبط نفسه حيال ما يبديه الناس من سذاجات خرقاء ٠٠٠ فهو غير كفء لضبط النفس هذا • لا يفهم كيف يكتم هذه المخاوف ويفقد راحة النفس كل الفقد • لكنه من جهة أخرى يستطيع أن يفقد راحة النفس على نحوأن يقع هو نفسه فيأسوء ثرثرة ، فيقلب دخيلته ظهرا لبطن ، بصورة غريبة • أليس هذا كما لو كان امرؤ يهذى فى بحران ؟ فالمتخيل ينقصه الاتزان والمراعاة بنفس الصورة تماما • آه ، ان الموضوع هو بكل بساطة أن كريستيان ينشغل بنفسه أكثر مما ينبغى ، بما يدور فى باطنه هو • فأحيانا تنتابه لوثة فيكشف عن أدق وأعمق ما يدور فى نفسه هو ويفيض به ــ وهو ما لا يهتم به انسان عاقل ولا يريد أن يعرف عنه شيئا • وذلك لسبب بسيط هو أن المرء يخجل من الافضاء به • ان فى مثل هذا الافضاء شيئا كثيرا من قلة الحياء ياتونى ! انظرى ! ان انسانا آخر غير كريستيان يمكن أيضا أن يقول انه يحب المسرح ، لكنه يقولها عندئذ بنبرة أخرى عرضية وجيزة متواضعة • لكن كريستيان يقولها فى توكيــد معناه : أليس غرامى بالمسرح شيئا عجيبا ، مثيرا للاهتمام بصورة هائلة ؟ انه يجاهد الكلمات وهو يحكى ذلك • يفعــل كما لو كان يكافح فى سبيل التعبــير عن شيء بديع مثالى ، خفى ، عجيب ٠٠٠ »

وواصل الكلام بعد برهة قائلا وهو يلقى بلفافة تبغه فى الموقد من السياج الحديدى المطروق : « أريد أن أقول لك شيئا ٠٠٠ لقد فكرت أنا نفسى أحيانا فى هذا الشغل بالنفس المنطوى على الوجل والغرور والفضول • ذلك أنى كنت أنزع اليه بالمثل من قبل • لكنى لاحظت أنه يتلف المرء ويجعله مرتبكاً مزعزعاً ٠٠٠ والاتزان هو المهم عندى بالنســبة لى • فسيوجد دائما أناس لهم الحق فى مثل هذا الاهتمام بالنفس وهذه الملاحظة المستفيضة لمشاعرها : شعراء يستطيعون أن يعبروا عن حياتهم الباطنة المفضلة تعبيرا أمينا جميــلا ، ويعمروا بذلك عالم المشاعر عند الغــير • لكننا نحن أناس بسطاء يا طفلتى ؛ فملاحظاتنا الذاتية فقيرة بشكل مويئس ويمكننا عند الضروزة أن نقول ان تنغيم آلات الأوركسترا

واصلاحها يتيح لنا متعة غريبة ، وأننا أحيانا لا نجرؤ على البلع ... آه ، انه ينبغى أن نستقر ونؤدى شيئا مما أداه آباؤنا ، والى الشيطان بنا ! ... »

« أجـل ياتوم » انك تعبر عن رأيى . اننى حين أفكر أن آل هاجنشستروم هؤلاء يزدادون على الدوام غطرسة ... يا الهى ، هذه الحثالة ، أتعلم ... ان أمى لا تريد سماع هذه الكلمة ، لكنها الوحيدة السديدة . ألعلهم يظنون ان لم يعد فى المدينة من أسر وجيهة سواهم ؟ ها ، انى لأضحك ، أتعرف ! انى يجب أن أضحك عاليا ... »

الفصل الثالث

حدج رئيس بيت يوهان بودنبروك التجارى شقيقه عند وصوله بنظرة طويلة فاحصة ، وظل خلال الأيام الأولى يلاحظه ملاحظة عابرة عارضة ، ثم لاح أنه أرضى استطلاعه وكون رأيه من دون أن يدع أحدا يقرأ على وجهه الهادىء الرزين ماكون من حكم . وكان يتحدث معه فى دائرة الأسرة بلهجة عدم الاكتراث عن أشياء قليلة الأهمية ، ويتسلى كالباقين حين يعرض كريستيان شيئا ما ..

وبعد ثمانية أيام تقريبا قال له : « اذن سنعمل معا يا صغيرى ؟ ... لقد تفاهمت مع ماما على ما أعلم ، أليس كذلك ؟ ... وقد أصبح ماركوس كما تعرف شريكى بالحصة التى تطابق ثروته المدفوعة . وانى أرى أن تأخذ ، بوصفك أخى ، مكان ماركوس السابق تقريبا وتتولى مركز الوكيل فى الظاهر ... وهو مركز وجيه على الأقل ... أما ما يتعلق بعملك فلست أعلم مبلغ تقدم معارفك التجارية ، وأرى أنك الى الآن قد ضربت فى الآفاق قليلا ، أليس كذلك ؟ ... وعلى كل فستكون المراسلة بالانجليزية هى فى الغالب أهم ما تتولاه ... لكن لابد أن أرجوك شيئا ياعزيزى ! فانك بوصفك شقيق رئيس العمل ستشغل بين بقية الموظفين بطبيعة الحال مكانا مفضلا بالفعل ... لكنى لست بحاجة الى أن أقول لك ، أليس كذلك ، انك تنال التفاتهم بالتساوى معهم والتفانى فى تأدية الواجب أكثر كثيرا مما تناله بالانتفاع بامتيازاتك والتعالى عليهم . اذن أوصيك بالمحافظة على مواعيد المكتب والخارج ، أليس كذلك ؟ ... »

ثم عرض عليه بعد ذلك اقتراحا يتعلق بالتوكيل قبله كريستيان دون تفكير أو مساومة ، وبوجه مرتبك ، مشتت ، يشهد بالقناعة الكثيرة والرغبة الشديدة فى انهاء الموضوع بسرعة .

وفى اليوم التالى قدمه توماس الى مكتب الشركة ، وبذا عمل كريستيان فى خدمة المتجر القديم ...

لقد اتخذت الأعمال بعد وفاة القنصل مجراها الثابت الذى كان قد انقطع . لكنه سرعان ما لوحظ أنه منذ تولى توماس بودنبروك القيادة سرى فى العمل

روح ابرع وأنشط وآ نثر افداما ··· فهنا وهناك شيء يعدم عليه ، وهنا وهناك يبدد وينتفع في وعي من سمعه البيت التي كانت في العهد الماضي تجرد مخرة مصريه وبرف ··· فجعل السادة في البورصه يومىء بعضهم الى بعض ويسوبون : « ان بودنبروك يريد أن يكسب مالا معنا » لكنهم وجدوا من اخير بل الخير أن يسحب توماس السيد فريدريك ولهلم ماركوس الشريف وراءه مما يسحب كرة من الرصاص مثبتة في قدمه · ونفوذ السيد ماركوس هو بمثابه الحطه المعطله لسير الاعمال ، فهو يمسح بأصبعين على شاربه بعنايه ، ويحرك ادوات الكتابة وقدح الماء القائم على مكتبه على الدوام الى مكانها الصحيح في حب دقيق للنظام ، ويفحص المسأله المؤلفة من عدة صفحات ، وعلى وجهه تعبير يدل على الشرود ويخرج فيما خلا ذلك ، وجريا على عادته خمس أو ست مرات أثناء العمل الى الفناء أو الى دورة المياه ليضع رأسه تحت رشاش الماء ابتغاء التنشيط ·

كان رؤساء البيوت التجارية الكبرى يقول بعضهم لبعض : « انهما يكملان أحدهما الاخر · » وربما قالها القنصل هوينوس للقنصل كيستنماكر ؛ ويكرر الناس هذا الحكم بين رجال السفن وعمال المخازن ، وبين أسر صغارالمواطنين ، ذلك أن المدينة كان يهمها أن تعرف كيف يعالج بودنبروك الصغير أموره ··· كذلك السيد شتوت المقيم بشارع صناع النواقيس · كان يقول لزوجته التي كانت تتردد على الأوساط الراقية : « انهما يتممان أحدهما الآخر جيدا ، أقول لك ذلك ! »

بيد أن شخصية المتجر بلا ريب قد كانت لأصغر الشريكين · يبدو هذا من أنه كان هو الذى يعامل عملاء البيت والربابنة ومديرى العمل فى مكاتب المخازن ، والسائقين ، وعمال المخازن · كان يجيد التكلم بلغتهم من دون تكلف والابقاء مع ذلك على بعد منهم ···

لكنه حين يقول السيد ماركوس لأحد العمال الشرفاء : « أتفهمنى ؟ » يرن هذا القول ويبلغ من نشازه التام أن شريكه الجالس قبالته على المكتب يأخذ ببساطة فى الضحك ، فما يكاد المكتب يسمع هذه الاشارة حتى يضج على بكرة أبيه بالضحك ·

وكان توماس بودنبروك تحدوه الرغبة التامة فى الاحتفاظ للمتجر بلمعانه والاستزادة من تألقه الذى يوائم اسمه القديم· فكان يجب أن يساعد بشخصه فى الجهاد اليومى فى سبيل النجاح ، ذلك أنه يعلم جيدا أنه مدين بأكثر من صفقة رابحة لمظهره المطمئن الأنيق ولطفه الجذاب ولباقته الماهرة فى الحديث ·

كان يقول : « لا يجمل برجل الأعمال أن يكون ديوانيا ! » قال هذا الكلام لستيفان كيستنماكر ، أحد أصحاب بيت كيستنماكر واولاده ، ورفيقه ذات يوم فى المدرسة ، وقد ظل هو صديقه الارجح عقلا وكان يصغى الى كل كلمة من كلماته لينشرها ــ أى ستيفان ــ بعدئذ على أنها رأيه هو ... قال لهذا الرفيق: « ان هذا يتطلب شخصية . وهذا ما يوائم ذوقى . ولست أعتقد أن النجاح الكبير مما يحرز من فوق المكتب ... فهو بهـذه الصفة لا يسرنى كثيرا . فالنجاح لا يستطاع على المكتب فقط .. فانى أحتاج دائما الى أن أسير الأمور وانا حاضر ، بالنظرة والكلمة والالتفات ... أسـيطر عليهـا بالتأثير المباشر لارادتى وموهبتى وحظى كما تحب أن تسميه . لكن هذا مع الاسف يصبح نهجا قديما . هذا التدخل الشخصى من جانب التاجر . والزمن يتقدم ، لكنه يخلف فى رأيى وراءه خير ما هنالك ... ان المواصلات تسـهل على الدوام ، والأسعار تعرف بأسرع مما كانت ... والمخاطرة تقل ويقل معها الربح ... أجل لقد كانت حال القدامى غيرذلك . فجدى على سبيل المثال ... كان يسافر الى ألمانيا الجنوبية بوصفه موردا بروسيا فى مركبة للجيش تجرها أربعة من الجياد ، سـيدا مسنا مذرور الرأس بالمسحوق ، فى قدميه الاسكاربين ... فكان بهـذا الهنـدام يأسر من حوله ، ويبدى فنونه ، ويكسب مالا وفـيرا يا كيستنماكر ! ــ آه ، أنى لأخشى أن يصبح للتاجر مع الزمن كيان أرخص مما كان له الى الآن ... »

هكذا كان يشكو أحيانا ، فكانت من ثم أحب صفقاته تلك التى يعقدها حين يدخل طاحونة فى احدى نزهاته الأسرية ، ويتحدث الى صاحبها الذى يحس أن حديثه اليه تشريف له فيتعاقد معه ــ عرضاً ــ راضى النفس على صفقة طيبة... ومثل هذا لا يوائم طبع شريكه .

... أما مايتعلق بكريستيان فيبـدو أنه كرس نفسـه أول الأمر لعمله يؤديه بهمة وسرور حقيقيين . أجل ، لقد بدا أنه يستشعر فيه الراحة ويرتاح اليه بصـفة استثنائية ، وبات له خـلال أيام عدة أسـلوب خاص : يأكل بشـهية ، ويدخن غليونه الصغير ، ويدفع كتفيه فى السـترة الانجليزية فى الوضع الصحيح مما كان يعبر عن الرضا . وكان يذهب الى المكتب صباحا فى نفس الوقت الذى كان يذهب فيه توماس تقريبا ، ويأخذ مكانه بجانب السيد ماركوس وتجاه أخيه فى شىء من الانحراف فوق كرسيه الساند المتحرك . ذلك أنه كان له كرسى ساند أسوة برئيسيه . كان يقرأ «صحف الاعلانات» ويدخن سيجارة الصباح أثناء ذلك الى نهايتها ، ثم يخرج من خزانة المكتب السـفلى كأسا من الكونياك المعتق ، ويبسط ذراعيه ليتيح لنفسه حرية الحركة ويقول : « استعنا بالله » ثم يقبـل على عمله ، بينما يدير لسانه بين أسنانه . وكانت رسائله التى يحررها بالانجليزية مكتوبة بحذق ، ذات تأثير . لأنه كان يتكلم

الانجليزية بسهوله ومن دون تكلف ، وكيفما اتفق ، وبلا عناء . وكان يكتبها أيضا .

كان في محيط الاسرة يعبر عن النفسية التي تفعمه ، بكلمات على طريقته ، شيفون: « ان التجارة مهنه جميله مسعدة حقا ، ثابته ، باعثه على القناعه والهمة، مريحه ... وأنا والحق يقال قد ولدت لها . وبوصفي أحد أعضاء البيت تعلمون انى بالاختصار اشعر بأني بخير كما لم أكن من قبل . فأنا أذهب في الصباح الى المكتب منتعشا ، أقرأ الصحيفة عن آخرها ، وأدخن ، وأفكر في هذا وذاك وكيف ينجزه المرء على خير وجه ، وأتناول كأسا من الكونياك، وأعمل قليلا . ثم تحل الظهيرة فآكل مع أسرتي ، وأستريح ، ثم أعاود العمل ... أكتب على ورق جيد ، مصقول ، نظيف من ورق المكتب بقلم جيد ... وعندى مسطرة وفتاحة ورق ، وخاتم ، كلها من أجود صنف وصالحة ... بها يؤدى المرء كل شيء بهمة ، حسب الدور ، وواحدة بعد الاخرى الى أن يفرغ المرء أخيرا من عمله . وهكذا يوما بعد يوم . وعندما يصعد المرء لتناول طعام العشاء يشعر بالرضا يسرى في أعضائه ... فكل عضو يشعر بالرضا ... واليدان تستشعران الرضا ... »

فصاحت تونى : «بربك يا كريستيان ! انك تجعل نفسك أضحوكة ! كيف تشعر اليدان بالرضا ... »

« بلى ! ألا تعرفين هـــذا اذن ؟ انى أعنى ... » وأهتم بأن يعـبر عنـه بتوضيحه ... واستطرد ! « ان المرء يقبض يده ، أتعرفين ... فيجد قبضته غير قوية كما ينبغى ، اذ المرء متعب من عمله . ليست لينة لكنها لاتضايق... تشعر أنها بخير ، راضية ... وهذا شعور بالاكتفاء الذاتى ... وقد يجلس المرء ساكنا كل السكون ، دون أن يتضايق ... »

ولزم الجميع الصمت ، ثم قال توماس وكله عدم اكتراث ليخفى اشمئزازه : « يلوح لى ، انك لا تعمل لكى ... » وقطع الكلام ولم يكرر شيئا . ثم قال : « وأنا على الأقل أضع نصب عينى أغراضا أخرى . »

لكن كريستيان الذى كانت عيناه تجولان فلم يسمع هذا ، لأنه كان يفكر، وسرعان ما بدأ يقص حكايته عن ڤالباريزو ، حادثة قتـل واغتيال شـهدها شخصيا ... « وهنا نزع الرجل السكين ... » ومثل هذه الحكايات التى يحفظ منها كريستيان الكثير وتجد فيها مدام جرينليش تسلية كبيرة ، بينما ترتعب منها القنصلة ، وكلارا وكلوتيلده ، وتنصت اليها الآنسة يونجمان والى جانبها ايريكا فاغرتين فاهيهما ، يقابلها توماس دائما بعدم الارتياح. وقد

اعتاد أن يعلق عليها بملاحظات جافة ساخرة ويظهر بوضوح كما لو كان يعتقد أن كريستيان يغلو ويدلس وهو ما يخالف الواقع · اذ أنه انما يقص بأعصابه ويخلع على حكاياته الالوان · ترى هل كان توماس لا يحب أن يسمع ان أخاه الأصغر ساح أبعد مما ساح هو وشاهد أكثر مما شاهد ؟ أم أنه كان يكره أن يشعر بامتداح الفوضى والعنف الغريب الذى تنطوى عليه حكايات عن مدى ومسدسات ··· وثابت أن كريستيان لم يكن يكترث مطلقــا لاســتهجان حكاياته · فقــد كان نفســه تستغرقه أوصــافه كل الاســتغراق الى درجة ألا يلتفت الى نجاحها أو فشلها عند الغير » فكان اذا انتهى من روايتها أجال فى الغرفة بصرا تائها ، واستحوذت عليه الأفكار ·

واذا كانت العلاقة بين الأخوين بودنبروك لم تجلب على الأيام خـيرا فان كريستيان لم يكن خليقا أن يبدى أية عداوة لأخيه أو يكنها له أو يجرؤ على ابداء رأى فيه أو حكم عليه أو تقدير له · انه فى بداهة صامتة لم يدع أحدا يشك فى اعترافه بتفوق اخيه الأكبر عليه ، وبأنه أكثر جدا منه ، وأكفأ ، وأمهر ، وأعود منه بالاحترام · لكن توماس كان يثيره بالذات هـذا التواضع له فى مظهره غير المحدود المنطوى على عدم الاكتراث ، والتسليم ؛ ذلك أن كريستيان كان يمعن فى الاستخفاف فى كل مناسبة بحيث كان يبدو عليه أنه لا يعلق أهمية ما على التفوق والحذق والاحترام والجد ·

وقد لاح أنه لم يلحظ اطلاقا أن رئيس المتجر كان يلقاه ببرارة صامتة تزداد على الدوام ··· وعند توماس لهـذا أسباب اذ جعلت همة كريستيان تفتـر للأسف بعد الأسبوع الأول ، فلما تقضى الأسبوع الثانى فترت فتورا كبيرا · وقد ظهر هذا أولا فى أن استعدادات كريستيان للعمل ـ وكانت فى مبـدأ الأمر على صورة الاقبال المصطنع المطوط بشكل متقن من قراءة صحف وتدخين سيجارة الافطار وتناول كأس الكونياك ـ هذه الاسـتعدادات جعلت شـيئا فشيئا يطول أمدها وتمتد فى النهاية الى قبيل الظهر ، ثم كان أن كريستيان أخذ يتجاوز ما فرض عليه من مواعيد المكتب ، فيظهر فى الصباح متأخرا دائما يوما عن يوم ، وسيجارة افطاره فى فمه ، ولكى يتم تمهيداته للعمل يذهب ظهرا لتناول الغداء فى النادى ويعود الى العمل بعد الميعاد ، وأحيانا مساء ، وأحيانا لا يعود ···

وهذا المنتدى الذى ينتمى اليه فى الغالب تجار أعازب ، يحتوى فى الطبقة الأولى بضعة أماكن مريحة فى مطعم وحانة يتناول فيها المرء وجباته ويتقابل فى مجالس على السجية ، لا تسلم كثيرا من الأذى · ذلك أنه كان يلعب فيها الميسر · كذلك كان بعض أرباب الأسر غير الثابتين كثيرا مثل القنصل كروجر وبيتر دولمان أعضــاء فى هذا المنتــدى ! ومفوض الشرطة كريمر كان « الرجل

الأول والرأس » كما قال الدكتور جيزيكه ، اندرياس جيزيكه ابن مدير المطافىء ورفيق كريستيان القديم فى المدرسة ، الذى أقام فى المدينة محاميا فسرعان ما ضم اليه بودنبروك الأصغر مجددا صداقته له ، وان كان معروفا بأنهمستهتر طائش تقريبا ٠

وكريستيان أوكريشان ، ذلكالاسم الردىء الذى كان يطلق عليه فىالغالب قد استقبل هنا بأذرع مفتوحة ، اذ كان من قديم من معارفالجميعأوأصدقائهم بدرجة ما ، ومعظم هؤلاء من تلاميذ المرحوم مارسيلوس شتنجل ٠ واذا كان التجار أو المشتغلون بالعلم ، لا يؤمنون كثيرا بكفاياته الذهنية فهم يعرفون موهبته الاجتماعية المسلية ، وفى الواقع لقد كان يقــدم هنا « نمرة » ويقص خير حكاياته ٠ كان يجعل من نفسه على بيان النادى عازفا منفردا ويقلدالممثلين ومغنى الأوبرا الانجليز والامريكيين ، ويجيد رواية فضائح النساء فى مختلف الجهات على وجه عديم الأذى ومسل الى أقصى حد ، لأنه مما لاشــك فيه أن كريستيان بودنبروك قد كان من الفجار ، فقد كان يقص مغامرات وقعت له على ظهور السفن وفىالسككالحديدية ، وفى سان باولو ، وفى هوايت تشابل، وفى الغابات ٠٠٠ كان يحكى بعبارة طاغية ، مؤثرة ، فياضة غير متكلفة، ونطق فيه رنة الشكوى وفيه جاذبية وفيه غرابة ، لا يؤذى كنطق الفكاهىالانجليزى٠ قص حكاية كلب أرسل فى صندوق من ڤالباريزو الى سان فرانسيسكو وكان أجرب ٠ ويعلمالله مغزى القصة ، لكنها كانت فى فمه مضحكة بصورةهائلة ٠ فاذا لم يعرفأحد ممن حولهأن يغربفىالضحك، جلس هو بأنفه المقوسالضخم ورقبته الدقيقة المديدة جدا ، وشعره الخفيف الأشقر الأحمر ، وأجال عينيه الصغيرتين المستديرتين الغائرتين فيما حوله مفكرا ، يبدو على سيماه أمارات قلق غامض هو مظهر من مظاهر الجد ، ويضعاحدى ساقيه النحيلتين المعوجتين الى الخارج فوق الأخرى ٠٠٠ وكان يظهر أن جلســاءه يضحكون على حسابه وعليه ٠٠٠ لكنه قل أن خطر هذا بباله ٠

وفى البيت كان يحلو له الحديث عن مكتبهفىڤالباريزو ، عن درجة الحرارة الشديدة السائدة هناك وعن لندنى شاب يدعى جونى ثندر ستورم ، صعلوك شنيع ، لم يره قط يزاول عملاً ، لكنه مع ذلك تاجر حاذق٠٠٠ قالكريستيان: « يا الهى ! هذه الحرارة ! ما علينا ، ويدخل الرئيس المكتب ٠٠٠ وكنائمانية منطرحين كالذباب هنا وهناك ، ندخن السجائر ونطرد البعوض على الأقل ٠ يا الهي ! ويقول الرئيس : ما خطبكم ! انكم لا تعملون أيها الســادة : فيقول جونى ثندرستورم : لا ياسيدى ! كما ترى يا سيدى ! وفى هذا ننفخ جميعا فى وجهه دخان السجائر ٠ يا الهى ! »

وسأله توماس منفعلا : « لماذا تقول دائما : يا الهى ؟ » ولم يكن هذا معذلك

ما أسخطه ، بل انه كان يشعر أن كريستيان انما قص هـذه الحكاية بهـذه الغبطة لأنها أتاحت له فرصة للكلام عن العمل فى سخرية واحتقار ٠

وحولت أمهما الحديث فى رصانة الى شيء آخر ٠

وقالت القنصلة بودنبروك وهى من أسرة كروجر لنفسها ان هناك فى هذه الدنيا أشياء كريهة كثيرة ٠ والأخوة أيضا يمكن أن يبغض بعضهم بعضا ويحتقره ٠ وهذا مايقع مع شناعته ٠ لكن أحدا لا يذكره ، بل يكتمه ٠ ولا حاجة بأحد الى العلم به ٠

الفصل الرابع

حدث فى مايو أن العم جوتهولد ، القنصل جوتهولد بودنبروك ، قضى نحبه فى أحضان زوجته ، وهى من أسرة شتيونبج ، ومات ميتة أليمة فى الستين من عمره فى ليلة ليلاء ، ضحية تقلصات فى القلب ٠

وكان ابن مدام جوزفين يعانى شظف العيش بالنسبة لمن أنجبتهم بعده مدام أنطوانيت من اخوته ذوى الجاه والسلطان ٠ كان راضيا بما قسم له ، وكان فى السنوات الأخيرة وبخاصة بعد أن تخلى له ابن أخيه عن القنصلية الهولندية يستحلب من علبته الصفيح بعض أقراص للصدر دون أن يكن هذا الصدر ضغينة ٠ أما الذين كان يحدوهم الانقسام العائلى القديم على صورة عداوة عامة غير معينة ، ويحرصون عليه فكانوا فى الأغلب سيدات بيته ! زوجته الدمثة الأخلاق ، الضيقة الذهن ، وبناته الثلاث المسنات اللواتى لم يكن يسعهن الا أن ينظرن الى القنصلة أو أنتونيا أو توماس وفى أعينهن شعلة صغيرة سامة ٠

ففى أيام الخميس وفى « اجتماعات الأطفال » التى جرى بها العرف والتقليد كن يجتمعن فى الساعة الرابعة فى البيت الكبير الكائن فى شارع منج ليتناولن هناك طعام الغداء ، وليقضين المساء ٠ وكان أحيانا مايظهر القنصل كروجر أيضا أو زيزيى ڤيشبروت مع أختها الجاهلة ــ وهنا كانت سيدات بودنبروك يأتين من الشارع العريض وعلى ألسنتهن كلام مفضل عندهن بطبيعته ــ كلام عن زواج تونى السابق ابتغاء حمل مدام جرينليش على بضع كلمات من كلامها الضخم فيرسلن فى أثره بعض نظرات وجيزة حادة ٠٠٠ أو يدخلن فى تأملات عامة عن صبغ الشعر وكيف أنه عجب غير لائق ، أو يستقين معلومات عن يعقوب كروجر ابن أخى القنصلة يبدين فيها عطفهن عليه ٠ وبين ذلك يذيقون كلوتيلده المسكينة البريئة ، الصبور ، الوحيدة التى لابد أنها كانت تشعر بأنها أقل منهن أيضا ، سخرا ليس خلوا من الأذى كالذى تتلقاه الفتاة الفقيرة الجائعة كل يوم من توم أو تونى فى رحابة صدر ، منشرحة ، دهشة ، ويتندرن بصداقة كلارا وتعصبها ــ وسرعان ما اهتدين الى أن علاقة كريستيان بتوماس ليست على مايرام ، وأنهن لسن بحاجة الى احترام كريستيان بحال من الأحوال والحمد لله ، ذلك أنه كان فى البيت امعة ومخلوقا مضحكا ٠ أما مايتعلق بتوماس

فلم يكن فيه من نقط ضعف تلاحظ ، وكان يقابلهن من جانبه باتزان وتسامح معناهما : انى أفهمكن وأرثى لكن ··· وهكذا كن يعاملنه باحترام مسموم شيئا ما · أما عن ايريكا الصغيرة المتوردة ، المعتنى بها حقا فكان لابد أن يقال مع ذلك انها متخلفة فى نموها بصورة تبعث على القلق · وهنا تهتز فيفى ويسيل لعابها من زاويتى فمها ، وهى تلفت ، ليطفح كأسـهن ، الى مابين الطفـلة والنصاب جرينليش من شبه مرعب ···

والآن يحطن مع أمهن باكيات بسرير الأب المسجى عليه · وعلى الرغم من أنه كان يبدو عليهن كما لو كان هذا الموت من عمل أقربائهن فى شارع منـج ، فانهن أرسلن رسولا الى هنـاك ، فدق جرس الباب فى جوف الليـل عابرا الرحبة ؛ واذ كان كريستيان قد عاد الى البيت متأخرا متألما ، فقد خرج توماس وحده الى الطريق تحت مطر الربيع ·

وقـد جاء فى الوقت المناسب بالضبط ليشـهد اختلاجات السـيد المسن التشنجية الأخيرة ، ثم وقف طويلا شابكا يديه فى حجرة الوفاة ، وتأمل القامة القصـيرة التى ترتسم تحت الأغطية والوجـه الميت ذا الملامح الناعمة نوعا ما والجسد الأبيض ···

فقال لنفسه : لم تكن حالك فى الحياة بالتى تسر يا عماه · لم تتعـلم فى الوقت المناسب أن تتساهل وأن تراعى ··· لكن هذا ضرورى ··· ولو كنت فى مثل حالك لتزوجت حانوتا من سنين ··· والمحافظة على المظهر ! هل أردت غير الذى أحببت ؟ كنت عنيدا متحديا ، تعتقد أن هذا التحدى شىء مثالى ، ومع ذلك لم يكن ذهنك على شىء كثير من القدرة على التحليق ، أو شىء كثير من قوة التصـور · لم يكن لك الكثير من تلك المثاليـة التى تؤهل المـرء لأن يحرص ويعنى ويدافـع ويكرم ويجلب القوة والبهاء بأحلى وأسـعد وأرضى من الحب الخفى · أية قطعة أرض مجردة ! أى اسم قديم ! أية لوحة لمتجر ، ان حاسـة الشعر كانت تنقصك ، وان كنت قد أوتيت الشجاعة لأن تحب وتتزوج ممن تحب على الرغم من أمر والدك ونهيه · لم تكن أيضا طموحا ياعماه جوتهولد · حقا ان الاسم القديم اسم من أسماء المواطنين الحضريين ، ولكن المرء يمكن أن يتعهده بأن يساعد على ادخال شحنة من الحبوب فى رحبته ، وأن يجعل شخصه فى قطعة صغيرة من العالم مكرما محبوبا قويا · كنت تفكر : أتزوج شتيونج التى أحبها ولا أحفل باعتبارات أخرى عملية لأنهـا صغائر وجهالات · اننا كـذلك فى النضج والتعـلم بحيث نسـتطيع أن نتبين أن الحدود المرسومة لطموحنا ضيقة يرثى لها متى نظر اليها من الخارج ومن فوق · لكن كل شىء على هذه الأرض استعارة فحسب ياعمي جوتهولد · أفلم تكن تعلم أن المـرء

يمكن أن يكون رجلا عظيما فى المدينة الصغيرة أيضا ؟ ان المرء يمكن أن يكون قيصرا فى مكان تجارى متوسط على بحر البلطيق ؟ بلا شك ٠ وهذا يتطلب قليلا من الخيال وقليلا من المثاليــة ٠٠٠ لكنك لم تكن تملك ما لعلك ظننته فى نفسك ٠

وتحول توماس بودنبروك وسار الى النافــذة ونظر ، وعلى وجهــه الذكى ابتسامة ، الى واجهة البلدية ، وكانت من الطراز القوطى يضيئها نور واهن ويغسلها المطر ٠

**

وانتقلت طبعا الى توماس وظيفة القنصلية الهولندية الملكية ولقبها ٠ وكان خليقا بعد وفاة والده أن يطالب بهما ٠ وقد استشعرت تونى جرينليش فى هذا فخرا لا يحد ، وباتت اللوحة المقبوة ذات الأسدين والرنك والتاج من الآن ترى على واجهة الجملون فى شارع منج تحت عبارة Dominus provedebit

وبعد الانتهاء من هذه المسألة وفى يونيه من نفس العام خرج القنصل الشاب فى رحلة الى امستردام لبعض الأعمال من دون أن يعلم كم تستغرق من الوقت ٠

الفصل الخامس

من عادة الوفيات أن تجلب نفسية تتجه الى السماء • فلم يثر عجب أحدأن يسمع من فم القنصلة بودنبروك بعد رحيل زوجها الى عالم البقاء هذه العبارة الدينية السامية أو تلك مما لم يعهده المرء فيها من قبل •

ومع ذلك سرعان ما تبين أن هـذا لم يكن شيئا عابرا ، فسرى فى المدينـة بسرعة أن القنصلة راغبة فى أن تكوم ذكرى خالد الذكر فى المقام الأول ، بأن تعتنق نظرته الورعة الى العـالم وهى التى كانت تشاطره ميوله الفـكرية فى السنوات الأخيرة من حياته ومنذ أن تقدمت بها السن •

وهكذا جهدت فى أن تفعم البيت المترامى بروح الراحل ، بجده المسيحى الرؤوف الذى لم يستبعد مرح القلب المتحلى بالوقار • فاستؤنفت الصـلوات التى كانت تقام فى الصباح والمساء على نطاق واسـع ، وجعلت الأسرة تجتمع فى قاعة الأكل ، بينما يقف الخدم فى بهو الأعمدة ، فتقرأ القنصلة أو كلارا فى انجيل الأسرة الكبير ذىالأحرفالهائلة ، فقرة يتلونها منكتابالمزامير بضعة أبيات تنشد على الهارمنيوم الذى تعزف عليه القنصلة • كذلك كان يحل محل الانجيل كتاب من كتب الوعظ والارشاد أسود الجلدة محلى بالذهب •

ولم يكن كريستيان يحضر هذه الصلوات كثيرا • وقدم توماس اعتراضا على هذه التدريبات فى احدى المناسبات محاذرا فى ذلك كل المحاذرة ، مباسطا بعض الشيء فرد اعتراضه فى لين ووقار • أما ما يتعلق بمـدام جرينليش فلم يكن سلوكها فى هذا الأمر سليما على الدوام للأسف أو خلوا تماما منالملام • وفى ذات صباح وكان هناك بالذاتواعظ أجنبى ينزل ضيفا على آل بودنبروك ـ اضطروا الى أن يغنوا من أغنية تبعث الهيبة ، وتنطق بالايمان الراسـخ ، وتصدر عن القلب ، هذه المقاطع :

انى جيفـة غـــراب حقــه
أعـرج حقيقى منفرط خطاياه
يلتهم فى نفسه هذه الخطايا

كما يأكل الصدأ صلب الحديد
الهى قدنى من أذنى كالكلب
وتفضل من منك على بعظمة
وخذنى أنا الصعلوك الخاطىء
الى رحاب غفرانك رهن السماء

فألقت مدام جرينليش الكتاب من فرط أساها وغادرت القاعة ، وكانت القنصلة تتطلب من نفسها أكثر مما تتطلبه من أولادها كثيرا ، فأنشأت على سبيل المثال مدرسة تعمل فى يوم الأحد ، فكان يدق الجرس فى شارع منسج فى صباح هذا اليوم فتيات صغيرات من بنات المدارس الابتدائية ، فتدخل شتينا بوس المقيمة عند السور وميكا شتوت الساكنة فى شارع صناع النواقيس ، وفيكا سنوت القاطنة على نهر تراقيه أو فى « حفرة جروبل » الصغيرة أو فى انجلز فيشر ، بشعورهن الشقراء الممشطة بالماء من الرحبة الكبيرة الى حجرة الحديقة النيرة القائمة هناك والتى لم تعد تستعمل من أمد طويل مكتبا ، قد صفت فيها المقاعد ٠

وكانت القنصلة بودنبروك المولودة باسم كروجر تجلس فيها قبالتهن فى ثوب من الأطلس الأسود الثقيل ، ووجه أبيض وقور ، وقبعة أكثر بياضا ، الى مائدة صغيرة وضع عليها قدح من ماء مسكر ، تعظهن ساعة كاملة ٠

كذلك أسست « مساء أورشليم » ٠ وكان فيما خلا كلارا وكلوتيلده على تونى أيضا أن تشترك فيه بالحق أو بالباطل ٠ وكان ينعقد أسبوعيا حول المائدة المفتوحة عن آخرها فىقاعة الأكل فى ضوء المصابيح والشموع ـ اجتمع ذات مرة عشرون سيدة بلغن السن التى يحين عندهـا وقت البحث فى السماء عن مكان مريح ، يشربن شايا أو غيره ويأكلن شرائح الخبز المزودة بالزبد مع البودنج وينشدن الأغانى ويقرأن الفصول الدينية وينجزن أعمالا يدوية تباع آخر العام فى احدى الأسواق ويرسل دخلها الى بيت المقدس لينفق فى أغراض التبشير ٠

كانت هذه الجمعية الورعة مؤلفة فى الغالب من سيدات من البيئة الاجتماعية التى تنتمى اليها القنصلة ؛ وتنتمى الى هذه الجمعية السناتورة لانجهالز والقنصلة مولندروف والقنصلة المسنة كستنماكر ، بينما كانت سيدات أخريات من ذوات الاستعداد الدنيوى والمدنى مثل مدام كوين يسخرن من الصديقة بتسى ٠ كذلك كانت زوجات الوعاظ فى المدينة والقنصلة الأرملة بودنبروك المولودة باسم شتيوبنج وزيزيمى ڤيشبروت وأختها غير المتعلمة أعضاء فيها ،

والكل أمام المسيح سواء لا تميزهم درجة ، ولا يفرق بينهم فارق ، وبذا كان يشترك أيضا فى « مساء أورشليم » أشخاص أرق حالا وأغرب شأنا كمخلوقة قصيرة كثيرة التجاعيد غنية بتقوى الله ونماذج الكروشيه على سبيل المثال . وكانت تقيم بمستشفى روح القدس وتسمى هيملز برجر ، وهى آخر سلالتها ، فكانت تذكر ذلك فى أسى وتمد يدها بأبرة الكروشيه الى ماتحت طاقيتها لتهرش .

وأجدر كثيرا من هؤلاء الأعضاء بالملاحظة عضوان آخران توأمان" عانسان ، غريبتا الأطوار ، تضعان قبعة كان الرعاة يلبسونها فى القرن الثامن عشر ، وترتديان ثوبين بهت لونهما من أكثر من سنة . كانتا تجوبان المدينة ويد احداهما فى يد الأخرى تفعلان الخير . وكان اسمهما جيرهارت وتؤكدان أنهما من سلالة بول جيرهارت . وقد قال الناس انهما ليستا رقيقتى الحال كل الرقة ؛ لكنهما تعيشان عيشة الضنك ، وتهبان الفقراء كل شىء ... وأبدت القنصلة بودنبروك التى كانت تخجل منهما بعض الشىء أحيانا : « ياعزيزتى ! ان الله هو المطلع على القلوب ، لكن ثيابكما رثة شيئا ما ... فيجب على المرء أن يعنى بنفسه ... » على أنهما بعدئذ قبلتا صديقتهما الأنيقة التى لا تستطيع انكارهما فوق جبينها بذلك التفوق المنطوى على التسامح والحب والعطف مما يحسه الوضيع نحو الرفيع الهانىء . ولم تكونا بحال مخلوقتين غبيتين ، فقد كان فى كل من رأسيهما الصغيرين الدميمين المنكمشين كرأس الببغاء عينان براقتان عسليتان عليهما غشاوة رقيقة ، وفيهما تعبير غريب عن الشفقة والمعرفة تنفذان بهما الى العالم ...

وكان قلباهما حافلين بعلم عجيب مستتر فكانتا تعلمان أنه فى ساعتنا الأخيرة يمثل أمامنا كل من اختاره الله الى جواره من أحبائنا ، فى غناء وهناء ، ليتوفونا . وكانتا تنطقان كلمة «الرب» فى يسر المسيحيين الأولين وأصالتهم ، أولئك الذين سمعوا من نفس فم المعلم قوله : « الشىء الصغير يريكم اياى » ولهما أغرب النظريات عن الأنوار والحدسيات وعن نقل الأفكار وانتقالاتها . فقد كانت « لى » ، وهى احداهما ، صماء ، ومع ذلك كانت تعلم على الدوام تقريبا ما كان يقال .

واذ كانت لى جيرهارت صماء كانت هى فى العادة من تحاضر فى أمساء أورشليم . كذلك كانت السيدات تجدنها تقرأ قراءة جميلة مؤثرة . كانت تخرج من كيسها كتابا عتيقا من المضحك وعدم التناسق فيه ان ارتفاعه كان كبيرا بالنسبة لعرضه وفى واجهته صورة جدها الأكبر مأخوذة عن أصل محفور فى النحاس ، منتفخ الخدين بشكل لم تعهده البشرية . كانت تخرج هذا

الكتاب وتضعه بين يديها وتقرأ ، لكي تسمع نفسها قليلا ، بصوت مخيف يصفر كصفير الريح فى مدخنة الموقد :

« أيريد الشيطان أن يزدردنى ... »

وفكرت تونى : ترى أى شيطان يشتهى أن يزدرد هـذه ! لكنها لم تقل شيئا بل انهمكت من جانبها فى تناول البودنج وجعلت تفكر هل تبيت يوما فى دمامة الآنستين جيرهارت .

انها لم تكن سعيدة وكانت تشعر بالسأم ، ويسخطها القسس والمبشرون الذين لعلهم قد ازدادت زياراتهم للبيت بعد وفاة القنصل ، وكانت لهم السيطرة وكان المال . والنقطة الأخيرة مما يهم توماس، لكنه كان يسكت عنها. بينا كانت أخته تتمتم هنا وهناك شيئا عن أناس ينهبون بيوت الأرامل ويتذرعون باطالة الصلاة .

كانت تكره هؤلاء السادة الذين يرتدون الأسود كراهية شديدة وبوصفها سيدة ناضجة تمرست بالحياة ولم تعد بالغبية البلهاء لم تكن تستطيع أن تؤمن بقداستهم المحتومة . كانت تقول لأمها : « أماه ! أن يترفع المرء عن اغتياب جاره ... أمر حسن ، أعرفه ! لكني لابد من أقول شيئا واحدا أعجب اذا كانت الحياة لم تعلمك اياه وهو أنه ليس كل من يرتدى القفطان الطويل ويقول : « الرب ، الرب ! » دائما طاهرا ! »

وقد بقى بلا ايضاح ما كان يسلكه توماس حيال هذه الحقائق التى كانت أخته تقول بها فى شدة متناهية . بيد أن كريستيان لم يكن له فيها رأى ، بل كان يجتزىء بأن يراعى السادة بأنف كشيش ، كى يقدم بعد ذلك صورة منهم فى المنتدى أو فى البيت .

على أنه من الحقيقى أن تونى كانت أكثر من يعانى من هؤلاء الضيوف الروحانيين . فقد حدث ذات يوم حقا وصدقا أن مبشرا اسمه يوناتان كان فى سوريا وكان كذلك فى بلاد العرب ، رجلا ذا عينين واسعتين لامعتين، وخدين مترهلين كدرين، تقدم منها وطالبها بصرامة محزنة أن تقرر هل خصلها المكوية المتدلية على جبينها مما يتفق والتواضع المسيحى الصميم ... آه ، انه لم يحسب حسابا فى الحق لفصاحة تونى جرينليش الساخرة اللاذعة . فقد لزمت الصمت لحظات ، ولوحظ كيف يعتمل ذهنها ، لكنها لم تلبث أن قالت: « أيأذن لى حضرة القسيس ان أرجوه العناية بخصله هو ؟ ! » وانصرفت يحف ثوبها رافعة كتفيها قليلا ، طارحة رأسها الى الوراء محاولة بالرغم من ذلك أن

تضغط ذقنها على صدرها ـ ولم يكن برأس القسيس يوناتان شعر يذكر ، بل ان رأسه كان عاطلا منه ٠

ومرة أخرى كتب لها نصر أكبر من هذا ، فان القس تريشكه ـ « تريشكه الدموع » من برلين ـ وقد حمل هذه الكنية لأنه كان فى كل يوم أحد يأخذ فى البكاء مرة أثناء الوعظ عند موضع موات لذلك ٠٠٠ فتريشكه الدموع هذا الذى كان يتميز بوجه شاحب وعينين حمراوين وفكين يشبهان فكى الحصان تماما ، والذى ظل ثمانية أو عشرة أيام فى بيت بودنبروك يأكل مع كلوتيلده على سبيل التغيير يتسابق معها فى الأكل ويقيم الصلاة ، تريشكه هذا أحب تونى بهذه المناسبة ٠ لم يحب فيها روحها الخالدة ، كلا ، بل شفتها العليا ، وشعرها الغزير ، وعينيها الجميلتين ، وشخصها النامي! وهذا الرجل من رجال الله ، وله فى برلين زوجة وأولاد كثيرون ، لم يخجل أن يضع لمدام جرينليش فى مخدع نومها فى الطبقة الثانية على يد الخادم أنطون ، رسالة تجمع بين مقتطفات من الانجيل وحنان بالغ غريب ممزوجا كله مزجا فعالا ٠ فوجدتها وهى تتوجه الى النوم وقرأتها ونزلت الدرج بخطى ثابتة الى الطبقة الوسطى والى مخدع نوم القنصلة حيث تلت على أمها فى ضوء الشموع رسالة طبيب الروح من دون حرج وبصوت مرتفع ٠ فأصبح ظهور تريشكه الدموع فى شارع منج من ذلك الحين ضربا من المحال ٠

وقالت مدام جرينليش : « هكذا هم جميعا ! ها ، هم جميعا هكذا ! يا الهى لقد كنت فيما مضى بلهاء ، مخلوقة غبية يا أماه ٠ لكن الحياة سلبتنى ثقتى بالناس فمعظمهم لصوص ٠٠٠ أجل ، هذه هى الحقيقة للأسف ٠ جرينليش ـ ! » ورن الاسم كصوت البوق ، كنفخة صغيرة فى مزمار أرسلتها فى الهواء وهى رافعة كتفيها ، رافعة بصرها ٠

الفصل السادس

كان سيبرت تيبورتيوس رجلا قصيرا ، ضئيل الجسم ذا رأس كبير ولحية عارضية خفيفة لكنها شقراء طويلة مقسومة ، يضع طرفيها أحيانا على الجانبين فوق كتفيه توخيا للراحة . وكان يغطي رأسه المستدير عدد لا يحصى من الخصيلات الحلقية الصوفية البالغة القصر . وكانت أذناه كبيرتين متباعدتين الى أقصى حد ملتويتين عند حوافهما الى الداخل مرهفتين من فوق كأذني الثعلب . وكان أنفه مركبا في وجهه كالزر المفرطح الصغير ، وعظمتا خديه بارزتين ، وعيناه الرماديتان اللتان كانتا ترمشان من حوله في شيء قليل من الغباء مزرورتين في ضيق لكنه في استطاعتهما أن تتسعا في لحظات بعينها بصورة لا تكون في الحساب ، وأن تزدادا على الدوام اتساعا ، فتجحظا وتكادا تخرجان ...

كان هذا هو راعي الكنيسة تيبورتيوس من أهالي ريجا . تولى العمل بضعة أعوام في ألمانيا الوسطى ثم هو الآن يمر بالمدينة في طريقه الى وطنه حيث كان من نصيبه وظيفة واعظ . وقد جاء لزيارة القنصلة مزودا بكتاب توصية من أخ له في الوظيفة تناول مرة بالمثل في شارع منج حساء السلحفاة ولحم الخنزير المزود بصلصة شارلوت . وقد زار القنصلة ، وضيف أثناء اقامته التي قدر لها أن تستغرق بضعة أيام قليلة ، فنزل بحجرة الضيوف الفسيحة الكائنة بالطبقة الأولى على الدهليز .

على أنه أقام أطول مما كان يتوقع فمرت ثمانية أيام ولم يشاهد بعد هذا المعلم أو ذاك : رقصة الموت أو ساعة الرسول القائمة في كنيسة مريم أو دار البلدية أو جمعية الملاحين أو الشمس ذات الأعين المتحركة في الكاتدرائية . وانقضت عشرة أيام وهو لا ينقطع له حديث عن الرحيل ، فاذا سمع أول كلمة لاستبقائه أجل سفره من جديد .

كان خيرا من السيدين يوناتان و « تريشكه الدموع » فلم يهتم بخصل جبين مدام انتونيا المكوية ، ولم يكتب لها أية رسائل ، لكنه من ثم كان أكثر التفاتا الى كلارا أختها الصغيرة التي تتحلى بأكثر من جد أختها فشغل بها . كان يحدث في حضرتها اذا ما تكلمت أو غدت وراحت ، أن تتسع عيناه بصورة لا تخطر ببال ، ثم تستمرا في الاتساع ، ثم تجحظا وتكادا تخرجان ... ثم يقضي النهار بأكمله معها فيحدثها في شئون الدين والدنيا ، أو يقرأ لها

بصوته العالى المتلاحق ، ونطق وطنه البلطى الذى تحجل فيه الألفاظ حجلا مضحكا .

وفى اليوم التالى بالذات قال : « ارحمى نفسك يا حضرة القنصلة ! أى كنز وأية بركة من الله لك فى ابنتك كلارا ! انها طفلة عظيمة !

فأجابت القنصلة : « انك محق » لكنه لم ين عن تكرار ذلك الى حد أن أمرت القنصلة به عينيها الزرقاوين الصافيتين تفحصه فى رزانة ، وحملته على أن يتحدث باسهاب أكثر قليلا من هذا عن أصله وأحواله وآماله . فظهر أنه من أسرة تجار ، وأن أمه ذهبت الى رحمة الله ، وأن ليس له أخوة ولا أخوات ، وأن أباه الشيخ يعيش فى ريجا على دخله الخاص من ثروة لا بأس بها ستؤول يوما اليه هو ، الى القس تيبورتيوس ، هذا الى أن وظيفته تضمن له دخلا كافيا .

أما ما يتعلق بكلارا بودنبروك فقد كانت وقتئذ فى التاسعة عشرة من عمرها ، قد نمت ، بشعرها الأسود المفروق المصقول ، وعينيها العسليتين القاسيتين الحالمتين مع ذلك ، وأنفها المقوس تقويسا خفيفا وفمها المطبق بأشد مما ينبغى قليلا ، وقامتها الفارعة الهيفاء — الى غادة ذات حسن فريد قاس . وهى فى البيت أشد ماتكون تعلقا بابنة عمها كلوتيلده المسكينة ، الشبيهة بها فى تقواها ، والتى مات أبوها أخيرا وكان يجول بخاطرها أن تستقر أى تقصد الى أى مكان فى مثوى تعيش فيه ببضعة الدراهم وقطع الأثاث التى ورثتها ... ولم تكن كلارا تعلم شيئا بطبيعة الحال عن تواضع تيلده المطاط الصابر الجائع . فهى على النقيض من ذلك قد باتت لها فى التعامل مع الخدم بل مع أخواتها وأمها كذلك نغمة تنم عن شىء من السيطرة ، وأصبح لصوت العجائز — صوتها — الذى كانت تفهم كيف تخفضه بالتأكيد ، ولا تعرف قط أن ترفعه سائلة ، رنة الآمرة الناهية ، فكان كثيرا ما يكون له وقع مقتضب قاس برم له هبوب . وذلك فى الأيام التى تشعر فيها كلارا بالصداع .

كانت قبل أن يلبس موت القنصل الأسرة ثياب الحداد تحضر المجتمعات فى بيت الوالدين وفى البيوت المساوية لها فى المرتبة ، فى وقار وتحفظ . فكانت القنصلة تتأملها ولا تستطيع أن تخفى أنه على الرغم من البائنة الطائلة ومهارة كلارا فى التدبير المنزلى لا يمكن تزويج هذه الطفلة . وما كان يمكن واحداً من تجار البيئة المتشككين الطروبين الذين يحتسون النبيذ الأحمر ، ولكن يمكن رجلا من رجال الدين أن يتصور نفسه الى جانب هذه الفتاة الجادة التى تخشى الله . واذا كانت هذه الفكرة تسر القنصلة فقد لقيت عندها تمهيدات القس

تيبورتيوس الرقيقة استعدادا يتسم بالاعتدال والوداد .

وحقا لقد تطورت المسألة فى دقة كبيرة ، اذ قامت الأسرة عصر يوم دافىء صحو من أيام يولية بنزهة وخرجت القنصلة وأنتونيا وكريستيان وكلارا وتيلده وايريكا جرينليش مع الآنسة يونجمان وبينهم القس تيبوريتوس بعيدا «الى باب القصر » ليتناولوا فى محل ريفى فى الهواء الطلق التوت واللبن أو الحب المقشور الأحمر على موائد خشبية . وبعد هذه الوجبة الخفيفة توجهوا للنزهة فى الحديقة الكبيرة ذات المطعم ، الممتدة الى النهر بين أشجار الفاكهة وشجيرات الخروب وعنب الذئب وحقول الهليون والبطاطس .

وتخلف سيفرت تيبورتيوس وكلارا بودنبروك قليلا . فخلع ، وهو أقصر قامة منها كثيراً ، ولحيته العارضية المقسومة على كلتا كتفيه ، قبعته الفشية السوداء المنحولة عن رأسه الكبير ، وتجاذب معها ، وهو يجفف عرق جبينه هنا وههنا بالمنديل ، ويوسع عينيه ، أطراف حديث مستفيض رقيق ، وقف كلاهما فى خلاله مرة ، وأمنت فيه كلارا « بنعم » واحدة جادة هادئة .

وبعد العودة ، اذ القنصلة متعبة حرانة بعض الشيء ، جالسة فى حجرة المناظر الطبيعية ، جلس اليها القس تيبورتيوس فى الأصيل الصيفى البهى ، وكان عصر يوم الأحد ينشر فى الخارج هدوءه الساجى وأخذ معها فى حديث طويل رقيق قالت القنصلة فى ختامه : «كفى ياعزيزى القسيس ... ان طلبك يطابق رغباتى كأم . وانت من ناحيتك لم تسىء الاختيار وأؤكد لك ذلك . فمن كان يظن أن دخولك عندنا واقامتك فى بيتنا يمكن أن يبارك هذه المباركة العظيمة ! .. ولست أريد اليوم أن أعطى الكلمة الأخيرة ، فانه من الواجب أن أكتب الى ابنى القنصل الموجود كما تعلم فى الخارج فى الآونة الراهنة . فسافر غدا الى ريجا فى صحة وعافية لتتولى عملك . ونحن نفكر فى التوجه الى البحر لقضاء بضعة أسابيع .. وستلقى منى قريبا خبرا . ولتكن مشيئة الله أن نلتقى فى سعادة . »

الفصل السابع

امستردام في العشرين من يوليه ١٨٥٦

فندق « هت هاسيه »

أمي العزيزة !

تلقيت من هنيهة خطابك الحافل ، وانى أبادر الى شكرك أخلص الشكر على ماتضمنه من التفات اذ تسألينني الموافقة على المسألة المعروفة · ومن البديهى ألا أوافق فحسب بل أن أقدم مع الموافقة أحب التهانى ، مقتنعا كل الاقتناع بأنكما أنت وكلارا قد وفقتما فى الاختيار · فاسم تيبورتيوس الجميل معروف لى ، وأعتقد اعتقادا جازما أن أبى كان على اتصال فى العمل بأبيه · وعلى كل فان كلارا تنتقل بهذا الى أحوال مرضية ، وأن مركزها كزوجة لقسيس مما يلائم مزاجها·
اذن فقد سافر تيبورتيوس الى ريجا ، وسيزور عروسه فى أغسطس مرة أخرى ؟ وسوف تجرى الأمور أمرح مما هى فى شارع منج وأمرح أيضا مما تتوقعون جميعا ، لأنكم لاتعلمون لماذا ولأية أسباب خاصة قد دهشت فى غبطة تامة من خطبة الآنسة كلارا ، وبأى اجتماع حبيب يتعلق الأمر ! أجل ياسيدتى الوالدة المفضلة ، اننى اذا ارتحت اليوم الى أن أبعث اليك بموافقتى الجدية من الأمستل الى بحر البلطيق على هناء كلارا الأرضى فانما أفعل ذلك مشترطا بكل بساطة أن أتلقى من قلمك بعودة البريد موافقة كهذه على مسألة شبيهة ! انى لأدفع ثلاثة جلدنات طيبة فى مقابل أن أرى وجهك وخاصة وجه تونى الشجاع وأنتما تقرءان هذه السطور ··· لكننى أريد أن أدخل الموضوع ·

ان فندقى الصغير النظيف الذى يطل فى وسط المدينة على القنال فى منظر جميل يقع غير بعيد من البورصة · والأعمال التى جئت من أجلها الى هنا (والأمر يتعلق بايجاد علاقة جديدة قيمة · وأنت تعلمين أنى أفضل أن أدبر هذا بنفسى) قد أخذت تتطور فى اليوم الأول على ما يرام · واذ كنت معروفا جيدا فى المدينة منذ أيام التلمذة فقد شغلنى المجتمع من فورى بصورة ملحوظة جدا ، وان كانت أسر كثيرة ترتاد الآن حمامات البحر · وقد اشتركت فى سهرة صغيرة عند فان هنكدومز ومولنز · وفى ثالث يوم لوصولى هنا كان لابد لى من

أن أرتدى لباس السهرة لأحضر عند رئيسى السابق السيد فان دركيلن مأدبة عشاء أقامها فيما يبدو تكريما لى بعد انتهاء الفصل ٠ لـكنى اقتدت الى المائدة ٠٠٠ فهل تحزران؟ الأنسة أرنولدسن ، جيردا أرنولسن رفيقة تونى فى المدرسة الداخلية فيما مضى من الزمان وكان أبوها التاجر والعازف الأكبر على الـكمان وكذلك ابنته المتزوجة وزوجها حاضرين بالمثل ٠

وأتذكر جيدا أن جيردا ــ ومسموح أن أذكر اسمها الأول دون غيره ــ خلفت، وهى ماتزال فتاة صغيرة جدا تذهب الى مدرسة الآنسة فيشبروث عندميلنبرنك أثرا قويا فى نفسى لم يخب قط ٠ لكنى الآن قد وجدتها أكبر وأنمى وأجمـــل وأذكى ٠٠٠ واذا كان من الممكن أن يثبت أنهــا عنيفة بعض الشىء فأذنا لى فى وصف شخصها الذى ستستطيعان عما قريب مشاهدته وجها لوجه !

انه يمكن أن يجول فى خاطركما أن طائفة من البدوات قد أدت الى حديث طلى على المائدة ، لكنا تركنا بعد تناول الحساء منطقة النوادر القديمة وانتقلنا الى أشياء أكثر حدا وتشويقا ٠ ففى الموسيقى لم أستطع أن أنافسها ، ذلك أننا نأسف لمعلومات آل بودنبروك الضئيلة فيها ، لكننى كنت بفن الرسم الهولندى أخبر ، وفى الأدب كان كلانا يفهم الآخر ٠

وفى الحق لقد مر الوقت سريعا ، وقد قدمت بعد المائدة الى أرنولدسن الشيخ الذى تلقانى بأعظم ترحاب ٠ وفيما بعد عزفت فى الصالون عدة قطع من قطـع الكونسير وكذلك عزفت جيردا ٠ وقد كان مرآها رائعا ٠ ومع أنى لا فكرة عندى عن العزف على الكمان ، فانى أحس أنها أتقنت العزف على آلتها (وهى من نوع ستراديفارى الأصيل) حتى لقد أخضلت الأعين بالدمع ٠

وفى اليوم التالى زرت بيت أرنولدسن فى بوتنكانت فاستقبلتنى أولا سيدة عجوز اضطررت الى أن أتكلم معها بالفرنسية ، ثم جاءت جيردا وجعلنا نتحدث ساعة كاليوم السابق : الا أننا كنا هذه المرة أكثر تقاربا وأكثر سـعيا الى أن يفهم أحدنا الآخر ويعرفه ، فدار الكلام عنك يا أماه ، وعن تونى ، وعن مدينتنا الطيبة القديمة وعن أعمالى فيها ٠

وفى هذا اليوم اتخذت قرارى : اما هذه واما لا أحد ؛ الآن أو أبدا ! وقد اجتمعت بها بمناسبة حفلة فى حديقة صديقى فان سفندرن ودعيت الى حفلة موسيقية مسائية صغيرة عند آل أرنولدسن أنفسهم جربت خلالها أن أستفهم من السيدة الصغيرة نصف استفهام أجسر به نبضها فكان جوابها مشجعا ٠٠ ومن خمسة أيام مضت توجهت الى السيد أرنولدسن قبل الظهر لأستأذنه فى أن أطلب يد ابنته ، فاستقبلنى فى مكتبه الخاص وقال لى : « ياعزيزى القنصل ، انك تلقى

عندى أعظم ترحاب ، وان كان يشق على كثيرا أنا الأرمل الشيخ أن أنفصل عن ابنتى ! لـكن هى ؟ لقـد قررت ألا تتزوج ، واستمسكت من أمد طويـل بقرارها • فهل يكون لك حظ ؟ » وقد دهش ايا دهشة لما أجبته بأن الآنسة جيردا شجعتنى فى الواقع على الأمل •

وقد ترك لها بعض الوقت للتفكير وأظنه حاول من فرط أنانيته صرفها ، لكن محاولته ذهبت سدى ، فقد بت المختار • ومنذ عصر أمس والخطبة تامة •

كلا يا أماه ، اننى لأرجو الآن أن تباركى هـذه الصـلة كتابة ، ذلك أنى أسافر بعد غد ، لكنى أحمل معى وعد آل أرنولدسن بأن يزورونا ، الأب وجيردا وأختها المتزوجة فى شهر أغسطس ، وعندئذ لن تستطيعى الا أن تسلمى بأن هذه هى اللائقة بى • ولن يكون سببا لاعتراضك أن جيردا أصغر منى بثلاث سنوات فقط ! ولا أخالك فيما أرجو تفرضين أن أدخل البيت طفلة غريرة من محيط مولندروف ــ لانجهالز ــ كيستنماكر ــ هاجنشتروم •
أما ما يتعلق بالزيجة ! ••• آه ، اننى لأخشى تقريبا أن يرعانى شتيفان كيستنماكر وهرمان هاجنشتروم وبيتر دولمان والخال يوستوس والمدينـة بأسرها بأعين ماكرة اذا ماعلموا بهذه الزيجة ، ذلك أن حما المستقبل مليونير •• يا الهى ، ما الذى سوف يقال عن هـــذا • وانى لأحترم جـيردا أرنولدسن بحماسة لكنى لا أفكر مطلقا فى أن أغوص فى نفسى الى الأعماق لأسبر هل والى أى مدى كان للبائنة الطائلة التى همسوا بها فى أذنى بصورة تكاد تكون ماكرة دخل فى حماستى • انى لأحبها ، لكنه مما يجعل هنائى وفخرى أعظم أنى فى الوقت الذى تصبح فيه ملكا لى أحصل لمتجرنا على فيض هام من رأس المـال •

انى أختم يا أمى العزيزة هذا الخطاب الذى أسهبت فيه كثيرا بالنظر الى أننا سنتناول فى بضعة أيام هنائى بالكلام • وانى لأتمنى لك اقامة طيبـة مقرونة بالاستجمام فى الحمام • وأرجو تبليغ أخلص التحيات القلبية الى جميع الآل •

محبك وابنك المطيع
ت •

الفصل الثامن

لقد كان منتصف صيف هذا العام فى بيت بودنبروك مصحوبا فى الواقع بالنشاط والاحتفالات ٠

فقد قدم توماس فى آخر يوليه الى شارع منج ثانية وزار أسرته مرات على البحر ، كما أدى الزيارة لبقية السادة الذين استبقتهم أعمالهم فى المدينة ٠ وقد قضى كريستيان على ساحل البحر عطلته كلها ، لأنه كان يشكو ألما ما فى ساقه اليسرى لم يعرف الدكتور جرابو مطلقا ما يعالجه به ، وهو ما جعل تفكير كريستيان فيه من ثم أطول ٠٠٠

وفسر كريستيان متعبا وهو يمر يده على ساقه طردا وعكسا ، ويغضن أنفه الكبير ، ويجيل عينيه : « انه ليس بألم ٠٠٠ فلست أستطيع أن أسميه ألما ٠ انه عذاب ؛ عذاب مستمر ، خافت ، مزعج فى الساق كلها ٠٠٠ وفى الجهة اليسرى ، فى الجهة التى يقع فيها القلب ٠٠٠ غريب ٠٠٠ انى أجده غريبا ! فما رأيك يا توم ٠٠٠ »

ثم انحدر كريستيان الى البحر ليقص على جماعة من المستحمين الحكايات حتى ضج السيف بالضحك ، أو الى صالة الاستشفاء ليلعب الروليت مع بيتر دولمان والخال يوستوس والدكتور جيزيكه وغيرهم من تجار هامبورغ ٠

وزار القنصل بودنبروك مع تونى الشيخين شفارتسكوبف أول من زارا كعادتهما كلما كانا فى ترافيمنده ٠ وقال قومندان المرشدين وهو يتحدث بالعامية مغتبطا : « طاب يومك أيضا يا مدام جرينليش أما تزالين تذكرين ؟ لقد مضى أمد طويل على قضائنا معا ذلك الوقت الطيب ٠ وابننا مورتن ، لقد بات دكتورا فى برسلاو من أمد وهو يزاول مهنته بنجاح ٠٠٠ » وجرت مدام شفارتسكوبف وأعدت القهوة ، وتناولوا تعصيرة فى الشرفة الخضراء كسابق العهد ٠٠٠ لولا أن الجميع قد باتوا أسن عشر سنوات كاملة مما كانوا ، وأن مورتن ومينا الصغيرة التى تزوجت من رئيس ناحية هوفكروج كانا غائبين ، وأن القومندان الذى ابيض شعره تماما وأصبح أصم تقريبا ، قد تقاعد ، وأن زوجه كذلك تجمع فى شبكتها شعرا أشيب جدا ، وأن مدام جرينليش لم تعد ساذجة ، بل خبرت الحياة ؛ وهو ما لم يمنعها أن تأكل الكثير من أقراص

العسل ، ذلك أنها قالت : « هــذا نتاج طبيعى خالص ، فالمـرء يعرف معه ما يبتلع ! »

وفى أوائل أغسطس عاد آل بودنبروك ومعظم الأسر الأخرى الى المدينة . ثم جاءت اللحظة الكبرى التى وصل فيها الى شارع منج فى وقت واحد تقريبا كل من القس تيبورتيوس عائدا من الروسيا وآل أرنولدسن قادمين من هولنده ليؤدى كلاهما زيارة طويلة .

وقد كان منظرا بديعا جدا ساعة أن اقتاد القنصل عروسه للمرة الأولى الى حجرة المناظر الطبيعية والى أمه التى أقبلت عليها باسطة ذراعيها تميل برأسها الى جانب . وكانت جيردا فارعة ، مليئة ، تخطو على السجادة الزاهيــة فى ظرف طليق وكبرياء . كانت هذه الفتاة البالغة من العمر السابعة والعشرين ذات جمال رشيق ، غريب ، فتان ، ملغز بشعرها الأحمر الداكن الثقيل وعينيها العسليتين المتقاربتين اللتين تحيطهما ظلال رقيقة تميل الى الزرقة ، وأسنانها العريضة اللامعة التى تفتر عنها باسمة وأنفها المستقيم القوى ، وفمها البديع الكريم التكوين . وكان وجهها أبيض فى غير لمعــان يبدو عليه التعالى قليلا ؛ لكنها طأطأت رأسها مع ذلك لما أن احتوته القنصلة بين يديها فى حنــان ، وقبلت جبينها الناصع الطهور ... وقالت : « انى أرحب بك فى بيتنا وبين ظهرانينا يا ابنتى العزيزة الجميلة المباركة ... انك سوف تسعدينه ... الست أرى كم تجعلينه سعيدا ؟ » ثم سحبت توماس بذراعها اليمنى اليهـا لتقبله كذلك .

لم يكن البيت الكبير الذى تلقى الضيوف بالترحاب أشد مرحا وأكثر أنسا فى يوم من الأيام مما كان فى هذه الأيام اللهم الا فى عهد الجد على الأكثر . غير أن القس تيبورتيوس اختار لنفســه حجرة فى الجنــاح الخلفى عند قاعة البليار تواضعا منه . أما الباقون وهم السيد أرنولدسن : رجل فى نهـاية الخمسينات حرك ، فكه ، ذو لحية مدببة ، متوثب فى كل حركة فى صورة مقبولة ، وابنته الكبرى وهى سيدة يبدو عليها التوعك وصهره وهو رجل دنيا أنيق يقـوده كريستيان فى المدينــة والى المنتدى ؛ ثم جيردا . وقد وزعوا أنفسهم على الأماكن الفائضة فى الطبقة الأولى بمحاذاة الأرض تقريبا من بهو الأعمدة ...

وكانت أنتونيا جرينليش مسرورة من أن سيفرت تيبورتيوس كان رجل الدين الوحيد الموجود فى الوقت الحاضر فى بيت والديها ... كانت أكثر من مسرورة ! وقد ساعد على دوام غبطتهــا خطبة أخيهـا المحترم ، والحقيقة

الواقعة فى أن صديقتها جيردا كانت بالذات هى المختارة ، والشىء الباهر فى هذه الزيجة التى ألقت على اسم الأسرة والبيت التجارى ضوءا جديدا ، والبائنة البالغة ٣٠٠٫٠٠٠ مارك التى سمعت بها همسا ، والفكرة فيما عسى أن تقوله المدينة وتقوله الأسر الأخرى وخاصة آل هاجنشستروم فى هـذا ... كل هـذا قد ساعد على ادخال الغبطة الدائمة على قلبها ، فكانت تقبل زوجة أخيها المستقبلة بحرارة بمعدل ثلاث مرات فى الساعة ...

وقد صاحت : « أوه ، جيردا ! انى أحبك ، أتعلمين ؟ لقد أحببتك دائما ! انى أعرف أنك لا تطيقيننى ، وأنت كنت تكرهيننى دائما ، لكن ... »

فقالت الآنسة أرنولدسن : « أرجوك ياتونى ، كيف كان يمكن أن أكرهك ؟ فهل تسمحين لى أن أسألك أى سوء ألحقت بى ؟ »

ومع ذلك فان تونى لأسباب ما ، وفى الغالب لمجرد حبها وشغفها الشديد بالكلام ، كانت تصر بالحاح على أن جيردا كانت تكرهها دائما ، لكنها من جانبها هى ـ وهنا اغرورقت عيناها بالدموع ـ كانت تقابل هـذا الكره بالمحبة . وأخذت توماس على الأثر جانبا وقالت له : « لقـد أحسنت صنعا ياتوم . لقد كان صنيعك حسنا ! وكون أبى لم يعش حتى يرى هذا الصنيع لما يحمل على البكاء والعويل ، أتعرف ؟ ان هذا ليمحو شيئا ما .. وليس آخر هذه الأشياء أمر تلك الشخصية التى يجب ألا يذكرها المرء على لسانه . » وعندئذ خطر لها أن تسحب جيردا الى حجرة خالية ، وقصت عليها حكاية زواجها من بندكس جرينليش فى اسهاب مرعب ، كذلك تحدثت معها ساعات طويلة عن عهد المدرسة الداخلية وعن أحاديثهما المسائية اذ ذاك ، وعن أرمجارد فون شيلنج المقيمة فى مكلينبورج وايفا ايفرز المقيمة فى ميونيخ ... ولم يلق سيفرت تيبورتيوس وخطبته لكلارا شيئا من اهتمامها تقريبا . لكن كليهما لم يسع الى هذا الاهتمام . فقد كانا يجلسان هادئين يدا فى يد ، ويتحدثان حديثا رقيقا جديا عن مستقبلهما الجميل .

ولما كان عام حداد آل بودنبروك لم ينته ، فقد اقتصر الاحتفال بالخطبتين على محيط الأسرة ؛ لكن جيردا أرنولدسن سرعان ماذاع صيتها فى المدينة ، فكان شخصها محور الحديث فى البورصة والمنتدى وفى مسرح المدينة والمجتمع فقال الفجار : « ما أبهى ! » وسأسأوا بألسنتهم ، ذلك أن هـذه السأسأة كانت فى هامبورج أحدث ما يعبر به عن الطريف المنتقى سواء أكان علامة نبيذ أحمر أو سيجارا أو مأدبة عشاء أو قيمة حقيقية . لكنه كان بين المواطنين ، القويمى الأخلاق ، المستقيمين ، الشرفاء ، كثيرون هزوا رؤوسهم وقالوا : « غريب ... هذه الأناقة ، وهذا الشعر ، وهذا السلوك ، وهذا الوجه ..

ان هذا غريب غرابة ليست بالقليلة ٠ » وعبر التاجر سورينسن عن هذا بقوله : « ان فيه شيئا أكيدا بدرجة ما ٠٠٠ » وتحول وهويقول هذا ، وقطب وجهه كما يفعل كلما عرض عليه فى البورصة عرض يدل على سوء الطوية ٠ » لكنه القنصل بودنبروك ٠٠٠ والأمر يناسبه ٠٠٠ وهو على شىء من الادعاء هذا القنصل بودنبروك ؛ على خلاف غيره قليلا ؟ أيضا على خلاف أجداده ٠ كانوا يعرفون ، لا سيما تاجر الأقمشة بنتيين كان يعرف ؛ انه لا يستقدم فحسب كل ملابسه الأنيقة الحديثة ، وكان يملك منها الكثير بصورة غير عادية : ملابس فوقانية وستر وقبعات وصدريات وسراويل قصيرة وربطات رقبة ــ بل كذلك ملابسه الداخلية من هامبورج ٠ بل انهم كانوا يعرفون أنه كان يغير قميصه كل يوم ، بل مرتين فى اليوم ، وكان يعطر منديله وشاربه المفتول على مثال نابليون الثالث ٠ ولم يكن يفعل هذا كله حبا فى المتجر والمظهر ــ فان بيت يوهان بودنبروك لم يكن بحاجة الى ذلك ــ بل عن ميل شخصى الى كل ماتناهى فى الابداع ، والارستقراطية ٠٠٠ كيف يكون التعبير عن هذا ٠ يا للشيطان ! ثم هذه الاستشهادات التى كان يدخلها من هاينى وغيره من الشعراء فى كلامه أحيانا فى أكثر المناسبات صبغة عملية ، فى المسائل الخاصة بالعمل والمدينة ٠٠٠ ثم هذه السيدة ٠٠٠ كلا ، ان فيه أيضا ، فى القنصل بودنبروك « شيئا أكيدا بدرجة ما » ــ شيئا بدهيا يلاحظ بكل احترام ، ذلك أن الأسرة كانت شديدة الاحترام ، والمتجر كان فى أحسن حالة مالية ، والرئيس كان لطيفا مهيبا ، يحب المدينة وسيخدمها على التحقيق بنجاح فوق ماخدمها ٠٠٠ ثم ان هذه زيجة بديعة جدا ٠ فالناس تتحدث عن ١٠٠ر٠٠٠ ريال ومع ذلك فبين السيدات من يجدنها « بلهاء » ٠ وهذه مناسبة للتذكير بأن كلمة « بلهاء » تعبير قاس جدا فى الحكم على الناس ٠

لكن الذى احترم عروس توماس بودنبروك بحماسة طاغية منذ أن رآها أول مرة فى الطريق ، قد كان السمسار جوش ٠ كان يقول : « ها » فى المنتدى أو فى جمعية الفلاحين رافعا قدحه مقطبا وجهه الدساس فى تمثيل كريه ٠٠٠ « يالها من امرأة أيها السادة ! ساحرة وأفروديت وبرونهلده وميلوزين فى شخص واحد ٠٠٠ » ثم يضيف الى ذلك على غير انتظار : « ها ! صحيح أن الحياة جميلة !» فأما من كانوا يجلسون حوله » ويحتسون أقداحهم من المواطنين ، فوق المقاعد الخشبية المحفورة فى بيت الملاحين القديم ، تحت نماذج السفن الشراعية والأسماك الكبيرة المتدلية من السقف فلم يكن أحد منهم يفهم مناسبة لظهور جيردا أرنولدسن فى حياة السمسار جوش المتواضعة التى تصبو الى ماهو غير عادى ٠

واذ كان المجتمع الصغير المقيم فى شارع منج معفى كما قلنا من اقامة الحفلات الكبرى فقد كان فراغه أكبر لاختلاء بعضه ببعض ، فكان سيفرت تيبورتيوس

يقص على كلارا ، ويدها في يده ، من أنباء والديه ويحكي لها عن شبابه وخططه المستقبلة ؛ وكان آل أرنولدسن يروون عن شجرة نسبهم النامية في درسدن والتي لم يمتد منها الى الأراضي الواطئة سوى هذا النوع ؛ ثم مدام جرينليش التي طلبت مفتاح المكتب القائم في حجرة المناظر الطبيعية ، وسحبت في جد تلك الاضبارة التي تحوى أوراق الأسرة والتي دون فيها توماس أيضا أحدث التواريخ . وقد سجلت هذه الاضبارة تاريخ آل بودنبروك في احتفال ، وروت عن حائك الأردية في رستوك الذي كان في سعة من العيش ، وقرأت قصيدة قديمة مما ألقى في أحد الاحتفالات جاء فيها :

مهارة وجمال مهذب
اجتمعا أمام ناظرنا
فينوس أنا ديومينا
ويد فولكاني النشيطة

فكانت في خلالها تطرف بعينيها لتوم وجيردا ، ويلامس لسانها شفتها العليا . واحتراما منها للتاريخ لم يفتها بحال أن تعرج على تاريخ الأسرة من ناحية شخصية كانت تكره أن تذكرها على لسانها ...

بيد أنه في الساعة الرابعة من يوم الخميس كان الضيوف المعتادون يفدون: يوستوس كروجر مع زوجته الضعيفة التي كان يعيش معها في شقاق ، لأنها لم تفتأ ترسل الى أمريكا النقود تلو النقود الى يعقوب الفاشل المحروم من الميراث ... وقد كانت تدخر ما ترسله من مصروف البيت ولا تأكل مع زوجها الا التافه ، فلم ينفع معها شيء . وجاءت سيدات بودنبروك المقيمات في الشارع العريض اللواتي يقدسن الحقيقة فكان أن قررن أن ايريكا جرينليش ما تزال غير نامية ، وأنها قد ازدادت شبها بأبيها النصاب ، وأن عروس القنصل تسرح شعرها تسريحة تكاد تلفت الأنظار . كذلك جاءت زيزيمى فيشبروت وشبت على أطراف أصابعها وقبلت جيردا فوق جبينها بصوت خافت وقالت متأثرة : « لتكن السعادة من نصيبك أيتها الطفلة الطيبة ! »

وتكلم السيد أرنولدسن على المائدة فشرب نخب العروسين بكلمة فكاهية خيالية ثم عزف أثناء تناول القهوة على الكمان كأحد النور في عنف وحرارة وحذق ... وكذلك جيردا أتت بكمانها صنع ستراديفارى ، وكان لايفارقها ، وتدخلت في تقاسيمه بأغنية جميلة . وعزف الاثنان ثنائيا رائعا في حجرة المناظر الطبيعية على مقربة من الهارمونيوم في نفس الموضع الذي عزف فيه القنصل الجد ذات مرة ألحانه الصغيرة على الناي عامرة بالمعاني .

وقالت تونى التى كانت متكئة فى كرسيها الساند : « عظيم ! ••• ياالله ، لم اجد هذا عظيما ! » واستطردت جادة ، متئدة ، مؤكدة ، رافعة بصرها ، تعرب عن مشاعرهاالحارةالخالصة وتقول : « كلا ، أتعلمون كيف تجرى المقادير فى الحياة ••• ليس مثل هذه الموهبة مما يقسم دائما لكل انسان ! لقد أبت السماء على مثلها ،، أتعلمون ، كم من ليلة كنت أبتهل اليها أن تمنحنى اياها ••• انى بلهاء غبية ••• أجل يا جيردا ، دعينى أقل لك ••• اننى الكبرى وقد خبرت الحياة ••• ينبغى أن تركعى كل يوم على ركبتيك شكرا على أنك هذه المخلوقة التى غفر لك الله ••• ! »

فقالت جيردا : « ••• تقصدين « أنعم عليك » وأبدت أسنانها الجميلة البيضاء العريضة ضاحكة • واقترب الجميع فيما بعد كل منالآخرليتشاوروا فيما يتطلبه المستقبل القريب ،، ويتناولوا هلاما بالنبيذ ، فتقرر أن يعود سيفرت تيبورتيوس وآل أرنولدسن فى نهاية الشهر أو أوائل سبتمبر ، كل الى بلده ، وأن يحتفل بزواج كلارا بعد عيد الميلاد مباشرة فى بهوالأعمدة بين مظاهر الأبهة جميعا ، بينما يؤجل زفاف أمستردام الى مستهل العامالتالى لتحضره القنصلة «حباها الله بالعمر والصحة » ويتاح بذلك فترة استراحة • ولم ينفع شىء فى صرف توماس عن المعارضة • فقالت القنصلة وقد وضعت يدها على ذراعه : « أرجوك ! ان لسيفرت الأولوية ! »

وتنازل القس وعروسه عن رحله شهر العسل • أما جيردا وتوماس فقد اتفقا على منهجللرحلة يخترق شمالايطاليا الى فرنسا فيمكثان فيها شهرين • لكنه فى خلال ذلك تتولى انتونيا مع المنجد جاكوبس المقيم فى شارعالسمك توسيع البيت الصغير الجميل الكائن فى الشارع العريض والتابع لأعزبانتقل الى هامبورج ، وقد شرع القنصل فى شرائه • أوه ، ان تونى سوف تنجز ذلك بما يرضى الجميع ! فقد قالت : « سوف تجدانه وجيها ! » وهذا ما يعتقده الجميع •

كان كريستيان يجوب أطراف هذه الحجرة التى كان فيها زوجان من العرائس يمسك فى كل منهما الواحد بيد الآخر ، بساقيه النحيلتينالمقوستين وأنفه الكبير • وهى حجرة لم يدر فيها كلام الا عن الزفاف والجهاز ، ورحلات شهر العسل ؛ فأحس عذابا ، عذابا ما فى ساقه اليسرى ، ورأى كل شىء بعينيه الصغيرتين المستديرتين الغائرتين جادا ، قلقا ، مفكرا • وفى الختام قال بلسان مارسيلوس شتنجل لابنة عمه المسكينة التى كانت تجلس بين السعداء وعليها سيماء المسنين ، ساكنة ، عجفاء ، ما تزال تحس بعد المائدة جوعا : « ايه ياتيلده ! عما قريب نتزوج نحن أيضا ! أعنى : كل لنفسه ! »

الفصل التاسع

وعاد القنصل بودنبروك مع زوجته من ايطاليا بعد ذلك بسبعة أشهر تقريبا . وكان ثلج مارس يغطي الشارع العريض لما وقفت المركبة في الساعة الخامسة بعد الظهر أمام واجهة بيتهما البسيطة المدهونة بالزيت ، فرابط بضعة من الأطفال والمواطنين الكبار ليشاهدوا القادمين يترجلان . وكانت مدام أنتونيا جرينليش واقفة بباب البيت فخورة بالاستعدادات التي اتخذتها ، ومن خلفها الخادمتان اللتان اختارتهما عن خبرة لزوجة أخيها ، مستعدتان بالمثل للاستقبال عاريتي الذراعين ، تضعان على رأسيهما طاقيتين بيضاوين وترتديان جونلتين سميكتين مخططتين .

فبادرت مدام أنتونيا في حمية العمل وحرارة الغبطة الى هبوط الدرجات المفرطحة ، واقتادت جيردا وتوماس اللذين غادرا المركبة المحملة بالحقائب مرتديين الفراء الى ردهة البيت تغمرهما بالقبلات ... « ها أنتما ذان ! ها أنتما ذان » أيها السعيدان اللذان جبتما كل مكان ! أرأيتما البيت : ان سطحه يقوم على أعمدة ؟ ... لقد بت أجمل مما كنت يا جيردا ، تعالى ، دعيني أقبلك ... كلا ، من فمك أيضا ... هكذا ! طاب يومك ياتوم العجوز ، لك مني قبلة أيضا . لقد قال ماركوس ان الأعمال في تلك الأثناء سارت على ما يرام . ان أمي تنتظركما في شارع منج » لكن ارتاحا قبل ذلك ... أتريدان شايا ؟ حماما ؟ كل شيء معد . لن تجدا ما تشكوان منه ، فقد أفرغ جاكوبس قصاراه ، وفعلت أنا كذلك كل ما في وسعي ... »

وسارا معا في الردهة ، بينما جلبت الفتاتان الأمتعة مع الحوذي الى الداخل . وقالت توني : « انكما لن تستعملا الحجرات الموجودة هنا في الأرضية في الوقت الحاضر كثيرا ... في الوقت الحاضر » مكررة اياها ملامسة شفتها العليا بطرف لسانها . « هذه هنا جميلة » ــ وفتحت في الحال بابا عن اليمين . ــ « وهذا لبلاب أمام النوافذ ... أثاث خشبي بسيط ... سنديان ... وهناك الى الخلف من الناحية الأخرى للطرقة واحدة أخرى أكبر . وهنا عن اليمين المطبخ وقاعة الأكل ... لكن لنصعد ، فاني أريد أن أريكما كل شيء ! »

وصعدوا الدرج المريح فوق المشاية العريضة الداكنة الحمرة الى باب الطبقة الزجاجي الذي تمتد خلفه طرقة ضيقة . وكانت حجرة الأكل على هذه

الطرقة ذات مائدة مستديرة ثقيلة عليها سماور يغلى ، وحيطان مورقة بمثل الحرير الداكن الحمرة تستند اليها كراسى من خشب الجوز ذات مقاعد من الخيزران ، وبوفيه ثقيل • وكانت هناك حجرة جلوس مريحة فرشها رمادى تفصلها ستائر فقط عن صالون مستطيل ذى مقاعد ساندة مخططة بالأخضر ، وخارجه • لكن قاعة من ثلاث نوافذ كانت تشغل مساحة تعدل ربع الطبقة ، أدت بهم الى مخدع النوم وكان عن اليمين يطل على الطرقة ، ذا ستائر محلاة بالأزهار وسريرين ضخمين من خشب الموغنا • وسارت تونى الى الباب الصغير النافذ من المخدع هناك الى الخلف فضغطت أكرته ، وفتحت الممر الى درج حلزونى تصل لفاته الى الأرضية : الى الحمام وغرفة الخدم •

قالت جيردا : « هنا جميل • هنا أريد البقاء • » وارتمت على مقعد ساند قريب من أحد السريرين تتنفس الصعداء •

وانحنى القنصل فوقها وقبلها فوق جبينها وقال : « أتعبة أنت ؟ لكنها الحقيقة • وأنا أيضا أحب أن أنظف نفسى قليلا ••• »

وقالت مدام جرينليش : « وأنا سأراقب ماء الشاى وانتظركما فى قاعة الأكل ••• » وذهبت الى هناك •

كان الشاى يدخن ، معدا فى أقداح ميسن لما جاء توماس وقال : «ها أنذا • ان جيردا تحب أن تستريح نصف ساعة ، فهى تشكو صداعا • وسنذهب فيما بعد الى شارع منج • هل الجميع بخير ياعزيزتى تونى ؟ أمى وايريكا وكريستيان ؟ » ثم استطرد فى ألطف حركة من حركاته يقول : « ولكن الآن ؟ أجزل الشكر وأخلصه من جيردا أيضا عن كل ما بذلت من جهد يا أختى الطيبة ! ما أجمل ما أعددت هذا كله ! فليس ينقص شىء سوى أن تكون فى الخارجة بضع نخلات لزوجى ، وأن أبحث عن بضع لوحات زيتية نافعة ••• ولكن احكى لى ! كيف حالك ؟ وماذا فعلت فى تلك الأثناء ؟ »

وسحب كرسيا لأخته الى جانبه وجعل يرتشف الشاى على مهل وأكل بسكوتة بينما كان يتكلمان •

فأجابت : «أخ ياتوم ! ماذا كنت تنتظر أن أفعل ؟ ان حياتى باتت فى ذمة الماضى ••• »

« سخف يا تونى ! أنت وحياتك ••• ولكنا نضجر انفسنا ضجرا شديدا تقريبا ! »

« أجل ياتوم ، أني برمة بصورة غير عادية • انيأحيانا ما أبكي منالسأم• وقد أتاح لي شغلي بهذا البيت سرورا • ولست تصدق كم انا سعيدة بعودتكما ••• لكني لا أحب البقاء في البيت ، أتعلم ؟ وليعاقبنيالله اذا كانت هذه خطيئة ••• اني الآن في الثلاثين • لكن هذا ليس بالعمر الذي أعقد فيه صداقة قلبية مع أهل السماء الأخيرين أو مع السيدتين جيرهارت أو مع واحد من ذوي الأردية السود الذين يزورون أمي ويلتهمون بيوت الأرامل • اني لا أومن بهؤلاء ياتوم • فهم ذئاب في فراء الحملان ••• هم جيل من الثعابين ••• ونحن جميعا أناس ضعاف ، ذوو قلوب خاطئة ، فحين يريدون أن ينظروا الى من عل اظهارا لعطفهم على أنا الطفلة المسكينة ، أضحك منهم • لقد كان في رأيي أن الناس جميعا سواسية وأنه لاحاجة الى وساطة بيننا وبين الرحمن الرحيم • وأنت تعرف أيضا مبادئي السياسية • فاني أريد أن يكون المواطن للدولة ••• »

فسألها توم : « اذن أنت تشعرين بالوحدة قليلا ، أليس كذلك ؟ » يريد أن يردها الى الطريق • ثم استطرد يقول : « ولكن اسمعي ، أليست عندك ايريكا ؟ »

« أجل يا توم ، واني أحب الطفلة من كل قلبي ، وان كان شخص بعينه قد زعم أني لا أحب الأطفال ••• ولكن انظر ! ••• اني صريحة معك ، اني امرأة شريفة ، أتكلم بما في قلبي ، ولا أهتم بالألفاظ • »

« ما هو حسن منك يا توني • »

«صفوة القول ان منالمحزن أن الطفلة تذكر بجرينليشأكثر مما ينبغي••• وكذلك آل بودنبروك اللواتي يسكن في الشارع العريض يقلن انها تشبهه جدا • ثم انني حين أضعها أمامي ، يستغرقني التفكير فأقول لنفسي : انك امرأة مسنة ، لك ابنة كبيرة ، وقد استدبرت الحياة • لقد لبثت في قلبها بضع سنوات ، فيمكن الآن أن تبلغي السبعين أو الثمانين وتصبحي هنا فقيرة تصغين الى ما تقرأ « ليا » جيرهارت • ان هذه الفكرة تحزنني ياتوم الى حد أنها تقف في حلقي وتضغط ••• ذلك أني أشعر بأني مازلت صبية ، أتعلم ، أشتاق الى أن أخرج مرة أخرى الى الحياة ••• وأخيرا اني لا أشعر بالارتياح التام ، لا في البيت ولا في المدينة • ولا تعتقد أني عمياء عنأحوالنا فلم أعد بالبلهاء التي كنت ، وعيناي في رأسي • اني امرأة مطلقة أشعر بهذا الوضع ، وهذا واضح جدا • ويمكنك أن تصدقني ياتوم اذا قلت لك انيأشعر دائما بالضيق أن يكون اسمنا بهذا التلطيخ وان لم يكن علينا في ذلك جناح • ويمكنك أن تفعل ما تشاء ، يمكنك أن تكسب مالا وتصبح أول رجل في

المدينة ـ لكن الناس سيقولون دائمـا : « نعم ... أن أختـه الى ذلك امرأة مطلقة . » ان چوليا مولندروف وهي من أسرة هاجنشتروم لا تحبني ... حقا انها غبية ! ولكن هـكذا تجرى الأمور فى كافة الأسر ... وحقـا اننى لا يمكن أن أفقـد الأمل ياتوم فى أن تنصـلح الأمور كرة أخرى ، فما زلت صبية ... أو ما زلت جميلة تقريبـا ؟ ان أمى لم تعد تستطيع أن تزودنى ببائنة كبيرة ، لكنها على كل حال قطعة مقبولة من المال . فلو أننى تزوجت ثانية ؟ صراحة ياتوم ، انها أحر أمنية لى ، وبتحقيقها ينتظم كل شيء وتزول البقعة العالقة ... آه يا الهى ، لو أنى استطعت الحصـول على زوج يليق باسمنا واستقر ثانية ـ ! أتعتقد أن هذا بات محالا تماما ؟ »

« لا قدر الله ياتونى ! كلا ، كلا ! انى لم أكف مطلقا عن أن يكون هذا فى حسابى . لكنه يلوح لى ضروريا قبل كل شيء أن تخرجى قليلا ، وترفهى عن نفسك ، وتنشدى شيئا من التغيير ... »

قالت فى حمية : « هذا هو ما أريد ! لكننى لابد أن أروى لك حكاية . »

واستند توم الى الوراء مرتاحا الى هذا الاقتراح ، وكان يدخن سيجارته الثانية والغسق يقترب .

« أثناء غيبتكما كدت أقبـل وظيفة ، وظيفة مرافقة فى ليڤربول ! أكنت خليقا أن تجدها مزرية ؟ وعلى كل انها مسألة فيها نظر ... أجل ، أجل . كان من الراجح ألا تكون لائقة . لكنها كانت رغبتى الملحة أن أرحـل ... وبالايجاز أخفق المشروع ، اذ بعثت الى السيدة بصورتى الفتوغرافية فاستغنت عن خدماتى ، لأنى على قولها أجمل مما ينبغى ، ولأن لها بالبيت ابنا شابا . لقد كتبت تقول : « انك أجمل مما ينبغى ... ها ، انى لم أضحك من شيء كما ضحكت من هذا القول ! »

وضحك الاثنان من كل قلبيهما .

واستطردت تونى تقول : « على أن هنـاك الآن ما أنتظره . لقد دعيت . دعيت الى ميونيخ . والداعية هى ايفا ايفرز . وتسمى فيما خلا ذلك ايفـا نيدر باور . وزوجها مدير مصنع للبيرة . النهاية أنها رجتنى أن أزورها ، وأرى أن أفيد فى القريب من طلبها . وطبيعى أن ايريكا لن تستطيع مرافقتى ، وأرى أن أبعث بها الى مدرسة زيزيمى ڤيشبروت وهناك يعنى بها عناية فائقة ، فهل لديك اعتراض ؟ »

« لا ، اطلاقا · ومن الضروري على كل حال ان تنتقل مرة اخرى الى أحوال جديدة · »

فقالت شاكرة : « أجل هذا ما أريد ! ولكن أنت ياتوم ! انى أتكلم دواما عن نفسى، فأنا امرأة أنانية ! الآن أحك لى · لك الله · لابد أنك كنت سعيدا !»

قال وهو يفكر : « أجـل ياتونى ! » وتلت فترة صمت ، ونفخ دخان سيجارته عبر المائدة واستطرد : « أولا انى مغتبط بانى تزوجت ، وأننى أسست بيتا لى · فأنت تعرفيننى ، فالعزوبة ما كانت تصلح لى · وكل عزوبة فيها طعم العزلة والصعلكة ، وعندى كما تعلمين بعض الطموح · فانى لا أرى سيرتى فى الحياة تنتهى تجاريا أو ـ ولنقل ذلك على سبيل الفكاهة ـ سياسيا ··· لكن المرء يحرز ثقة العالم الحقيقية أول ما يحرزها عندمايصبح رب بيت وأبا أسرة · وقد كان الأمر معلقا من شعرة يا تونى ··· فمن طبعى الانتقاء · وقد لبثت طويلا لا أعتقد ممكنا أن أجد فى العالم من تليق بى · لكن منظر جيردا حسم الأمر · فقد رأيت فى الحال أنها الوحيدة بلا منازع ··· وان كنت أعرف أن كثيرين فى المدينة مستاءون يستهجنون ذوقى · انها انسانة مدهشة · مثيلاتها فى هذه الدنيا قليلات جدا · ولاشك أنها تختلف عنك يا تونى ، فأنت أبسط منها نفسا ، وطبيعية أكثر منها أيضا ··· »
ثم استطرد وقد انتقل فجأة الى لهجة أخف : « ان السيدة أختى بكل بساطة أحد مزاجا · وكون جيردا ذات مزاج أيضا يثبته عزفها على الكمان ! لكنها تستطيع أحيانا أن تكون على شىء من البرود ··· وصفوة القول ، انها لاتقاس بالمقياس العادى · فطبيعتها طبيعة فنان · فهى مخلوقة فريدة ، ملغزة ، بديعة · »

قالت تونى : « أجل ، أجل ، أجل · » وكانت تصغى الى أخيها فى جد وانتباه · وقد أقبل عليهما المساء دون أن تفكر فى مصباح ·

وهنا فتح باب الطرقة ووقفت أمامهما فى ضوء الغسق الخابى قامة منتصبة فى ثوب من ثياب البيت هفهاف ، متثن ، من الحرير الأبيض الناصع ، وكان شعرها الغزير الداكن الحمرة يحيط بوجهها الأبيض ، وفى زوايا العينين العسليتين المتقاربتين ظلال مقيمة تميل الى الزرقة ·

كانت جيردا أم الجيل المقبل من آل بودنبروك ·

الجزء السادس

الفصل الأول

كان توماس بودنبروك يتناول فطوره الأول فى حجرة طعامه الجميلة وحده دائما تقريبا ، ذلك أن زوجته اعتادت أن تبارح مخدع نومها متأخرة جدا ، اذ كثيرا ما عانت فى الصباح صداعا وساءت مزاجا على وجه عام . وكان القنصل يتوجه عندئذ فى الحال الى شارع منج حيث بقيت مكاتب المتجر ، فيتناول الفطور الثانى فى « الطابق المتوسط » مع والدته وكريستيان وايدا يونجمان ثم لا يلتقى ثانية بجيردا الا فى الرابعة لتناول طعام الغداء .

وقد احتفظت حركة العمل للطبقة الأرضية بالحياة والنشاط . بيد أن طبقات بيت شارع منج الأخرى كانت خالية موحشة ، اذ تلقت الآنسة فيشبروت الصغيرة ايريكا تلميذة عندها فى القسم الداخلى ، وتوجهت كلوتيلده المسكينة بقطع أثاثها الأربع أو الخمس الى أرملة معلم ثانوى يدعى الدكتور كراوزيمنتس فى مثوى رخيص . بل ان الخادم أنطون بارح البيت منتقلا الى سادته الصغار حيث كانت الحاجة اليه أمس ، فاذا بقى كريستيان فى المنتدى جلست القنصلة والآنسة يونجمان فى الساعة الرابعة وحدهما الى المائدة المستديرة التى لم يكن يضاف اليها لوح واحد ، والتى كانت ضائعة فى معبد الطعام الفسيح بصور آلهته .

لقد انطفأ بموت القنصل يوهان بودنبروك سراج الحياة الاجتماعية فى شارع منج ولم تعد القنصلة ترى من حولها ، فيما عدا هذا القس أو ذاك ، زوارا آخرين سوى أعضاء الأسرة الذين يفدون فى أيام الخميس . وكان ابنها وكنتها قد استدبرا أول غداء لهما عندها . وكان قد أعد فى قاعة الأكل وحجرة الجلوس وضم الطاهية والأجراء وأنبذة كيستنماكر كما ضم مجتمعا من مجتمعات مابعد الظهر ، بدأ فى الساعة الخامسة وكان فى الساعة الحادية عشرة ماتزال روائحه وضجيجه منتشرا . ولقد حضره جميع آل الانجهالزوهاجنشتروم وهونيوس وكيستنماكر وأوفرديك ومولندروف ، تجارا وعلماء ، متزوجين وفجارا ، وختم بلعب الورق وببضع آذان عامرة بالموسيقى . وظل الناس يتحدثون عنه فى البورصة ثمانية أيام يطرونه أجمل اطراء . وحقا لقد ظهر

أن القنصلة الصغيرة كانت خبيرة بشئون الاستقبال • وقد بقيت والقنصل وحدهما فى ذلك المساء فى الحجرات المضاءة بالشموع المحترقة بين الأثاث المختلط ، المنحى عن مكانه ، وفى بخار كثيف حلو ثقيل خلفته أطعمة شهية ، وعطور فواحة ، وأنبذة ، وقهوة ، وسيجار ، وازهار فى التواليت وعلى المائدة• بقيا وحدهما يضغط القنصل يدها ويقول : « أنت رائعة ياجيردا ! فلم نفعل مايخجلنا • ان مثل هذا على جانب عظيم من الأهمية ••• ذلك أنى لا أحب أن أشتغل بالمراقص كثيرا وأن أدع الشبان يحجلون هنا وهناك • هذا الى أن المكان لا يتسع لمثل ذلك • وهكذا يجب أن تكون مائدتنا مقصورة على العقلاء • وقد تكلفت هذه المأدبة شيئا أكثر من المعتاد ••• لكنها لم تكن سيئة التدبير • »

وقد أجابته : « عندك حق » وعدلت الدنتيلا التى كان صدرها يلمع من خلالها كالمرمر ، واستطردت : « انى كذلك أفضل المآدب على المراقص • فالمأدبة مهدئة بصورة ملحوظة ••• وقد عزفت بعد ظهر اليوم فأحسست احساسا غريبا ••• فمخى الآن معطل حتى ليمكن أن يخطف البرق هنا فلا يمتقع لى لون أو يحمر • »

**

لما جلس القنصل اليوم فى منتصف الساعة الثانية عشرة الى جانب أمه قرأت عليه الرسالة التالية :

ميونيخ فى الثانى من ابريل ١٨٥٧

ميدان ماريا رقم ٥

أمى العزيزة

من العيب أنى لم أكتب اليك الى اليوم وقد بقى لى هنا ثمانية أيام ، فأرجو المغفرة • وقد استحوذ على فى خلال هذه الأيام كل مايرى هنا استحواذا شديدا • وساقصه عليك فيما بعد • والذى أسأل عنه أولا هو هل أنتم جميعا يامن أحبهم : أنت وتوم وجيردا وايريكا وكريستيان وتيلده وايدا يونجمان بخير ؟ فهذا هو المهم •

آه ، ما الذى لم أره فى هذه الأيام ! متحفا البيناكوتيك والجليبتوتيك وحانة الهوفبروى هاوس والمسرح الملكى والكنائس وأشياء كثيرة أخرى مما ساقصه

عليك شفاها والا لاعيتنى الكتابة عنه • كـذلك قمنا برحلة فى المركبـة الى وادى نهر الايزر • والمنتظر أن نقوم غدا بنزهة الى بحيرة فورم الخ • ان ايفا لطيفة معى والسيد نيدر باور مدير مصنع البـيرة رجل مريح • ونحن نقيم فى ميدان جميل جدا وسط المدينة فى وسطه فسقية ، كما هى الحال عندنا فى السوق ، وبيتنا قائم قريبا جدا من دار البلدية وهو بيت لم أر مثله قط فهو من فوقه لتحته مزدان بالرسـوم الملونة ، بصـور سان جورج يقتل التنـين والأمراء البفاريين القدامى فى لباسهم الكامل ورنوكهم • تصورى !

أجل ان ميونيخ تروقنى جدا ويقال ان هواءها مقو للأعصاب جدا ولست اشكو فى الآونة الراهنة من معدتى ، فانى أتناول البيرة بكثرة وسرور كبير ، وعلى الأخص لأن الماء ليس صحيا جدا • لكنى لا أستطيع بعد أن أعتاد الأكل هناك كما ينبغى ، فالخضر أقل من اللازم ، والدقيق أكثر فى الصلصات على سبيل المثال ، وقانا الله اياها • أما ماهو فى الحقيقة ظهر عجل فما لايعرفونه هنا ، ذلك أن القصابين يقطعون كل شىء على أسوأ وجه • وينقصنى السـمك هنا نقصا كبيرا ، ثم انه من الجنون أن يزدرد المرء على الدوام سلاطة خيـار بالبطاطس مع البيرة ! ان معدتى تزمجر أثناء ذلك •

ولابد من اعتياد هذا او ذاك أحيانا ، ولا تنسوا أن المرء هنا فى بلد اجنبى• فهنا عملة لم نألفها ، وهنا صعوبة التفاهم مع بسطاء الناس والخدم ، فأنا أتكلم معهم أسرع مما ينبغى وهم يتكلمون معى رطانة • ثم هنا الكثلكة ، انى أكرهها كما تعلمين ولا أقيم لها وزنا •• »

هنا أخذ القنصل يضحك مسـنداً ظهره الى الأريكة وممسـكا بقطعة من خبز الزبد مفروشة بجبن الأعشاب •

فقالت أمه : « أجل ياتوم ، انك تضحك ••• » ونقرت بالاصبع الوسطى على المـائدة مرارا ثم استطردت تقـول : « لكن ما يروقنى فيهـا تماما أنهـا مستمسكة بعقيدة آبائها ، وأنها تعج عجيج ما ليس بانجيـلى وضجيجه • أعلم أنه قد داخلك فى فرنسا وايطاليا عطف بعينه على الكنيسة البابوية ، لكن هذا ليس منك تدينـا ياتوم ، بل شـيئا آخر » أفهم أيضـا ما هو • لكن العبث والهواية فى مثل هذه الأمور ، وان وجب علينا التسامح ، شىء يستحق العقاب الى حد كبير • وانى لأرجو الله أن يهبك ويهب زوجك جيردا مع الأيام الجد اللازم فى هذا ، ذلك أنى أعلم أنها بالمثل لا تنتمى بالضـبط الى الراسخين فى الايمان • هذه ملاحظة ستغتفرها لأمك • »

وتابعت القراءة : « وفوق الفسقية التى أراها من نافذتى تمثال للعـذراء

توضع عليه الاكاليل أحيـــانا فيركع له عامة الشعب ويضعون عليــه أكاليل الورد ويصلون ، وهو مايبدو جميلا جدا · لــكنه مكتوب عليــه : اذهب الى حجرتك · وكثيرا مايرى هنا رهبان فى الشوارع عليهم مهابة لكن تصورى يا أماه : أمس مر بى فى شارع تياتين رجل من كبار رجال الكنيسة فى مركبته ، ولعله الأسقف ، فهو رجل مسن ـ النهــاية ، هــذا الرجل ألقى على وأنا بالنافذة بضع نظرات مما يلقيه ملازم فى الحرس ! أتعرفين يا أماه أنى لاأتوقع خيرا كثيرا من أصدقائك المبشرين والقسيسين ، لكن تريشكه الدموع ليس بالتأكيد شيئا مذكورا بجانب هذا المستهتر من أمراء الكنيسة ··· »

فاستهجنت القنصلة مغمومة قائلة : « خسئنا ! »

وقال القنصل : « تونى بعينها ! »

« كيف ياتوم ؟ »

« ألا تكون قد استفزته قليلا ··· لامتحانه ؟ انى أعرف تونى ! ومع ذلك فقد سلتها « بضع النظرات » هذه تسلية كبيرة ··· ولعل هــذا ما قصــده الرجل المسن · »

وهنا لم ترد القنصلة بل استمرت تقرأ : « وأول من أمس أقام آل نيدرباور حفلا وأحيى سهرة غاية فى الابداع وان كنت لم أستطع دائما متابعة الحديث اذ كنت أجد لهجته أحيانا مبهمة · وقد كان بين الضيوف أحد مغنى الأوبرا وقد غنى أغانى ، ورسام شاب رجانى أن يرسمنى فرفضت ، لأنى لا أجــد هذا لائقا · وكان خير من راقنى حديثه ســيد يدعى بيرمانيدر ـ هل ظننت يوما أن يكون أحد بهذا الاسم ؟ ـ تاجر يتاجر فى حشيشة الدينار ، لطيف، فكه ، أعزب ، ثابت · وقد كان جارى على المــائدة ، فلازمتــه لأنه كان البروتستانتى الوحيد بين المدعوين · ومع أنه مواطن طيب من أهالى ميونيخ فان أسرته من نيرنبرج · وقد أكد لى أنه يعرف متجــرنا من الاسم جيــدا ، ويمكن أن يتصور توم مبلغ مافعلت فى نفسى اللهجة الناطقة بالاحترام التى نطق بها هذا · كذلك قد استعلم عنا بدقة : كم عدد اخوتنــا وأخواتنــا وعن أكثر من هــــذا · كذلك استفسر عن ايريكا وعن جرينليش · وهو يزور آل نيدر باور أحيانا ، وسيركب معنا غدا الى بحيرة فيرم ·

والآن الى اللقاء يا أماه فلم أعد أستطيع الكتابة · وسأبقى هنا ثلاثة أسابيع أو أربعة فى حياة وصحة كما اعتدت أن تقولى ، وبعدئذ أســتطيع أن أقص عليك من أخبار ميونيخ بنفسى ، ذلك أنى لا أعرف بم أبدأ اذا أنا كتبت ·

لكنها تروقنى جدا ، وهذا ما أؤكده لك ، وان كان يجب أن تدرب الطاهيةعلى اعـداد الصلصات الطيبة ·· انك ترين انى بت امرأة مسـنة وباتت حياتى فى ذمة الماضي ولم يعد لى ما أنتظره فوق هذه الأرض · لكنه على سبيل المثال اذا تزوجت ايريكا هنا فيما بعد فى حياة وصحة فلن يكون لى على ذلكاعتراض هذا مايجب أن أقوله ··· »

هنا أيضا كان لابد للقنصل أن يقطع الأكل وأن يسـتلقى على ظهره فوق الأريكة من الضحك ·

« انها رائعة يا أماه ! انها حين تريد الرياء تجل عن المقارنة ولا يكون لها نظير ! انى مغرم بها ، لأنها بكل بساطة لا تستطيع أن تتنكر ولو على بعـد ألف ميل ··· »

قالت القنصلة : « أجل ياتوم ، انها طفلة طيبة تستحق كل خير »

ثم أتمت تلاوة الرسالة ·

الفصل الثانى

فى آخر ابريل عادت مدام جرينليش الى بيت أبيهـــا ٠ ومع أنها مرة أخرى قد استدبرَت قطعة من الحياة ، وعاودت حياتها القديمة ، تحضر الصلوات التى تقام وتسمع قراءات لياجيرهارت فى « مساء أورشليم » فانها كانت فيما يلوح فى حالة نفسية أشد مرحا وأعمر بالرجاء من ذى قبل ٠

ولما لاقاها أخوها القنصل على المحطة ــ وكانت قادمة من بيشن ــ وركب معها خلال باب هولشتين الى المدينة لم يتمالك نفسه من أن يحييها بقوله انها ــ بعد كلوتيلده ــ ما تزال أجمل بنات الأسرة ، فما كان منها الا أن أجابته : «خسئا لك ياتوم ، انى أكرهك ! أتسخر من امرأة مسنة على هذا النحو ٠٠٠»

لكن هذا القول على الرغم من ذلك كان له ما يصححه : فان مدام جرينليش كانت تصــون نفسها على خير وجــه وأنفعه ، فمن كان يراها لا يقدر ســنها بالثلاثين بل بالثالثة والعشرين نظرا الى شعرها الأشقر الرمادى القوى المجتمع على جانبى رأسها الممشط الى الخلف فوق أذنيها الصغيرتين ، يرفعه فوق قمة الرأس مشط سلحفاة عريض ، والى التعبير الرقيق الباقى لعينيها الرماديتين المـائلتين الى الزرقة ٠ ولشفتها العليـا اللطيفة والاستطالة البديعـة والألوان الرقيقة التى يتحلى بها وجههـا ٠ وكانت تزدان بقرطين من الذهب متدليين أنيقين الى أقصى حـدود الأناقة كانت جدتها تحمل مثلهما فيما مضى بشــكل يختلف قليلا ٠ وكان ثوبها متهدلا عليها مصنوعا من قماش حريرى خفيف داكن وله قفا من الأطلس وأكتاف منبسطة من الدنتيلا يكسب صدرها تعبيرا مبهجا ناعما ٠٠٠

وقــد كانت كما قلنا راضــية النفس الى أبعد حد وحــين يجتمع فى أيام الخميس حول المائدة القنصل بودنبروك وســيدات بودنبروك المقيمات فى الشارع العريض والقنصل كروجر وكلوتيلده وزيزيمى ڤيشبروت وايريكا كانت تقص من أخبار ميونيخ وبيرة الشعير الساخنة والرسام الذى أراد أن يرسمها ومركبات البلاط التى كان لهــا فى نفسها أجمل الأثر ٠ وكانت أيضــا تذكر السيد بيرمانيدر ــ عرضاً ــ فاذا حدث أن أبدت فيفى بودنبروك هذه الملاحظة أو تلك كأن تقول ان هذه الرحلة جد واتية وان خلت من أى نفع عملى ، تجاهلت مدام جرينليش هــذا القول فى تواقر شــديد بأن تطرح رأســها الى الخلف وتحاول على الرغم من ذلك أن تضغط ذقنها على صدرها ٠٠٠

هذا الى أنها جعلت من عادتها اذا دق جرس باب الصفة فى الرحبة الكبيرة أن تبادر الى بسطة الدرج لترى من القادم ··· فماذا يمكن أن يعنى هذا ؟ ان ايدا يونجمان وحدها هى التى كانت تعلم ؛ ايدا مربية تونى وموضع سرها السنين الطوال التى كانت تقول لها هنا وهناك شيئا بعينه : « تونى يا طفلتى، سترين · انه سيأتى ! لن يكون مخادعا ··· »

وقد حمد أعضاء الأسرة كل بمفرده لأنتونيا العائدة الى الوطن مرحها هذا · فقد كانت نفسية البيت بحاجة ملحة الى التسرية لسبب هو أن العلاقة بين رئيس المتجر وبين أخيه الأصغر لم تتحسن على مر الأيام بل كانت تسوء بشكل محزن· وكانت أمهما القنصلة تتابع هذا المجرى للأشياء فى حزن ، فكانت تبذل الكثير للتوسط عند الحاجة بين الاثنين · فكان كريستيان يقابل حثها له بأن يحضر الى المكتب فى مواعيده بالضبط بصمت المشتت · أما تنبيهات أخيه نفسه فكان يتلقاها فى خجل جاد ، بادى الاضطراب والتفكير ، من دون اعتراض ليؤدى بعد ذلك عمله فى تحرير المراسلات الانجليزية بمزيد من النشاط لبضعة أيام · وأخيرا ثبت فى نفس الأكبر شيئا فشيئا احتقار للأصغر لم يحد منه أن كريستيان كان يقابل ماتثيره المناسبات من عباراتهما دون دفاع وبعينين تدوران فى تفكير·

ولم يكن مايبذله توماس فى عمله من مجهود ولا حالة أعصابه بالذى يسمح له بسماع مايفصله كريستيان عن ظاهرات مرضه المتبدلة ، ومقابلة هذا بالعطف أو الهدوء ، اذ كان يقابل هذه التفصيلات بالسخط وينعتهـا لأمه وأخته بأنها النتائج السخيفة « لتأمل ذاتى » بغيض ·

والعذاب ، العذاب غير المعين الذى كان كريستيان يحسه فى ساقه اليسرى ، قد اختفت من أمد بعلاجات متعددة · لكن الشكوى من البلع كثيرا ماكان يعاوده على المائدة · وقد زاد عليها أخيرا ضيق تنفس لبث بعض الوقت ، تعب من متاعب الربو ظل كريستيان أسابيع طويلة يحسبه سلا رئويا ، ويعنى برواية حالتـه وتأثيراته لأسرته فى أوصاف مسهبة مقطبا فى ذلك أنفه · وقد استشير الدكتور جرابو فى الأمر فقرر أن القلب والرئة يعملان بقوة ، لـكن ضيق التنفس الذى يقع له الحين بعد الحين يرجع الى كسل بعينه فى عضـلات بعينها ووصف له لتجفيف العرق أولا استعمال مروحة وثانيا مسحوقا أخضر يحرق ويستنشق · وقد جعل كريستيان يستعمل المروحة فى المكتب أيضا ، فلما لفته الرئيس أجابه بقوله انهم فى فالباريزو كان لكل كاتب مروحة بسـبب الحرارة : « چونى ثندرستورم ــ يا الهى ! » لكنه فى ذات يوم بعد أن ظل يتأرجح على كرسيه جادا قلقا ، وأخرج مسحوقه من جيبه وحرقه فى المكتب فتصاعد منه دخان قوى كريه الرائحة حتى أخذ عدة أناس يسعلون بشدة وامتقع لون السيد ماركوس نفسـه

واصفر اصفرارا شديدا ٠٠ حدثت ضجة علنية ، فضيحة ، مشادة مخيفة كانت خليقة أن تفضى فى الحال الى قطيعة لولا أن القنصلة كتمت الأمر وعالجته بعقل وسوته فى سلام ٠

ولم يكن هذا وحده بل أيضا الحياة التى كان كريستيان يعيشها خارج البيت مع رفيق المدرسة الدكتور جيزيكه المحامى غالبا ، كان القنصل يتابعها ساخطا٠ ولم يكن ضيق الذهن أو معاندا ، فقد كان يذكر جيدا ما اقترف فى شبابه من خطايا ٠ كان يعلم أن مدينة آبائه ـ تلك المدينة التجارية التى يدق فيها التجار المواطنون المبجلون أرصفة الشوارع بعصيهم وعلى وجوههم سيماء الاستقامة التى تجل عن المقارنة ليست بحال من الأحوال مهد الأخلاق الفاضلة التى لاتشوبها شائبة ٠ ولم يكن المرء ليعوض نفسه من الأيام التى يقضيها جالسا فوق كرسى المكتب بالأنبذة الثقيلة والأطباق الثقيلة وحدها ٠٠ فان معطفا سميكا متينا كان يستر هذه التعويضات واذا كانت المحافظة على المظاهر مما يعتده القنصل بودنبروك قانونا ، فانه كان يبدو فى هذا الصدد متشبعا بنظرة مواطنيه الى العالم ٠ والمحامى جيزيكه ينتمى الى أولئك « العلماء » المتلائمين مع « التجار » فى شكل الحياة ، والى « الفجار » السيئى السمعة ، وهو مايلحظه كل امرىء فيه٠ لكنه كبقية رجال الدنيا المرتاحين كان يفهم كيف يتخذ المظهر السليم فيتحاشى المتاعب ، ويحتفظ لمبادئه السياسية والمهنية بسمعة التعقل الذى لامطعن عليه وكانت خطبته لآنسة من أسرة هونيوس قد أعلنت ولما تكد ، فكان بهذا يتزوج من مكانة فى المجتمع الراقى وبائنة ذات شأن ٠ وكان يباشر شئون المدينة باهتمام رائع فقال الناس انه يطمع فى مقعد فى دار البلدية ويشتهى بعد ذلك كرسى الدكتور أوفرديك المحافظ المسن ٠

لكن كريستيان بودنبروك صديقه الذى ذهب ذات مرة بخطى ثابتة الى الآنسة ماير دى لا جرانج وقدم اليها باقة من الأزهار وقال لها : « أيتها الآنسة ، ما أجمل مامثلت ! » ـ كريستيان هذا قد بات بخلقه وسنى تجواله الطويلة مستهترا من نوع بالغ السذاجة وعدم المبالاة لا يميل فى شئون القلب وغيرها من الشئون الى الحد من عواطفه ، والتزام الرزانة والوقار٠ وقد تسلت المدينة كلها بعلاقة له على سبيل المثال بممثلة ثانوية فى مسرح سومر وتندرت بها وراحت مدام شتوت المقيمة فى شارع صناع النواقيس والسيدة التى تغشى الأوساط الراقية تقص على كل سيدة تريد أن تسمع أن « كريشان » رؤى مرة أخرى مع فتاة « تيفولى » فى شارع مفتوح مضيىء ٠

وهذا أيضا لم يؤخذ عليه ٠٠ فقد كان الناس فى تشككهم أشد استقامة من أن يبدو سخطهم الخلقى بصورة جيدة ٠ وكريستيان بودنبروك والقنصل بيتر

دولمان مثلا ، وهو الذى حملته أعماله التجـــارية الكاسدة على التمـــاس العمل بصورة شبيهة عديمة الأذى ، كانا محبوبين بوصفهما مسليين لا يستغنى عنهما بحال من الاحوال فى مجتمع الرجال • لكنهما لم يكونا يحملان على محمل الجد • فهما لا يساهمان فى شئون جدية • ومما له دلالته أنهمـــا لم يكونا يذكران فى المدينة باسرها وفى المنتدى وفى البورصة وفى الميناء الا باسمهما الأول: كريشان وبيتر • ولسيئى النية أمثال آل هاجنشتروم الحرية فى ألا يضحكوا من حكايات كريشان وفكاهاته بل على كريشان نفسه •

ولم يكن يفكر فى هذا أو كان يتجاوز عنه على أسلوبه ، بعد لحظة من التفكير الغريب فى قلقه • لكن أخاه القنصل كان يعرف ذلك • كان يعرف أن كريستيان يتيح لخصوم الأسرة نقطة للهجوم ••• ونقط الهجوم هـــذه كثيرة • فالقرابة لآل أوفرديك واسعة النطاق ، خليقة بعد موت المحافظ أن تصبح عديمة القيمة • وآل كروجر كفوا عن أن يقوموا بأى دور ، فكانوا فى حياتهم معنزلين ، ولهم مع ابنهم حكايات متعبة •• وزيجة العم المرحوم جوتهولد التى أخطأه التوفيق فيها قد بقيت أمرا لا يسر ••• وأخت القنصل امرأة مطلقة وان لم يكن المرء بحاجة الى فقدان الأمل فى زواجها من جديد • وأخوه يعتقد انه انسان يثير السـخرية ، يملأ السادة ذوو أعمال ساعات فراغهم بالضحك على تهريجاته حسنى النيـــة أو ساخرين • وهو الى ذلك يستدين ، وفى نهاية ربع السنة حين تنفد نقوده ، يدع الدكتور جيزيكه ينفق عليه علانية ، الأمر الذى يحرج المتجر ويخجله رأسا •

ويبدو الاحتقار الشديد الذى يكنه توماس لأخيه والذى يتحمله هذا فى قلة اكتراث يتخللها تفكير ــ فى كل الصغائر التافهة التى تقع بين أعضـــاء فى أسرة واحدة مسلط بعضهم على بعض • فاذا تناول الحديث على سبيل المثال تاريخ آل بودنبروك انتابت كريستيان نفسية لا يوائمه فيها أن يتحدث عن مدينة آبائه وعن أجداده فى جد وحب واعجاب • فينهى القنصل الحديث بملاحظـــة جافة • ذلك أنه لم يكن يتحمل هذا ، وأنه كان يزدرى أخاه الى حد أنه لم يكن يسمح له بأن يحب حيث أحب هو • وأحب اليه كثيرا أن يسمع أخاه يتكلم عن هذا بلهجة مارسيلوس شتنجل • وقد قرأ كتابا ــ كتابا ما فى التاريخ ــ أثر فيه تأثيرا قويا ومجده هو بكلمات مؤثره ، فكان أن كريستيان ، الرأس الذى لا يعرف الاستقلال ، والذى ما كان ليقع وحده على هذا الكتاب ، ولكن لأنه يســتجيب لكل شىء ويقع تحت كل تأثير ــ كان أن كريستيان قرأه ، منشورا بهذه الطريقة ، ومجعولا فى المتناول ، ووجده بالمثل عظيما جدا فعبر عن مشاعره نحوه أدق تعبير ممكن •• من ذلك الحين بات الكتاب بالنسبة لتوماس مقضيا عليه ، فأصبح يذكره فى برود ، ولا يكترث له ، ويظهر كما لو كان لم يقرأه تقريبا • وترك لأخيه أن يعجب به وحده •••

الفصل الثالث

عاد القنصل بودنبروك من « الانسجام » وهومحفل المطالعة المخصص للرجال الذى يقضى فيه ساعة بعد تناول طعام الافطار الى شارع منج فقطع الأرض من الخلف وبلغ جانب الحديقة بسرعة عبر الممشى المبلط الذى يمتد بين الاسيجة النابتة ويربط الفناء الخلفى بالفناء الأمامى ثم اجتاز الرحبة ونادى فى المطبخ هل أخوه بالبيت • وكانت تعليمـاته تقضى بأن ينبئوه حين يحضر ؛ واخترق المكتب حيث كان الموظفون منكبين على حسـاباتهم فوق مكاتبهم ، فلمـا رأوه ازدادوا انكبابا • ودخل هو الى مكتبه الخاص ونحى قبعته وعصاه وارتدى رداء العمل ثم توجه الى مكانه عند النافذة تجاه السيد ماركوس • وكان بين حاجبيه الذين تلفت شقرتهما الأنظار غضنان ، وقطعة الفم الصفراء من سيجارة روسية تدخن وتنتقل مضطربة من زاوية فى الفم الى أخرى • وكانت حركاته فى تناول الورق وأدوات الكتابة مقتضبة خشنة الى درجة أن السيد ماركوس أمر اصبعين على شاربه مفكرا ، وأجال نظرة مستأنية فاحصة فى شريكه ، بينا كان الشبان ينظرون اليه رافعى الحواجب • لقد كان الرئيس غاضبا •

وانقضت نصف ساعة لم يسمع خلالها سوى صرير الأقلام ونحنحة السيد ماركوس المترفقة ، فاذا القنصل يتخطى ببصره قاعدة النـافذة الخضراء ويبصر كريستيان آتيا فى الشارع يدخن ، قادما من المنتدى حيث أفطر ولعب لعبـة صغيرة • وكان يلبس قبعته مائلة قليلا على جبينه ويطوح عصاه الصفراء التى جلبها من « هناك » والتى تمثل قبضتها تمثالا نصفيا محفورا من العـاج لراهبة من الراهبات • وظاهر أنه كان فى صحة طيبة ونفسية مرحة يترنم بأغنية ما ، حين دخل الى المكتب وقال : « عموا صباحا أيها السادة ! » مع أن الوقت كان عصر يوم صحو من أيام الربيـع • ثم خطا الى مكانه « ليعمل قليلا » • لـكن القنصل نهض من مكانه وقال له وهو مار به من دون أن يلتفت اليه : «آه ••• اسمح لى بكلمتين ياعزيزى • »

فتبعه كريستيان ، واجتازا الرحبة مسرعين ، وبدا توماس فوق ظهره ، وكريستيان يفعل فعله عفوا ، موجها أنفه الضخم نحو أخيه بارزا بين خديه الغائرين فوق شاربه الأشقر المحمر المتدلى على الطريقة الانجليزية على فمه ، حادا مقوسا بادى العظم • وبينا هما يسيران فى الفناء قال توماس : « لابد أن ترافقنى خلال الحديقة خطوتين يا صديقى • »

فأجاب كريستيان : « حسنا » ثم رنق الصمت من جديد فكانا فى خلاله يطوفان بالحديقة الى اليسار على الطريق الخارجى ، مارين بواجهة البوابة المنشأة على طراز الركوكو ، والحديقة اذ ذاك تنبت براعمها الأولى . وأخيرا قال القنصل بصوت عال وهو يتنفس تنفسا سريعا : « لقد ضايقنى مسلكك من هنيهة مضايقة شديدة . »

« مسلكى أنا ... »

« نعم . لقد حكوا لى فى « الانسجام » عن ملاحظة أبديتها مساء أمس فى المنتدى وكانت خارجة تتجاوز كل الحدود الى درجة أنى لم أجد ما أقوله ... فالفضيحة وقعت وتعرضت لانتهار مؤسف فهل يروقك أن تذكر ماحدث ؟ »

« آه ... الآن أعرف ما تعنى . ــ فمن حكى لك هذا ؟ »

« وما قيمة ذلك فى الموضوع . ــ دولمان . ــ بلهجة تجعل من البداهة أن من لم يعرف الحكاية بعد يمكن بالمثل أن يسر بها ... »

« اسمع ياتوم . يجب أن أقول لك ... لقد خجلت لهاجنشتروم »

« خجلت لــ ... اذن فهذا صحيح ... اسمع ! » وكان صياح القنصل بهــذا وهو يرفع راحتيه الى فوق ويميل برأسه جانبــا ويهز يديه محتجا : « تقول فى مجلس مكون من تجار وعلماء على السواء بحيث يسمع الجميع قولك ان كل تاجر فى الحقيقة وواقع الأمر نصاب ... أنت ، ونفسك تاجر، تنتمى الى بيت تجارى يسعى بكل قواه الى الوحــدة المطلقة والمتانة التى لا يعتورها ضعف ... »

فقال كريستيان : « بحق السماء ياتوماس ، انى أمزح ! ولو أن ... فى الحقيقة ... » وغضن أنفه ، ودفع رأسه الى الأمام فى شىء من الانحراف ... وخطا فى هذا الوضع عدة خطوات .

فصاح القنصل : « مزاح ! مزاح ! انى أتصور أن أفهم المزاح ، لكنك قد رأيت كيف فهم المزاح ! لقد أجابك هاجنشتروم بقوله : « انى من جانبى احترم مهنتى جــدا . » وأنت جالس اذ ذاك انسانا صعلوكا لا يعرف لمهنته قيمة ... »

« اسمع ياتوم ، أرجوك ، ماذا تقول فى هذا ؟ انى أؤكد لك ، أن الهــدوء

التام زايلهم بغتة فضحكوا كأنهم يوافقوننى على قولى. وكان هذا الهاجنشتروم جالسا فقال فى جد مخيف : « انى من جانبى ... » هذا الغبى لقد خجلت له حقا ، لقد لبثت حتى مساء أمس فى فراشى أفكر طويلا فى هذا واستشعر منه شعورا عجيبا ... لست أعلم هل تعرف هذا ... »

فقاطعه القنصل : « كف عن الثرثرة أرجوك ، كف ! وكان ينتفض من كل جسمه غضبا ثم قال : « انى أقرك ... أجل انى أوافقك على أن الجواب لعله لم يكن مطابقا للحالة وأنه كان خلوا من الذوق . لكن المرء يختار الناس الذين يقول لهم مثل هذا القول ... اذا كان لابد من قوله ، ولا يعرض نفسه فى بلاهة الى مثل هذا الانتهار الخشن . لقد انتهز هاجنشتروم الفرصة ليكيل لنا ، ليس لك فحسب ، ضربة . فهل تعلم ما معنى : « انى من جانبى . معناها : ان مثل هذا الحكم قد أتاحه لك مكتب أخيك ياسيد بودنبروك ؟ هذا هو معناها أيها الحمار ! »

قال كريستيان : « ماذا ... حمار ... » وبدا على وجهه الارتباك والاضطراب .

واستطرد القنصل قائلا : « وآخر الأمر أنك لست ملك نفسك فحسب . لكننى مع ذلك لا أكترث لشىء تعرض فيه نفسك للسخرية وصاح : وأى شىء لا تعرض فيه نفسك للسخرية ! » وكان ممتقع اللون قد نفرت عروقه الزرقاء فى سالفيه الضيقين اللذين يسترسل منهما شعره الى الخلف فى تجويفين ، وظل حاجب من حاجبيه الأشقرين مرفوعا . بل ان طرفى شاربه المتيبسين المشدودين فى استطالة كان فيهما مايدل على الغضب أثناء أن كان يلقى كلماته جانبا عند قدمى كريستيان فوق الطريق المرصوف بالحصى مطوحا يديه . ومضى يقول : « انك تجعل نفسك أضحوكة بغرامياتك وألاعيبك وأمراضك ، وبالأدوية التى تعالجها بها ... »

فقال كريستيان وقد هز رأسه فى جد بالغ ، ورفع سبابته فى صورة مرتبكة بعض الشىء : « ولكن ياتوماس . ان ما يتعلق بهذا الأمر لا تستطيع أن تفهمه كل الفهم ... ان المسألة هى أنه ... يجب أن يكون المرء مرتاح الضمير ... ومست أعلم هل تعرف ذلك .. فقد وصف لى جرابو مرهما لعضلات الرقبة ... حسن ! فاذا لم أستعمله ، وأهملت استعماله فسيخيل الى أنى ضائع ، عديم الحيلة ، مضطرب ، غير مطمئن ، خائف ، وأنى لست بخير ولا أستطيع أن أبلع شيئا . لكننى اذا استعملته شعرت بأنى أقوم بواجبى ، وأنى بخير ، فيرتاح عندئذ ضميرى ، وأهدأ ، وأرضى ، ويكون البلع على مايرام . والمرهم لا يفعل هذا فيما أعتقد ... لكن المسألة هى أن مثل هذا التصور ،

افهمنى جيـدا ، يمكن أن ينسخه تصـور آخر ، تصور مضاد ··· لست أعلم هل تفهم ذلك ··· »

فصاح القنصل : « أجل ـ أجل ! » واعتمد رأسه لحظة بين يديه ، ثم عاود الكلام : « افعل ذلك ، واسلك المسلك الذى يوحى به ! لكن لا تتحدث به !ولا تثرثر ! أرح غيرك من طرائفك البغيضة · كذلك بهذه الثرثرة غير الكريمة تجعل نفسك أضحوكة من الصباح الى المساء ! لكنى أقول لك وأكرر القول : اننى لن أكترث لك مهما يكن من تغفيلك شخصيا ، لكنى أمنعك ، أتسمعنى جيدا ؟ أمنعك من احراج المتجر على نحو ما فعلت مساء أمس ! »

لم يرد كريستيان على هذا القول ، بل مر بيده على شعره الأشقر المحمر الخفيف وجعل يجيل نظره فيما حوله تائها حائرا وعلى وجهه أمارات جد يشوبه الاضطراب · ولاشك أنه كان مشغولا بذلك الذى قاله أخيرا · وسادت فترة صمت ، وتقدم توماس منه فى يأس ساكن ·

وبدأ من جديد يقول : « تقول ان جميع التجار نصابون · حسن ! فهـل ضقت بمهنتك ؟ أتندم على أنك أصبحت تاجرا ؟ لقد حصلت اذ ذاك على اذن من والدك ··· »

قال كريستيان مفكرا : « أجل ياتوم انى لأوثر الدراسة فى الحق ! فى الجامعة ، أتعرف ؟ فلابد أن يكون هذا مرضيا جـدا ··· يتوجه المرء اليهـا ، كلما راقه ذلك ، باختياره ، يجلس ويستمع كما لو كان فى مسرح ··· »

« كما فى مسرح ··· فى مقهى الأغانى مكانك أيها المهرج ··· انى لا أمزح! » وأكد القنصل : « ان اعتقادى الجازم هو أن هـذا مثلك الأعلى » فلم يعترض كريستيان بحال ، بل تلفت حوله مستغرقا فى الفكر ·

« وأنت الذى تجرؤ على ابداء ما أبديت من ملاحظة ··· أنت الذى لاتدرى ··· لا فكرة عندك عما هو العمل ، والذى تقضى حياتك مشتغلا بخلق طائفة من المشاعر والأحاسيس والحالات ، ترتاد المسرح وتتصعلك وتتغفل نفسك ، تراقب تلك الحالات وتتعهدها لتستطيع الثرثرة بها بلا حياء ··· »

وقال كريستيان متكدرا بعض الشىء : « نعم ياتوم » ثم استطرد يقول وهو يمسح بيده ثانية على رأسه : « هذا صحيح ؛ لقد عبرت عنه تعبيرا سديدا جدا · وهذا هو الفرق بيننا ، أترى · انك تحب أيضا مشاهدة المسرحيات ، وكان

لك يوما ما هواياتك ، وهــذا بيننا • وقد لبثت طويلا تؤثر قراءة القصص والأشعار وماشاكل ••• لكنك كنت دائما تفهم كيف تربط هــذا كله بالعمل المنظم وجد الحياة ••• وهـــذا ينقصنى ، أترى • وقد استنفدنى الآخرون واستهلكتنى الحثالة استهلاكا تاما ، ولم يبق عندى لما هو منظم ولما هو سليم شيء ما • ولست أعلم هل تفهمنى ••• »

فصاح توماس وقد كف عن المشى وشبك ذراعيه فوق صدره : « اذن أنت ترى ذلك • انك تسلم به فى هدوء ، ومع ذلك تبقى كل شيء على حاله ! هل أنت كلب اذن ياكريستيان ؟ ! ان لكل امرىء كبرياءه ، الهنا الذى فى السماء ! ان المرء لا يواصل حياة لا يجرؤ نفسه على الدفاع عنها مرة ! ولكن هكذا أنت! وهذا كيانك ! اذا كان شيء من رأيك وفهمته واستطعت وصفه ••• لا ، ان صبرى نفد ياكريستيان ! » وخطا القنصل الى الوراء خطـوة سريعة أتى فيهـــا بحركة عنيفة أفقية من ذراعه : « أقول لك نفد صبرى! انك تؤجر على وكالتك، لكنك لا تأتى أبدا الى المكتب ••• وليس هــذا ما يثيرنى • فاذهب وضــيع حياتك على نحو ما فعلت الى الآن ! لكنك تورطنا ، تورطنا جميعا أينما ذهبت وأقمت ! انك خراج ، موضع سقيم فى جسم الأسرة ! انك شر فى هذه المدينة ، فلو كان هذا البيت ملكى لطردتك منه طردا الى خارج البيت ! » قال هـــذا صارخا آتيا بحركة عنيفة واسعة تناولت الحديقة والفناء والرحبة الكبيرة ••• ولم يعد يتمالك نفسه فقد هاج وماج وصب جام حنقه •••

قال كريستيان وقد أصابته نوبة من الغضب مستغربة منه الى حد كبير : « ماذا تظن ياتوم ! » وكان واقفا هناك فى الوضع الذى يلازم معوجى الساقين فى الغالب مقصــوفا قليلا ، عــلى شيء من علامة الاســتفهام ، مدفوع الرأس والبطن والركبة الى الأمام ، متسع العينين المستديرتين الغائرتين اللتين اتسعتا الى أقصى ما يمكن وأحاطت بهما حواف حمراء وصلت الى عظمتى الخدين كما كانت حال أبيه اذا غضب وقال : « كيف تخاطبنى بهذا الكلام ؟ ماذا فعلت لك ؟ انى ذاهب من نفسى ولست بحاجة الى أن تطردنى ـ خسئا ! » وكانت هــذه الكلمة التى زادها على رده بمثابة الســلام الخالص تصحبه من يده حركة مقتضبة خاطفة الى الأمام كمن يقنص ذبابة •

ومن العجيب أن توماس لم يرد على هذا بأعنف منه بل طأطأ رأسه صامتا واتخذ طريقه ثانية من حول الحديقة متئدا • ولعله قد أرضاه ، بل أثلج صدره أنه أغضب أخاه أخيرا ••• وحمله فى النهاية على رد شديد ، على احتجاج •

قال فى هدوء ويداه على ظهره مرة أخرى : « صدقنى يا كريستيان أن هذا الحديث آلمنى من القلب ، لكنه كان لابد أن يدور • ومثل هذه المناظر فى محيط الأسرة شيء مخيف ، لكنه لم يكن بد من أن يدلى كل منا بما عنـده ••• وفى وسعنا أن نتناول الأمور بكل هدوء ياصغيرى • ولن ترضى عن نفسك فى وضعك الراهن كما أرى ، أليس كذلك ••• ؟

« لا ، ياتوم ، لقد أصبت فى تبين هذا • انظر : لقد كنت فى مبدأ الأمر مرتاحا بصورة غير عادية ••• وأنا هنا خير أيضا مما لو كنت فى متجر أجنبى • لكن الذى ينقصنى هو الاستقلال فيما أعتقد ••• وقد كنت دائما أحسدك كلما رأيتك جالسا تعمل ، ذلك أنه ليس فى الحقيقة بالعمل الذى يلائمك ؛ انك لا تعمل لأنه يجب أن تعمل ، بل لأنك السـيد الرئيس وتستطيع أن تكلف غيرك بالعمل لك ، تعمل حساباتك وتحكم وتستمتع بحريتك ••• وهذا شيء آخر كلية ••• »

« حسنا يا كريستيان ، ولكن أما كان فى مكنتك أن تقول هذا من قبل ؟ ان لك الحرية فى أن تستقل أو تكون أكثر استقلالا • فأنت تعرف ان أبانا قد خصص لك كما خصص لى حصة مؤقتة فى الميراث تبلغ ٥٠٫٠٠٠ مارك ، وأنى بداهة مستعد فى كل لحظة لأن أدفع لك هذا المبلغ تستخدمه فى شيء أحكم وأمتن • فهناك فى هامبورغ كما فى غيرها دائما أعمال مضمونة كافية ولكن محدودة يمكن أن تحتاج الى مزيد من رأس المال ، وفى استطاعتك أن تدخل فيها شريكا ، فدعنا ، كلا بمفرده ، نفكر فى الأمر ونتكلم فيه مع أمنا اذا جدت مناسبة • وأنا الآن عندى ما يشغلنى ، وفى وسعك هذه الأيام أن تستمر فى انجاز المراسلات الانجليزية • أرجوك ••• »

وسأله وهو ما يزال فى الرحبة : « ما رأيك على سبيل المثال فى هـ • ١ • بورميستر وشركاه فى هامبورغ للاستيراد والتصدير ••• انى أعرف الرجل وأعتقد أنه سيمد يده ••• »

* *

كان هذا فى آخر مايو ١٨٥٧ • وفى أول يونيـه سافر كريسـتيان الى هامبورغ عن طريق بيشن ••• فكان سفره خسارة فادحة للمنتدى ومسرح المدينة وتيفولى وكافة المجتمع الذى يستمتع بحرية أكثر • وقد ودعه جميع المستهترين فى المحطة ومن بينهم الدكتور جيزيكه وبيتر دولمان ، وقدموا له الأزهار بل السيجار ، وضحكوا خلال ذلك من كل قلوبهم • وقد تذكروا بلاريب

كل الحكايات التى كان يرويهـــا كريستيان لهم • وفى النهـــاية قلد المحـامى الدكتور جيزيكه كريستيان بين هتاف الجميع نشان كوتيون العظيم المصنوع من الورق المذهب وثبته على معطفه • وأصل هذا النشان من بيت على مقربة من الميناء ، نزل يضع على بابه بالليل مصباحا أحمر ، ومكان يجتمع فيه الرواد على سجيتهم ، ويستخفهم فيه المرح••• وقد قلد الراحل كريشان هذا النشان لما أداه من جلائل الأعمال •••

الفصل الرابع

دق جرس باب الصفة وظهرت مدام جرينليش على بسطة الدرج جريا على عادتها كي تطل على الرحبة من فوق الدرابزين المدهون باللاكيه الأبيض وما ان كاد الباب يفتح من تحت حتى ارتجت فجأة وظلت منحنية الى أسفل ، ثم ارتدت في عنف وضغطت منديلها باحدى يديها على فمها ، وضمت تنورتها بالأخرى ، وأسرعت الى فوق منكبة قليلا الى الأمام ٠٠٠ وعلى الدرج الصاعد الى الطبقة الثانية قابلت آنســـتها يونجمـان فأسرت اليها شيئا بصوت خافت ، أجابت عليه وهى فزعة من الفرح بكلام بولونى رن : « مايبوشيكوش هانه ! »

فى نفس الوقت كانت القنصلة بودنبروك جالسة فى حجرة المناظر الطبيعية تعمل بأبرتين خشبيتين كبيرتين فى نسج شال أو مفرش أو ما أشبه ذلك ٠ وكانت الساعة الحادية عشرة قبل الظهر ٠

وبغتة جاءت الفتاة التابعة مارة ببهو الأعمدة ، ودقت على الباب الزجاجى ، وحملت الى القنصـلة بطاقة من بطاقات الزيارة وهى تهـرول فى مشيتهـا ٠ فتناولت القنصلة البطاقة وأصلحت وضع نظارتها ، ذلك أنها كانت تحمل نظارة أثناء عملها اليدوى وقرأت ٠ ثم رفعت بصرها ثانية الى وجه الفتاة الأحمر ثم قرأت مرة أخرى ثم نظرت الى الفتاة من جديد ٠ وأخيرا قالت متلطفة ولكن فى حزم : « ما هذا ياعزيزتى ؟ ما معناه ؟ »

وكان مطبوعا على البطاقة « اكس نويه وشريكه » فأما اكس نويه ومعه علامة « و » فكانت مشطوبة بقوة بالقـلم الأزرق فلم يبـق على البطـاقة سوى « شريكه » ٠

فقالت الفتاة : « نعم ياسيدتى القنصلة ، هذا سيد لكنه لا يتكلم الألمانية ٠ وهو شخص غريب الأطوار ٠ »

فقالت القنصلة : « دعيه يتفضل » ذلك أنها فهمت الآن أن الذى يرغب فى الدخول هو الشريك ٠ وذهبت الفتاة وفتحت الباب الزجاجى على الأثر كـرة ثانية وأدخلت شخصا قصير القامة ، توقف لحظة عن المسير فى مؤخرة الحجرة الظليلة ومط شيئا رن وكأنه يعنى : « لى الشرف ٠٠٠ »

فقالت القنصلة : « عم صباحا ، هلا تفضلت بالاقتراب ! » واعتمدت يدها فى خلال ذلك على حشايا الأريكة ، ونهضت قليلا لأنها لم تكن عرفت بعد هل يليق أن تنهض له كل النهوض ...

فأجاب السيد بدوره فى نبرة شادية مديدة مرتاحة وقد انحنى بأدب ونقدم خطوتين : « انى أسمح لنفسى ... » ثم توقف مرة أخرى عن المسير وتلفت حوله باحثا : هل من فرصة للجلوس أو مكان يضع فيه قبعته وعصاه ، ذلك أنه دخل الحجرة بكلتيهما ، بالعصا أيضا وكان مقاس تكاتها المصنوعة من القرن ، المقوسة كالمخلب قدما ونصف قدم على الأقل .

كان رجلا فى الأربعين من عمره ، قصير الأعضاء ، بدينا ، يلبس سترة مفتوحة على دفتيها من الجوخ البنى ، وصدرية زاهية مزهرة تغطى بطنه فى تقبية خفيفة ، عليها سلسلة ساعة ذهبية تلمع فيها باقة حقيقية هى مجموعة كاملة من الدلايات مصنوعة من القرن والعظم والفضة والمرجان ـ ثم سراويل ركبة قصيرة ذات لون أخضر رمادى غير واضح ، يبدو أنها مصنوعة من قماش صلب بصورة غير مألوفة ، ذلك أن أطرافها كانت تحيط من أسفل برقبة حذائه القصير العريض بشكل دائرى مشدود . ـ وكان شاربه الأشقر الرائق الخفيف المفتل المتدلى فوق الفم يكسب رأسه المستدير الشبيه بالكرة بأنفه المدكوكة وشعره الخفيف نوعا غير المسرح ، شيئا من كلب البحر .

وكان للسيد الغريب بين الذقن والشفة السفلى شامة بارزة بعض الشىء تتباين مع شاربه . وكان خداه ممتلئين بشكل ملحوظ ، دهنين ، مقببين طاغيين على عينين نصف مغمضتين فى شقين ضيقين ، رائقتى الزرقة ، متغضنتين عند الزوايا ، مما أكسب الوجه المنتفخ على هذه الصورة تعبيرا هو مزيج من المضض والطيبة المستقيمة الحائرة المؤثرة . وكان تحت الذقن الصغيرة خط يجرى عموديا الى داخل ربطة الرقبة الرفيعة البيضاء ... خط رقبة يشبه الحوصلة ـ رقبة ما كانت لتطيق البنيقات العالية . والجزء الأسفل من الوجه والرقبة ومؤخرة الرأس والقفا والأنف ، كل أولئك قد امتزج بعضه ببعض فى غير تناسق وحشا بعضه بعضا ... وكان جلد الوجه من جراء هذه الانتفاخات جميعا مشدودا أكثر مما ينبغى ، يبدى فى بعض المواضع كموضع شحمة الأذن وعلى جانبى الأنف احمرارا ناشزا .. وقد أمسك السيد فى احدى يديه القصيرتين البيضاوين السمينتين بعصاه وفى الأخرى بقبعة خضراء من قبعات التيرول مزدانة بلحية تيس .

ورفعت القنصلة النظارة عن عينيها وظلت متكئة فى نصف وقفة على الأريكة .

وسألته فى أدب ولكن فى حزم : « بم أستطيع أن أخدمك ؟ »

وهنا وضع السـيد القبعـة والعصا على غطاء الهارمونيوم بحركة تدل على التردد تم فرك يديه الطليقتين مرتاحا ، ونظر الى القنصـلة بعينيه الصغيرتين الرائقتين المنتفختين وقال : « أرجو سيدتى المعذرة من بطاقتى ، اذ ليس معى غيرها • ان اسمى هو بيرمانيدر ، آلويس بيرمانيدر من ميونيخ • ولعل السيدة المحترمة قد سمعت اسمى من السيدة ابنتها — »

قال هذا كله بصوت مرتفع أو توكيد تكاد تخشنه لهجته العامية المقرقرة التى تتخللهـا مدات مفاجئة ، ولكن مع رمش من شقى العينين يدل على رفع الكلفة كأنه يعنى : نحن متفاهمون •••

وهنا نهضت القنصـلة نهوضا كاملا ، وخطت نحوه برأس مائل الى جنب ويدين ممدودتين •••

« السيد بيرمانيدر ! أهذا أنت ؟ بالتأكيد حدثتنا ابنتى عنك • انى أعرف كم ساعدت على جعل اقامتها فى ميونيخ مرضية مسلية ••• وأنت تقيم هنـا فى مدينتنا ؟ »

فقال السيد بيرمانيدر (بلهجته العامية) وهو يتخذ مجلسه بقرب القنصلة على كرسى ساند : « أنت تعجبين • أليس كذلك ؟ »

فسألته القنصلة (ولم تفهم لهجته) : « ماذا من فضلك ؟ » وكان قد جعل يدلك فخذيه المستديرتين القصيرتين بكلتا يديه راضيا •••

فأجاب السيد بيرمانيدر (بكلام عامى آخر) وكف عن دعك فخذيه •

فقالت القنصلة : « جميل » وهى لا تفهم ما يقول واتكأت فى مجلسهـا الى الوراء ويداها فى حجرها تتظاهر بالارتياح • لكن السـيد بيرمانيـدر لاحظ ذلك فانحنى الى الأمام ورسم فى الهواء دوائر بيده يعلم الله لماذا ثم قال وهو يبذل جهدا كبيرا : « ان السيدة المحترمة تتعجب من كلامى ! »

فردت القنصلة مسرورة : « أجل ، أجل ، يا عزيزى السيد بيرمانيدر •

وبعد أن انتهيا من هذا حلت فترة صمت قال السيد بيرمانيدر ، لكى يملأها ،

وهو يتنهد تنهيـدة حارقة (كلاما آخر بنفس اللهجة العامية معناه) : « هم مقدر • أليس كذلك »

فسألت القنصلة : « ماذا من فضلك ؟ » وهى تحول بصرهاجانبا شيئا ما•••

فأعاد السيد (نفس القول) بصوت جاوز الحد فى الارتفاع والخشونة •

فقالت القنصلة مطيبة خاطره : « جميل » • وانتهيا بذلك من هذه النقطة •

واستطردت القنصلة تقول : « أتسمح لى أن أسألك : ما الذى جاء بك هذه الشقة البعيدة ياسيدى العزيز ! انها لرحلة شاقة من ميونيخ الى هنا ••• »

فقال السيد بيرمانيدر وهو يلوح بيده القصيرة فى الفضاء هنـا وههنا : « الأعمال • الأعمال أيتها السيدة المحترمة • مصنع البيرة فى فالكميله ! »

« آه صحيح ، فأنت تتاجر فى حشيشة الدينار ياعزيزى السيد بيرمانيدر « نويه وشريكه » أليس كذلك ؟ ثق بأنى سمعت من ابنى من هنا وهناك الكثير السار عن متجرك • » قالت القنصلة هذا مجاملة له • لكن السيد بيرمانيدر دفع هذه المجاملة قائلا : « هذا صحيح ، لاشك فيه • على أن المهم أنه كانت تحدونى الرغبة دائما أن أزور السيدة المحترمة وألاقى مدام جرينليش ! هذا هو السبب الحقيقى الذى جعلنى لا أتهيب الرحلة ! »

فقالت القنصلة من قلبها : « أشكرك » ومدت اليه يدها كرة أخرى وهى تبسط راحتها بسطا كبيرا ثم زادت على ذلك قولهـا : « لكنه ينبغى أن أخبر ابنتى ! » ونهضت عن مجلسها وخطت نحو مشد الجرس المطرز الذى كان يتدلى بجانب الباب الزجاجى •

فصاح السيد بيرمانيدر وقد استدار بكرسيه السـانـد نحو الباب : « أجل بالله ! ان هذا ليولينى سرورا • »

وأمرت القنصلة الفتاة : «دعى مدام جرينليش تتفضل بالنزول ياعزيزتى•»

ثم عادت الى الأريكة وأدار السيد بيرمانيدر كرسيه على الأثر كما كان •

وكرر شارد الفكر : « سيولينى هـذا سرور ! » وجعل يتـأمل توريق الحيطان والمحبرة الكبيرة المصنوعة من صينى سيفر والموضوعة على المكتب ،

وقطع الأثاث ؛ ثم أخذ يكرر (بلهجته العامية كلاما سبق أن قاله) ويدعك في خلاله ركبتيه، ويتنهد تنهدا عميقا ، من دون سبب ظاهر • وقد شغل بهذا وقته تقريبا الى أن ظهرت مدام جرينليش •

من المؤكد أنها لم تسرف في زينتها • فقد كانت ترتدي ثوبا زاهيا وكانت تسريحتها منظمة ووجهها أنضر وأجمل من ذي قبل ، ولسانها يدور في زاوية فمها بمكر •

وما كادت تدخل حتى هب السيد بيرمانيدر وانطلق يلاقيها في حماسة هائلة • وقد انقلب كل شيء فيه الى حركة ، وقبض على كلتا يديها وهزهما وصاح : « نعم ، مدام جرينليش ! حياك الله ! كيف كان حالك في تلك الأثناء ! ماذا كنت تصنعين هنا طيلة الوقت ؟ يا الله ! انني أجن من الفرح ! أما تزالين تذكرين مدينة ميونيخ وجبالنا ؟ لقد كنا في غاية الانشراح ، أليس كذلك ؟ ها نحن أولاء نتلاقى ثانية ! فمن كان يظن هذا ؟ »

وحيته توني من جانبها أيضا بحفاوة شديدة وسحبت كرسيا الى جواره وجعلت تتحدث معه عن الأسابيع التي قضتها في ميونيخ ، وانساب الحديث دون عائق ، وتابعته القنصلة وهي تومىء الى السيد بيرمانيدر متساهلة مشجعة ، تترجم هذا أو ذاك من تعبيراته الى الألمانية الفصحى ، ثم تعود الى الاتكاء على الأريكة في كل مرة مسرورة من أنها فهمته •

وكان على السيد بيرمانيدر أن يوضح مرة أخرى لمدام جرينليش أيضا سبب وجوده ، لكنه لم يعط في الظاهر لكلمة « أعمال » مع مصنع البيرة الا القليل من الأهمية حتى بدا أنه لم يكن يبغي في الحقيقة شيئا في المدينة ، على حين استفسر في اهتمام عن الابنة الثانية وعن ولدي القنصلة ، وأسف عاليا لغياب كلارا وكريستيان لأنه كانت تحدوه في كل وقت رغبة التعرف بأعضاء الأسرة جميعا •••

ولم يذكر اطلاقا عن مدة اقامته في المدينة شيئا معينا ، لكنه لما لاحظت القنصلة : « انى أتوقع مجيىء ابني في كل لحظة للافطار ياسيد بيرمانيدر فهل تولينا سرور تناول لقمة بالزبد معنا •••؟ » قبل هذه الدعوة قبل أن تنطق بها وكان استعداده لهما ينم عن أنه كان يتوقعها •

وجاء القنصل فوجد حجرة الافطار خالية وظهر برداء المكتب مسرعا ، مرهقا ، متوتر الأعصاب بعض الشيء ليحث على تناول لقمة خاطفة ••• لكنه

ما ان رأى ظاهرة الضيف الغريبة بدلايات ساعته الهائلة وسترته المصنوعة من الجوخ الخشن ولحية التيس القائمة فوق الهارمونيوم حتى رفع رأسه متنبها ، وما ان ذكر الاسم الذى طالما سمعه على لسان مدام أنتونيا كثيرا حتى حدج أخته بنظرة سريعة وحيا السيد بيرمانيدر بلطفه الآسر ... ولم يجلس بل توجهوا فى التو والساعة الى الطابق المتوسط حيث أعدت الآنسة يونجمان المائدة ، وسمعوا طنين الصنبور ـ وهو صنبور أصيل هدية من القس تيبورتيوس وزوجته .

قال السيد بيرمانيدر لما جلس وعرض نخبة المأكولات الباردة على المائدة : « انكم فى نعمة ! » وكان يستخدم فى كلامه جمع المخاطب على الأقل فى أبسط تعبير من وجهه .

وقال القنصل : « ليست هذه بيرة هوفبروى ياسيد بيرمانيدر ، لكنها على كل حال ألذ طعما من بيرتنا الوطنية . » وصب له من نبيذ البورتو الأسمر المزبد الذى ألف نفسه أن يتناول منه فى هذا الوقت .

فقال السيد بيرمانيدر وهو يمضغ : « أشكرك أيها الجار ! » ولم يلحظ شيئا من تلك النظرة المرعبة التى ألقتها عليه الآنسة يونجمان . وقد تناول من البورتو فى شىء من التحفظ حمل القنصلة على أن تأمر باحضار زجاجة من النبيذ الأحمر فازداد مرحه بصورة ملحوظة ، وجعل يعاود الحديث مع مدام جرينليش ، وكان يجلس مبتعدا عن المائدة كثيرا لبروز بطنه ، مباعدا بين ساقيه كثيرا ، مسقطا احدى ذراعيه القصيرتين بيده البيضاء السمينة عمودية على مسند الكرسى ، بينما ينصت الى كلام تونى واجاباتها ، مائلا برأسه السمين ذى الشارب المشبه شارب كلب البحر جانبا ، معبرا بوجهه تعبيرا ينم عن الارتياح المشوب بالضيق ، طارفا بشقى عينيه أمارة السذاجة .

وكانت تونى تقطع له المشويات بحركات منمقة لم يتمرس بها ، ولا تتحفظ فى كلامها عن هذا أو ذاك من تأملات الحياة .

قالت تشير الى اقامتها فى ميونيخ : « يا الهى ، من المحزن حقا يا سيد بيرمانيدر أن كل حسن وجميل فى الحياة يمضى سريعا ! » ووضعت السكين والشوكة لحظة ورفعت بصرها الى السقف وعليها أمارات الجد . هذا الى أنها كانت بين الحين والحين تحاول كذلك محاولات مضحكة لا تدل على ذكاء كما تتكلم بلهجة بفارية عامية ...

ودق الباب أثناء الأكل وجاء صبى المكتب ببرقية قرأها القنصل وهو يمر

طرف شاربه الطويل بين أصابعه ببطء ، ومع أنه كان يلاحظ أنه مشغول مجهد بمضمون البرقية فقد سأل خلال ذلك فى أخف لهجة : « كيف تسير الأعمال ياسيد بيرمانيدر ؟ »

ثم قال على الأثر للصبى : « حسن » واختفى الغلام ·

فأجاب السيد بيرمانيدر : « آه ياصديقى » والتفت ناحية القنصل كما يلتفت عديم الحيلة ، قد غلظت رقبته وتيبست ، لكى يسقط على مسند الكرسى ذراعه الاخرى عمودية ، وقال : « ليس هناك ما يذكر ! فالحال فى ميونيخ كرب » ــ وكان ينطق اسم مدينة آبائه دائما بصورة تجعل المرء يحزر ما يعنيه ولا يصدقه ــ « ميونيخ ليست مدينة أعمال ··· فكل ينشد فيها راحته وقدح بيرته ··· والبرقيات لا تقرأ فيها أثناء الأكل ··· فعندكم هنا عادات أخرى حقا ! ··· أشكرك انى آخذ كأسا أخرى ··· بلاء ! ان شريكى نويه كان يفضل الذهاب الى نيرنبرج ، لأن البورصة هناك وروح المشاريع·· لكنى لا أغادر ميونيخ ··· وليس هذا بجميل ··· انه ··· فهناك المنافسة السخيفة ··· والتصدير ··· ان أمره يبعث على الضحك ··· ففى الروسيا نفسها يريدون الشروع قريبا فى زراعة النباتات ··· »

وفجأة ألقى على القنصل نظرة عجلى ملحوظة وقال : « كأنى لم أقل شيئا ياحضرة الرفيق ! انه لعمل طيب ! نجنى المال من مصنع البيرة المساهم الذى يديره نيدر باور ، أتعلم ؟ كانت شركة صغيرة فيما مضى ، والآن نقرض ولنا أموال نقدية ··· ونرهن بأربعة فى المائة ··· وبذا أمكننا توسيع بنائنا · الآن نكسب كثيرا ونبيع كثيرا ولنا دخل سنوى » وختم السيد بيرمانيدر ورفض شاكرا أن يأخذ سيجارة أو سيجارا ، وأخرج من جيبه بعدالاستئذان غليونه ذا الرأس القرنى الطويل ، ودخل مع القنصل يحجبه دخان غليونه فى حديث عن التجارة لم يلبث أن تحول الى السياسة فتناول علاقة بقاريا ببروسيا والملك ماكس والامبراطور نابليون ··· حديث كان السيد بيرمانيدر يتوبله بعبارات غير مفهومة اطلاقا ، ويملأ فترات صمته بتنهدات لا صلة ظاهرة لها به ·

وكانت الآنسة يونجمان تنسى من الدهشة ــ حتى حين تكون اللقمة فى فمها ــ أن تمضى فى المضغ فتنظر الى الضيف مذهولة وتتأمله بعينيها العسليتين البراقتين ممسكة كما هى عادتها بالسكين والشوكة عموديتين على المائدة ، تحركهما هنا وهناك · فمثل هذه الألفاظ لم تسمعها هذه الحجرات من قبل ، ومثل هذا الدخان يتصاعد من غليون لم يلبد سماءها ، وعدم اللياقة فى

السلوك يصحبه الارتياح والضيق معا غريبان عليها ··· وثابرت القنصلة بعد أن استعلمت فى اهتمام عن الاعتداءات التى لابد أن هــذه الطائفة الانجيــليه الصغيرة تتعرض لها بين بابا وبين آقحاح ، على الاستماع للضيف في لطف من دون أن تفهم منه شيئا · ولاح أن تونى قد انتابها أثناء تناول الطعام شيء من التفكير والقلق · بيد أن القنصل كان فى غاية التسلى ؛ بل لقد حمل أمه على أن تطلب احضار زجاجة ثانية من النبيذ الأحمر وألح على السيد بيرمانيدر فى زيارته فى الشــارع العريض قائلا ان زوجــه سوف تسر بهــذه الزيارة سرورا كبيرا ···

وبعد أن قضى تاجر حشيشة الدينار ثلاث ســاعات منــذ وصوله أبدى اســتعداده للانصراف ونفض غليــونه وأفرغ كأسه وصرح بشيء ما عن « الصليب » ونهض وهو يقول : « لى الشرف يا سيدتى المحترمة · حفظك الله يامدام جرينليش ··· حفظك الله ياسيد بودنبروك » وارتعدت أيدا يونجمان من هــذا الخطاب واحمر وجهها ··· وعند انصرافه قال لهـا : « طاب يومك يا آنسة ··· طاب يومك ! ··· »

وتبادلت القنصلة وابنتها نظرة ··· بعد اذ أعلن السيد بيرمانيدر عزمه على العودة الى النزل المتواضع النازل فيه على نهر ترافه ···

فقالت السيدة المسنة وقد خطت نحو السيد بيرمانيدر كرة أخرى : « ان صديقة ابنتى التى تقيم فى ميونيــخ وزوجهــا بعيدان ، ولن تعرض فرصــة فى القريب للقيام نحوهما بواجب الضيافة فلعلك ياسيدى تولينا مسرة اقامتك عندنا أثناء وجودك فى المدينة ··· فانك لتلقى منا اذن ترحيبا قلبيا ··· »

ومدت اليه يدها فانظر ماذا صنع : هز يدها موافقا بلا تردد وقبل هــذه الدعوة كما قبل الدعوة الى تناول الغــداء بسرعة واستعداد ، وقبــل يد السيدتين ــ الأمر الذى بدا وجهه فى خلاله غريبا تقريبا ، وأحضر قبعتــه وعصاه من حجرة المناظر الطبيعية ، ووعد مرة أخرى بأن يبعث بحقيبته فى الحال ، وأن يكون ثانية على المكان فى الساعة الرابعة بعد أن ينهى أعماله ، ورافقه القنصل الى تحت ، وعند الباب التفت مرة أخرى وقال وهو يهز رأسه فى تحمس ساكن : لاتؤاخذنى يا حضرة الرفيــق ، ان السـيدة أختك « بنت لطيفة » فليحفظها الله ! » واختفى وهو ما يزال يهز رأسه ·

وأحس القنصل ضرورة الصعود مرة أخرى الى الطبقة العليا للاطمئنان على السيدتين · وكانت ايدا يونجمان تجرى هنا وهناك حاملة بياضات للسرير لتعد غرفة فى الطرقة ·

. كانت القنصلة ما تزال جالسة الى مائدة الافطار توجه بصرها الى بقعة فى سقف الحجرة وتدق بأصابعها البيضاء على مفرش المائدة دقا خفيفا • وكانت تونى جالسة الى النافذة شابكة ذراعيها لا تنظر يمنة أو يسرة بل تنظر أمامها فى وقار وجد ، والصمت سائد •

وسأل توماس : « والآن ؟ » واقفا بالباب يتناول سيجارة من العلبة المرسوم عليها المركبة ذات الجياد الثلاثة ••• وكانت كتفاه تتحركان وتهتزان من الضحك •

فأجابت القنصلة فى سذاجة : « انه رجل لطيف • »

فقال القنصل : « هذا رأيى ! » ثم التفت ناحية تونى التفاتة سريعة بالغة الكياسة تنطوى على الدعابة كأنما يسألها مع الاحترام التام عن رأيها هى أيضا • فلزمت الصمت ، ونظرت أمامها فى استقامة نظرة جدية •

واستطردت القنصلة وهى مهمومة بعض الشىء : « لكنى أرى ياتوم أنه كان ينبغى أن يتخفف من اللعن • فاذا كنت قد فهمته جيدا فقد كان يستعمل ألفاظا تدل على ذلك ••• »

« أوه • لا بأس يا أماه فهو لا يقصد بذلك سوءا ••• »

« وهو أيضا يسرف فى التهاون قليلا ياتوم ، أليس كذلك ؟ »

فقال القنصل : « ماذا تنتظرين ؟ انه من ألمانيا الجنوبية • » ونفث دخان سيجارته فى الغرفة متمهلا وابتسم لأمه ، واستقرت عيناه خلسة على تونى • فلم تلحظ القنصلة من ذلك شيئا •

« انك قادم اليوم مع جيردا ياتوم لتناول الطعام ، أليس كذلك ؟ فأوليانى السرور • »

« حبا وكرامة يا أماه ، بكل سرور • انى لأمنى نفسى من هذه الزيارة بغبطة كبيرة فى الحق • ألست كذلك ؟ فهذا شىء يختلف بعض الشىء عن زوارك من رجال الدين ••• »

« لكل أسلوبه ياتوم »

« اتفقنا • انى ذاهب » ثم قال وهو ممسك بأكرة الباب : « على فكرة !! لقد تركت فى نفسه أثرا حاسما يا تونى ! كلا ، بلا أدنى شك ! أتعرفين

كيف ذكرك تحت من هنيهة ؟ قال « انك » بنت لطيفة » ــ هذه كلماته ... »

هنا التفتت مدام جرينليش وقالت بصوت مرتفع : « حسنا ياتوم ، انك تروى لى هذا وما كنت لاحظر عليك ذكره ، لكننى على الرغم من ذلك لا أعرف هل من اللائق أن تنقله الى . انى أعرف وأريد أن أذكر أن الأمر فى هذه الحياة لا يتوقف على أن يذكر شىء ويعبر عنه ، بل على النية فيه والشعور . واذا كنت تسخر من كيفية تعبير السيد بيرمانيدر ... اذا كنت تجده أضحوكة ... »

« من ؟ لكننى ياتونى ، انى لا أفكر فى هذا على الاطلاق ! ففيم اهتمامك هذا الاهتمام ... »

فقالت القنصلة : « حسبكما ! » وحدجت ابنها بنظرة جادة متوسلة معناها : ترفق بها !

فقال : « لا تغضبى يا تونى ! انى لم أرد اغضابك . والآن انى ذاهب لأبعث أحد رجال المخازن بالحقيبة الى هنا ... الى اللقاء ! »

الفصل الخامس

وانتقل السيد بيرمانيدر الى شارع منج · وأكل فى اليوم التالى عند توماس بودنبروك وزوجه ، وتعرف فى الثالث ، وكان يوم خميس ، بيوستوس كروجر وزوجته ، وبسيدات بودنبروك المقيمات بالشارع العريض ، وقد وجدنه مضحكا الى أبعد حد ··· وبزيزيى فيشبروت التى عاملته بشىء من القسوة ، وبكلوتيلده المسكينة وايريكا الصغيرة اللتين نفحهما بقرطاس من « الحلوى »

وكان بتلك التنهدات القوية التى لم تكن تعنى شيئا والتى لاح أنها كانت من فيض شعوره بالارتياح فى حالة نفسية راضية لاينضب رضاها ، وبغليونه ولغته الغريبة وعدم ضجره من اطالة الجلوس فى مكانه بعد وجبات الطعام فى وضع مريح غاية الراحة ، فكان يدخن ويشرب ويطيل الحديث · ومع أنه كان يضيف الى الحياة الهادئة فى البيت القديم نغمة غريبة جديدة كل الجدة ، ويجلب بكيانه كله الى حجراته شيئا يخالف العرف ، فانه لم يؤثر مع ذلك فى عادة من العادات السائدة فيه · وقد كان مواظبا على حضور صلوات الصباح والمساء كما استأذن القنصل فى الاستماع الى الدروس التى كانت تلقى فى أيام الآحاد · بل انه ظهر فى مساء أورشليم وبقى لحظة فى القاعة ليقدم الى السيدات ، ثم انسحب لما بدأت ليا جيرهارت فى قراءتها ·

وسرعان ماعرفت ظاهرته فى المدينة وتحدث الناس فى البيوت الكبيرة عن ضيف آل بودنبروك القادم من بفاريا مستطلعين · لكنه لم تكن له صلة لا بالبيوت ولا بالبورصة · ولما كان الفصل قد تقدم واستعد معظم الناس للتوجه الى البحر فقد تحاشى القنصل تقديم السيد بيرمانيدر الى المجتمع · لكنه تفرغ للضيف فى حرارة والتفات · وكان على الرغم من واجبات العمل وارتباطاته فى المدينة يقتطع من وقته ليطوف به فى المدينة ويريه معالمها من العصر الوسيط ، كنائسها وأبوابها وفسقياتها وسوقها ودار بلديتها وجمعية ملاحيها ، ويسليه على جميع الوجوه وبكل صور التسلية ويعرفه مع ذلك فى البورصة بأصدقائه الأقربين ··· ولما عرضت للقنصلة الأم مناسبة لشكره على روح التضحية فيه لاحظ فى جفاء : «آه يا أماه ، ما الذى لايفعله المرء ···»

وتركت القنصلة هذه الكلمة بلا جواب الى حد أنها لم تبتسم ولم تحرك

جفنا ، بل أجالت عينيهـا الصافيتين جانبا ، وسألت سؤالا ما فى مناسـبة أخرى ٠٠٠

وقد كانت لطيفة مع السيد بيرمانيدر فى غير غلو وهو ما لم يمكن أن يقال عن ابنتها حتما ٠ وقد حضر تاجر حشيشة الدينار يومين من «أيام الأطفال» ـ ذلك أنه ، مع تلميحه عرضا فى اليوم الثالث أو الرابع لقدومه بأن عمله مع مصنع البيرة هنا قد أدى ، كان قد تقضى من ذلك الحين أسبوع ونصف أسبوع ـ وفى كل من أمساء الخميس كانت مدام جرينليش تلقى نظرات عاجـلة هيابه على دائرة الأسرة ، على خالها يوستوس وعلى بنـات عمها بودنبروك أو عـلى توماس ، كلما تكلم السيد بيرمانيدر أو تصرف ٠ وكان وجهها يحمر أو تجلس دقائق طويلة جامدة صامتة أو تغادر الغرفة ٠٠٠

*

كانت الستائر الخضراء فى مخدع نوم مدام جرينليش الكائن بالطبقة الثانية تتحرك حركة خفيفة من نسمات فاترة فى ليـلة صافية من ليالى يونيـه ، لأن كلتا النافذتين فى الغرفة كانتا مفتوحتين ٠ وكانت فتائل عديدة صغيرة تحترق فى زجاجة فوق طبقة من الزيت عائمة فوق الماء الذى كان يملأ نصف الزجاجة ، وترسل فى الحجرة الكبيرة ذات المقاعد الساندة المنتصبة المغطاة بكسوة من التيل الرمادى صونا لبخارها ، ضوءا هادئا ضعيفا متناسـبا ٠ وكانت مدام جرينليش مستلقية فى فراشها ، ورأسها الجميل غارق فى الوسائد المحوطة بأكنرة عريضة من الدنتيلا ويداها متشابكتان فوق اللحاف ٠ لكن عينيها ، وكانتا أكثر شغلا بالتفكير من أن تغمضا ، كانا تتبعان حركات حشرة كبيرة طويلة على مهل ، كانت تحوم حول الزجاجة المضيئة باصرار ، وجناحها يخفق مليون خفقة من دون أن يسمع لها صوت ٠ وكان بجانب السرير على الحائط بين صورتين قديمتين منقولتين عن نحاسة محفورة ، ومناظر للمدينة من القرون الوسطى ، حكمة فى اطار فحواها : « كل الى الله طريقك ٠ » فهل هـــذا عزاء للمرء اذا ما رقد حوالى منتصف الليل بعينين مفتوحتين وكان عليه أن يقـرر ويفصل فى حياته وفى غير حياته وحده وبلا مشورة ، بنعم أو لا ؟

كان السكون مخيما ، لا يسمع فيه سوى تكتكة ساعة الحائط ، ثم نحنحة الآنسـة يونجمان بين الحين والحين فى الغرفة المجاورة التى لا يفصلهـا عن مخدع تونى سوى الستائر ٠ وكان الضوء هناك مايزال قويا ٠ وكانت البروسية الوفية ماتزال جالسـة منتصبة تحت المصبـاح المعلق الى المـائدة التى تفتح وتقفـل ، ترتق جوارب لايريكا الصـغيرة التى كان يسمع تنفسهـا العميق الهادىء ، ذلك أن تلميذات زيزيمى فيشبروت كن اذ ذاك فى عطلة الصيف وكانت الطفلة تقيم فى شارع منج ٠

ونهضت مدام جرينليش قليلا من فراشها وهى تتنهد ، واعتمدت رأسها بيدها .

وسألت بصوت مكبوت : « ايدا ! أما زلت جالسة ترتقين ؟ »

فأسمعتها ايدا صوتها قائلة : « نعم ، نعم يا تونى ، يا طفلتى ... نامى فقط ، فلابد من نهوضك غدا مبكرة ولن تكونى استكملت نومك . »

« حسنا يا ايدا ... اذن أيقظينى غدا فى السادسة ! »

« منتصف السابعة تبكير كاف يا طفلتى . فقد أوصى على المركبة للساعة الثامنة . فاستمرى فى نومك لتنهضى منعشة ... »

« آه ، اننى لم أنعس بعد ! »

« أى تونى ، ليس هذا طيبا . فهل تريدين أن تتعبى فى شفارتاو ؟ تناولى سبع جرعات من الماء ، ونامى على جنبك الأيمن وعدى الى ألف ... »

« آه ايدا ! أرجوك ، تعالى هنا قليلا ! فانى لا أستطيع النوم ، وهذا ما أريد أن أقوله لك . لابد لى من التفكير كثيرا وهذا يؤلم رأسى ... انظرى ، أظن أنى محمومة ، ثم الى ذلك ، المعدة ثانية ، أو لعله فقر دم . ذلك أن العروق فى سالفى نافرة جدا ، تنبض الى درجة الايلام ، فهى مترعة الى هذا الحد ، وهو ما لا يستبعد معه أن يكون الدم فى الرأس مع ذلك أقل مما ينبغى ... »

وتحرك كرسى ، وظهر بين الستائر شخص ايدا يونجمان العظمى القوى فى ثوبها البنى البسيط القديم الطراز .

« أى تونى ! حمى ؟ دعينى أجسك يا طفلتى ... لنضع كمادات ... »

ومشت بخطاها الثابتة المديدة قليلا كخطى الرجال الى الخزانة وأخرجت منديلا ، وغمسته فى الطست ، وعادت الى الفراش ووضعته محاذرة على جبين تونى ، ثم سوته مرارا بكلتا يديها .

« شكرا يا ايدا . لقد ارتحت ... آه ، اجلسى الى قليلا على حافة السرير

يا ايدا الطيبة العجوز ! انظرى ، انى افكر دائما فى غد ··· فماذا أصنع ؟ ان كل شيء يدور في رأسي · »

فجلست ايدا اليها وتناولت ثانية ابرتها والجورب المشدود على كرة الرفو ، وفيما هى تميل برأسها الأشيب الامنس وتتابع غرزها بعينيها العسليتين اللتين لا تكفان عن اللمعان قالت : « أتعنين أنه سيسأل غدا ؟ »

« بالتأكيد يا ايدا ! فليس فى ذلك شك · انه لن يفلت الفرصة · كيف كان أمر كلارا ؟ أيضا فى زوج كهذا ··· كان فى مقدورى أن أتجنبه ، أترين؟ كان يسعنى أن أتمسك بالآخرين ولا أدنيه منى ··· لكن أوان هذا قد فات ! انه يسافر بعد غد ، هذا ما قاله ، ومحال أن يستطيع البقاء أطول مما بقى ، اذا لم يسفر الأمر عن نتيجة ··· فلابد أن أقطع فيه غدا برأى ··· فماذا أقول يا ايدا اذا سألنى ؟ ! انك لم تتزوجى بعد ، ومن ثم لا تعرفين الحياة حقا · لكنك امرأة شريفة ، ولك عقلك ، وقد بلغت الثانية والأربعين · أفلا تستطيعين أن تشيرى على ؟ انى فى حاجة الى مشورتك ··· »

فتركت ايدا يونجمان الجورب يسقط فى حجرها وقالت : « نعم ، نعم ياتونى لقد فكرت أيضا فى هذا طويلا · لكن الذى أجده هو أنه لم يعد ثم ما يشار به يا طفلتى · انه لا يسعه الانصراف بعد الآن من دون أن يخاطبك ويكلم أمك · فاذا لم تبد موافقة فكان الخليق بك أن تصرفيه قبل الآن · »

« أنت على حق يا ايدا ؛ لكنه ما كان يسعنى أن أفعل ذلك ، ولا مناص فى النهاية من قضاء الأمر ! بيد أنى لا أزال أفكر ان التراجع فى يدى وأن الأوان لم يفت بعد ! وهكذا أرقد وأعذب نفسى ··· »

« أيمكن احتماله يا تونى ؟ أصدقينى القول ! »

« نعم يا ايدا والا لكنت كاذبة اذا أنكرت ذلك · انه ليس جميلا لكن الأمر فى هذه الحياة لايتوقف على الجمال · وهو رجل فى قرارة نفسه طيب ولا يأتى سوءا · صدقينى · وحين أفكر فى جرينليش ··· يا الهى ! كان يقول دائما انه جاد واجد ، ويخفى لؤمه بصورة ماكرة ··· لكن بيرمانيدر غيره ، أترين· انه ، وأحب أن أقول ذلك ، أكسل من أن يفعل هذا وأسهل للحياة مأخذا ، وهو مايعتبر من جهة أخرى عيبا · ولا شك أنه لن يصبح مليونيرا وأنه يميل الى أن يدع المقادير تجرى فى أعنتها والى استشارة الحظ فى أموره كما يقولون هنا فى الجنوب ··· ذلك أنهم فى الجنوب جميعا على هذا المنوال · هذا ما أردت

أن أقوله يا ايدا • هذه هى المسألة • وفى ميونيخ ، حيث هو بين أمثاله ، بين أناس على شاكلته ، يتكلمون لغته ، أحببته مباشرة ، اذ ألفيته لطيفا ، رقيقا ؛ مريحا ، وألاحظ من فورى أن الأمر كان بيننا متبادلا ــ ولعله قد ساعد على هذا اعتقاده بأنى امرأة غنية ، وأغنى مما أنا فيما أخشى، ذلك أن أمى لاتستطيع أن تعطينى كثيرا كما تعرفين ••• لكنى أعتقد أنه ليس لهذا تأثير عليه ••• فالسعى وراء المال الكثير ليس من وكده ••• كفى ••• ماذا أردت أن أقول يا ايدا ؟ »

« فى ميونيخ ياتونى ، ولكن هنا ؟ »

« لكن هنــا يا ايدا ! أراك تلحظين ما أريد أن أقول • هنا حيث يبتعد عن بيئته الحقيقية وحيث كل شيء مختلف ، كل شيء أصرم وأكثـر انطواء علـى الطموح والجد مثلا ••• هنا لابد أن أخجل من تصرفاته • أجل انى أعترف لك بهذا صراحة يا ايدا ، فأنا امرأة صادقة ، انى أخجل منه ، ولعل هــذا منى رداءة ! أترين ••• لقد حدث بكل بساطة مرارا أن قال « لى » بدلا من « نى » (خطأ نحوى) وهذا ما يفعلونه فى الجنوب يا ايدا • يقع ويحدث لأكثر الناس ثقافة حين يكونون فى الكلام على سجيتهم ، فلا يؤلم أحدا ولا يكلف شيئا ؛ ويمر من دون أن يعجب منه أحد • لكن هنا تنظر اليه أمى شذرا ، ويرفع توم حاجبه ، ويتشنجع خالى يوستوس ويسخر تقريبا ، كما هى عادة آل كروجر دائما ، وتلقى فيفى بودنبروك على أمها أو على فريدريكه أو هنرييت نظرة ذات معنى ، وأخجل أنا خجلا شديدا ، يبلغ من شدته أن أود لو خرجت من الحجرة ، ولا أتصور عندئذ أنى أستطيع أن أتزوج منه ••• »

« ماذا تقولين يا تونى ! انك ستعيشين معه فى ميونيخ • »

« أنت على حق فى هــذا يا ايدا • والآن ستأتى الخطبة وسيحتفل بهـا ، الآن أرجوك ، عنـدما لا يكون منــاص من أن أخجــل من نفسى أمام الأسرة وأمام آل كستنماكر ومولندروف وغيرهم دائما لأنه قليل الوجاهة ••• أخ ، ان جرينليش كان أوجــه منه يقابل ذلك أنه كان سيء السريرة كما كان السـيد شتنجل يقول اذ ذاك دائمــا على ما يقال ••• ايدا ، ان رأسى يدور ، اغمسى الكمادة ، أرجوك • »

وعاودت الكلام فقالت : « لا مناص فى النهاية من أن يقضى الأمر • » وتلقت الكمادة الباردة متنهدة : « ذاك أن المهم ، الباقى مهما ، انى سأصبح زوجة من جديد ، وانى لن ألبث هنا بعد الآن امرأة مطلقة ••• أخ يا ايدا ، انى لا مفر

لى من العودة هذه الأيام الى التفكير فيما كان اذ ذاك حين ظهر هنا جرينليش أول مرة ، وفى المشاهد التى أثارها ــ لقد كانت فاضحة يا ايدا ! ثم فى تراقيمنده وآل شفارتسكوبف ٠٠٠ » ونطقت هذا متمهلة ، واستقرت عيناها لحظه على الموضع المرفو فى جورب ايريكا كأنها فى حلم ٠٠٠ ثم استأنفت الكلام : « وبعد ذلك الخطبه وايز بيتل وبيتنا ــ لقد كان وجيها يا ايدا ، اننى حين أفكر فى أردية نومى ٠٠٠ لن تكون لى مثلها مع بيرمانيدر ٠ ان الحياة تزيد المرء قناعة دائما ، أتعرفين ــ والدكتور كلاسن والطفلة والمصرفى كيسلماير ٠٠٠ ثم النهاية أخيرا ــ لقد كانت مرعبة لاتتصورينها ، وحين يجرب المرء فى الحياة مثل هذه التجارب المخيفة ٠٠٠ لكن بيرمانيدر لن يأتى أعمالا قذرة ــ ان هذا آخر ما أنتظره منه ٠ وفى مكنتنا أن نعتمد عليه تجاريا ، ذلك أنى أعتقد حقا أنه يكسب من نويه فى مصنع بيرة نيدر باور كثيرا تقريبا ٠ وحين أصبح زوجة يا ايدا سترين ، سأعمل على أن يصبح أكثر طموحا ، ويسير بنا قدما ، ويجد ، ويكرمنا جميعا ، لأنه يبيت فى النهاية ملزما متى ما تزوج من آل بودنبروك ! »

وشبكت يديها تحت رأسها وتطلعت الى السقف ٠

وقالت: «لقد مضت الى الآن عشر سنوات على الأقل منذ زواجى بجرينليش ٠٠٠ عشر سنوات ! وقد بت فى مثل هذا الوضع السابق وبات على أن أعلن لآخر موافقتى من جديد ٠ أتعلمين يا ايدا أن الحياة جد بالغ ! ٠٠٠ لكن الفرق هو أنه اذ ذاك كان الأمر هاما ، وكانوا يلحون على ويعذبوننى وأنهم الآن يلتزمون الهدوء جميعا ، ويرون أن من البداهة أن أقول نعم ؛ ذلك أنه يجب أن تعرفى يا ايدا أن هذه الخطبة لألويس ــ وأقول ألويس بالفعل ، لأنه لا مناص فى النهاية من أن يقضى الأمر ــ ليست بالشىء المبهج المفرح ٠ ولا يقتضى هنائى أن يكون هناك شىء من ذلك ، لكنى بقبول هذا الزواج الثانى أصلح الأول بكل هدوء وبداهه ، ذلك أن هذا هو ما انتويه لاسم الأسرة ٠ هكذا تفكر أمى وهكذا يفكر توم ٠٠٠ »

« ماذا تقولين ياتونى ! اذا أنت لم تريديه ، واذا هو لم يسعدك ٠٠٠ »

« ايدا ، لقد خبرت الحياة ولم أعد بالفتاة الغبية ٠ وعيناى فى رأسى ٠ ان أمى ٠٠٠ وهذا ممكن ، قد تلح فى هذا ، لأنها تصرف النظر عن الأشياء غير المضمونة وتقول : كفى ٠ أما توم فيريده ٠ فأنا أعرف توم ، فلن تعرفينى به ! أتعلمين ماذا يفكر توم ؟ انه يفكر : كلا واحد ، كل واحد لا يكون حتما عديم اللياقة ٠ ذلك أن الأمر هذه المرة لا يتعلق بزواج لامع ، بل باصلاح « غلطة »

دلك الحين بزواج ثان . هذا ما يفكر فيه . فانه بمجرد أن قدم بيرمانيدر، أجرى توم فى سكون تحريات عن أعماله . وصدقى أنه لما جاءت النتيجة فى مصلحته وباعثة على الاطمئنان عد المسألة منتهية ... ان توم سياسى ، يعرف مايريد . من الذى أطار كريستيان ... انالأمر لكذلك وان كانت هذه الكلمة قاسية . ولماذا ؟ لأنه أحرج المتجر والأسرة . وهذا ما كنت خليقة أن أفعله من وجهة نظره يا ايدا ، لا بالأفعال والأقوال ، ولكن لمجرد أنى امرأة مطلقة . وهو يريد أن تنتهى هذه الحالة . وهو فى هذا محق ، ومن أجل هذا لا يقل حبى له وأقسم بالله . وانى لأرجو أن يكون هذا بيننا متبادلا . وأخيرا لقد كنت فى كل هذه السنين أشتاق أن أخرج ثانية الى الحيـــاة ، ذلك أنى برمة بالاقامة مع أمى ، وليعاقبنى الله اذا كنت أرتكب بهذا خطيئة ، لكننى لا أكاد أبلغ الثلاثين وأشعر بأنى شابة . ان أنصبة الناس فى الدنيا متفاوتة . فقد شاب شعرك بالفعل وأنت في الثلاثين . ويرجع هـــذا الى أسرتك والى خـــالك برال الذى مات كمدا ... »

وظلت تتابع تأملاتها فى هذه الليلة وتقول هنا وههنا : « لا مناص فى النهاية من أن يقضى الأمر » ثم غلبها النعاس ونامت خمس ساعات نوما هادئا عميقا .

الفصل السادس

كان الضباب يخيم على المدينة لكن السيد لونجيه صاحب مركبات الأجرة في شارع يوحنا وقد وقف بشخصه في شارع منج في الساعة الثامنة مركبة مما تركبه الجماعات مغطاة مكشوفة مع ذلك من كل الجوانب ، قال : « لن تمر ساعه حتى تطلع الشمس » فاستشعر الجميع الراحة من هذا القول •

وكانت القنصلة وانتونيا والسيد بيرمانيدر وايريكا وايدا يونجمان قد أفطروا معا ، وتلاقوا الواحد بعد الآخر في الرحبة الكبرى على أهبة الرحيل منتظرين جيردا وتوم • وكانت مدام جرينليش على الرغم من قصر الراحة التى نعمت بها بالليل ، تبدو فى أبهى منظر ، مرتدية ثوبا بلون الزبد ، ذا ربطة للرقبة من الأطلس • ويظهر أن الأخذ والرد قد انتهيا فيها الى نهاية ، ذلك أن أمارات الهدوء والطمأنينة والوقار كانت بادية على محياها وهى تتحدث مع الضيف وتزر قفازها الخفيف فى تؤدة ••• فلقد عاودها الرضى الذى كان معهودا فيها فى الأيام الخالية ، وغمرها الشعور بأهميتها وأهمية القرار الذى طلب اليها اتخاذه والوعى بأنه قد حل يوم آخر يفرض عليها أن تتدخل فى تاريخ أسرتها بقرار جدى ، جعل قلبها يخفق عاليا • وقد رأت هذه الليلة فى الحلم الموضع الذى انتوت أن تسجل فيه من أوراق الأسرة واقعة خطبتها — رأت هذا الموضع ماثلا لعينيها • وهى واقعــة محت ما حوته الأوراق من نقطة سوداء وجردتها من الأهمية ، وها هى ذى الآن تترقب بسرور وقلق اللحظة التى يظهر فيها توم وتحييه بايماءة جادة من رأسها •••

وجاء القنصل مع زوجته متأخرين قليلا ، لأن القنصلة الصغيرة لم تعتد أن تتم زينتها بهذا البكور • وكان منظره حسنا بادى المرح فى بذته البنية الرائقة المخططة بالمربعات الصغيرة والتى تبدى قلابتهــا العريضة حرف الصــدرية الصيفية • وقد ابتسمت عيناه لما أن تبين ما علا وجه تونى من وقار ليس له مثيل • لكن جيردا التى كان جمالها المستتر العليل بعض الشىء ، نقيضا غريبا لصحة نسيبتها النضرة ، لم يلح عليها شىء مما يبدى الناس فى أيام الآحاد وعند الخروج الى النزهة من حالة معنوية راضية • ولعلها لم تنم نوما كافيا • وقد جعل الليلاق الريان الذى كان يكون اللــون الأساسى لثوبهــا وينسجم بصورة فريدة مع حمرة شعرها الغزير الداكنة ، لون بشرتها أبيض مما هــو وأكثر بعــدا عن اللمعان • وكانت ظــلال مزرقة تســتقر فى زوايا عينيهــا

العسليتين المتلاصقتين تقريبا أعمق وأدكن مما هى فى العادة ... وقد قدمت جبينها ببرود الى حماتها لتقبله ، ومدت الى السيد بيرمانيدر يدها للتحية وهى تكاد تتهكم . وعندما رأتها مدام جرينليش أطبقت كفيها وصاحت بصوت مرتفع : « جيردا يا الهى ما أجمل ما أصبحت ثانية ـ ! » فردت على هذا الاطراء بابتسامة فحسب .

كانت تكره مثل مشروع اليوم كراهية شديدة وخاصة فى الصيف ، وفى يوم الأحد على الأخص . وكانت ، وهى التى يظل مسكنها فى الغالب مسدل الستائر فى ضوء خاب ، والتى يندر أن تخرج ، تخشى الشمس ، والغبار ؛ وصغار المواطنين الذين يرتدون ملابس العيد ، ورائحة القهوة والبيرة والتبغ ... وأبغض شىء اليها فى هذه الدنيا التعجل والازعاج .. قالت لتوماس عرضا لما وافق على الخروج الى شفارتساو والى « حرج المارد » كى يعرف ضيف ميونيخ شيئا عن محيط المدينة القديمة أيضا : « يا صديقى العزيز ، أنت تعلم كيف ركبنى الله ، فقد قدر لى الراحة والحياة العادية فأنا فى هذه الحالة لم أخلق للتعجل والتغيير . فأنتم تتصرفون فى ، أليس كذلك ؟ ... »

وما كانت لتتزوج منه لو لم تكن واثقة من موافقته على جوهر هذه الأمور .

« حقا يا جيردا ، أنت محقة ما فى ذلك شك . وانه لوهم محض فى الغالب أن يتسلى المرء بمثل هذه الأشياء ... لكن المرء يشاطرهم اياها ، لأنه لا يحب أن يبدو أمام الغير وأمام نفسه مخالفا . ومثل هذا العجب مما يحدو كل أحد ، أفلا يحدوك؟ والمرء بغير ذلك يقع فى وحدة صورية وشقاء صورى ، ويكفر عن ذلك بشىء من اعتباره . ثم ان هناك شيئا آخر يا عزيزتى جيردا ... اننا جميعا عندنا ما يدعونا الى خطب ود السيد بيرمانيدر قليلا . ولست أشك فى أن هذه الحالة قد فاتتك . فان هناك شيئا يتكون ، وليكونن من المؤسف ألا يتم هذا الشىء ... »

« انى لا أرى ياعزيزى الى أى حد يكون حضورى ... ولكن على كل حال مادمت ترغب فى هذا فليكن ماتريد . ولندع هذه التسلية تكن من نصيبنا .»

« سأكون مدينا لك . »

وخرجا الى الشارع ... وحقا لقد بدأت الشمس تشرق خلل ضباب الصباح . وفى كل يوم أحد تدق الأجراس فى كنيسة مريم ، وتملأ الجو سقسقة العصافير . ورفع الحوذى قبعته ، وأومأت اليه القنصلة محيية بقولها : « عم

صباحا أيها الرجل العزيز ! » يحدوها في هـــده التحية حسن الارادة الذى يحدو رب الأسرة ، وهو ما أحرج توماس بعض الشيء . واستطردت القنصلة : «اصعدوا اذن يا أعزائي! لقد كان الوقت وقت عظة الصباح ، لكنا اليوم نريد أن نحمد الله بقلوبنا في طبيعته الطلقة . أليس كذلك ياسيد بيرمانيدر ؟ »

« حقا يا حضرة القنصلة . »

وتسلقوا الدرجتين المقصدرتين من الباب الخلفي الضيق الى المركبة التى كانت خليقة أن تســع عشرة أشخاص ، وارتاحوا فوق الحشــايا التي كانت مخططة بالأزرق والأبيض اكراما للســيد بيرمانيدر على التحقيق ، واصـطفق الباب ، وسأسأ الســيد لونجيه بلسانه ، وصاح صيحات الســوق المختلفة فانطلقت خيوله البنية العضلة بالمركبة هابطة شارع منج وعلى امتداد تراڤيه ، فمارة بباب هولشتين ، ثم عرجت بعد ذلك يمينا على طريق شڤارطاو السلطاني ماضية في سبيلها ...

حقول ومراع وأشــجار وبيوت ريفية ... وقبــابر يسمعون أصواتهــا يبحثون عنها في الضباب الضــارب الى الزرقة الذى كان يرتفع ويرق عـلى الدوام . وكان توماس يدخن السجائر ويتلفت حوله بانتباه كلما مروا بحقول الغلال ، ويرى السيد بيرمانيدر كيف هى . وكان تاجر حشيشة الدينار في معنوية الشباب حقا ، قد وضــع قبعته المزدانة بلحية التيس منحرفة بعض الشيء ، وجعل يوازن عصــاه ذات القبضة القرنيــة الضخمة فوق راحة يده العريضــة البيضاء ، بل فوق شــفته السفلى ــ لعبة كانت تقابل على الأخص من ايريكا الصغيرة بالتصفيق على الرغم من اخفاقه فيهــا على الدوام ، وكان يعيد مرارا قوله : «لن يكون ذلك قمة اتسوج(١)، لكننا سنتسلق قليلا ويغمرنا الدفء وتحدث لنا بعض الفصول الفكهة ــ بعض الحكايات ، يامدام جرينليش! »

ويشرع بعد ذلك في الكلام بحرارة عن جماعات التسلق الذين يحمــلون الخرجة على ظهــورهم ويمسكون بمشطات الثــلج ، فتقابل القنصــلة حكاياته بالاعجاب ، ثم يبدى أسفه لغياب كريستيان الذى سمع أنه سيد محب للمرح والفكاهة ، معبرا عن أسفه بكلمات مؤثرة متابعا مجرى ما لأفكاره .

فيقول القنصل : « هذا يختلف . لكنه في مثل هذه المناسبات عديم النظير ، هذا صحيح . » ــ وصاح القنصــل منبسطا : « ســنأكل كابوريا يا ســيد بيرمانيدر وجنبرى من بحر البلطيق ، وقد ذقتها عند أمي مرات . لكن صديقي ديكمان صاحب مطعم « الحرج المارد » يقدم منها دائما صنفا ممتازا ، وجوز

---

(١) Zugspitze جبل في سلسلة جبال الألب البڤارية ارتفاعه ٢٦٨٩ مترا .

خبز الزنجبيل المشهور في هذه الناحية ! أو أن شهرته لم تصل بعد الى نهر ايزار ؟ سوف تراه ٠ »

وأمرت مدام جرينليش مرتين أو ثلاثا بوقف المركبة لتقطف عند حافة الطريق بعض أزهار الخشخاش والحبوب ، فكان السيد بيرمانيدر في كل مرة يلح الحاحا شديدا في وجوب مساعدتها ، لكنه كان يحجم مع ذلك عن هذه المساعدة لأنه يخشى دخول المركبة والخروج منها ٠

وكانت ايريكا تبتهج بكل غراب يطير ، وايدا يونجمان التى كانت كعادتها ترتدى معطف مطر طويلا مفتوحا فى الجو الأمين ، وتحمل مظلة ، كانت توافق بوصفها مربية أطفال حقة وتماشي حالات الأطفال النفسية لا في الظاهر فحسب بل تشعر كذلك بشعورهم وتسايرهم بضحكة صاهلة في غير تهيب ، حتى أن جيردا التى لم ترها وهى تشيب فى أحضان الأسرة ، كانت تتأملها مرارا وتكرارا بشىء من البرود والدهشة ٠

وبلغوا ناحية هامبورج وتراءت أشجار الزان ، وسارت المركبة تخترق الناحيه عبر ميدان السوق بفسقيته ، ثم بلغت العراء ثانية ودرجت عبر الجسر القائم على النهير ٠ ووقفت أخيرا أمام محل « حرج المارد » المؤلف من طبقة واحدة ٠ وكان يقع على جانب من ميدان منبسط يغطى الكلأ مساحات منه ، وتخترقه ممرات رملية وأحواض من النبات ؛ وفى الجانب الآخر من الميدان ترتفع الغابة على هيئة مدرج تتصل كل من طبقاته بالأخرى بدرج مرصوف رصفا غير متقن استعملت فيه جذور أشجار ناتئة وحجارة بارزة ، وصفت على طبقات المدرج بين الأشجار موائد مدهونة بالأبيض ومقاعد مديدة ، وكراسى ٠

ولم يكن آل بودنبروك أول الضيوف ، وكانت بضع فتيات بدينات ، وندل أيضا يرتدى فراكا مدهنا ، يرحن ويغدين مسرعين فوق الميدان يحملن الأطعمة الباردة والمشروبات المرطبة واللبن والبيرة الى الموائد القائمة فى على يجلسن اليها عدة أسر بأطفالها على مسافات متباعدة ٠

وتقدم السيد ديكمان صاحب المحل نفسه بطاقيته المطرزة بالأصفر وأكمام قميصه المرفوعة الى باب المركبة ليعاون السادة على الهبوط ، وبينما انتحى لونجيه بالمركبة جانبا قالت القنصلة : « سنقوم الآن أولا بنزهة على الأقدام أيها الرجل الطيب ، ونحب بعد ساعة أو ساعة ونصف أن نفطر فليكن تقديم الأكل الينا هناك من فضلك ولا يكن مجلسنا أعلى مما ينبغى ؛ وأرى أن يكون فى الطبقة الثانية ٠٠٠ »

وزاد القنصل على ذلك قوله : « أرنا همتك ياديكمان فمعنا ضيف مدلل ٠٠٠» فاحتج السيد بيرمانيدر قائلا : « أبدا ، بيرة وجبن ٠٠٠ »

بيد أن السيد ديكمان لم يفهم هذا بل أخذ يعدد بطلاقة سيالة : « كل ماهنا يا حضرة القنصل ٠٠٠ كابوريا ، جنبرى ، مقانق منوعة ، أجبـان مختلفة ، ثعبان بحر مدخن وحوت سليمان مدخن وحنش مدخن ٠٠٠ »

« حسنا ياديكمان ٠ سنفعل هذا ، وعندئذ تعطينا ستة أكواب من اللبن وبيرة سيدل اذا لم أخطيء يا سيد بيرمانيدر ، أليس كذلك ؟ ٠٠٠ »

« بيرة واحدة ، وستة لبنا ٠٠٠ لبنا محلى ، لبنا بالزبد ، لبنا رائبا ، لبنـا زباديا ياحضرة القنصل ٠٠٠ »

« نصف ونصف ياديكمان ، لبنا محلى ولبنا بالزبد بعد ساعة اذن ٠ »

وعبروا الميدان ٠

وقال توماس : « علينا أولا أن نزور المنبع ياسـيد بيرمانيدر ، هو منبـع « أو » ٠ والأو هو النهير الصغير الذى تقع عليه شفارطاو والذى كانت تقـع عليه مدينتنا فى الأصل فى العصر الوسيط المظلم الى أن احترقت ــ وما كانت لتدوم طويلا ــ ثم أقيمت ثانية على نهر ترافيه ٠ هذا الى أنه قد اقترنت باسم النهر ذكريات أليمة ، فقد كنا ونحن أطفال نجد من المضحك أن يقرص أحدنا الآخر فى ذراعه وهو يسأله : « ما اسم النهر القريب من شفارطاو ؟ فيصرخ المقروص بطبيعة الحال من الألم ناطقا الاسم رغم أنفه ٠٠٠ » وقاطع توماس نفســه فجأة وهو على مبعدة عشر خطوات من المصعد قائلا : « هنــاك ! لقد سبقونا ٠ هاهم أولاء آل مولندروف وهاجنشتروم ٠ »

وفى الواقع لقد كان فوق فى الطبقة الثالثة من الشرفة المشجرة أهم أعضاء الأسرتين المتآصرتين على ما ينفعهما ، جالسين الى مائدتين متلاصقتين يأكلون فى حديث حفى ٠ وكان يرأسهم السناتور مولندروف وهو سيد شاحب اللون ذو لحية عارضية بيضاء رفيعة ، مدببة ، مريض بالسكر ٠ وكانت زوجه وهى من أسرة لانجهالز تحرك نظارتها ذات المقبض الطويل يحيط الشعر الأشيب برأسها منفوشا كما هى عادتها ٠ وكان ابنها أوغست موجودا وكان شابا أشقر الشعر ، حسن الهندام ، متزوجا من چوليا هاجنشتروم التى كانت تجلس بين أخويها هرمان وموريتس صغيرة نشطة ذات عينين واسعتين لامعتين سوداوين ، فى أذنيها ماستان كبيرتان فى مثل حجمهما تقريبا ٠ وقد جعل القنصل هرمان

هاجنشتروم يزداد بسطة فى الجسم لانه يعيش عيشة الترف · ويقال انه يبدأ فى الصباح بهريسه لبد ادور · وكانت له لحية سمراء ضاربة الى الاحمرار يحتفظ بها قصيرة ، وأنفه ـ وهو أنف أمه ـ مفرطح فوق شفته العليا بشكل يلفت النظر · اما الدكتور مورتس وهو مسطح الصـــدر ، مصفر اللون ، فكان يبدى فى حديثه أسنانه الحادة الفالجة · وكان مع الاخوين زوجتاهما ، ذلك أن رجل القانون أيضا كان متزوجا منذ سنين من الآنسة بوتفاركن من هامبورج · وهى سيدة ذات شعر بلون الزبد ، وملامح وجه منتظمة خالية كل الخلو من الانفعالات ، مظهرها انجليزى لكنها رائعة الجمال · ذلك أن المعروف عن الدكتور هاجنشتروم أنه مثقف فلا يمكن أن يجمع بين ذلك وبين الزواج من فتاة دميمة · وأخيرا كانت ابنـــة هرمان هاجنشتروم الصغيرة وابن مورتس هاجنشتروم الصغير حاضرين · وهما طفلان يرتديان ملابس بيضاء كأنهما من الآن خطيبان، فلم يكن ينبغى أن تتبدد ثروة هونيوس وهاجنشتروم · ـ وقد تناول الجميع بيضا مخفوقا بلحم الخنزير ·

وقد حيا أولئك هؤلاء لما أن أصبح آل بودنبروك وهم يصعدون على مقربة من هذه الجماعة ، فأحنت القنصلة رأسها قليلا وهى مشتتة الفكر متعجبة فى نفس الوقت ، ولوح توماس بقبعته محركا شفتيه » كأنما يقول شيئا فيه مجاملة وفيه برود · وانحنت جيردا انحناءة الغريب من قبيل الرسميات · أما السيد بيرمانيدر وقد حركه الصعود فطوح بقبعته الخضراء غير هياب ، وصاح بصوت مرتفع مرح : « أتمنى لكم صباحا سعيدا ! » ـ فتناولت السناتورة مولندروف على الأثر نظارتها ··· بقيت تونى وهذه رفعت كتفيها قليلا وأطرحت رأسها الى الخلف وحاولت مع ذلك أن تضغط ذقنها على صدرها ، وحيت ، متنزلة من علو لا يدرك ، متخطية بالضبط قبعة چوليا مولندروف الأنيقة العريضه الحافة ··· فى هذه اللحظة رسخ تصميمها نهائيا لا يتزعزع ···

« الحمد لله ياتوم وألف حمد ، اننـــا لن نفطر الا بعد ساعة ! فاننى لا أحب أن ترعانى چوليا هذه على الأكل ، ··· هل لاحظت كيف حيت ؟ كأن لم تحى تقريبا · وقد كانت قبعتها فى رأيى الذى لا يعتد به ، عديمة الذوق الى أبعد حد ··· »

« أما ما يتعلق بالقبعة ··· أما التحية فلم تكونى أنت أيضـــا أكثر منهـــا تسامحا ياعزيزتى · على أنه لا داعى الى سخطك ، فالسخط يحدث التجاعيد · »

« أسخط ياتوم ؟ كلا ! واذا زعم هؤلاء الناس أنهم فوق الغير لكان هذا باعثا على الضحك لا على شىء آخر · فأى فرق بين چوليا هذه وبينى اذا جاز لى أن أسأل ؟ انها لم تتزوج لصا بل تزوجت عتلا كما يمكن أن تقول ابدا · فلو كانت

شغلت فى الحياة مكانى لكان عليها أن تثبت هل تقع على زوج نان ٠٠٠ »
« ما معنى آنك ستعين من جانبك على زوج ؟ »

« على عتل يا توماس ؟ »

« خير جدا من لص ٠ »

« لا ضرورة أن يكون هذا أو ذاك ٠ لكنه لا يصح الكلام فى هذا ٠ »

« صحيح ٠ وقد تخلفنا أيضا ٠ والسيد بيرمانيدر يصعد بهمة ٠٠٠ »

وانبسط طريق الغابة الظليل ، ولم يطل وقت الوصول الى المنبع ٠ وهى بقعة جميلة رومانتيكية ، فيها جسر خشبى قائم فوق هوة صغيرة ، ومنحدرات ذات وهاد وأشجار معلقة قد انكشفت أصولها ٠ وجعلوا يغترفون بقدح فضى متداخل أحضرته القنصلة معها ، من حوض حجرى صغير يقع رأسا تحت المخرج وينعشون أنفسهم بالماء المتجدد المشتمل على الحديد ٠ والسيد بيرمانيدر فى هذا قد أصابته نوبة من الكياسة ، فهو يصر على أن تذوق مدام جرينليش مشروبه قبل أن يحتسيه ٠ لقد كان شاكرا كل الشكر ، يكرر القول بأن هـذا بديع ، ويتحدث فى انتباه والتفات مع القنصـلة وتوماس ، ومع جـيردا وتونى على السواء ، بل مع الصغيرة ايريكا أيضـا ٠٠٠ حتى جـيردا التى كانت الى الآن تعانى من التورد المفاجىء وينتابها اضطراب عصبى صامت جامد ، بدأت الآن تنتعش ٠ ولمـا بلغوا المعظم نانية بعد عودة عاجلة ، وجلسوا حول مائدة زاخرة فوق الطبقة الثانية من مدرج الغابة ، كانت هى من أبدى أسفه بعبارات ودية من أن سفرالسيد بيرمانيدر قد بات بهذا القرب : الآن وقد عرف الواحد الآخر بعض المعرفة وأصبح من السهل جدا على سبيل المثـال أن يلاحظ أن ماتسببه اللهجة العامية من سوء الفهم أو عدمه قد بات أندر مما كان ٠٠٠ انها ليمكن أن تكون على رأس من يزعم أن صديقتها ونسيبتها تونى قد قالت بالعامية كلمـة « حاشا لله » مرتين أو ثلاثا فى اتقان الأستاذ ٠

وقد تفادى السيد بيرمانيدر من أن يجيب أى جواب يؤكد كلمة « السفر » ، بل حرص على التهافت على اللذاذات التى حفلت بها المـائدة والتى لم تكن مما يتيسر له كل يوم فى ذلك الجانب من نهر الدانوب ٠

وكانوا يلتهمون الأطايب فى رفق ، وكانت ايريكا الصغيرة أشد فى الغالب سرورا بالفوط المصنوعة من الورق الحريرى التى كانت تبدو لها مما لا تدانيه

فوط المنزل المنسوجة من التيل ، فدست منها فى جيبها بعد استئذان الندل بضعا على سبيل التذكار • وجلست الأسرة مع ضيفها وقتا أطول تتحدث اليه ، بينما كان يدخن فى تلك الأثناء العديد من السيجار الأسود وهو يتناول البيرة، ويدخن القنصل لفائف تبغه ؛ ـ بيد أن الجدير بالملاحظة أن أحدا لم يعد يفكر فى رحيل السيد بيرمانيدر ، وأن المستقبل لم يتناول بكلمه • وأولى من هذا تبادلهم الذكريات وتحدثهم عن الحوادث السياسية فى السنوات الأخيرة • وبعد أن اهتز السيد بيرمانيدر من الضحك على نوادر وقعت فى سنة ١٨٤٨ مما حكته القنصلة عن المرحوم زوجها بدأ هو يقص عن ثورة ميونيخ وعن لولامونتز التى أثارت اهتمام مدام جرينليش الى أقصى حد • لكنه لما تقضت الساعة الأولى بعد الظهر شيئا فشيئا وعادت ايريكا مجهدة محملة بأنواع الأزهار والأعشاب والحشائش من جولة مع ايدا ، وذكرتهم بجوز الزنجبيل الذى كان عليهم أن يشتروه نهض الجميع للقيام بجولة فى المكان ••• بعد أن دفعت القنصلة الحساب بقطعة ذهبية ليست بالصغيرة ، اذ كان الجميع اليوم ضيوفها •

وقد صدر الأمر أمام المحل بأن تكون المركبة جاهزة بعد ساعة ، ذلك أنه أريد أن ينعموا بالراحة قليلا فى المدينة قبل المائدة ، ثم ساروا متمهلين لأن الشمس كانت صاخدة فوق التراب ، واتجهوا نحو البيوت المنخفضة فى تلك البقعة •

وانتظم الترتيب من نفسه بعد جسر « أو » مباشرة من دون تكلف واستمر على حاله أثناء الطريق ؛ فسارت الآنسة يونجمان فى المقدمة لاتساع خطاها وبجانبها ايريكا التى لم يدركها التعب من القفز، ولم تكف عن اصطياد فراشة الكرمب ، ثم تبعتها القنصلة وتوماس وجيردا معا ، وآخرا ، وعلى بعد ما مدام جرينليش والسيد بيرمانيدر • وكانت تقوم فى المقدمة ضجة من هتاف الفتاة الصغيرة ومصاحبة ايدا لها بصهيلها الغريب فى عمقه المنطوى على الطيبة • وفى الوسط كان الثلاثة يلازمون الصمت ، لأن جيردا كانت قد عاودها اليأس بصورة عصبية من جراء الغبار ، ولأن القنصلة وابنها كانا يفكران • كذلك كان الهدوء يسود المؤخرة ••• ولكن فى الظاهر ، لأن تونى والضيف القادم من بفاريا كانا يتحدثان حديثا مكتوما خاصا • ـ فعم كانا يتكلمان ؟ عن السيد جرينليش •••

فقد لاحظ السيد بيرمانيدر ملاحظة سديدة هى أن ايريكا لطيفة ، وطفلة حبيبة جميلة ، لكنها على الرغم من ذلك تكاد لا تشبه السيدة أمها • فأجابت تونى على هذه الملاحظة بقولها : « انها أبوها بالضبط » • ويمكن القول بأن هذا ليس مما يضيرها لأن جرينليش كان فى الظاهر رجلا ماجدا ـ (جنتلمان) فى كل

ماهو حقيقى ! فقد كانت له لحية عارضية ذهبية اللون فريدة كل الفرادة ، ولم أر قط مايشاكلها ٠٠٠ » ومع أن تونى كانت قد قصت عليه حكاية زواجها عند نيدر باور بميونيخ ولم تغفل منها شيئا تقريبا ، فقد عاد يستعلم كرة أخرى عن كل شيء ويتحرى بالتفصيل عن كل تفاصيل الافلاس وهو يطرف بعينيه قلقا مشاطرا اياها ٠

قالت : « لقد كان انسانا رديئا ياسيد بيرمانيدر أو لما استردنى أبى منه ٠ صدقنى فى هذا ٠ وليس كل الناس فوق هـذه الأرض طيبى القلب ، فهـذا ما علمتنى الحياة اياه ، على الرغم من أنى ما زلت شابة بهذا القدر ، وأنى لبثت منذ عشر سنوات بلا زواج أو مايشبه ذلك ٠ لقد كان رديئا ، وكان مصرفيـه كيسلماير شرا منه ، وكان غبيا كل الغباوة كالكلب الصغير٠ لكن هذا لا ينبغى أن يعنى أنى أعد نفسى ملكا وأنى مبرأة من كل عيب ٠٠٠ فلا تسيء فهمي! لقد أهملنى جرينليش فكان اذا جلس مرة معى ينصرف الى قراءة الصحف ، وكان يخاتلنى ويدعنى ألازم ايمز بيتل لأنى كنت خليقة فى المدينة أن أعرف المستنقع الذى يتردى فيه ٠٠٠ لكننى لست سوى امرأة ضعيفة ، ولى أخطـائى ، وأنا واثقة من أنى لم أحسن التصرف دائما ٠ ولأضرب لك مثلا : لقد أعطيت زوجى سببا للهم والشكوى برعونتى وميلى للاسراف وتعلقى بأردية النوم الجديدة ٠ لكنى يصح أن أضيف الى ذلك شيئا هو أن لى عذرى ، فقد كنت ما أزال طفلة حين تزوجت ، كنت مخلوقة غبية بلهاء ٠ فهل تصدق على سبيل المثال ، أنى لم أعلم الا قبيل خطبتى أنه جددت قبلها بأربع سنوات أربعة قوانين للاتحـاد تتناول الجامعات والصحافة ٠ وهى على فكرة قوانين جميلة !٠٠٠ أى نعم ، ان من المحزن حقا أن يعيش المرء مرة واحدة ياسيد بيرمانيدر ، وأنه لا يستطيع أن يبدأ الحياة مرة أخرى ؟ فلو استطاع لكان خليقا أن يكون أحسن تصرفا من ذى قبل ٠٠٠ »

وسكتت وخفضت من بصرها فوق الطريق قلقة ، اذ أتاحت له فى خرق نقطة ارتكاز ، ذلك أن التفكير كان قريبا من أنه ، ان كان بدء حياة جديدة كل الجدة محالا ، لم يكن بدء زواج جديد خير من الأول من المحال ٠ بيد أن السيد بيرمانيدر ترك الفرصة تمر ، واجتزأ بأن ينحى على السيد جرينليش بألفـاظ شديدة نفرت فى أثنائها « الشامة » التى على ذقنه الصغير المستدير ٠٠٠ «هذا المخلوق التافه ، البغيض ، الكلب ــ هذا الوغد الذى أتمنى لو لطمته ٠ »

« خسئا ياسيد بيرمانيدر : لا ، لا ٠ يجب أن تكف عن ذلك ٠ اننا نريد أن نصفح وننسى ٠ ولندع لله أمره فهو المنتقم وحده ٠٠٠ سل أمى ٠٠٠ وقانا الله ٠٠٠ انى لا أعلم أين يقيم جرينليش ، وما حاله فى الحياة ، لـكنى أرجو له كل خير وان لم يستحق ٠٠٠ »

وبلغا المكان ، وكانا فيه يقفان أمام البيت الصغير الكائن فيه دكان الخباز • وكفا عن السير من دون أن يشعرا تقريبا ، ورأيا بأعين جادة شـــاردة ايريكا وايدا والقنصلة وتوماس وجيردا منحنين يختفون من خلال باب الدكان المنخفض بشكل غريب دون أن يسأل احدهما الآخر كيف كان ذلك • فقد كانا منهمكين الى هذا الحد في حديثهما ، لم يتناولا فى هذا الحديث الى ذلك الحين سوى أشياء سطحية ليس فيها غناء •

وكان الى جانبيهما سياج يجرى على امتـــداده حوض مزروع مستطيل ضيق، تنمو فيه بليحاء وتحرث مدام جرينليش تربته الرخوة السوداء بطرف مظلتها بنشاط زائد ، ورأسها الذى كان يجرى فيه الدم حاميا ، مائل الى جنب• وكان السيد بيرمانيدر واقفا ملاصقا لها ، قد انحدرت قبعته الصغيرة الخضراء المزدانة بلحية التيس فوق جبينه ، يشترك هنا وههنا فى العبث بعصاه بخندق الحوض• وكذلك هو كان مطأطئا رأسه ، لكن عينيه الصغيرتين الرائقتين فى زرقتهما ، المنتفختين ، اللتين غمرهما اللمعـــان وانتابهما الاحمرار قليلا ، كانتا تنظران اليها من تحت الى فوق بمزيج من الاخلاص والكدر والقلق ، نفس التعبير الذى كان يتدلى به فوق فمه شاربه المفتل ••

قال : « ها أنت ذى تخشين الزواج ، ولاتريدين محاولته مرة أخرى أليس كذلك يا مدام جرينليش ••• ؟ »

فقالت فى نفسها : ما أقل لباقته ! أيجب أن أؤكد وأجابت : « أجل ياسيد بيرمانيدر ، انى أعترف صراحة أنه سوف يشق على أن أقول لأحد « نعم » مرة أخرى ، لأرتبط مدى الحياة • ذلك أنى تعلمت أن مثل هذا القرار بالغ الجد• ثم ان الأمر يتطلب الى هذا اقتناعا ثابتا بأن الأمر أمر رجل حكيم حقا ، كريم ، طيب القلب •• »

وهنا سمح لنفسه بأن يسألها هل تعده مثل هذا الرجل ، فأجابت : « نعم ياسيد بيرمانيدر ، انى أعدك مثل هذا الرجل »

ثم تلا ذلك بضع كلمات خافتة وجيزة تتضمن العهد ، وللســـيد بيرمانيدر الاذن بأن يخاطب فى الأمر القنصلة وتوماس فى البيت ••

ولما عاد بقية أعضاء الجماعة الى الظهور فى العراء محملين بعدة قراطيس من حوز الزنجبيل أجال القنصل عينيه خفية فوق رأس الاثنين • ذلك أنهما كانا شديدى الارتباك : السيد بيرمانيدر من دون أن يحاول اخفـــاء ذلك ، وتوني مصطنعة وقارا يقرب من الجلال •

وأسرع الجميع الى اللحاق بالمركبة ، لأنالسماء كانت ملبدة بالغيوم وبعض المطر كان يساقط ٠

**

كان توماس كما افترضت تونى قد قام بعد حضورالسيد بيرمانيدر بقليل ، بتحريات دقيقة عن مركزه فى الحياة أسفرت عن أن « اكس ٠ نويه وشريكه » متجر محدود نوعا ما ، لكنه متين كل المتانة ، وأنه بالاشتراك فىالعمل مع شركة البيرة المساهمة التى يترأسها السيد نيدرباور كمدير يربح ربحا طيبا ، وأن نصيب السيد بيرمانيدر اذا ضم اليه بائنة تونى وهى ١٧٠٠٠ ريال ، يضمن لهما حياة مشتركة مما يحياها موسرو الطبقة الوسطى من دون ترف ٠ وقد أحيطت القنصلة علما بذلك ، وسويت كل المسائل من دون عقبات فى حديث مفصل جرى بينهما وبين السيد بيرمانيدر وانتونيا وتوماس مساء يومالخطبة فى حجرة المناظر الطبيعية ٠ وقد تناولت هذه المسائل ايريكا الصغيرة التى تقرر بناء على رغبة تونى وموافقة من خطيبها كان لها أثر طيب فى النفس ، أن تنتقل بالمثل الى ميونيخ ٠

وبعد ذلك بيومين سافر تاجر حشيشة الدينار ــ « حتى لا يسب نويه » ــ ، لكنه فى شهر يوليه عادت مدام جرينليش معه بالفعل الى مدينة آبائه مع توم وجيردا التى رافقتها الى حمام كرويت لأربعة أسابيع أو خمسة ، بينما بقيت القنصلة مع ايريكا وايدا يونجمان على بحر البلطيق ٠ هذا الى أنه قد عرضت لكلا الزوجين فى ميونيخ فرصة معاينة البيت الذى كان السيد بيرمانيدر على وشك أن يشتريه فى شارع كاوزنجر ــ وهو قريب جدا من آل نيدر باور ، وكان السيد بيرمانيدر ينوى أن يؤجر معظمه ٠ بيت غريب ، قديم ، له درج ضيق يؤدى خلف الباب رأسا وفى خط مستقيم الى الطبقة الأولى من دون بسطة أو تعريج كأنه سلم الى السماء ٠ فاذا بلغ المرء هــذه الطبقة عرج من الجانبين الى الخلف عبر الطرقة الى الحجرات الواقعة على الواجهة ٠

وفى منتصف أغسطس عادت تونى الى بيتها لتتوفر على اعداد جهازها خلال الأسابيع التالية ٠ وقد كان الكثير منه موجودا منذ عهد زواجها الأول ، لكنه كان لابد من اكماله بمشتريات جديدة ٠ وفى يوم من الأيام وصل من هامبورج حيث تستورد بعض أشيائها ، رداء نوم بالذات ، غــير مكلف بالمخمل طبعا ، لكنه مستكمل بأشرطة من القماش ٠

وفى أوان متقدم من الخريف عاد السيد بيرمانيدر الى شارع منج ، اذ لم يرد ارجاء الموضوع أطول من ذلك ٠٠٠

أما ما يتعلق بحفلات الزفاف فقد مرت كما توقعت تونى بالضبط وكما لم ترد غيره ، من دون اسراف • فقد قال القنصل : « دعونا من الفخفخة • فأنت تتزوجين للمرة الثانية ، والمسألة من البساطة بحيث يمكن أن تعدى كما لوكنت لم تكفى قط عن أن تكونى زوجة • » اللهم الا القليل من بطاقات الخطبة ، وقد حرصت مدام جرينليش على أن تتلقى احداها جوليا مولندروف — وهى من أسرة هاجنشتروم • وقد غض الطرف عن رحلة شهر العسل لأن السيد بيرمانيدر كان يكره مثل هذا • وتونى ، وقد عادت من أمد قريب من المصيف ، قد وجدت أن السفر الى ميونيخ أبعد مما يجب • أما الزواج الذى لم يجر هذه المرة فى بهو الأعمدة بل كان مكانه فى كنيسة مريم ، فقد تم فى دائرة عائلية ضيقة • وقد ازينت تونى بزهر البرتقال بدلا من الآس وكان عليها سيماء الوقار • ووعظ كبير القسس كولنج بصوت أوهن بعض الشىء من ذى قبل ، ولكن فى عبارات قوية ، وعظ بالاعتدال كمألوف عادته •

وقد عاد كريستيان من هامبورج أنيق الملبس الى حد بعيد ، متوعكا بعض الشىء لكنه مرح ، يروى أن عمله مع بورمستر على مايرام ، ويعلن أنه وكلوتيلده سيتزوجان أول ما يتزوجان « هنـاك فوق » لـكن « كل لذاته ! » وجـاء الى الكنيسة متأخرا جدا ، لأنه كان فى المنتدى • وقد تأثر الخال يوستوس جدا ، وكان كريما كعادته حين أهـدى الى الزوجين الحديثين صينية صينية من الفضـة الثقيلة ، جميلة جدا ••• وكان وزوجه يتضوران فى البيت جوعا تقريبا ، لأن الأم الضعيفة كانت تدفـع من مخصصات المنـزل كعادتهـا دائمـا ديون يعقوب المطـرود ، المحروم من أمد من الميـراث ، والمقيم على ما اتصـل بهم فى باريس فى الآونة الراهنة • — وقد لاحظت سيدات بودنبروك القاطنات فى الشارع العريض : «لعلها تثبت هذه المرة •» والسىء فى هذا هو شك الجميع فى هل كن يتمنين هـذا حقا ••• وقد همت زيزيى فيشـبروت على أطراف أصابعها وقبلت تلميذتها التى أصبحت من الآن مدام بيرمانيدر فى قرقعـة خفيفة فوق جبينها وقالت بألفاظها العامرة بالاخلاص : « لتكن السعادة من نصيبك أيتها الطفلة الطيبة ! »

الفصل السابع

فى تمام الساعة الثامنة صباحا جعل القنصل بودنبروك بمجرد أن غادر الفراش ونزل من الدرج الحلزونى خلف البوابة الصغيرة الى القبو ، وأخذ حماما ، وارتدى رداء نومه ثانية ـ جعل يشتغل بأمور عامة ، اذ ظهر عندئذ السيد فنتسل الحلاق وعضو مجلس المواطنين فى حجرة الحمام ، بيديه الحمراوين ووجهه الذكى يحمل قدرا فيه ماء دافىء أحضره من المطبخ واليه اللوازم الأخرى • وبينا جلس القنصل طارحا رأسه الى الوراء فى كرسى ساند كبير أخذ السيد فنتسل يرغى الصابون ويتجاذب معه أطراف الحديث جريا على عادته دائما تقريبا ، مبتدئا براحة الليل والجو ، متنقلا بعد ذلك الى حوادث العالم الكبير ، متناولا على الأثر شئون المدينة الخاصة • وكان من شأن هذا كله أن يطيل أجل مهمته اذ كان لابد للسيد فنتسل كلما تكلم القنصل أن يرفع الموسى عن وجهه •

« هل نمت جيدا يا حضرة القنصل ؟ »

« شكرا يا فنتسل • الجو حسن اليوم ؟ »

« صقيع ، وقليل من الضباب الثلجى ياحضرة القنصل • وقد اختط الأطفال ثانية محطة تزحلق فى شارع چاكوب طولها عشرة أمتار حتى لقد كدت أرتطم بها وأنا قادم من عند المحافظ • لعنهم الله ! ••• »

« هل قرأت الصحف ؟ »

« الاعلانات وأنباء هامبورج ، نعم • وليس فيها سوى قنابل أورسينى ••• شىء مخيف • وفى الطريق الى دار الأوبرا ••• جماعة لطيفة ••• »

« أظن ألا أهمية لذلك ، فليس للشعب دخل به • ولن يكون له من تأثير سوى مضاعفة رجال البوليس وزيادة الضغط على الصحف وما شاكل ••• انه على حذر ••• وهذا اضطراب أبدى حقا ، ذلك أنه لابد له على الدوام من اللجوء الى مشروعات للثبات فى وجه الأحداث ، لكنى أحترمه مهما يكن من أمر • ولا يسع المرء على الأقل أن يتهاون فى التقاليد كما تقول الآنسة يونجمان •

وقد أعجبني في الحق ما أتخذ حيال صندوق المخابز وأسعار الخبز الرخيصة على سبيل المثال ٠ انه يعمل الكثير للشعب بلا مراء ٠٠٠ »

« نعم هذا ما قاله أيضا السيد كيستنماكر من قبل ٠ »

« ستيفان ؟ نعم لقد تكلمنا أمس في ذلك ٠ »

« وفريدريك ڤلهلم ملك بروسيا ٠ ان حالته سيئة ياحضرة القنصل ٠ ولن يصبح بعد شيئا مذكورا ٠ انهم يقولون ان الأمير ينبغي أن يكون الوصي نهائيا ٠٠٠ »

« أوه ٠ ترى ماذا يكون من هذا الأمر ٠ لقد ظهر من الآن بمظهر الرجل الحر ، ڤلهلم هذا ٠ وهو على التحقيق لا يقف من الدستور موقف المشمئز الخفي الذي وقفه أخوه ٠ وليس في النهاية سوى الأسى ما يجنيه هذا الرجل المسكين ٠٠٠ هل من جديد في كوبنهاجن ؟ »

« لا شيء ياحضرة القنصل ٠ انهم لا يريدون ٠ لقدْ أعلن الاتحاد أن الدستور العام لهولشتين ولاونبورج غير شرعي ٠٠٠ وأولئك الذين هم في عليائهم ليسوا بكل بساطة ممن يحملون على الغائه ٠٠٠ »

« نعم يا ڤنتسل ٠ ان هذه لبلية ٠ انهم يتحدون البند ستاج أن ينفذ ، آه لو كان على شيء من الهمة ٠٠٠ أجل هؤلاء الدنيماركيون ! اني لأذكر جيدا كيف كان يضايقني وأنا غلام صغير شطرة من الشعر الغنائي مطلعها : « هبني وهب كل الذين* يشتاقون من القلب » ٠ فكنت أتخيل الدنيماركيين هم المعنيين « بالذين » ولا أتصور كيف يهب الله الدانيماركيين شيئا ٠٠٠ »

« انتبه الى الموضع المعاكس يا ڤنتسل ! أتضحك ؟ والآن ثانية الى سكة حديد هامبورج المباشرة ٠ لقد كلفتنا كفاحا ديبلوماسيا ، وستكلفنا ذلك حتى يمنحونا في كوبنهاجن الامتياز ٠٠٠ »

« أجل ياحضرة القنصل ٠ والسخيف أن شركة سكة التونا ــ كيل الحديدية وهولشتين بأسرها اذا أنعمنا النظر ، تعارضان ٠ هذا ما قاله المحافظ الدكتور أوڤر ديك أيضا من قبل ٠ فان خوفهم لشديد من نهضة كيل ٠٠٠ »

(*) « للذين » تكتب بالألمانية denen وكلمة « الدانيمركيون » تكتب Daenen ونطق الكلمتين واحد ، ومن هنا اللعب بالألفاظ ٠

« مفهوم يا فنتسل • فمثل هذا الربط الجديد بين بحر البلطيق وبحر الشمال ••• وسترى أن شركة التونا ـ كيل لن تكف عن الدس ، ففى امكانها مد سكة للمزاحمة فى شرق هولشتين أو بين نويمنستر ونويشتات • أجل ، فهذا ليس بمستحيل • لكنه لايصح أن نتراجع ، والسفر مباشرة الى هامبورج مما يجب أن يتم • »

« ان حضرة القنصل يناصر المشروع بحرارة • »

« مادام هذا فى استطاعتى ، وعلى قدر ما يصل اليه نفوذى الضئيل ••• انى مهتم بسياستنا الخاصة بالسكك الحديدية ، وهذا تقليد عندنا ، فقد كان أبى فى مجلس ادارة سكة بوخن منذ سنة ١٨٥١ • وهذا هو السبب فى أنى قد أنتخبت لهذا المجلس وأنا فى الثانية والثلاثين • وما لى من أعمال فيه ليس بعد بالكثير ••• »

« أوه ، ياحضرة القنصل ، بعد خطبة حضرة القنصل آنئذ فى مجلس المواطنين ••• »

« حقا لقد كان لهذه الخطبة بعض الوقع • والارادة الحسنة موجودة على كل حال • ولا يسعنى الا أن أشكر الله على أن أبى وجدى وجدى الأكبر قد مهدوا لى الطريق ، وأن ما أحرزوه من ثقة واعتبار فى المدينة قد انتقل الى بلا عناء ، والا لما وسعنى أن أقوم بما أقوم به ••• فما الذى ، على سبيل المثال ، لم يعمله أبى بعد سنة ١٨٤٨ وفى بداية هذه السنوات العشر لاصلاح البريد عندنا ! فكر يافنتسل كيف حث مجلس المواطنين على توحيد مركبات هامبورج السريعة والبريد ، وكيف أنه فى سنة ١٨٥٠ حث فى مجلس الشيوخ الذى كان اذ ذاك فى حالة من البطء لا تتفق ومسئوليته كل الاتفاق ، على الانضمام الى اتحاد البريد الألمانى النمسوى ••• فاذا كان قد بات لنا الآن تعريفة منخفضة للرسائل والطرود وطوابع البريد وصناديقه والمواصلات التلغرافية مع برلين وتراڤيمنده ، فانه ليس بآخر من يشكر على ذلك • واذا لم يكن هو وآخرون ألحوا على مجلس الشيوخ الحين بعد الحين لكنا لبثنا الى الأبد متخلفين عن البريد الدنيماركى ويريد تورن وتاكس • والآن اذا ما أبديت رأيى فى مثل هذه المسائل وجدت من يستمع الى ••• »

« هذا ما يعلمه الله ياحضرة القنصل ، ان حضرة القنصل يقول الصدق • أما مايتعلق بسكة حديد هامبورج فانه لم تمر ثلاثة أيام على قول المحافظ الدكتور أوفر ديك لى : لو أصبحنا بحيث نستطيع شراء قطعة أرض لمحطة السكة الحديدية فى هامبورج ، فسنرسل القنصل بودنبروك مع من نرسل ، فالقنصل بودنبروك يحتاج اليه فى مثل هذه المفاوضات أكثر مما يحتاج الى آخرين قانونيين ••• هذه كانت كلماته ••• »

« ان هذا اطراء شديد لى ــ لكن ضع هنا فوق الذقن بعضا آخر من الرغوة فيجب أن ينعم هذا الموضع أكثر ٠ »

« صفوة القول أننا يجب أن نعمل ! لاشيء ضد أوقرديك ، لكنه الآن قد بلغ السن، فلو أصبحت محافظا لسار كل شيء أسرع قليلا مما يسير ٠ هذا ما أراه ٠ ولست أستطيع أن أقول أية ترضية أحسها من أن أعمال الاضاءة بالغاز قد بدأت ، وأن مصابيح الزيت الخطرة بسلاسلها تختفى أخيرا ٠ ولى أن أعترف بأنى ساهمت بعض الشيء فى هذا النجاح ٠٠٠ وأى شيء غير موجود للعمل ! ان الوقت يتغير ياقنتسل ، وعلينا الكثير من الواجبات نحو العصر الجديد ٠٠ واذا أنا فكرت فى صباى الأول ٠٠٠ أنت تعرف خيرا منى كيف كانت الأمور تجرى عندنا : الشوارع بلا أرصفة ، والحشائش نابتة بين قطع البلاط ، وللبيوت مبان أمامها ، وبها ملاحق ومقاعد ٠٠٠ ومبانينا التى ترجع الىالقرون الوسطى قد قبح شكلها بما زيد عليها ، وتفتت بعضها » ذلك أن الناس أفرادا كان عندهم مال ، ولم يكن منهم من يجوع ، لكن الدولة كانت فقيرة ، وكل شيء كان يجرى مجراه كما يقول صهرى بيرمانيدر » ولم يكن يفكر فى اصلاح ٠ كانت اذ ذاك أجيال سعيدة تعيش فى رغد ، وكان صديق جدى الحميم چان جاك هوفشتيده الطيب يتجول متنزها ويترجم أشعارا غير لائقة عن الفرنسية ٠٠٠ لكنه لم يمكن على الدوام أن تجرى الأمور على هذا المنوال ٠ فقد تغير الكثير وسيتغير دائما أكثر ٠٠٠ فلم يعد عدد سكاننا ٢٧٠٠٠ بل أصبح فوق الخمسين ألفا كما تعلم ، وطبيعة المدينة تتغير ٠ فعندنا مبان جديدة ، وعندنا الضواحى الممتدة والشوارع الجيدة ، ونستطيع أن نعيد تماثيل عصرنا العظيم الى أصلها ٠ بيد أن هذا فى النهاية انما هو فىالظاهر فحسب ٠ ولايزال معظم ماهو أهم باقيا لم يتم ياعزيزى ڤنتسل ٠ ها أنذا قد وصلت ثانية الى ما كان يقول المرحوم والدى : هذا رأيى ٠ الاتحاد الجمركى ياڤنتسل يجب أن ننضم الى الاتحاد الجمركى ، فلم يعد يجمل أن تظل هذه المسألة معلقة ٠٠٠ يجب عليكم جميعا أن تساعدونى ، اذا أنا جاهدت فى هذا السبيل ٠٠٠ فانى بوصفى تاجرا ، وصدقنى فى ذلك ، أعرف خيرا مما يعرف الديبلوماسيون ٠ والخوف من أن ندفع الثمن من استقلالنا وحريتنا مضحك فى هذا الصدد ٠ فداخل البلد ومكلنبورج وشلزڤيج هولشتين ستفتح لنا أبوابها ، وأدعىالى أن نتمنى هذا أننا لم نعد نسيطر على تعاملنا مع الشمال كل السيطرة كما كانت الحال من قبل ٠٠٠ كفى ! ٠٠٠ » وختم القنصل كلامه بقوله : « أعطنىالفوطة من فضلك ياڤنتسل ٠ » وحينما كانت ماتزال هناك كلمة تقال عن الأسعار الحالية للحنطة السوداء التى تقف عند ٥٥ ريالا ــ وكانت تميل دائما الى الهبوط بصورة لعينة ــ أو لعله ماتزال هناك ملاحظة تبدى عن حادث عائلى وقع فى المدينة ــ اذ ذاك اختفى السيد ڤنتسل فى القبو ليفرغ وعاء الرغاوى البيضاء

على بلاط الشارع ، وصعد القنصل الدرج اللولبى الى مخدع النوم حيث قبل جيردا فوق جبينها ، وكانت قد استيقظت فى تلك الأثناء » وارتدت ملابسها •

كانت هذه الأحاديث الصباحية الصغيرة مع الحلاق الميقظ تؤلف المدخل الى أنشط الأيام وأحفلها بالعمل ، أيام مفعمه بالتفكير والكلام والمساومة والكتابة والحساب والذهاب والاياب • ويرجع الفضل فى أن توماس بودنبروك كان فى محيط أقل الرءوس اشتغالا بالشئون المحلية الى رحلاته ومعلوماته ومصالحه • ولاشك أنه كان أول رأس يشعر بضيق الأحوال التى يعيش فيها وضآلتها • لكنه فى الخارج ، فى وطنه الأوسع تلت النهضة التى ألمت بالحياة العامة والتى جاءت بها سنوات الثورة ، فترة من التراخى والجمود والتراجع أقفر من أن تشغل ذهنا حيا • وهنا كان له من الروح ما يجعل من حكمة الأهمية الرمزية المحضة لكل عمل انسانى حقيقته المحببة اليه ، ويكرس كل ما ينطوى عليه من ارادة ومقدرة وحماسة وهمة فعالة لخدمة الصالح العام الذى يذكر فى دائرته اسمه فى مقدمة الأسماء ـ وكذلك لخدمة هذا الاسم ولوحة المتجر التى ورثها ••• روح كانت كافية لأن يبتسم لطموحه الى رفع شأن هذه اللوحة وتقوية سلطانها فى أدق الأمور والى أن ينظر اليه فى نفس الوقت نظرة جدية •

وما ان تناول افطاره فى قاعة الطعام ، وقد قدمه اليه أنطون ، حتى أخذ فى ارتداء ملابسه للخروج • وقد توجه الى مكتبه فى شارع منج ، ولم يمكث هنا أكثر من ساعة كتب فى خلالها اثنتين أو ثلاثا من الرسائل والبرقيات العاجلة ، ثم هذه أو تلك من التعليمات ، ودفع بالمثل دولاب العمل الكبير دفعة صغيرة ، ثم عهد الى السيد ماركوس بالاشراف على سير العمل يرعاه بنظرته الجانبية الحذرة •

وظهر للناس ، وتكلم فى الجلسات والاجتماعات ، وقضى فى البورصة برهة تحت البوائك الغوطية الطراز فى ميدان السوق ، وقام بتفتيشات فى الميناء وفى المخازن ، وفاوض الربابنة بوصفه من أصحاب السفن ، ثم تلا ذلك طائفة من الأعمال لم يقطعها الا افطار ثان خاطف مع القنصلة الأم وغداء مع جيردا قضى بعده نصف ساعة على الأريكة يدخن سيجارته ويقرأ الصحف • وقد استمرت هذه الأعمال الى المساء فكانت تتناول تجارته الخاصة وشئون الجمارك والضرائب والبناء والسكك الحديدية والبريد والخيرات ، كما تتناول مناطق ليست فى الحقيقة من شأنه بل هى فى العادة من شأن « العلماء » فيلقى عليها نظرة • والمسائل المالية خاصة من الأمور التى لمعت فيها موهبته بسرعة •

وقد كان حريصا على ألا يهمل حياة المجتمع • وحقا انه كان فى هذا الصدد

لا يحافظ على مواعيده كثيرا فيظهر دائما فى اللحظة الأخيرة حين تكون ز وجته فى ثياب السهرة وتكون المركبة تحت فى انتظاره من نصف ساعة ، يعتـذر لجيردا بأعماله ويرتدى فراكه على عجل ٠ لكنه على المكان وفى مآدب العشاء وفى المراقص والمجتمعات المسائية كان يحرص على أن يكون محدثا لطيفـا ٠٠٠ ولم يكن هو وزوجته دون غيرهما فى البيوت الموسرة الأخرى مظاهر استقبال٠ فقد كان مطبخا وقبوه فى رأى الناس من الطبقة الأولى ، وكانوا يقدرون فيه المضـيف الرقيـق المعتنى الملتفت ، وكانت الفكاهة التى تصاحب أنخـابه فوق المتوسـط ٠ أما الأمسية الهادئة فكان يقضيها فى صحبة جيردا ، فينصت، والسيجارة فى يده ، الى عزفها على الكمان ، أو يقرأ معها فى كتاب قصصا ألمـانية وفرنسية وروسية تختارها ٠٠٠

على هذا النحو كان يعمل ، فانتزع النجـاح ، ذلك أن اعتباره كان يزداد فى المدينة وأن المتجر مرت به سنون من اليسر على الرغم مما اسـتنفد اسـتقرار كريستيان وزواج تونى الثانى من رأس المال ٠ على أنه فى هذا كله وجدت أشياء كانت تثبط من همته ، وتضير مرونة ذهنه وتكدر نفسيته ٠

كان كريستيان فى هامبورج حيث أصيب شريكه السيد بورميستر بالسكتة القلبية فجأة فى ربيع هذه السنة ١٨٥٨ ٠ وقد سحب ورثاؤه فى الشركة مايخص المتوفى من رأس المال ، ونهى القنصل أخاه عن المضى فى ادارة المتجر برأسماله هو ، وألح عليه فى ذلك ، لأنه يعلم جيدا كيف أنه من الصعب أن يمسك عمل قد اقتطع منه الجزء الأكبر ، برأس مال انتقص منه الـكثير على حين بغتة ٠ لـكن كريستيان أصر على الاستمرار مستقلا ، وتولى ما لشركة هـ٠ت٠ف ٠ بورميستر وشريكه وما عليها ٠٠٠ فكان يخشى أن يقع مالا يسر ٠

كذلك شقيقة القنصل كلارا فى ريجا ــ حقا انه لم يكن ثمة ضير فى أن زواجها من القس تيبورتيوس لم يبارك بالأولاد ، ذلك أن كلارا بودنبروك لم تشته الولد قط ، ولم يكن لها بلا ريب من عاطفة الأمومة الا قليل القليل ٠ لـكن صحتها ، كما جاء فى رسائلها ورسائل زوجها ، لم تكن على مايرام وكان ينقصها الكثير ٠ وما كانت تكابده وهى فتاة صغيرة من آلام المخ قد جعل ، كما قيل ، يظهر أخيرا بصورة دورية وبدرجة تكاد لا تحتمل ٠

وقد كان هذا باعثا على القلق ، بيد أن هما ثالثا تجلى فى أن هنا أيضا ، على المكان ، لم يكن دائما مايبعث على الاطمئنـان على اسـتمرار اسم الأسرة ٠ وقد عالجت جيردا هذا الموضوع فى اتزان من له السيادة والسلطان وبعدم اكتراث بلغ مرتبة الرفض والنفور ٠ وقد كتم توماس همه ، لـكن القنصلة الـكبيرة تولت

الموضوع وانتحت بجرابو جانبا وقالت له : «يادكتور! ليكن هذا بيننا ! ان شيئا يجب أن يحدث ، أليس كذلك؟ ان قليلا من هواء الجبل فى كرويت وقليلا من هواء البحر فى جليكسبورج أو تراڤيمنده يلوح أنه غير نافع فى هـذه الحالة ، فمـاذا ترى ؟ ٠٠٠ »

وقد وصف جرابو بيرمون وشلانجن باد لأن وصـفته المريحة أى الحميـة الشديدة المؤلفة من قطعة من الحمام وقطعة من خبز فرانتس لم تكن تفيد فى هذه الحالة الفائدة المرجوة ٠

الحمية الشديدة المؤلفة من قطعة من الحمام وقطعة من خبز فرانتس لم تكن تفيد فى هذه الحالة الفائدة المرجوة ٠

هذه هموم ثلاثة ٠ وتونى ؟ ــ مسكينة تونى !

الفصل الثامن

كتبت تقول : « اذا قلت (١) Frieadellen لم تفهمها لأنها هنا تسمى غير ذلك واذا قالت Karfiol لم يوجد بسهولة انسان مسيحى يمكن أن يدرك أنها تعنى « قنبيط » واذا قلت « بطاطس محمرة » جعلت تصيح : « م ٠٠٠ اذا » وتظل تكررها حتى أقول لها : « محمصة » بدلا من المحمرة ٠ ومعنى الكلمة التى تكررها « أفندم » وهذه هى ثانيـة خادمة ، لأن الأولى التى كانت تسمى كاتى قد سمحت لنفسى بطردها من البيت لأنها سرعان ما كانت تسيء الأدب ، أو هذا على الأقل ما كان يبدو لى ، وقد أكون على خطأ ، كما يمكن أن يتبين لى فيما بعد ٠ والحق أنى لا أميز هنا بين أن يكون المرء خشنا أو يكون لطيفا ٠ أما الحالية واسمها « بابيته » وتنطق « بابيت » فذات مظهر حسن ، وفيها كل مافى الجنـوب ، كما هو حال البعض هنا : شـعر أسـود وعينان سوداوان وأسنان يمكن أن تحسد عليها ٠ وهى الى ذلك مطيعة وعلى استعداد لأن تطهو تحت ارشادى بعض ألوان الطعام مما يطهى فى بلدنا ٠ وقد أعدت لنا أمس صنفا سبب لى هما كثيرا ، لأن بيرمانيدر رأى فى تقديم هذه الخضر اساءة له حتى ظل طيلة ما بعد الظهر لا يبادلنى كلمة بل يدمدم فحسب ٠ ويمكننى يا أماه أن أقول ان الحياة ليست دائما سهلة ٠ »

على أن صنوف الخضر هذه لم تكن وحدها التى جعلت حياتها مرة ٠٠٠ فانها فى شهر العسل نفسه صدمت صدمة لم تكن فى حسابهـا أو تدر فى خلدها أو تدركها ، حادث سلبها كل مسرة ولم تستطع افاقة منه ٠ وكان كما يلى :

كان الزوجان بيرمانيدر قد قضيا فى ميونيخ بضعة أسابيع لما أن استطاع القنصل بودنبروك الافراج عن بائنة أخته المحددة فى الوصية وهى ٥١٠٠٠ مارك ، محولة الى جولدنات ، آيلة الى يد السيد بيرمانيدر وقد أودعهـا السيد بيرمانيدر ايداعا أمينا فيه المصلحة ٠ أما ما قاله بعد ذلك لزوجه من دون تردد أو احمرار وجه فقد كان هذا : « تونرل ـ فهو يناديها بتونرل ـ تونرل ، هـذا بالضبط ما أريد ، ولن نحتاج الى أكثر ٠ وقد كنت آكد دائمـا ، فالآن أريد أن أستريح ٠ سنؤجر الدور الأرضى والطبقة الأولى ٠ وهنا مسكن لنا

---

(١) كبيبة من اللحم ٠

طيب • نستطيع أن نأكل لحم الخنزير ، ولا نحتاج فى كل وقت الى العناء والتعب ••• وفى المساء نذهب الى بيرة هوفبروى • انى لست ممن يباهون بالثراء ، ولا أحب أن أجمع المال فى كل وقت ، فأنا أحب الراحة ! فمن الغد سأختم وأصبح من ذوى الايراد ! »

فصاحت لأول مرة بصوت حلقى خاص جدا كانت تنطق به اسم السيد جرينليش فى العادة : « بيرمانيدر ! » فلم يرد عليها الا بقوله : « دعك ، وكونى عاقلة ! » لكنه نشب بينهما شجار جاء مبكرا ، وكان من عنفه وجده خليقا أن يزعزع هناء الزوجية الى الأبد ••• وقد خرج من هـذا الشجار مظفرا ، وانهارت مقاومتها الشـديدة باصراره على لمطب الراحـة • وكانت النهاية محتومة فى أن السيد بيرمانيدر صفى ما كان أودعه من رأس المـال فى تجارة حشيشة الدينار بحيث أمكن السيد نويه أن يشطب بالقلم الأزرق كلمة « شريكه » من بطاقته ••• وقصر زوج تونى كغالبية أصدقائه الذين كان يلعب معهم الورق على مائدتهم الخاصة فى مبيرة هوفبروى ، ويحتسى لتىراته الثلاثة بانتظام ـ قصر عمله على رفع الايجـار كمالك وعلى اقتطاع الكوبون لاقتضاء الربح فى تواضع وهدوء •

وقد أبلغت القنصلة هذا بكل بساطة ••• لكنه فى الرسائل التى كانت مدام بيرمانيدر تخطها الى شقيقها كان الألم الذى تحسه بينا ••• مسكينة تونى ! لقد تجاوز الأمر أسوء ما كان يساورها من مخاوف • فقد كانت تعلم سلفا أن السـيد بيرمانيدر لم يكن يتحلى بشىء من ذلك « الجـد » الذى كان يبديه زوجها الأول • لكنه خيب أملها فى كل ما توقعته وما كانت لا تزال تبديه للآنسة يونجمان ليلة خطبتها • أما أن ينكر كل الانكار تعهداته التى أخذها على عاتقه يوم تزوج من سيدة من آل بودنبروك فما لم يخطرلها ببال •

وهـذا أمر يجب التغلب عليه ، فقد تبينت أسرتهـا من رسائلها كيف استسلمت له • فهى تعيش مع زوجها وايريكا التى تذهب الى المدرسة عيشة تكاد تكون رتيبة ، وتحافظ على مكانة بيتها ، وتخالط الناس الذين يقيمون فى الدور الأرضى والطبقة الأولى كمستأجرين وتتودد اليهم ، كما تخالط أسرة نيدر باور المقيمة فى ميدان ماريا ، وتبلغ أهلها بين الحين والحين عن زياراتها للمسرح الملكى « هوف تياتر » التى تقوم بها مع صديقتها ايفا ، ذلك أن السيد بيرمانيدر لا يحب مثل هذه الأشـياء • وقد ثبت أنه وقد أصـبح عمره فى ميونيخ « الحبيبة » أكثر من أربعين سنة لم يشهد قط متحف البيناكوتيك من الداخل •

ومرت الأيام ••• لكن المسرة الحقة التى كانت تونى خليقة أن تحسهـا

فى حياتها الجديدة قد ذهبت منذ أخلد السيد بيرمانيدر الى الراحة عقب تلقى بائنتها وتبدد أملها • ولن يكون فى مكنتها أن تنبىء أهلها بتوفيق يحالف بيتها أو رفعة • وكما هى الآن لا تحمل هما ولكن مضيق عليها ، ولا تلوح عليها سيماء الوجاهة الا قليلا ، قد كتب عليها أن تظل الى آخر حياتها على حال واحدة • لقد كانت تنوء بهذا ، وكانت رسائلها تبدى بوضوح أن هذه النفسية غير المرتاحة كانت تجعل تأقلمها فى جنوب ألمانيا أمرا عسيرا • حقا لقد كان هذا التأقلم يتم فى الجزئيات ، فقد تعلمت كيف تتفاهم مع الخادمات والموردين وأن تقول شيئا آخر لم تالفه بدلا من Frieadellen وأن تكف عن تقديم حساء الثمار الى زوجها بعد اذ انحى باللائمة على مثل هذه الأشياء • لكنها فى الجملة ظلت غريبة فى موطنها الجديد ، ذلك أن شعورها بأن انتسابها الى آل بودنبروك الذى لاوزن له هنا فى الجنوب كان معناه مذلة دائمة لها لا تنقطع • واذا روت فى رسائلها أن رجلا من البنائين قد خاطبها فى الشارع وفى احدى يديه جرة تسع لترا وفى الأخرى فجلة يمسك بها من أطرافها، وقال لها : « كم الساعة من فضلك ياصديقتى ! » كان هذا على الرغم مما فيه من دعابة مدعاة للشعور القوى بشىء من الغضب المكبوت • وقد كان من الهين أن يعتقد المرء أنها أطرحت رأسها عندئذ الى الوراء ولم تجبه برد أو نظرة ••• هذا الى أن هذا الحروج وهذا الفهم القليل للفروق لم يكن وحده ما استغربته واستثقلته : انها لم تتغلغل فى حياة ميونيخ ومعيشتها ، لكنه كان يحيط بها مع ذلك جو ميونيخ ، جو المدينة الكبرى الزاخر بالفنانين والمواطنين العاطلين • جو قلت فيه الحشمة ومنعها كثيرا من أن تكون على سجيتها اذا ما أرادت أن تتذوق الفكاهة •

ومرت الأيام ••• ثم ظهر مع ذلك أن هناء يريد أن يحل ، هناء هفت النفوس اليه فى الشارع العريض وشارع منج عبثا ، فانه لم ينقض على عيد رأس سنة ١٨٥٩ كثير حتى بات الأمل حقيقة ، وأصبحت تونى تنتظر أن تكون أما للمرة الثانية •.

وقد نبضت الفرحة فى رسائلها أيضا وكانت حافلة بعبارات تنطق بالغطرسة والصبيانية والاعتداد بالنفس ــ الأمر الذى كانت كفت عنه من أمد طويل • وقد أسفت القنصلة لاضطرارها الى البقاء بعيدة عن ابنتها فى هذا الوقت وكانت بغض النظر عن رحلاتها الصيفية قد باتت تزداد اقتصارا على شاطىء بحر البلطيق وكراهية للرحلات ، وقد أكدت لها كتابة أن الله سيكون معها • لكن توم وجيردا أعلناها بأنهما سيحضران التعميد • وكان رأس تونى مليئا بالخطط ترسمها لاستقبالهما استقبالا وجيها • مسكينة تونى ! لقد قدر لهذا الاستقبال أن يكون محزنا الى أبعد حد ، ولهذا التعميد الذى تمثلته فى خاطرها حفلا صغيرا سارا مزدانا بالزهور ومحلى بالحلوى

والشكولاته ألا يقع اطلاقا ، ـ ذلك أن المولودة قد قدر لها أن تدخل هذه الدنيا لتفارقها بعد ربع ساعة ضئيل كان الطبيب في خلاله يجاهد على غير جدوى فى سبيل بقاء هذا الكائن الصغير غير الصالح للبقاء ...

ووجد القنصل بودنبروك وزوجه لما جاءا الى ميونيخ أن تونى نفسها فى خطر ، ترقد فى أشد من حالة وضعها الاول وكثيرا وتأبى معدتها ـ التى تعانى بين الحين والحين من ضعفها العصبى ـ تقبل أى غذاء تقريبا .

وشفيت فى تلك الأثناء وأمكن الزوجين بودنبروك أن يسافرا مطمئنين عليها من هذه الناحية وان لم يخلوا من جهة أخرى من التفكير ، ذلك أنه قد ظهر لهما بكل وضوح ولم يفت القنصل على الأخص أن يلاحظ ، أن الألم المشترك لم ينجح مرة فى تقريب الزوجين أحدهما الى الآخر تقريبا يذكر .

وليس ما يعاب على قلب السيد بيرمانيدر الطيب ... فقد اهتز من الحادث مخلصا ، وسالت دموعه غزيرة حزنا على الطفلة الميتة ، ذرفتها عيناه الصغيرتان المنتفختان على خديه البارزين وأجرتاها على شاربه المفتل ، فكان يصيح مرارا وهو يتنهد تنهدا شديدا : « الا انه لمصاب ! مصاب ! يا الهى ! » لكن راحته كما تتصورها تونى لم تكابد من هذا المصاب كثيرا ، وساعاته المسائية فى مبيرة هوفبروى لم تلبث أن سرت عنه ، ولم يلبث هو أن عاود أسلوب حياته بجبريته ، المتوكلة ، الرضية ، المتمردة أحيانا قليلا ، البليدة بعض الشىء ، المتمثلة فى عبارته : « الا انه لمصاب ! »

وقد باتت رسائل تونى من ذلك الحين لا تخلو من نغمة اليأس بل الشكوى ... فقد كتبت تقول : « آه يا أماه ! ماكل هذا الذى يحل بى ! أولا جرينليش وافلاسه ، ثم بيرمانيدر كصاحب ملك ، ثم موت الطفلة . فبأى شىء استحققت كل هذا الشقاء ! »

وكان القنصل حين يقرأ مثل هذه العبارات فى البيت لا يتمالك نفسه من الابتسام ، لأنه على الرغم من كل هذا الألم الذى تنضح به السطور ، كان يستشف منها نغمة خافتة من الزهو الذى يقرب أن يكون مضحكا ، وكان يعلم أن تونى بودنبروك بوصفها مدام جرينليش أو مدام بيرمانيدر لم تكف عن أن تكون طفلة ، وأنها خبرت كل خبرتها البالغة غير مصدقة تقريبا ، ثم داخلها بعدئذ ما يداخل الأطفال من جد وشعور بالأهمية ـ وقبل كل شىء ـ من مقدرة على المقاومة .

انها لم تكن تدرك بم استحقت الألم ، لأنها وان سخرت من تقوى أمها وتدينها الشديد ، كانت هى نفسها مفعمة بهذه التقوى وهذا التدين الى حد أنها كانت تؤمن بالاستحقاق والعدالة فوق هذه الأرض ايمانا عميقا ... مسكينة تونى ! ان موت طفلتها الثانية لم يكن بآخر ضربة ولا أقسى ضربة تقدر لها أن تصاب بها . فقد حدث شىء مرعب لما آذنت سنة ١٨٥٩ بالانتهاء .

الفصل التاسع

كان يوم فى اواخر نوفمبر يوما باردا من أيام الخريف يخرت سماؤه وآذن ثلجه بالهطول وانتشرفيه الضباب تخترقه أشعةالشمس بين الحين والحين. كان يوما من الأيام التى تصفر فيها الريح الشمالية الشرقية اللاسعة فى الثغر حول أركان الكنائس المكتلة صفيرا خبيثا ، وترزؤ المرء بالتهاب رئوى على أهون سبيل .

فلما دخل القنصل توماس بودنبروك « حجرة الافطار » حوالى الظهر وجد أمه منكبة على ورقة والنظارة على أنفها .

فقالت وقد أبصرته ونحت الورقة بكلتا يديها كأنما تتردد فى اطلاعه عليها ... « توم ! لا تنزعج ... شىء غير سار ... لا أفهمه .. من برلين ... لابد أن يكون وقع شىء ... »

قال فى ايجاز : « تفضلى ! » وحال لونه وبرزت عضلاته لحظة فوق سالفيه ، فقد كان يحرق الأرم . ومد يده فى حركة بالغة التصميم كمن يريد أن يقول : « الى سريعا هذا الشىء غير السار ولا تمهدى ! »

وقرأ مضمون الورقة وهو واقف يرفع أحد حاجبيه الشقراوين ويجذب طرف شاربه الطويل بين أصابعه فى بطء . وكانت برقية فحواها : «لاتنزعجوا ! آتية مع ايريكا بأسرع ما يمكن . انتهى كل شىء . أنتونيا التعسة . »

فقال منفعلا : « بأسرع ما يمكن ... بأسرع ما يمكن ... » ونظر الى القنصلة وهو يهز رأسه هزا متواصلا : « ما معنى بأسرع ما يمكن ؟ ... »

« هذا تعبير فحسب يا توم ، لا يعنى شيئا . وهى تقصد « حالا » أو ماشابه ذلك... »

« ومن برلين ؟ ماذا تصنع فى برلين ؟ كيف جاءت الى برلين ؟ »

« لاأعلم ياتوم ، لم أدرك بعد ؛ لقد وصلت البرقية من عشر دقائق مضت .

لكنه لابد أن يكون شيء قد حدث • وعلينا أن ننتظر لنعلم ما هو • فلندع الله أن يكون خيرا • اجلس يابني ، وتناول طعامك ! »

وجلس ، وصب لنفسه البورتو في صورة آلية في كوبة سميكة عالية • وكرر : « انتهى كل شيء » ثم « انتونيا » « صبيانيات ••• »

وجعل يأكل ويشرب وهو صامت •

وجرؤت القنصلة بعد برهة أن تلاحظ : « أيمكن أن يكون هذا الشيء وقع مع بيرمانيدر ياتوم ؟ »

فهز كتفيه من دون أن يرفع بصره •

وعند الانصراف قال وأكرة الباب في يده : « نعم يا أماه يجب أن ننتظر حتى تحضر • واذ كان المفروض ألا تنقض عليك في البيت في ساعة متأخرة من الليل فانها سوف تأتي غدا حتما أثناء النهار ، فأرجو أن تبلغيني ••• »

* *

وجعلت القنصلة تنتظر من ساعة الى ساعة ، فلم تذق طعم الراحة بالليل • ودقت الجرس لايدا يونجمان التي كانت تنام على مقربة منها في الحجرة الأخيرة من الدور المتوسط ، وطلبت ماء وسكرا ، وجلست في سريرها منتصبة فترة طويلة ومعها بعض الأعمال اليدوية • وكذلك انقضى ماقبل ظهر اليوم التالي وهي في توتر نفساني • وعند تناول الافطار الثاني قال القنصل أنها اذا جاءت فسيكون قدومها من بيشن في الساعة الثالثة والدقيقة الثالثة والثلاثين بعد الظهر • في هذا الوقت كانت القنصلة جالسة في حجرة المناظر الطبيعية الى النافذة تحاول القراءة في كتاب على جلدته السوداء سعفة نخلة مضغوطة بالذهب •

وكان اليوم كأمس : بردا وبخارا وريحا ، وخلف السياج الحديدي المطروق اللامع يطقطق الموقد • وكانت السيدة العجوز ترتعش وتتطلع الى الخارج كلما سمعت وقع عجلات مركبة • وفي الساعة الرابعة وعلى حين غفلة وقد كادت تنسى ابنتها قامت حركة تحت في البيت • فاستدارت بجسمها الأعلى نحو النافذة بسرعة ومسحت بالمنديل المطرز بالدنتيلا مايغشى زجاجها من قطرات : حقا لقد كانت ثمة مركبة واقفة ، وسرعان ما كان صعود فوق الدرج •

فقبضت بيديها على سنادتي المقعد لتنهض ، لكنها فكرت في خير من هذا

فهبطت ثانية وأدارت رأسها ناحية ابنتها وعلى وجهها تعبير يكاد ينطوى على الممانعة فى النهوض • وبينا كانت ايريكا جرينليش عند الباب الزجاجى تمسك بيدها ايدا يونجمان كانت أمها تخترق الحجره بخطى سريعة مهرولة تقريبا •

كانت مدام بيرمانيدر تلبس حرملة مزودة بالفراء وقبعة مستطيلة من اللباد ذات قناع • وكان منظرها بادى الامتقاع والتعب وعيناها محمرتين وشفتها العليا ترتعش كسابق عهدها حين كانت تبكى أيام الطفولة • وقد رفعت ذراعيها ثم تركتهما تهبطان ، ثم خرت عند أمها على ركبتها وأخفت وجهها فى ثنيات ثوب السيدة الكبيرة وجعلت تبكى بكاء مرا • وكان لهذا كله مظهر من انطلق على هذه الحال لا يلوى على شىء من ميونيخ فى شوط واحد ــ وها هى ذى الآن قد بلغت نهاية الشوط من هربها ناجية منهوكة القوى • وصمتت القنصلة لحظة •

وقالت وفى صوتها رنة ملام رقيقة : « تونى ! » وجذبت الدبوس الكبير الذى كانت مدام بيرمانيدر تثبت به قبعتها فى شعرها حذرة ، ووضعت القبعة على قاعدة النافذة ومسحت بكلتا يديها على شعر ابنتها الأشقر الرمادى الغزير تهدىء من روعها وتتحبب اليها •••

« ماذا يا ابنتى ••• ماذا حدث ؟ »

وكان عليها أن تصبر قليلا حتى تجد على هذا السؤال جوابا •

ثم نطقت ابنتها : « أماه ، ماما ! » ولم تزد •

فرفعت القنصلة رأسها نحو الباب الزجاجى ، وبينا تحيط ابنتها باحدى ذراعيها مدت اليد الطليقة نحو حفيدتها وكانت واقفة هناك مرتبكة تضع احدى السبابتين فى فمها •

« تعالى ياطفلتى ، تعالى وحيى تحية الصباح • لقد كبرت وبات منظرك نضرا بادى العافية والحمد لله • كم عمرك الآن يا ايريكا ؟ »

« ثلاث عشرة ياجدتى ••• »

« ماشاء الله ! عروس ••• »

وقبلت الفتاة الصغيرة من فوق رأس تونى واستطردت : « اصعدى الآن مع

ايدا ياطفلتي ، فسنتناول الطعام بعد لحظة · غير أني عندى ما أخاطب أمك فيه · أليس كذلك ؟ »

وبقيا وحدهما ·

« والآن ياعزيزتى تونى ؟ ألا تريدين أن تكفكفى من دمعك ؟ ان الله اذا أراد امتحاننا فرض علينا أن نتحمل برباطة جأش · وقد جاء فى الكتاب : احمل صليبك ··· لكن لعلك ترغبين فى الصعود أولا والاستراحة قليلا ، لتنتعشى ثم تنزلى الى · وقد أعدت لك يونجمان الطيبة حجرتك ··· انى أشكر لك برقيتك · وقد أزعجتنا كثيرا ··· » وكفت عن الكلام لأن أصواتا كانت تخرج مكتومة مرتعشة من ثنيات ثوبها : « انه انسان فاسد ، انسان فاسد ، ··· فاسد ··· »

ولم تدع مدام بيرمانيدر هذه الكلمة الشديدة ، فقد بدا أنها تحذقها كل الحذق · وكانت وهى تقولها يزداد ضغطها بوجهها فى حجر القنصلة ، بل انها كانت تقبض يدها بجانب الكرسى ·

فسألتها السيدة المسنة بعد برهة : « ترى أتعنين بهذا الكلام زوجك ياابنتى؟ كان ينبغى ألا يرد هذا الخاطر بذهنى ، فانى عليمة بذلك ؛ لكنه لم يكن لى ندحة عن التفكير فى غيره ياتونى ، فهل أصابك بيرمانيدر بسوء ؟ هل عندك ما يحملك على الشكوى منه ؟ »

فصاحت مدام بيرمانيدر : « بابيت ··· بابيت ! »

فكررت القنصلة متسائلة : «بابيت ؟» ثم اتكأت الى الوراء ، وأجالت عينيها الصافيتين من خلال النافذة · فقد أدركت ماهنالك · وحلت فترة من الصمت كان يقطعها الفينة بعد الفينة شهيق من تونى كان يخف شيئا فشيئا ·

وقالت القنصلة بعد برهة : « تونى ، انى أرى الآن أن هما فى الواقع قد نزل بك ··· وأن لديك مايبرر الشكوى ··· ولكن أكان من اللازم أن تعبرى عن شكواك هذا التعبير الأهوج ؟ هل كان هذا السفر من ميونيخ الى هنا ومعك ايريكا ضروريا الى درجة أن يتصور من هم أقل فهما منى ومنك انك لا تريدين العودة الى زوجك بحال ! »

فصاحت مدام بيرمانيدر : « هذا مالا أريده أيضا ··· أبدا ··· » ورفعت رأسها رفعة شديدة وهى تقول ذلك ونظرت الى وجه أمها بعينيها الدامعتين فى توحش ثم عادت تخفى وجهها فى ثنيات ثوب أمها التى تجاهلت هذه الصيحة ·

ورفعت الأم صوتها وقالت وهى تحول رأسها متئدة من جانب الى جانب : « ولكن الآن وقد بت هنا يهون الامر ، ذلك آنه سوف يمكنك أن تهدئى وتقضى على كل شيء · وعندئذ سنرى كيف نصلح بالحب والصفح والرزانة · »

فقالت تونى مرة أخرى : « أبدا ، أبدا ! » لكنها أخذت تروى ماحدث ، ومع أن أمها لم تفهم منها كل كلمة لأنها كانت تتكلم ورأسها مدسوس فى تنورة القنصلة الصوفية المثناة ، ولأن روايتها كانت تتفجر وتمزقها صيحات الغضب الشديد فقد تبين مع ذلك أن الأمر لا يخرج ببساطة عما يلى :

فى منتصف الليل بين الرابع والعشرين والخامس والعشرين من الشهر الجارى استيقظت مدام بيرمانيدر التى كانت أثناء النهار تعانى اضطرابا عصبيا فى معدتها ولم تجد راحتها الا متأخرا جدا ، استيقظت من نعاس خفيف على حركة متواصلة هناك أمام السلم ، وتنبهت الى ضوضاء خفية يحاول كتمانها كان يتميز فيها صرير الدرجات من الضحك الذى يصاحبه السعال ، من الكلمات المكتومة الدالة على الممانعة والمقاومة ، من الأصوات الغريبة التى تشبه الهرير والتأوه ··· فلم يكن ممكنا أن يشك لحظة فى طبيعة هذه الحركة ··· لكن مدام بيرمانيدر لم تدرك منها شيئا لحواسها المتخدرة الا لما وعتها وشعرت بأن الدم يغيض من خديها ويتدفق على قلبها الذى انقبض وواصل النبض فى دقات ثقيلة مقبضة · وقد لبثت دقيقة طويلة قاسية فى فراشها كالمذهولة المفلوجة · لكنها لما لم تسكن هذه الحركة المخجلة أضاءت النور بيدين مرتعشتين وغادرت فراشها واليأس يتملكها والحنق والتقزز ، وجذبت الباب واندفعت الى الامام على مقربة من السلم ، ذلك السلم العالى المستقيم الذى يؤدى من باب البيت الى الطبقة الأولى رأسا · وهناك فوق الدرجة العليا لهذا السلم تبينت بعينين اتسعتا من الرعب تلك الصورة المجسمة لما كان يجب أن تتمثله داخل مخدع نومها لحظة أن ألمت بالحركة الصريحة ··· لقد كان عراكا ، كان صراعا فاضحا لا يليق بين الطاهية بابيت والسيد بيرمانيدر · كانت الفتاة وفى يدها ربطة مفاتيح وشمعة كذلك ، لأنها لابد أنها كانت مشغولة فى مكان ما بالبيت فى هذه الساعة المتأخرة من الليل · كانت تتلوى يمنة ويسرة وتجاهد سيدها وتمانعه وهو يلف ذراعيه حولها ولاينى ، وقبعته فوق مؤخرة رأسه ، عن محاولة الضغط على وجهها بشاربه المشبه شارب كلب البحر ، فوفق الى ما أراد هنا وهنا · فلما ظهرت أنتونيا ند عن الفتاة شيء من قبيل « يسوع ومريم ويوسف » كرره السيد بيرمانيدر وأخلى سبيلها ـ وبينا إختفت الفتاة فى نفس اللحظة بصورة لبقة ولم يبن لها أثر ، كان هو واقفا أمام زوجته مرتخى الذراعين مطاطىء الرأس متهدل الشارب ، يتمتم شيئا لا شك فى سخفه : « هذه مصيبة !··· هذه بلية !··· » فلما تجاسر ورفع رأسه كانت قد انصرفت فذهب فى أثرها ووجدها فى مخدع النوم ، على سريرها فى وضع هى فيه نصف جالسة ونصف مستقلية · تنتحب انتحابا شديدا

وتكرر الحين بعد الحين كلمة « فضيحة » واستند الى الباب متهالكا ووقف هناك، ثم أتى بحركة من كتفه كأنما يزغدها لينبهها وقال : « كونى عاقلة ! كونى عاقلة ياتونرل ! انظرى ، ان فرانتسل رامزاور كان يحتفل بعيد ميلاده مساء اليوم .. فشربنا كلنا قليلا ... » لكن رائحة الكحول القوية التى انتشرت فى المخدع بلغت بغضبها أشده فلم تعد تنتحب ولم تعد خائرة ولا واهنة ، بل هبت من مرقدها حانقة وقذفته فى وجهه بكل ماتحوى كينونتها وكيانها من اشمئزاز وتقزز واحتقار من الأعماق ، فى يأس تجاوز الحدود ... ولم يبق السيد بيرمانيدر ساكنا ، بل كان رأسه صاخدا .. ذلك أنه لم يكرم صديقه رامزاور بأقداح البيرة الكثيرة ، بل احتسى كذلك الشمبانيا فى صحته ؛ فرد عليها ، ورد عليها فى عنف ، ونشب بينهما شجار أفظع من ذلك الذى شجر بينهما حين تقاعد السيد بيرمانيدر . وضمت السيدة أنتونيا ثوبها لتعتزل فى حجرة الاستقبال ... لكنه فى الختام طرقت سمعها من جانبه كلمة ماكانت لتعيدها أو ترد على شفتيها قط ... كلمة ... كلمة

كان هذا كله هو أهم ماتضمنته الاعترافات التى أفضت بها مدام بيرمانيدر وهى تخفى وجهها بين ثنيات ثوب أمها . لكنها لم تتجاوز عن هذه « الكلمة » التى هزتها من الأعماق فى تلك الليلة المخيفة . وقد أقسمت بالله أنها لن تعيدها وان كانت القنصلة لم تلح عليها فى اعادتها اطلاقا بل كانت تهز رأسها فى ثورة وتفكير هزا كاد ألا يكون ملحوظا ، بينما تخفض بصرها فوق شعر تونى الجميل الأشقر الرائق .

قالت : « أجل ، أجل . لقد كان على أن أسمع أشياء محزنة ياتونى . وانى لمدركة كل شىء تمام الادراك يا ابنتى المسكينة الصغيرة ، ذلك أنى لست أمك فحسب ، بل أنا كذلك امرأة مثلك ... وأرى الآن كم أنت على حق فى تألمك، وكم نسى زوجك فى لحظة ضعف كل النسيان مالك عليه من دين ... »

وصاحت تونى : « فى لحظة » وهبت واقفة وتراجعت خطوتين ، وجففت عينيها بحرارة واستطردت : « فى لحظة يا أماه ؟! لقد نسى ما هو مدين لى ولا سنمنا به ... لم يكن يعرفه منذ البداية ! رجل يخلد ببائنة زوجته الى الراحة بكل بساطة ! رجل عديم الطموح ، متقاعس ، عديم الأهداف ! رجل فى عروقه بدل الدم عصيدة كثيفة من شعير البيرة ! أجل انى واثقة من هذا ! رجل ينحط فوق ذلك الى مثل الحقارات التى أتاها مع بابيت ، فاذا مالفته الى حطته أجابنى بكلمة ... بكلمة ... »

وبلغت تلك الكلمة ثانية ، الكلمة التى لم تعدها . وبغتة خطت خطوة الى الأمام وقالت فجأة بصوت هادىء يدل على اهتمام رقيق : « ما أبدع ! من أين لك هذا يا أماه ؟ »

وأشارت بذقنها الى سلة صغيرة مجدولة من الخيزران ، قائمة منمقة مزدانة بشرائط من الأطلس اعتادت القنصلة منذ عهد قريب أن تودعهاعملها اليدوى .

فأجابت السيدة المسنة : « لقد اشتريتها عندما احتجت اليها . »

فقالت تونى وهى تتأمل السلة القائمة برأس مائل الى جنب : « بديع ! » كذلك القنصلة أدارت الى هذا الشىء عينيها وهى غارقة فى أفكارها دون أن تراه .

ثم قالت فى النهاية وهى تمد الى ابنتها يديها مرة أخرى : والآن ياعزيزتى تونى : مهما يكن من أمر فأنت هنا ، فأهلا بك من القلب وسهلا ياطفلتى . انه كل شىء سيبحث متى هدأت النفوس .. فاخلعى ملابسك فى حجرتك واستريحى . » ونادت من حجرة المائدة بصوت مرتفع : « ايدا ... أعدى الفراش لمدام بيرمانيدر وايريكا ياحبيبتى ! »

الفصل العاشر

وانسحبت تونى بعد المائدة مباشرة الى مخدع نومها ، ذلك أن القنصلة أكدت لها أثناء الأكل ما افترضت من علم توماس بمقدمها ... وقد لاح أنها لم تكن على لقائه جد متلهفة .

وفى الساعة السادسة بعد الظهر صعد القنصل الى فوق وتوجه الى حجرة المناظر الطبيعية ، حيث جرى له مع أمه حديث طويل .

وسأل : « كيف هى ؟ وما مسلكها ؟ »

قالت : « أخشى ياتوم أن يكون من الصعب ارضاؤها ... يا الهى ، انها منفعلة الى حد كبير ... ثم هذه الكلمة ... لو أنى عرفت الكلمة التى قالها ». « انى ذاهب اليها . »

« افعل ذلك ياتوم . لكن أطرق بابها برفق حتى لا تنزعج ، وحافظ على هدوءك ، أتسمعنى ؟ ان أعصابها ليست على مايرام ... وهى لم تأكل شيئا تقريبا ... انها المعدة كما تعلم . كلمها بهدوء . »

وصعد الدرج الى الطبقة الثانية مسرعا يتخطى فى عجلته كعادته درجة دائما ، ويفتل شاربه مفكرا . لكنه وهو يدق الباب أشرق وجهه لأنه كان مصمما على أن يعالج الموضوع فى دعابة ما أمكن .

وفتح الباب على كلمة تنطق بالألم هى « ادخل » ووجد مدام بيرمانيدر كاملة اللباس مستلقية على سريرها الذى كانت مزاحة ستائره ، تسند ظهرها الى حشية وتضع بجانبها زجاجة من نقط للمعدة على منضدة الليل . فالتفتت قليلا واعتمدت رأسها فوق يدها ونظرت اليه تبتسم فى عبوس فانحنى لها انحناءة عميقة جدا ورسم بيديه الممدودتين حركة تدل على التوقير . وقال :

« أيتها السيدة المحترمة ...! أى شرف توليننا ساكنة العاصمة ومقر الملك ... »

قالت : « قبلنى ياتوم ! » ونهضت لتقدم له خدها ثم تعود ثانية الى

الاستلقاء . « عم صباحا أيها الفتى الطيب ! لقد تغيرت تماما فيما أرى منذ أيام ميونيخ ! »

« انك هنا بين ستائرك المسدلة لا تستطيعين حكما أيتها الغالية . ومع ذلك ماكان يجوز أن تحرميني من الاطراء لأنه من حقك بطبيعة الحال ... »

وسحب كرسيا وهو ممسك بيدها وجلس اليها .

« وكما قلت مرارا : انك وكلوتيده ... »

« خسنا ياتوم ! ... وكيف حال تيلده ؟ »

« على مايرام طبعـــا ! فمدام كراوزيمنتس تعنى بها وبألا تجوع . وهو مالا يمنع تيلده من أن تأكل هنا بنهم فى أيام الخميس وتلتهم الطعام التهاما شاذا كأنما تتمون لأسبوع مقدما ... »

وضحكت من قلبها كما لم تعد تفعل من أمد طويل ، ثم أمسكت بتنهيـــدة وسألت : « وكيف تسير الأعمال ؟ »

« هانحن أولاء نجاهد . ويجب أن نكون راضين ... »

« الحمد لله . ان كل شيء ، هنا على الأقل " كما ينبغى أن يكون ! انى لست على استعداد لأن أكون مرحة فى الحديث . »

« واأسفاه ! فالمرء خليق مع ذلك أن يكون فكها . »

« كلا ياتوم . لقد انتهى هذا ــ فهل تعرف كل شيء ؟ »

فردد قولها : « هل تعرف كل شيء !... » وترك يدها وأزاح كرســيه الى الوراء قليلا واستطرد يقول : « يالله ؛ يالوقع الكلمة ! « كل شيء » ! ما أكثر ماينطوى عليه « كل شيء » . هذا ! لقد دفنت حبى أيضـا وأملى فيه ، أليس كذلك ؟ كلا ، اسمعى ... »

ولزمت الصمت وحدجته بنظرة عميقة الدهشة ، عميقة الاستياء .

قال : « لقد كنت أتوقع هذا الوجه ، لأنك ماكنت لتحضرى الى هنا من دونه .

ولكن اسمحى لى ياعزيزتى تونى بأن أستسهل المسألة بقدر ماتستصعبينها فترين أننا سيكمل أحدنا الآخر وينتفع كلانا ... »

« أستصعبها ياتوماس ، أستصعبها ... »

« رباه ! دعينا من تمثيل المآسى ! لنتكلم فى شىء من التواضع لا بعبارات : انتهى ، وكل شىء ، وابنتكم التعسة أنتونيا ! افهمينى جيدا ياتونى فأنت تعلمين أنى أول من يسر من قلبه بمقدمك . فقد كنت أتمنى من أمد طويل أن تزورينا من دون زوجك ، وأن نستطيع الجلوس معا جلسة عائلية . ولكن ان تأتى الآن وتجيئى — عفوا ، فهذه جهالة ياطفلتى ... نعم ... دعينى أنه كلامى ! — لقد طالما سلك بيرمانيدر سلوكا معيبا ، هذا صحيح ، وسأفهمه أنا أيضا ذلك ، فكونى واثقة ... »

فقاطعته ، وقد هبت واقفة ووضعت يدها على صدرها ، بقولها : « لقدأفهمته مسلكه بالفعل ، ولم أفهمه اياه فحسب ، وهذا ما أريد أن أقوله . فقد كانت لى مع الرجل منازعات أخرى أراها غير لائقة على الاطلاق ! »
وارتمت على الفراش ورفعت بصرها الى السقف فى صرامة ورباطة جأش .

وطأطأ رأسه كما لو كانت هذه الطأطأة تحت وقع كلماتها ، خفض بصره فوق ركبتيه مبتسما وقال :

« اذن فلن أخط اليه كتابا خشنا عملا باشارتك ، فالأمر أمرك أولا وآخرا ، ويكفى كل الكفاية أن تقومى أنت اعوجاجه . فأنت بوصفك امرأته مكلفة بذلك واذا تبينا الأمر فلن تأبى الظروف المخففة ولا استعمال الرأفة . فان صديقا له يحتفل بعيد ميلاده ، فيعود الى البيت بنفسيته — نفسية المحتفل — مرحا ، فيرتكب وزرا خفيفا ، وانحرافا بسيطا ، غير لائق ... »

قالت : « توماس . انى لا أفهمك . لا أفهم اللهجة التى تكلمنى بها . أنت ... الرجل ذو المبادىء ... لكنك لم تره ! لم تر كيف كان يمسك بها فى سكره ، وكيف كان منظره ... »

« مضحكا بما فيه الكفاية كما يمكن أن أتصور . لكن هذه المسألة ياتونى ! انك لا تنظرين اليها بالقدر الكافى من الاستخفاف . والذنب فى ذلك ذنب معدتك بطبيعة الحال . لقد ضبطت زوجك متلبسا بنقطة ضعف فرأيته مضحكا بعض الشىء ... لكن هذا ماكان ليسخطك الى هذا الحد ، بل كان خليقا أن يسليك قليلا ، وأن يدنيه منك كانسان ... انى أريد أن أقول لك شيئا : حقا

انه ماكان ليسعك أن تقرى مسلكه فور الساعة بالابتسام والصمت ، حاشا . لكنك رحلت ، فكان هذا منك مظاهرة ربما كانت عنيفة قليلا ، وعقابا لعله كان أصرم مما ينبغى — ولست أتمنى أن أراه جالسا فى تلك اللحظة وأشهد مبلغ حزنه — لكنه عقاب عادل على كل حال . انما يتجه رجائى الى أن تكون نظرتك الى الأشياء أقل انطواء على العصب شيئا ما وأكثر مراعاة للسياسة هونا ما . اننا نتكلم طبعا فيما بيننا . ويجب أن ألمح لك ، انه ليس مما لا يكترث له فى الزواج أن تكون الفضيلة فى هذا الجانب دون ذاك ... افهمينى ياتونى ! ان زوجك قد كشف عن سوءة له ما فى ذلك شك . قد ورط نفسه وعرضها بعض الشىء للسخرية ... عرض نفسه للسخرية بالذات لأن خطيئته كانت مما يعد عديم الأذى قليل الخطورة ... بالايجاز ان هيبته لم تعد فوق المساس ، وتفوقك عليه قد بات الآن محققا وهنا أنا مؤكدا على شريطة أن تفهمى كيف تحافظين على هذا التفوق . فاذا — ولنقل فى أسبوعين — نعم أرجوك ، فلا بد أن تكونى لنا على الأقل هذه الفترة ، اذا عدت بعد أسبوعين الى ميونيخ فسترين . »

« لن أعود الى ميونيخ ياتوماس . »

فسألها : « ماذا ؟ » وقد قطب وجهه ، ووضع يده على أذنه وانحنى الى الامام .

وكانت مستلقية على ظهرها تضغط مؤخرة رأسها فى الوسائد بصورة برزت معها ذقنها فى شىء بعينه من الصرامة . قالت : « أبدا » وتنفست بعدها نفسا طويلا صاخبا ، وتنحنحت فى بطء وجلاء نحنحة جافة بدأت تصبح معها عادة عصبية ويكون لها دخل فى تعب معدتها — وسادت فترة من الصمت .

وقال بغتة وقد نهض وترك يده مستقرة فوق مسند الكرسى الأمبير : « تونى ، لاتثيرى فضيحة معى ! ... »

وعلمتها نظرة جانبية منه ، أنه كان ممتقع اللون ، وأن عضلات سالفيه تتحرك فتزعزع موقفها وجعلت كذلك تتحرك . ولكى تخفى ماساورها نحوه من خوف رفعت صوتها واصطنعت الغضب فهبت ناهضة وزحلقت قدميها عن الفراش وأنشأت تقول وقد صخد خداها وقطبت حاجبيها ، وجعلت تأتى بحركات سريعة من رأسها : « فضيحة ياتوماس ؟! أنت تأمرنى بألا أثير فضيحة حين ألطخ بالعار ، ويبصق فى وجهى بكل بساطة !! أهذا يليق بأخ ؟... نعم؟ هذا سؤال يجب أن تسمح لى به ! فالمراعاة واللباقة من الأشياء الطيبة ، وحاشا أن تخلو منهما . لكن هناك حدودا فى الحياة ياتوم — وانى لعليمة مثلك بالحياة — فاذا بدأ الخوف من الفضيحة فمعنى ذلك الجبن ، نعم : وانى لأعجب من أن أضطر الى أن أقول لك هذا ، أنا التى لاتعدو أن تكون غبية بلهاء ... نعم ،

فهذا أنا· وهذا ماأفهمه جيدا عندما يكون بيرمانيدر قد أحبني قط، لأني مسنة وانى امرأة دميمة ، هذا ممكن، وبابيت على التحقيق أجمل مني· لكن هذا لا يعفيه من المراعاة الواجبة عليه لأصلي وتربيتي وشعوري ! وأنت لم تر ياتوم بأية صورة أغفل هـذه المراعاة ، ومن لم ير لا يعلم شـيئا · ولا يسعني أن أقص كيف كان في حالته بغيضا ··· وأنت لم تسمع الـكلمة التي شيعني بها ، أنا أختك ، لما أخذت أشـيائي وغادرت الغرفة لأنام على الأريكة في حجرة الاستقبال ··· هنا لم يكن بد من أن أسمع من خلفي كلمـة تخرج من فمه ··· كلمـة ··· كلمة !·· هذه الكلمة ياتوماس هي بالايجـاز ماتعلم أنه دفعني بل أرغمني على أن أظل طول الليل أحزم أمتعتي وأوقظ ايريكا في كل بكور وانصرف بها ، ذلك أنه لم يكن يسعني أن أبقى عند رجل أسمع بقربه مثل هذه الكلمات··· لن أرجع كما قلت الى رجل كهذا ··· والا لتلفت وكففت عن احترام نفسي ، ولما كان لي مقام في الحياة ! »

« هل تريدين أن تتفضلي بابلاغي هذه الكلمة اللعينة ، نعم أو لا ؟ »

« أبدا ياتوماس ، لن ألفظها أبدا ! اني عليمة بما أنا مدينة به في هذا البيت لنفسي ولك » ·

« اذن لافائدة من الكلام معك ! »

« ربما ، وأحب ألا نعود الى الكلام في هذا ··· »

« وماذا تريدين أن تصنعي ؟ أتريدين الطلاق ؟ »

« هذا ما أريده ياتوم · فهذا تصميمي الثابت · هذا هو التصرف الذي يجب علي نحو نفسي وطفلتي ونحوكم جميعا · »

فقال لها هادئا : « هذا هو السخف · » واستدار على عقبيه وانصرف عنها كما لو كان انتهى كل شيء بهذا ثم استطرد يقول : « والطلاق يتناول شخصين ياطفلتي ؛ ومن التسلية أن يخطر بالبـال أن بيرمانيدر يبدي اسـتعداده له وسروره به من دون تردد ··· »

فقالت من دون أن يرهبها هـذا الكلام : « دع هـذا لي · انك تظن أنه سيعارض من أجل السبـعة عشر ألف ريال بائنتي ؟ لـكن جرينليش لم يرد كذلك وقد أرغم عليه · ان هنـاك وسائل ، وسأذهب الى الدكتـور جيزيكه صديق كريستيان وسيساعدني ··· حقا ان الأمر كان يختلف اذ ذاك ، وأنا أعرف ماتريد أن تقول · اذ ذاك كان المسوغ عدم كفاية الزوج لاعالة أسرته ·

نعم ، فأنت ترى الى هذا أنى خبيرة بهـذه الأمور ، بينما تبدى فى الحق كما لو كانت هذه أول مرة لى فى الحياة أطلق فيها ! ٠٠٠ ولكن الامر سيان عندى ياتوم ، فقد لا تنجح المسألة وتستحيل ــ ربما ، وقد تكون محقا ٠ لكن هذا لن يغير شيئا ٠ لن يغير شيئا مما قررته ٠ فليحتفظ بالنقود ــ ففى الحياة أشياء أسمى من المال ! لكنه لن يرانى ثانية ٠ »

وتنحنحت اثر ذلـك ، وكانت قد غادرت الفـراش وجلست على الكرسى الساند تعتمد مرفقها فوق المسند الجانبى وذقنها فى يدها بحيث تحتوى أربع أصابع مقوسة شفتها السفلى ٠ فى هـذا الوضع وجسمها الأعلى مائل جانبـا كانت تحملق فى النافذة بعينين ملتهبتين محمرتين ٠

وكان القنصل يخطو فى الحجرة جيئة وذهابا ويتنهد ويهز رأسه ويحرك كتفيه ٠ وأخيرا وقف أمامها وهو يفرك يديه ٠

قال يائسا متوسلا : « ان رأسك رأس طفل ياتونى ! كل كلمة تلفظينهـا عذر أطفال ! فهلا تريدين ، اذا أنا رجوتك ، أن تتناولى الأمور لحظة واحدة كما يتناولها بالـغ ؟ ألا تلاحظين أنك تسلكين مسلك من تعرض فى الحياة لشىء جدى فادح ، كما لو كان زوجك قد خانك بقسوة ولطخك بالعار أمام العالم أجمـع ؟ ! ولكن فكرى فقط فى أن شـيئا لم يقع ! فى أن أحـدا لم يدر بذلك الحادث التافه الذى وقع على سلمك بشارع كاوفنجر ! انك لن تمسى كرامتك وكرامتنا بحال اذا أنت عدت الى بيرمانيدر فى هدوء وعلى الأكثر بوجه ساخر قليلا ٠٠٠ وعلى النقيض من ذلـك ! تنالين من هيبتنا اذا أنت جافيت هـذا المسلك ، ذلك أنك بهذا ترتبين شيئا على هذه التفاهة ، بهذا تثيرين فضيحة ٠ »

فأطلقت ذقنها بسرعة ونظرت فى وجهه ٠

« الآن الزم الصمت ياتوماس ! الآن دورى أنا ! الآن أنصت الى ! كيف ؟ هل مايرتفع به الصوت ، ويذيع بين الناس هو فقط العار والفضيحة ؟ لا ، لا ٠ ان الفضيحة الخفية التى تلتهم المرء فى سكون ، وتذهب باحترام الذات أسوء كثيرا ! هل نحن آل بودنبروك ، الذين نريد أن نكون فى ظاهرنا على أحسن حال كما تقولون هنـا دائمـا ، نرضى فى مقابل ذلـك المذلة والهـوان نستسيغهما بين أربعة حيطان ؟ توم ، اننى لأعجب منك ! تصور أباك كيف كان يكون موقفه اليوم ، ثم احكم وفق تفكيره ! كلا ، ان النقاء والصراحة يجب أن يسودا ٠٠٠ انك تستطيع أن ترى العالم أجمع صحيفتك اليوم وتقول: هاكم صحيفتى !٠٠٠ وليس يجمل غير ذلك بأحد منا ٠ انى أعلم كيف خلقنى الله ـ انى لا أخاف شيئا ! لتمر چوليا مولندروف بى ولا تحيينى ؛ ولتجلس فيفى

بودنبروك هنا فى أيام الخميس وتهتز من الشـماتة وتقول : ان هذه للأسف ثانى مرة ، لكن الذنب فى المرتين ذنب الرجال بطبيعـة الحال ! انى أرفع من هذا ياتوماس ! انى أعلم أنى فعلت ما اعتقدته الخير ، لكن أن أستسيغ هـذا وأدع من يسبنى بلغـة البيرة العامية غير المهـذبة خوفا من اهانات چوليـا مولندروف وفيفى بودنبروك ٠٠٠ خوفا منهما أصبر على زوج ، وفى مدينـة اعتاد فيها مثل هذه الكلمات ، ومثل هذه المناظر ، وأتعلم فيها انكار النفس والأصل والتربية وكل شىء فى انكارا تاما ، لا لشىء سوى أن أتظاهر بالسعادة والرضا ؛ ـ هذا ما أسميه غير لائق ، ما أسميه فاضحا ، أقول لك ٠٠٠ ! »

وقطعت الكلام وألقت ذقنها ثانية فى يدهـا ، وحملقت منفعلة فى زجاج النافذة · وكان توماس واقفا حيالها ، متكئا على ساق ، يداه فى جيبى سراويله ، وعيناه مستقرتان فوقها ، دون أن ينظر اليها ، غارقا فى أفكاره ، يهز رأسه فى رفق ·

قال : « تونى ، انك لا تبدلين الأمور ، فقد كنت أعرفها من قبل · لكنك قد انكشفت بكلماتك الأخيرة · انه ليس الزوج ، بل المدينة ، وليست الجهالة التى وقعت على السلم ، بل كل شىء هو السبب · انك لم تستطيعى أن تتأقلمى · فكونى صريحة ! »

فصاحت : « أنت محق فى هـذا ياتوماس » بل لقـد هبت وأشارت بيدها الممدودة رأسا الى وجهه · وكان وجهها محمرا ، ووضعها وضع المحارب ، تمسك بالكرسى باحدى يديهـا وتأتى باشارات من الأخرى ، وتلقى خطبة ، خطبـة حامية مؤثرة تتفجر من دون انقطاع · وجعل القنصـل يتأملها وهو فى غاية الدهشة ، فما ان تكاد تتمهل لتأخذ نفسها حتى تتدفق كلمات جديدة من فمها · أجل ، كانت تجد الكلمات وتعبر عن كل شىء تجمع فيها خلال السنوات الأخيرة بغضا واشمئزازا : مضطربا بعض الشىء مختلطا ، لكنها كانت تعبر عنه · كان انفجـارا ، وكان هبوبا مفعما بحماسة الشرف القانطة ٠٠٠ هنا أفرغت شـيئا لا قبل بمواجهته ، شيئا عنصريا لم يعد فى الامكان مجابهته ٠٠٠
« أنت محق فى هذا ياتوماس ! هلا قلته مرة أخرى ! هـا ، انى لأبدى لك صراحة أنى لم أعد تلك الغبية ، وأنى أعرف ماينبغى أن أدركه من الحياة · انى لن أندهش بعد الآن اذا علمت أن ما يجرى فيها ليس نظيفا كله · لقد عرفت أناسا مثل « تريشكه الدموع » ، وكنت متزوجة من جرينليش ، وأعرف مستهترينا فى المدينة · لست ساذجة من أهل الريف · أريد أن أقول لك · ومسألة بابيت فى ذاتها وفى سياقها ما كانت لتطلق ساقى للريح ، صدقنى! بل المســألة هى ياتوماس أنه طفح بى الـكيل ٠٠٠ ولم يكن الكيل بحاجة الى شىء لأنه كان في الحقيقة مليئا ٠٠٠ مليئا من زمن طويل ٠٠٠ من زمن طويل!

كان خليقا أن يطفح من لاشيء ، فما بالك بهذا ! بمعرفتي أني ما كان يسعني أن أعتمد في هذه النقطة على بيرمانيدر ! لقد توج هذا كل شيء ! لقد أطار هذا قعر البرميل ، فأنضج تصميمي على الهرب من ميونيخ دفعة واحدة ، وظل هذا التصميم طويلا بسبيل النضوج ياتوم ، ذلك أني لا أستطيع العيش هناك في الجنوب ، لا أستطيع وأقسم على ذلك بالله وملائكته المقدسين ! انك لا تعرف ياتوماس كم كنت تعسة ، لأني أيضا عندما جئت للزيارة لم أدع شيئا يلحظ علي ، فأنا امرأة لبقة لا تضايق الغير بشكاواها ولا تحمل قلبها على لسانها في كل يوم من أيام الأسبوع ، تميل دائما الى الانطواء · لكنني عانيت ياتوم ، عانيت بكل شيء في · وكما يقولون : بكل شخصيتي · كنبتة - ولاستعمل هذا التشبيه - كزهرة غرست في تربة غريبة ، ··· وان كنت لا تستسيغ المقارنة لأني امرأة دميمة ··· لكنني ما كنت أستطيع أن أغرس في تربة أكثر غربة من هذه ولوددت أن أغرس في تركيا · انه أحرى بنا نحن أهل الشمال ألا نغترب أبدا ! كان أحرى بنا أن نبقى في جون بحرنا ونعيش بشرف ··· لقد كنتم أحيانا تسخرون من ايثاري طبقة النبلاء ··· أجل ، لقد طالما فكرت في هذه السنوات في بضع كلمات قالها لي أحد الناس من أمد طويل ، انسان هياب · قال : انك تعطفين على النبلاء ··· فهل أخبرك لماذا ؟ لأنك نفسك نبيلة ! فأبوك سيد عظيم وأنت أميرة · ان هوة تفصل بينك وبيننا نحن الآخرين الذين لا ننتمي الى دائرتك المؤلفة من الأسر ذات السيادة ··· ، نعم ياتوم ، اننا نشعر كما لو كنا نبلاء ، ونحس الفارق ، ولا ينبغي أن نحاول العيش حيث يجهلنا الناس ولا يفهمون أن يقدرونا ؛ ذلك أننا لن نجني من وراء ذلك سوى المهانة والذل ، وأن الناس سيجدوننا متغطرسين في صورة مضحكة · ان أحدا لم يقل لي ذلك ، لكنني كنت أشعر به في كل ساعة ، وكان أيضا سببا لألمي · ها ، في بلد يأكلون فيه الفطيرة بالسكين ويتكلم الأمراء ألمانية غير صحيحة ، ويلفت النظر كسلوك ينطوي على الحب أن يلتقط السيد للسيدة مروحتها ؛ في مثل هذا البلد يسهل على المرء أن يتغطرس ياتوم ! تأقلم ؟ كلا ، عند أناس لا كرامة لهم ، ولا أخلاق ، ولا طموح ، ولا وجاهة ؛ ولا صرامة ؛ عند أناس غير مهذبين ولا مؤدبين ، قذرين ، كسالى ، رعناء ، ثقيلي الظل ، وسطحيين في نفس الوقت ··· عند أمثال هؤلاء لايسعني أن أتأقلم ، ولن يسعني مادمت أختك ! لقد استطاعته ايفا ايفرز ··· حسن ! لكن بنتا من بنات ايفرز ليست كبنت من بنات بودنبروك ، ثم ان لها زوجها الذي يرجى منه في الحياة شيء من النفع · لكن كيف كان حالي أنا ؟ فكر ياتوماس ، ابدأ من الأول وتذكر ! لقد ذهبت الى هناك من هنا ، من هذا البيت ذي الشأن الذي يتحرك فيه المرء ويسعى الى هدف ، ذهبت الى بيرمانيدر الذي تقاعد لما أن حصل على بائنتي ··· ها ، كان هذا عملا أصيلا ذا دلالة حقا ، لكنه كان كل ماهنالك من شيء يسر · ثم ماذا ؟ ننتظر مولودا ! لكم سررت ! كان المولود خليقا أن يعوضني من كل شيء ! فماذا حدث ؟ يموت المولود · لم يكن هذاذنب

بيرمانيدر ، حاشا وكلا ، فقد فعل ما استطاع ، بل انه لم يذهب الى الحانة يومين أو ثلاثة أيام ، حاشا ، لكن الأمر كان يقتضى ذلك ياتوماس • فلم يجعلنى أسعد مما كنت• وهذا مايمكنك أن تراه • تحملته ولم أتذمر ، فأناوحيدة ، لايفهمنى أحد ، كلما سرت قيل متغطرسة ، فأقول لنفسى: لقد أبديت له رضاك وارتضيته زوجا مدى الحياة • انه سمج قليلا وكسول ، وقد خيب آمالك ، لكنه حسن النية ، نقى القلب • ثم يقدر لى أن أشهد هذا وأراه فى هذه اللحظة البغيضة • ثم شهدته : بهذا القدر يفهمنى ، وبهذا القدر يحترمنى أكثر مما يحترم الغير بحيث يشيعنى بكلمة ، كلمة لا يقذف بها أحد عمال مخازنك كلبا ! ثم رأيت أن شيئا لم يستبقنى ، وانه كان من العار أن أبقى ! كنت راكبة مرة من المحطة فى شارع هولستن فمر بى الحمال نيلسن وانحنى رافعا قبعته العالية فرددت تحيته غير متغطرسة ولكن كما كان أبى يحيى الناس ••• هكذا ••• باليد • والآن أنا هنا • وتستطيع أن تعد دستتين من الخيول ياتوم فلن تعيدنى الى ميونيخ • وغدا أذهب الى جيزيكه ! ــ »

كانت هذه هى الخطبة التى ألقتها تونى وارتمت بعدها على الكرسى منهوكة تقريبا تحتوى ذقنها فى يدها وتحملق فى زجاج النافذة •

وكان القنصل واقفا أمامها مذعورا ، مأخوذا ، مرجوجا تقريبا ، لا ينبس ببنة شفة • ثم تنفس الصعداء ورفع ذراعيـــه الى مستوى كتفيه ثم أرخاهما فوق فخذيه •

وقال بصوت خافت : « أجل ، لا فائدة ! » واستدار على عقبيه ، واتجه نحو الباب •

فتبعته بنفس التعبير الذى استقبلته به متألمة « مبوزة »
وسألته : « توم • هل أنت مستاء منى ؟ »

وكان ممسكا بأكرة الباب البيضاوية فأتى من اليد الأخرى بحركة نفى قائلا : « حاشا ! اطلاقا ! »

فمدت يدها نحوه وألقت رأسها فوق كتفها وقالت :
« تعال ياتوم ! ان أختك لا تحيا حياة سعيدة ــ فكل المصـائب تنزل بهـا ••• وليس لها فى هذه اللحظة من يقف بجانبها ••• »

فعاد وتنـــاول يدها ، من جنب ، مرهقـا ، لا يبدى اكتراثا كبيرا ولا ينظر اليها •

وبغتة بدأت شفتها العليا ترتعش ٠٠٠

وقالت : « أنت مضطر الآن أن تعمـــل وحدك ٠ مع كريســتيان لا فائدة ولا عائدة ، وأنا منتهية الآن ٠٠٠ منهارة ٠٠٠ لا أستطيع أن أؤدى شيئا ٠٠٠ نعم ، الآن لامندوحة لكم عن التصدق علي باللقمة ، أنـــا المرأة التى لا تنفع ٠ ما كنت أحسب أنى أعجز الى هذا الحد عن مساعدتك ياتوم ! فالآن علينا أن نحافظ نحن آل بودنبروك على اعتبارنا ٠٠٠ والله معك ٠ »

وجرت دمعتان كبيرتان صافيتان من دموع الأطفـــال على خديها اللذين بدأ اهابهما يبدى تجعدات خفيفة ٠

الفصل الحادى عشر

لم تخلد تونى الى الراحة • فقد تولت مسألتها • وقد طلب اليها القنصل فى تلك الآونة شيئا واحدا ، أملا منه فى أن تهدأ وترق ويتحول تفكيرها ، أن تظل صامتة وكذلك ايريكا ، ولا تغادر البيت • فقد تتحسن الأحوال وتجرى الأمور على ما يرام ••• يجب قبل كل شيء ألا تعلم المدينة شيئا • وقد ألغى اجتماع الأسرة فى يوم الخميس •

لكنه فى أول يوم لوصـول مدام بيرمانيـدر بعثت بخط يدها الى المحامى الدكتور جيزيكه برسالة تدعوه فيها الى موافاتها فى شارع منج • واستقبلته وحدها فى الغرفة الوسطى الواقعة على الطرقة بالطبقة الأولى حيث أوقد الموقد• وأعدت لأمر ما على المائدة الثقيلة محبرة وأدوات كتابة وكثيرا من الورق الأبيض من القطع الكبير جلبته من المكتب الكائن فى الطبقة السفلى • واتخذ الاثنـان مجلسهما فوق مقعدين ساندين •••

قالت شابكة ذراعيها ، طارحة رأسها الى الوراء ، رافعة بصرها الى السقف : « ياحضرة الدكتور ، انك رجل تعرف الحياة انسانا وصاحب مهنة ، فلى أن أصارحك القول ! » وأخذت تفاتحه بكل ما وقع مع بابيت وفى مخدع النـوم • ولم تكد تنتهى حتى أعرب لها الدكتور جيزيكه عن أسـفه لاضطراره أن يقول لها انه لا الحادث المكدر الذى وقع على السلم ولا السب المعين الذى وجه اليها والذى تأبى أن تصرح بتفاصيله بالذى يصلح سببا كافيا للطلاق •

قالت : « حسنا ، أشكرك • »

وسلمها مجملا للأسباب التى تبرر الطلاق فى نظر القانون ، واستمعت منه فى انتباه واهتمام بالغ الى محاضرة عن النصوص المفصلة المتعلقة بالبائنة ، ثم ودعت الدكتور جيزيكه مؤقتا ، متلطفة جادة •

ونزلت الى الطبقة الأرضية ودعت القنصل الى مكتبه الخاص •

قالت : « توماس ، أرجوك أن تكتب الى الرجل على الفور ••• انى لاأحب أن أذكر اسمه • ففيما يتعلق بالمال أعرف ماهنالك بالدقة ، فليفصح عن نفسه ،

بكذا أو كذا ، فلن يراني ثانية • فاذا وافق على الطلاق الشرعي فبها ونعمت • فنطالب بحساب البائنة وأدائها ، واذا رفض لم يحملنا هذا على اليأس ، فانه يجب أن تعلم ياتوم أن حق بيرمانيدر في بائنتي ملك له على كل حال وفقا للشكل القانوني ، وهذا مسلم به بالتأكيد ! ــ لكنني أحمد الله أن لي حقوقي أيضا من الوجهة المادية على كل حال ••• »

فطاف القنصل بالمكان ويداه على ظهره ، وجعل يحرك كتفيه حركة عصبية، ذلك أن الصورة التي كانت تنطق بها كلمة « بائنة » كانت بالغة الدلالة على الكبرياء •

ولم يكن عنده وقت ، فقد كان في الحق مرهقا ، وكان عليها أن تلوذ بالصبر وتتفضل بالتفكير خمسين مرة ! فانه يزمع الآن وغدا على التعيين أن يسافر الى هامبورج ويحضر اجتماعا ، ويجرى حديثا أليما مع كريستيان • فقد كتب اليه كريستيان يطلب مساعدة ومعونة تخصمها القنصلة من نصيبه المقبل في الميراث • فقد ساءت أحوال تجارته • ومع أنه عرضة على الدوام لطائفة من الشكاوى ، فانه يبدو أنه يتسلى وينفق عن سعة في المطعم والسيرك والمسرح ، ويتجاوز في عيشه ما يسمح به مركزه اذا نظرنا الى الديون التي علم الآن أمرها ، والتي أمكنه أن يستدينها معتمدا على ما لاسمه من حسن السمعة • وشارع منج يعرف والمنتدى والمدينة بأسرها يعرفان السبب في ذلك • امرأة وسيدة تقف وحدها ، تدعى الينا بوفوجل ، ولها طفلان جميلان • ولم يكن كريستيان بودنبروك من تجار هامبورج هو المتصل بها وحده بأوثق الصلات وأبهظها كلفة •

وبالايجاز قد كان هناك غير رغبات توني في الطلاق أمور بغيضة أخرى • وكان سفره الى هامبورج يقتضي العجلة • هذا الى أنه كان من الراجح أن يكتب بيرمانيدر من جانبه في القريب العاجل •••

وسافر القنصل وعاد من سفره مغضبا متكدرا • ولما لم يكن قد جاء من ميونيخ خبر بعد ، فقد ألفى نفسه مضطرا الى أن يخطو الخطوة الأولى • فكتب • كتب في جفاء وفي الموضوع ومن علٍ شيئا ما يقول : ان أنتونيا قد تعرضت في الحياة مع بيرمانيدر لخيبة أمل فادحة •••• وانها بغض النظر عن التفاصيل لم تجد على العموم ما أملته في هذا الزواج من سعادة ••• وان رغبتها أن ترى الرابطة مفصومة وهو ما يبدو وجه الحق فيه لكل ذي عينين ، وان قرارها بألا تعود الى ميونيج يلوح ثابتا مع الأسف ••• وتلا ذلك تساؤل عما يكون عليه مسلك بيرمانيدر حيال هذه الوقائع •••

وتقضت أيام مفعمة بالقلق ! ... ثم رد السيد بيرمانيدر .

رد كما لم يتوقع أحد ، لا الدكتور جيزيكه ولا القنصلة ولا توماس بل ولا أنتونيا ، وافق بعبارات بسيطة على الطلاق .

كتب يقول انه يأسف من قلبه لما حدث لكنه يحترم رغبات أنتونيا لأنه يرى أنها واياه لم يخلق أحدهما للآخر قط ، فاذا كان قد سبب لها سنين من المتاعب فلتحاول نسيانها والصفح عنه . واذا كان لن يراها أو يرى ايريكا فانه يتمنى لها وللطفلة على الدوام كل مايتصور من هناء .. ووقع ألوى بيرمانيدر ـ وقد عرض بجلاء فى حاشية الكتاب أن يرد البائنة فى الحال ، وقال انه يستطيع بما يملك أن يعيش عيشة راضية وأنه بغير حاجة الى مهلة ، لأن الأعمال ليست بحاجة الى تصفية والبيت بيته ومبلغ البائنة مما يمكنه أن يفرج عنه فى الحال .

وكاد الخجل يتولى تونى قليلا ، وأحست لأول مرة بميل الى أن تجد عدم تهالك بيرمانيدر على الأعمال المالية جديرا بالثناء .

وظهر الآن الدكتور جيزيكه من جديد يزاول مهنته ، فاتصل بالزوج فى شأن الاتفاق على مبرر للطلاق ، فاستقر الرأى على أن يكون كراهية من الجانبين لا سبيل الى التغلب عليها . وابتدأت القضية ـ قضية طلاق تونى الثانى التى تتبعت مراحلها فى جد ، ومعرفة فنية ، وهمة هائلة . فكانت تتكلم عنها أنى ذهبت وأينما حلت حتى أبدى القنصل استياءه مرارا . ولم يكن يسعها فى مبدأ الأمر أن تشاطره همه ، بل كانت منهمكة فى كلمات من قبيل : « ثمار » و « غلات » و « استيلاءات » و « مسائل بائنية » و « أموال يمكن التصرف فيها » كانت تلفظها بطلاقة وجد وهى مطرحة رأسها الى الوراء ورافعة كتفيها قليلا . وقد كان مما ترك فى نفسها أعمق الأثر من ايضاحات الدكتور جيزيكه مادة تناولت « كنزا » وجد فى قطعة أرض تتصل ببائنة ، ويعد جزءا من قيمة هذه البائنة ، فلما فصمت عرى الزوجية سلم هذا الكنز . وقد كانت تحدث الناس جميعا عن هذا الكنز الذى لم يوجد قط . حدثت ايدا يونجمان والخال يوستوس وكلوتيلده المسكينة وسيدات بودنبروك القاطنات فى الشارع العريض واللواتى ضربن الى هذا كفا بكف فى حجورهن لما بلغتهن الحوادث ، ونظرت كل منهن الى البقية يحملقن من الدهشة ويتوقعن أن تكون لهن هذه الترضية يوما ما ... ثم لتيريزه فشبروت التى كانت ايريكا جرينليش تنعم اذ ذاك بتدريسها كرة أخرى ، بل لمدام كيتلسن الطيبة التى لم تفهم شيئا من هذا الأمر لأكثر من سبب ...

ثم جاء اليوم الذى صدر فيه الحكم بالطلاق نهائيا وفق القانون والذى أنهت

فيه تونى آخر شكل ضرورى من أشكال الرسميات ، فرجت توماس اعطـــاءها سجل الأسرة ودونت فيه الواقعة الجديدة بخط يدها ٠٠ والآن حق عليها أن تعتاد حالتها ٠

وقد اعتادتها بشجاعة فكانت تتغاضى فى وقار لا يمس تلك الوإخزات الصغيرة المليئة بسوء النية بصورة عجيبة والتى كانت تصدر عن سـيدات بودنبروك وتتجاهل فى برود ينبو عن الوصف رءوس آل هاجنشتروم وولندورف كلمـــا لقيتهم فى الطريق ، واستغنت كل الاستغناء عن حياة المجتمع التى انقطعت منذ سنوات من بيت أبويها ، وتحولت الى بيت أخيها ٠ وقد بقى لها أهلها الأقربون: القنصلة وتوماس وجيردا ، وايدا يونجمان وزيزيمى فشـــبروت صديقتهـــا المتحلية بعاطفة الأمومة ، وايريكا التى عنيت بتعليمها الراقى والتى لعلها وضعت فى مستقبلها آخر مايحدوها من آمال خفية ٠٠٠ على هذا النحو كانت تعيش ، وعلى هذا المنوال كان الوقت يمر ٠

وفى وقت تال وبصورة ما لم تنجل بعد ، عرف بعض أفراد الأسرة الـكلمة الهائلة التى أفلتت فى تلك الليلة من السيد بيرمانيدر ٠ فماذا قال ؟ قال : الى الشيطان أيتها الجيفة المتعفنة !

هكذا ختمت تونى بودنبروك زواجها الثانى ٠


Bibliotheca Alexandrina
0409833